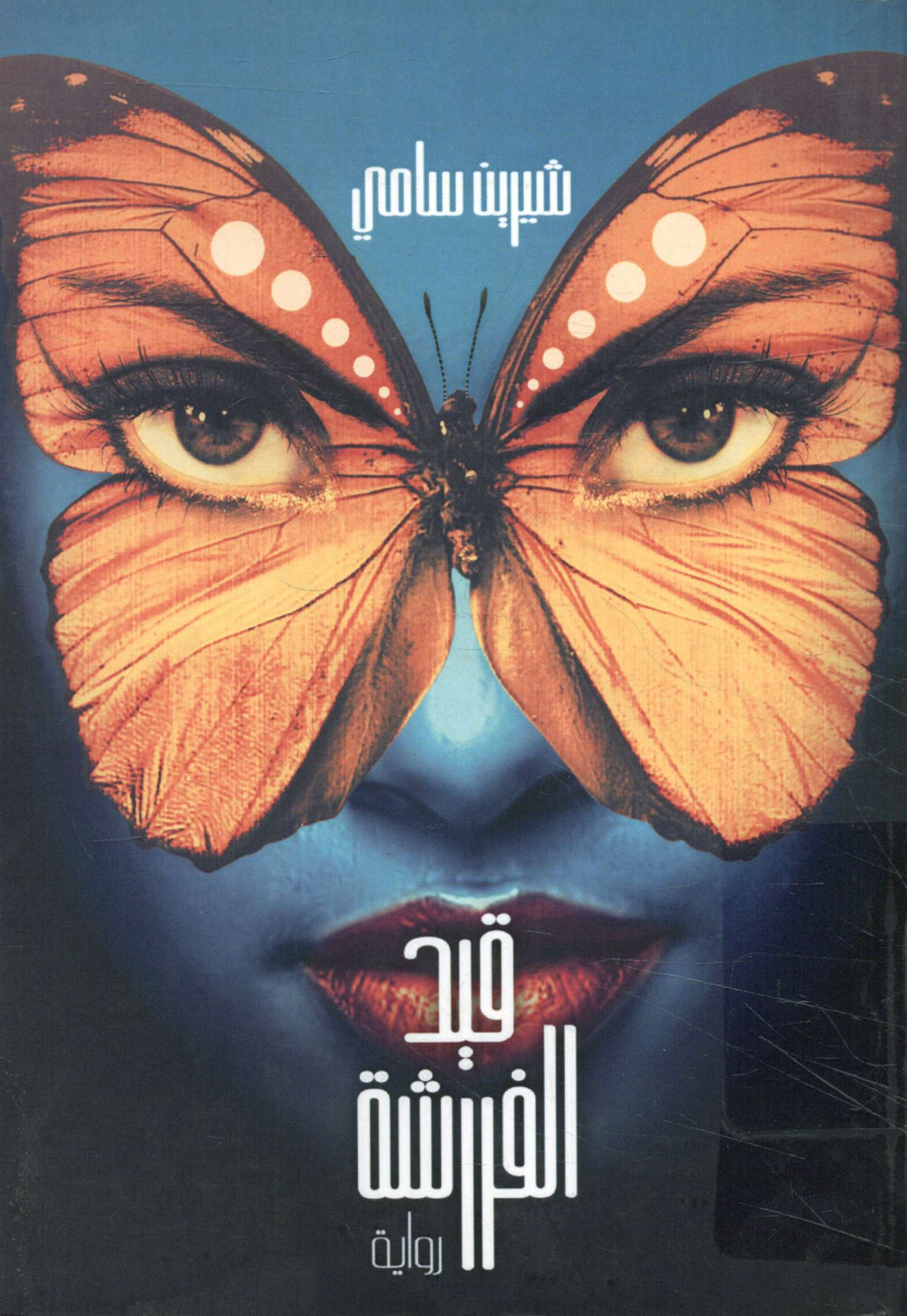
شيرين سامي
قيد
الفراشة
رواية

شيرين سامي

قيد الفراشة

أخيرًا تمردتُ.. ألقيتُ حذائي العالي ومشيتُ حافية، استبدلتُ بفستاني الأبيض آخر أحمر، وبشعري المُهذّب آخر غجري، رسمتُ عينيّ بكحل فاحم، نحّيتُ براءتي، نزعتُ الاحترام المبالغ فيه من عباراتي، وضعتُ بمعصمي العديد من الأساور يغطي صوت صليلها صوت بكاء طفلتي الحمقاء، وغادرتُ أرضي الساذجة، مشيتُ بسعادة في الأسواق، ترددتُ على المقاهي ومشطتُ الشوارع بحثًا عن ذاتي، رقص قلبي فرحًا بحياة الصعاليك التي طالما نشدها وبحُرّية دبت بين أوصاله.

كانت القيود تحُدّ عالية من كل جانب، عاشت ك[illegible] هويّة تجعل منها إنسانة دون جدوى، حتى كان[illegible] التي جعلت التمرُّد القابع في أعماقها يتحرك و[illegible] أخرى وطُرق لم تطأها من قبل، وكان لابد [illegible] شرنقتها حتى وإن فسد الحرير الذي دأبت عل[illegible] به الجميع إيّاها، كان لابد لها أن تتحوّل لفرا[illegible] جناحيها وتطير، حتى وهي تعرف أن أعمار ال[illegible] تمامًا مثل أعمار انتصاراتها.

رواية

ISBN 9789776436374

9 789776 436374

للنشر والتوزيع

لتحميل المزيد من الكتب
تفضلوا بزيارة موقعنا
www.books4arab.me

قيد الفراشة

الكتاب : قيد الفراشة

المؤلف : شيرين سامي

تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف

تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع : 2013/21915

الترقيم الدولي : 978-977-6436-37-4

الطبعه الاولي : 2014

20 عمارات منتصر – الهرم – الجيزة

ت-35860372-02   27772007-011

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

قيد الفراشة

رواية لـ

شيرين سامي

ن
للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى من منحني اليقين واصطبر على

جنوني وشغفي

إلى زوجي

استهلال

أنا الأميرة التي لم يحلم أن يقترب منها بشر

وأنا فتاة الطين التي تمرح بين الجميع تهزأ منهم وتهذي معهم

أنا ربّة المنزل الوقور التي تدعو للرتابة

وأنا المُختلّة التي تغويك حتى الثمالة

أنا الجنّية التي تمتطي همجيتك

وأنا الإنسيّة المذهولة من جموحك

أنا المزهوّة بنفسي وأنا المحتقرة لها.

أنا التي تورّطت وتهوّرت وطارت للقمم

وأنا من ارتدّت وخافت وقتلت نفسها من الندم

أنا الأنيقة التي تُلوّن أظافرها وتمسح حذاءها كل دقيقة

وأنا الغجرية التي لا تعرف الماشطة وترسم عينيها بالكحل الفاحم

أنا الحُلم الذي لم تتخيل أن تحلمه يومًا

وأنا الواقع الذي لم تعرف كيف تعيشه أبدًا

أنا القطة التي تتمسح فيك وتنام بأمان تحت قدميك

وتُظهر مخالبها لتدافع عنك وعنها

وأنا الحمامة المذبوحة التي ترقص بوهن فوق دمائها

والقاتل يترقب في صمت

أنا عاشقة الهروب منك

وأنا المتسللة إليك

أنا التي تعترف لك بأريحية كقبطية في معبدها

وأنا التي تكذب عليك كطفلة أمام أبيها

أنا الابنة المُدللة التي تداعبك

وأنا الأم المتفهمة التي تعذُرك

أنا التي تُسامحك

وأنا التي أبدًا لن تعود لك

أنا التي تُحدثك في اليوم مائة مرة

وأنا التي لن تجاوبك بعد اليوم

أنا التي أرسلت رسائل العشق السّرية

وأنا من استقبلت رسائل الألم العلنية

أنا الحبلى بالوجع وتبتسم

وأنا العاقر التي لن تُنجب الفرح، وأيضًا تبتسم

أنا التي لم تعترف باليأس أبدًا

وأنا الانهزام النائم باستسلام على الأرض في زاوية الغُرفة

أنا التي تملكها للأبد بكلمة صادقة

وأنا التي تخسرها للأبد بتصرف أحمق

أنا العبدة لشطحات الجنون وشذرات الهوى

وأنا سيدة نفسي وصاحبة المنطق

نعم أنا، أنا، أنا الأنانية التي تُحب نفسها واعتبرتك نفسها

فوقعت في غرامها

أنا آخر صفحات عِشقك

إن أردت أن تنساني لا تُمشّط الدروب بعدي

وابحث في دفاترك القديمة

فأنت كنت أول عُشّاقي

وأنا سأبقى آخر عشيقاتك

الشارع يكاد يكون خاليًا إلا من بعض المارة والشمس طيبة تنثر حبات النور برفق على الكون، على الرصيف بين حارتي الطريق رأت نفسها تسير بفُستان أحمر واسع يصل تمامًا فوق رُكبيتها، مزموم على خصرها، عاري الصدر، قصير الأكمام يُبرز مفاتنها على استحياء وبراءة، وشعرها شلال كستنائي غجري يتدافع على كتفها وظهرها، تخطو بِسرعة وحماس أليس ورشاقة سِندريلا، حذاؤها ذو الكعب العالي يُصدِر إيقاعًا موسيقيًا مميزًا مع كل خطوة، عيناها تبرقان بِشُعاع الجاذبية ولمعة الثقة.. لا تهتم بنظرات البشر وعيونهم التي تُلاحقها.. ولا تكترث بشيء سوى السير في طريقها، نظرتها ثابتة وخطواتها مُصرّة على شيء ما، لكن طريقها أفضى إلى مكان أكثر ازدحامًا تحُدّه الأسواق المُتخمة بالناس والمقاهي التي تعلوها سحابات الدُخّان الأبيض والأزرق، هناك رأت أُناس يغنون أهازيج لا تعرفها، يرقصون في الطريق والبعض ينفخون النار من أفواههم، يركضون حولها في كل اتجاه، كأنهم في مولد، انتبهوا جميعًا لمرورها فحدّجوها بنظراتهم المُستهجنة، حاولت أن تتحدث معهم فوجدت أن لغتها غير لغتهم، ازداد توترها وتصبب العرق من جبينها الناصع حتى ظهر هذا الغريب ذو العينين القويتين، نظر لها نظرات أحدّ من النصل،

أمسكها من يدها فصمت الصخب من حولهما وارتدع الناس عنها، عشِقت نظراته الثاقبة التي اخترقت روحها ونزعت الظلام الذي كان يُخيفها من البشر، مازالت لا تُشبِههم لكنها سعيدة بينهم لأنها بِرفقة هذا الغريب الذي رفعها لتسير معه فوق الأرض بشبرين، يتفقّدا كل شيء وينسابا في الحارات والشوارع كمراهقين، لكن ما لبث أن أفلت يدها وهي أقرب ما تكون إليه، فسقطت، لكنها لم تسقط شبرين إنّما سقطت سقوطًا مُذهِلاً من فوق السحاب على الأرض، صرخت فلم تسمع صوتها، كأنه احتفظ به قبل أن يُفلتها، طار فُستانها في الهواء، أصبحت عارية كورقة شجر تحملها الرياح، تُمطِر البكاء كسحابة مُحمّلة بالدموع، كانت تتضرع إلى الله بِعُريّها وبكمها أن ينتهي كل شيء وأن تعود الفتاة الواثقة بالفستان الأحمر.. تسير ونظرتها ثابتة وخطواتها مُصِرّة على شيء ما.

وقفت في الشبّاك صديقها الودود الذي قضت عليه أكثر من نصف عمرها، كانت وهي صغيرة ترقب الشارع منه تنتظر عودة والديها من العمل، وكبرت لتقف فيه تُناجي القمر وتُمارس هوايتها الليلية في عدّ النجوم، كان مِنبر أحلامها وملاذها عند الضيق، لا تبكي إلا على ذراعه الحنون، وتشعر بعطف الخشب عليها وطبطبته على كتفها، مرت بها أيام وليالٍ تنتظر بها ساعات طويلة ظهور هذا الشاب الذي كان يبتسم لها ويبعث لها رسائل الغرام بعينيه، ثم كبرت وأصبحت تنتظر فيها خطيبها، تُسلّي نفسها بعدّ السيارات إلى أن تظهر سيارته كفرس أزرق أصيل يُطل منها هو كفارس نبيل يُحيي محبوبته ببوق السيارة فيُثير سعادتها وينتزع

ضحكتها بسهولة، وهاهي الآن لازالت تنتظر في شبّاك آخر في بيتٍ آخر شاهد منها الدموع، المُناجاة، الشوق، الغناء، السرحان، الملل، الضجر، حتى أصبح صديقًا جديدًا لها.

عندما تختلي بنفسها وتغرق في خيالها الجميل، تراها بهذه الصورة بالفستان الأحمر كحلم يقظة لا تعرف معناه، ولكنه يراودها كلما طالعت شارعًا أو طريقًا وتبتسم له بمرارة، فهي لن تكون أبدًا هذه المُختالة المُتحررة، ولن يتغير عالمها مهما حدث، ولن تسقط لأنها ليس مسموحًا لها بأن تُجازِف وتطير. نظرت للقمر الذي بات هلالاً وحاولت بكل ما فيها أن تكون سعيدة هذه الليلة بالذات، فكم كانت تُمثل لها ليلة العيد دائمًا الأمل في حدوث شيء جديد، على غير العادة تقضيها هذا العام وحيدة، كانت تقضيها من قبل بين أهلها في حضنهم الدافئ، لا تنام من شدة الفرحة والتعب من مساعدة أمها في تنظيف السجاجيد وتعليق الستائر، ثم بدأت تقضيها في زيارة قصيرة لهم تتلوها زيارة لأهل زوجها وقد التزمت بالبروتوكولات العائلية والابتسامات المرسومة بدقّة، والتي لا تدُل على شيء سوى فرحة العيد، ثم أصبحت لليلة العيد فرحة لسبب آخر، وهو الانتهاء من عِبء المطبخ وإعداد الأطعمة والمشروبات المضاعفة في رمضان، أمّا الآن هي تقضيها وحيدة لأول مرة لأن زوجها في العمل ويخاف عليها أن تخرج للحياة وحدها بدونه.

في ليلة عيد عرفته، في أجازة صيفية على أحد شواطئ البحر الأحمر، كان حدثًا قويًا في حياتها أن يُعجب بها رجل مثله في دماثته، جاذبيته ورجولته

التي استشعرتها بقلب فتاة لم تُكمل عامها العشرين وهو رجل تعدى الثلاثين بقليل، الموضوع كان منتهي بالنسبة له، يُعاملها من أول لحظة وكأنها له لا محال، أُغرمت بأسلوبه وثقته، تفتّحت بين يديه كزهرة جميلة، عرفت معه الحياة التي لم تعرفها قبله، وكانت تظن الحياة هي البيت والنادي والجامعة، حتى وجدته يفتح لها أبوابًا أخرى أكثر متعة وإغراءً في الحياة، فأصبحت مُرتبطة به، مُتكلة عليه، مُنصهرة في شخصه كأنها خُلِقت من ضِلعه، اندفعت في حبه بكل ما فيها كطائر يُحلّق في سماء صافية ليس باستطاعة بشر أن يوقفه، وأصبح هو لها الدنيا، حتى إنها كانت تُنادي أهلها وأصدقاءها باسمه، وتُقبّل خاتمها الذهبي الذي يحمل حروفه كل يوم، عرفت من وقتها أن العيد دائمًا سيحمل لها الكثير من المفاجآت.

وصلت مروة صديقتها الوحيدة وجارتها في المنزل المجاور، في مدينة القاهرة الجديدة الهادئة الواسعة تُعتبر جارة منطلقة وحلوة المعشر مثل مروة كنزًا ونعمة كبيرة، كانت تكبرها بأعوام قليلة، فتاة تنطق القوة فيها من شخصها ومن جسدها وعينيها، شارِدة بعض الشيء كأنها تحتفظ بسرّ في قلبها ولا تنفث شكواها وحزنها فيمن حولها، لذلك أحبّتها عالية وفضلتها على صديقاتها القدامى، الهدوء يلف المدينة ولا مظاهر للعيد سوى شاشة التليفزيون الصغيرة التي تغنّي به، بعكس هذا الصخب الذي اعتادت عليه في صباها من مُعايدات الأهل والجيران وصوت المُفرقعات والأغاني، ولعب الأطفال على الدرج وأمام البيوت، أمّا الآن

فعيدها هو اجترار الذكريات أمام شاشة التليفزيون، تابعا بشغف حتى أعلن المفتي أن اليوم هو المُتمم لشهر رمضان وأن غدًا هو أول أيام عيد الفطر المُبارك، نسمة من الفرحة تسللت لكل القلوب عند هذه اللحظة أرغمت الجميع على الفرحة بالعيد ولو لدقائق يعودوا بعدها مرة أُخرى لدوامة الحياة وأحزانهم وعذاباتهم، في هذه اللحظة السعيدة لمعت عينا مروة وقد دارت بذهنها فكرة:

ماذا لو خرجنا؟

صمتت عالية بحيرة وتردد، فهي لم تعتد منذ زواجها أن تخرج بدونه، هو من عوّدها على هذا ويغضب دائمًا عندما تُلمّح أنها ستخرج وحدها لأي سبب، مروة اتصلت بزوجها حسام بالفعل وأخبرته بنبأ "الخروجة"، أما هي ففشلت أن تُبلّغ زوجها محمود لأن خطوط الهواتف المحمولة أصابها الشلل نتيجة كثافة الاتصالات والتهاني، إلحاح مروة ورغبتها الدفينه في الخروج والتمرد الذي يشبه تمرد طفل على أبيه، جعلاها توافق على الخروج بشرط أن يعودا مُبكّرًا، تمردت عالية.. فالتمرُّد عادة نوع من غرور الضعفاء.

مروة لم تكن فتاة قليلة الحيلة مثل صديقتها، انطلقت تقود سيارتها بسعادة وهي تترنم بإحدى الأُغنيات وتتمايل، تُغنّي، وتدُقّ بإيقاع مُنتظم على عجلة القيادة، مما أدخل الكثير من الفرحة على قلب عالية التي كانت تجلس جوارها في ذهول، فقد نسيت كيف هو الخروج مع

الأصدقاء، أعوام عديدة وهي لا تستقِلّ سوى سيارته، تجلس جواره يتبادلان الصمت والشرود مع خلفية باهته لأغاني الراديو المُتشابهة، حتى كريم ابنها ومَلَك ابنة مروة كانا يحدقان في الشوارع من وراء زجاج السيارة في بهجة تملكت الجميع.

لم تتخلص عالية بعد من قلقها، تُطالع هاتفها كل دقيقة ومازالت الشبكة لا تعمل، راحت تسأل مروة بتوتر واضح عن وجهتهما..

- مركز تُجاري جديد يحوي ملاهٍ للأطفال ودكاكين ملابس للماركات العالمية.

كررت مخاوفها من التأخير عدة مرات ولم تجد من صديقتها إلا التجاهل فلاذت بالصمت، وطارت بخيالها لذكرياتها البعيدة أيام الكلية، أيام الصداقة والحب، الدفء الأسري والحنان المتدفق بعذوبة، أيام العشق الملتهب بينها وبين محمود، قبل أن تخمد النار وتتحول لنور صغير بالكاد يُضيء حياتهما، الأغاني كانت تُداعب مشاعرها وتُذكّرها بالفتاة داخلها بعد أن نسيتها في خضم زخم الحياة وانغماسها في دورها كزوجة وأم وفقط، مضى وقت لم تُقدّره حتى وقفت السيارة أمام مركز تُجاري كبير شديد الضخامة والأناقة، طالعته باندهاش فهي لم تتخيل وجود مبنى بهذا المعمار الحديث الأنيق في مصر، حياتها كلها كانت بين البيوت، بيتها، بيت والدتها وبيت حماتها، ونادي قريب يسمح لها زوجها بالذهاب إليه من أجل الصغير.

كانت تتجول في المكان كسجينة تم الإفراج عنها توًا، كم سمعت عن المراكز التُجارية الجديدة وطلبت من محمود زيارتها لكنه كان يتهرب من طلبها دائمًا، بالتجاهل تارة وبالاستخفاف به تارة أخرى، كانت تُفكِّر في محمود دائمًا بطريقة مَرَضيّة كأنهُ يسكُن كل خلاياها، ليس حبًا فيه فقط لكن رضوخًا له كأنه مُستعمرها، كلامه دائمًا كان يملأ أذنها وعقلها، أفكاره تُسيطر على أفكارها، آراؤه تسحق آراءها، وحضوره يغلبها وكأنه يُلاعب كل مشاعرها كعرائس الماريونيت.

انطلق الأطفال نحو بهرجة الملاهي التي احتلت نصف المكان، كانت تسير معهم مبهورة وصامتة كأنها مُسيّرة، حتى أمسكتها صديقتها من يدها وقالت ضاحكة:

- إلى أين يا صغيرتي؟ لقد كبرتِ على الملاهي.. هناك "كافية" قريب يمكننا الجلوس فيه.

- وهل سنترك الطفلين وحدهما؟ إنهما صغيران!

- أنتِ الصغيرة يا عالية.. تحرري قليلاً من طفولتك، إنهما أنصح منك على كل حال.

صمتت باستسلام، فالطفولة هي الصفة التي ينعتها بها دائمًا، يمقتها، ويتمنى أن يئد تلك الطفلة فيها التي أحبها يومًا ما، دخلا المقهى المزدحم واستقبلتهما رائحة القهوة في حفاوة، أصوات البشر وضجيجهم مبالغ

فيه، مرت بنظرها على الموائد الصغيرة المكتظّة حتى وقعت عيناها عليه، إنه هو محمود زوجها، لا تدري إن كان قلبها توقف أم خُطف فلم يعُد بمكانه، سينهرها بالتأكيد على قدومها هنا دون إذنه، سيوبخها ويُعاقبها بكل تأكيد، ولكن من هذه المرأة جواره؟! إنه يُحدّثها في عينيها كأيامهما الأولى، يُمسك بيدها وكأنها إحدى ممتلكاته، مَفاتيحه أو نظارته، إنه لن ينتبه لوجودها أبدًا فكل ما فيه في حديث متصل مع كل ما في هذه المرأة..

وكأن يدًا خفية انتزعت قلبها من مكانه وألقت به على الأرض، لم تدرِ بنفسها إلا وهي داخل دورة المياة الخاصة بالمقهى، لا تعرف كيف قادتها قدماها إليها وبأي سرعة، ولا تدري كيف تيقنت مكانها دون وعي منها، جلست على كرسي صغير مخصص للرضاعة، أخفت وجهها بيدها ونزفت دموعًا ليس لها نهاية، دخلت مروة مسرعة خلفها وراحت تضمها بحنان امرأة على امرأة، وهو نوع غريب من الحنان ليس في رِقة حنان الأم لابنها وليس في دفء حنان المرأة للرجل، ولكنه حنان قوي يشُد على القلب ويربُت عليه بصدق، حاولت أن تُساعدها على النهوض، لكن عالية لم تقوَ على أن تُفكِّر فقد تجرّدت من كل قواها وحواسها، شعرت مروة بالدوار الذي يُسيطر على صديقتها، أشفقت على ضعفها فتركتها حتى تنتهي نوبة الفزع والحزن التي تملكتها، لم تلحظ عالية هذه المرأة التي كانت تُجالس زوجها وهي تدخل عليهم دورة المياة، تُصفف شعرها الأسود بيدها وتضع المزيد من مُلمع الشفاه، ثم تنتبه على صوت بُكاء عالٍ يصدر

من امرأة صغيرة تجلس في ضعف كامل، أفاقت عالية على صوت المرأة وهي تسألها بقلق:

- ماذا بكِ؟ ماذا هناك يا حبيبتي؟

نظرت لها من وراء دموعها وعرفتها، قالت ساخرة بداخلها "حبيبتك.. أم زوجة حبيبك؟".. لم يُذهلها أن تجد هذه المرأة بالذات هنا، تراها في هذه الحالة وتسألها عن حالها، فصدمتها كانت أكبر من أي ذهول، مدّت المرأة يدها لعالية ببعض المناديل الورقية التي أخرجتها من حقيبتها، ووجهت سؤالها هذه المرة لمروة:

- ماذا حدث من أجل كل هذا؟ ماذا يستحق كل هذا؟

وقبل أن تردّ مروة قالت عالية بثبات ونحيب مُرّ:

- مات زوجي..

ربتت المرأة على كتف عالية وفي عينيها صدمة وحزن كأنها تعرفها من قبل:

- أنا آسفة.. لابد أنك عرفتِ الخبر الآن.. البقاء لله والصبر لكِ حبيبتي.

اندهشت عالية من إصرارها على مُناداتها بحبيبتي، إنها تعلم أنها عادة بين الصديقات ولكنها ليست عادة بين الأغراب، تمتمت بكلمات شُكر غير

مسموعة، مدّت المرأة يدها في حقيبتها مرة أخرى وأخرجت بطاقة صغيرة مُلوّنة بشكل مُبهج وذوق راقٍ، ومكتوب عليها (فرح بيوتي سنتر).

طلبت منها أن تزورها عندما تسمح الظروف وربتت على كتفها مرة أخرى ثم ودعتها، تركتها وقد جفت دموع ضعفها.. ربما للأبد.

الطريق شبه مظلم، قلبها يخفق في اضطراب وخطواتها تتسارع في خوف، لقد تأخر الدرس وعليها أن تعود وحدها، لكن اضطرابها زاد بشدة عندما ظهر هذا الفتى الذي اعتاد أن يُرافقها من بعيد من وقت خروجها من المركز حتى تصل للبيت، وبرغم تأخرها نصف ساعة إلا أنه كان في الانتظار، رمقته بنظرة سلام خجل واطمأن قلبها بتواجده القريب، لكنه اليوم اقترب أكثر حتى أصبحت تسمع خطواته بوضوح، ودون مُقدمات ناداها "آنسة عالية"، تسمّرت للحظات قبل أن تُدير وجهها له ولأول مرة تُلاحظ وجهه الأسمر دقيق الملامح وظلاً من شارب يستدير حول فمه، لم تنطق.

- هل تسمحي لي بأن نتحدث لخمس دقائق؟

بصوت مُختنق: لا.

- أنا في مدرسة الضرير في السنة النهائية و..

- هذا لا يعنيني.

- حسبت أنكِ..

- أنت مُخطئ.. أنا لا أُريد التحدث إليك.

لفّت بسرعة وهرولت وهي تسمعه يقول بنبرة معاتبة "أنا معجب بك.. كنتِ تنظرين لي أيضًا!" ، لم تتوقف، استمرت في الهرولة حتى وصلت البيت في حالة مزرية من "اللخبطة" ، أغلقت باب غرفتها واستلقت على سريرها، صدرها يعلو وينخفض بشدة، تتذكر وجهه فتبتسم، تتذكر كلماته "أنا معجب بك" فينتفض قلبها في سعادة، هي أيضًا كانت تتمنى أن تتحدث معه لولا محاذيرها الكثيرة وتربيتها المُحكمة التي لم تترك لها ثغرة لتخرج عن تقاليدها، فهي تسير في حياتها كالقطار على قضيب من صُنع أهلها في اتجاهات يُحددها المجتمع والناس، أدارت شريط كاسيت وراحت ترقص لساعة كاملة فرحة، خائفة، حزينة، قلقة.

حتى وقفت أمام المرآة تتفحص جسدها وربما لأول مرة تتعرى أمام المرآة، وتلاحظ الانتفاخ الصغير الذي طرأ على نهدها فاستوى كحبات البرتقال السُكّري الصغير، والالتفاف الغريب الذي لفّ جسدها، فخصرها يكاد ينثني من نحافته التي تنتهي بانتفاخ آخر أكبر، لأول مره تُفكّر في جسدها وتنشغل به، تلمسه برهبة وكأنه شيء مقدس، تُفكّر في مواطن جماله واستدارته، وفي أي مشدّ صدر سيُناسبها أكثر، لم تكن تُريد أن تُخفيه وتضغط عليه مثل بعض الفتيات الخجولات في سنها، ولا كانت تُريد أن تُظهر بروزه مثل البعض الآخر من الفتيات، فقط كانت

تُريد أن تشعر بأن الأنوثة زارتها وتركت هداياها الثمينة على جسدها، لكن أمها قطعت عليها هذا التأمُّل عندما دقت الباب عدة مرات ثم طلبت منها لسبب لم تفهمه ألا تغلق باب غرفتها عليها أبدًا.

ولأنها كانت تظُنّ أنها صديقة لأمها حكت لها عن هذا الشاب، كانت تتمنى بداخلها أن تجد بارقة أمل أن حديثها معه لن يضر، أو أنه كانت هناك طريقة أخرى للرد عليه، كانت تتمنى أن تسألها أمها عنه أو حتى أن تسمع منها حواديت عن قصص مُشابهة تقودها للتصرف السليم، ولكن ما حدث كان عكس توقعاتها تمامًا، ثارت أمها ووصفتها بال (ممرقعة) خاصة بعد أن وجدت كلمات لنزار قباني كانت تحتفظ بها في كراسة تُخفيها في خزانة الملابس، من يومها أصبحت تذهب للمركز في صُحبة والدتها ثم يأتي والدها ليصطحبها في طريق العودة، لم يظهر الشاب مره أخرى، ومثل كل قصصها الصغيرة، انتهت قصته قبل أن تبدأ.

*****

على العكس من حالتهم عند الذهاب؛ كان طريق العودة طويلاً. الطفلان نائمان مُنهكان من كثرة اللعب، مروة تقود السيارة بسرعة وهي صامتة، أمّا عالية فكانت تنظر من الزجاج الجانبي على الطريق دون أن ترى شيئًا. قطعت مروة صمتهم المجروح بمحاولة لإشاعة المرح:

- أظنك لن تنسي هذه الليلة.. إنها أول ليلة عيد تقضيها في الحمّام.. وأقضيها أنا وحدي مع الشيطانين الصغيرين.

ردت عالية بوهن: وماذا كان عليّ أن أفعل؟

- كان لابد أن نستكمل نزهتنا.. كان يجب أن تتجاهلي الموقف ونجلس سويًا في المقهى.

- كان سيراني..

- كان يجب أن يراكِ حتى لا يُنكر عندما تواجهينه.

- ومن قال أني سأواجهه؟

صرخت بها مروة: يجب أن تواجهيه.. كفاك ضعفًا!

لم ترد عالية، فلم تكن تلك هي المرة الأولى التي يُقال عنها إنها ضعيفة، ولم تكن مروة فقط من قالتها، فخاصة بعد زواجها كانت هذه هي الصفة المُعتاد نعتها بها، من زوجها، من والدتها، من أخيها، من قريباتها، ولم تكن تُغضبها الكلمة، فكانت ترى أنها مُطيعة لزوجها ومُصرّة على إرضائه عن حب وليس عن ضعف، لكن اختيارها الآن لعدم مواجهته، ليس لأنها ستُسامحه أو تعذره أو ستتجاهل ما حدث، لكن لأنها لا تقوى على سماع كذبه وإنكاره، فهو بارع في جعلها الجاني وهو المجني عليه، ناهيك عن أنها قليلة الكلام ولا تملك موهبة الحوار، أما هو فهذه موهبته الحقيقية، ثم إنها تُفكّر في مواجهة من نوع آخر..

عادت للمنزل وكل شيء عاد لطبيعته، لم تبكِ من يومها أبدًا على عكس عادتها البكّاءة، حتى إنها أحيانًا كانت تستحث نفسها على البكاء حتى ترتاح لكن الدموع فقدت طريقها لعينيها أو كأنها قررت ألا تزورها أبدًا، فكانت تضحك بلا روح وتبتسم بدون مناسبة فقط لتُداري ما يعتلج في صدرها ولتتجنب أن يسألها أحدهم (مالك؟)، ولكنها كانت حريصة على ألا تنظر في عينيه، وألا تتجاوب مع أي لمسة أو تلميح منه، وهو لم يهتم ولم يلحظ كعادته فهو لا يُلاحظ أي تغيير في مزاجها، لم يُلاحظ أيضًا لون شعرها عندما صبغته ولم يُلاحظ قطع الملابس الجديدة التي كانت ترتديها، ولم يُلاحظ شحوبها عندما كانت تُعاني من التهابات نسائيه مؤرّقة وأخفت عليه الأمر، فكيف يُلاحظ الآن أنها بلا روح، أو ربما لاحظ

وتجاهل الموضوع برمّته تجنبًا للمشاكل، واستمر في غيابه عن المنزل، طبيعته الحادة، أوامره، نواهيه، وصُراخه المستمر.

مرّ أسبوعان على أسوأ ليلة عيد مرت بها، كانت تقضي معظم وقتها بدون تركيز وبلا عقل، عقلها كان مُسخّرًا للتفكير في هذا الرجل الذي طالما شغلها واحتل كل بقاعها، كانت تفكّر فيه بشكل مختلف، بشكل حزين، بفعل الماضي.. كان.. وكأنه غاب عن حاضرها وسقط عن مستقبلها، هو مجرد.. كان.. شغلتها العديد من التساؤلات، ليست التساؤلات العادية، لماذا؟ ومتى؟ ومع من؟ ولكنها كانت تسأل نفسها.. ماذا يستحق من فعل هذا بي؟ وكيف أفسد حياته كما أفسد حياتي؟ وكيف أكون سعيدة بدونه؟، شرعت الإجابات تتضح عندما قررت أن تبدأ في المواجهة، وعلى غير عادتها المترددة، الجبانة تجاه كل ما هو جديد، وعلى غير طريقتها التقليدية في السير والنوم والحياة جوار أقرب حائط، وجدت بداخل نفسها بؤرة من الجُرأة لم تكن تدري بوجودها، فوجئت بها مروة عندما طلبت منها عالية أن تُرافقها في الذهاب إلى "فرح بيوتي سنتر" في مدينةالسادس من أكتوبر، وافقت فورًا ليس فقط تعاطفًا مع صديقتها ولكن لطبيعة الفضول في المرأة، فحياة مروة المملة تجعلها تشتاق لمعرفة تفاصيل أكثر ومواجهة مواقف أغرب، وهذا لا يتنافى مع مشاعرها الصادقه تجاه صديقتها ورغبتها الحقيقية في الوقوف جوارها.

استقلتا سيارة مروة وانطلقتا في طريق المواجهة، عالية كانت تَعِبة وملامحها مرهقه، فهي لم تنم من شدة التفكير في غريمتها، تتساءل أي

نوع من النساء هي، طريقتها تقول إنها جريئة، لكن هل هي جُرأة حميدة كنوع من الاجتماعية الزائدة، أم أنها جُرأة وقِحة تندرج تحت أنواع السفالة، الأسئلة حاصرتها طوال الليل فلم تترك للجفون فُرصة للاسترخاء، وصلتا للمكان بعد وقت طويل قضتاه على الطريق، وهناك كانت.. فرح، لم يستعصِ عليها تذكّرهُما، استقبلتهما بحفاوة كبيرة وكثير من القبلات والابتسامات، كانت فَرحة ومشرقه، وكانت هذه طبيعتها، الضحك، المداعبة، عدم التكلُّف والتحدُث دون انقطاع، على العكس منها، فهي مُتحفّظه إلى حد كبير ولا تعتاد على الناس بسهولة، كان الحوار بينهما دافئًا، فكانت فرح لديها المقدرة على معاملة الناس وكأنهم أصدقاء عُمر، وكان هذا واضحًا من لقائهن الأول حين تحدثت بتلقائية وتفاعلت معهما، حتى إنها أعطتهما بطاقة الـ(بيوتي سنتر) دون سابق معرفة.

عرفت عنها عالية أنها تعيش وحدها، فوالداها يعملان بدولة الإمارات، لا يزوران مصر إلا مرة كل عام، وأختها الوحيدة متزوجة، كما عرفت أنهما اشتريا لها هذا المحل وتكفلا بجميع المصاريف، فهذا هو المشروع الذي طالما تمنت أن تُديره، لم تتوقف فرح عن الحديث والضحك ولكنها لم تذكر شيئًا عن محمود أو عن ارتباطها بأي رجل، ولم تسألها عالية، بمجرد أن انتهتا من تصفيف شعريهما انصرفتا بعد أن اتفقتا معها على موعد للذهاب للسينما في المركز التجاري الجديد في عطلة نهاية الأسبوع، بالتحديد يوم الخميس الذي تعلم عالية أن محمود يقضيه مع أصدقائه منذ أن عرفته.

وجاء يوم الخميس بعد أن قضت يوم الأربعاء بأكمله تُقنع زوجها بالذهاب للسينما القريبة مع مروة، وأخيرًا منحها موافقته الغالية، كان لقاؤها الثالث بفرح، ولم تكن تتعذب من رؤيتها أو تغار منها كما ظنّت مروة، كانت تُراقبها، تستكشفها، تدرسها وتعرف ما هي نقاط ضعفها وقوتها حتى تكون خِطتها عن عِلم وليس عن جهل. بدأت بمقارنة الشكل؛ فهي جميلة وتعرف هذه الحقيقة منذ الطفولة، بيضاء البشرة، رشيقة القوام، بعينين واسعتين شجريتين، أنف مستقيم، ثغر مستدير تحُدّه شفتان ممتلئتان، وشعر كستنائي ناعم متسدل كملاك طيب، الشيئان الوحيدان اللذان يُزعجانها في شكلها هو هذا النمش الذي يُغطي أنفها وهذه البطن التي ظهرت لها بعد ولادة ابنها واستحالة عودتها كما كانت، أما فرح فهي خمرية بعينين صغيرتين سوداوين مسحوبتين بجاذبية، أقصر قليلاً من عالية وأكثر امتلاءً، شفتاها أكبر وضحكتها أعرض، أما شعرها فهو أسود طويل مطلوق بحُريّة، على العكس من عالية التي ترتدي الحجاب، تعجبت كيف لزوجها الذي كان يُخبرها دائمًا عن ولعه بالبشرة البيضاء وعن قناعته التامة بالحجاب؛ أن يختار أن يخونها مع نقيضتها ونقيضة قناعاته!

انتهى الفيلم الذي لم ترَ منه مشهدًا واحدًا، إنما كانت ترى فيلمًا آخر أكثر واقعية، فهي بالرغم من كونها ترتدي رداء الشخصية المُتزنة الهادئة، ولم تتطلع في حياتها إلا لأن تُسعِد أسرتها الصغيرة، يراها الناس قليلة الحيلة ولا تبالي، إلا أن الجانب الآخر الذي لم يعرفه أحد أنها تمتلك عقلاً

لا يتوقف عن التفكير والتحليل، وقد رسمت في الأيام الماضية الخطوط العريضة لخطة استعادة كرامتها.. وليس زوجها. بعد انتهاء الفيلم جلسن في أحد المطاعم بالمركز التجاري لتناول بعض حلوى الـ(سينابون)، وبعد التعليق من جانب مروة على أحداث الفيلم، انتهزت الفُرصة لتبدأ حديثها مع فرح محاولة بكل الطُرق أن تُظهر حميمية ليست من طبعها:

- لماذا لم تُفكّري في الزواج حتى الآن؟ أراكِ جميلة شخصًا وموضوعًا.. هل أصاب الرجال العمى؟

ردت فرح ضاحكة: فكّرت وأحببت أحدهم خمس سنوات، نرتبط وننفصل ثم نعود.. حتى انفصلنا يومًا دون عودة.

- خسارة.

- هو الخسران.. صحيح أنه تزوج بعد أقل من عام من الانفصال، لكن لا يهم، المهم أن تجدي من يُقنعك بنفسه، يتمسك بكِ، ويعشقك حد الذوبان.

- وهل وجدته؟

اضطربت فرح قليلاً قبل أن ترد بتردد:

- تقريبًا.

خفق قلب عالية قبل أن تسأل دون تفكير: من؟

اضطربت فرح أكثر وأبدت اندهاشًا من السؤال، فاستطردت عالية:

- أقصد.. هل استطعتِ أن تنسي الأول بسهولة؟

- أنا وهشام تركنا بعضنا منذ أكثر من ثلاثة أعوام.

- ومتى عرفتِ الآخر؟

- منذ ستة أشهر تقريبًا..

- أتُحبّينه؟

- هو إنسان واثق من نفسه وهذا ما جذبني إليه، رقيق، حنون، والأهم أنه يُحبني.

- وأنتِ.. هل تحبينه؟

- أكيد..

إجابات كالخناجر في قلبها وهي لا تكف عن الأسئلة..

- إذن لا مشكلة..

- للأسف هناك بعض المشاكل.. كعادة القدر لا يعطينا الزهور إلا ومعها بعض الأشواك.

زالت حيوية فرح وانقلبت ابتسامتها إلى عبوس، حتى فاجأتهما بقولها:

- هو متزوج..

نقّلت مروة نظرتها بينهما مُدّعية الاستنكار والدهشة، بينما بدت عالية كتمثال شمعي دون أي انطباع بشري، ثم استمرت فرح في الحديث والاعتراف الذي ارتاحت قليلاً بعد أن صرّحت به لهاتين الغريبتين:

- لم أستطع أن أمنع نفسي عن أن تُحبه، هو كان ومازال دائمًا يُطاردني ويُلاحقني.. حتى إنني لم أجد القُدرة على أن أقول له كلمة (لا).

(أعرف هذا الشعور، ليس لأنك تُحبّينه، ولكن لتأثيره الكبير عليكِ، فأنا حتى وقت قريب لم أستطع أن أقول له كلمة لا) ثم قالت عالية بعد لحظات صمت:

- ألم تُفكّري من قبل.. أنك تُحبّين رجلاً خائنًا؟

- لا، لا.. إطلاقًا.. أنا أُحِب رجلاً يُعاني مع امرأة لا تعرف معنى للحياة سوى الماديات والطلبات التي لا تنتهي.. هو حقًا بائس.. وأنا أشعر به تمامًا، فمُعظم المتزوجين يعانون بسبب قلة الحب والتفاهم.

(وماذا تعرفين أنتِ عن المتزوجين؟ هل نمتِ في حضن أحدهم أعوامًا وهو يحمل لك خنجر الخيانة وراء ظهرِه؟ هل أعطيتِ جسدك ومشاعرك ووقتك وحياتك لأحدهم وهو لا يشغل نفسه بمجرد التفكير بكِ؟ هل سهرتِ وضحيتِ وتحملتِ وحملتِ في أحشائك نُطفته؟ ماذا تعرفين عن الزواج أنتِ؟)

مزيد من الخناجر في قلب عالية، حتى لاحظت صديقتها فغيّرت مجرى الحديث إلى أن انصرفتا على وعد بلقاء آخر. في طريق العودة حاولت أن تستكشف ما يدور بخُلد عالية التي كانت صامتة في جلال تبكي بلا دموع، الجرح أصبح جرحين، هو لم يخونها فقط، لكنه أهانها بوصفها بالإنسانة المادية التي لا تكُف عن الطلبات، لكن أي طلبات وهي التي تخجل أن تطلب منه مصروفًا كبقية الزوجات، وتكتفي بالمبلغ الصغير الذي يتركه بالبيت؟ أي طلبات يقصد؟ هل هي الأوراق الصغيرة التي تتركها في جيبه بما يحتاجه المطبخ والبيت؟ أم إنها مُتطلبات الصغير؟ أم إنها الأموال القليلة التي كانت تطلبها منه على استحياء لشراء مستلزماتها كامرأة أو للذهاب للمُزيّن كل عدة أشهر؟

إنها حتى لا تطلب منه أموالاً لتشتري لنفسها الثياب، تكتفي بما يشتريه هو لها في المناسبات، وتُحاول تجديده كل فترة بأي إضافات صغيرة من حُلي أو قطع قديمة أخرى، وكانت ماهرة في هذا، كما إنها لا تطلب منه المال لشراء هدايا لأسرتها أو صديقاتها وتكتفي بالمُعايدات الشفاهية، ماذا كان يقصد بوضعها في هذه الصورة؟ هل كان يقصد ابتزاز عطف فرح؟ أم إنها فكرة مُسيطرة بالفِعل على رأسه، فهو دائم الشكوى من المصاريف والطلبات، وهل الحل كان في الهروب لأخرى يصرف عليها أكثر؟ (كم أنتِ حمقاء يا عالية.. إن فرح غنيّة، لديها شقتها ومشروعها.. هي لا تنتظر منه أن يصرف عليها.. وهو تقدم بصورة زوجته المادية حتى يجد من فرح النقيض.. لا يخونه ذكاؤه أبدًا)!

- فتاة تعدت الثلاثين بقليل دون زواج، مجروحة جرحًا قديمًا وتعيش بمفردها.. كيف لها أن تقول لا؟

هكذا قطعت مروة بتساؤلها صمت عالية العميق، ردت على سؤالها بآخر وكأنها لا تسمعها:

- كنت أتمنى لو أعرف كيف تعرّف بها!

ترددت مروة قبل أن تقول بانفعال:

- عرفت من حسام أنه تعرّف بها من خلال الإنترنت.. وهي ليست الأولى ولن تكون الأخيرة..

ابتسمت عالية بسخرية، فهذا حقًا آخر ما كانت تتمنى سماعه الليلة.

- ولم تُخبريني يا صديقتي؟

- كنت أتمنى أن يعود لعقله ولم أشأ أن أجرحك.

- خِدعتك لا تقل عن خِدعته..

مرت دقائق من الصمت قبل أن تقطعه مروة بصوت باكٍ:

- يعلم الله مقدار حبي لكِ وخوفي عليكِ.. كنت دائمًا أتمنى وأحاول أن أُخرجك من دائرة سيطرته حتى تستطيعي مواجهة مثل هذا اليوم وتُحسني التصرف.. هل تذكرين عندما شجعتك على الاشتراك في مسابقة

"فاشون توداي"، وبالفعل ربحتِ وطلبوا منك العمل معهم في تصميم الأزياء، ولكنك رفضتِ.. كنتُ دائمًا أحاول أن أجعل لك اهتمامات أخرى وحياة أخرى تجعلك أقوى وأقدر على التصرف.. ولكني الآن خائفة عليك أكثر من أي يوم.. حتى إنني لم أعد أعرف فيم تفكرين وعلى ماذا تنوين.. كل ردود فعلك أصبحت مبهمة بعد أن كنتِ كتابًا مفتوحًا بالنسبة لي.. أتمنى أن تكوني بخير يا صديقتي ولا تتسرعي في أحكامك وردود فعلك.. فقط اهدأي وأعطِ قلبك حقه في أن يحزن، ونفسك حقها في أن تبكي وتئن، حتى تنتهي موجة غضبك وتستطيعي التصرف بحكمة، بدلاً من هذا الاحتقان الواضح في ملامحك.. واستخدميني دائمًا، فأنا صديقتك ما حييت.

- يجب أن أراكِ على الأقل ثلاث مرات بشعرك ما دُمت خطيبك.

- من قال هذا الهراء؟

- إنه شيخ الجامع.. سألته اليوم وأجابني بأنه من حقي.

- لكن بابا رافض، وأنا واجب علي طاعته.

- كلام فارغ.

هكذا صرخ قبل أن يُغلق الخط وتظل هي شاردة واجمة لا تعرف كيف تتصرف معه، إنه يُحمّلها أكثر من طاقتها ويتشاجر معها دائمًا بدون أسباب حقيقية، ثم يجرحها بتصرُّف مثل غلق الخط أو يُفاجئها

بالخِصام الفاجر، دون أن تشعر هي بفداحة خطئها أو مايستحق كل هذا، وهو قليل الكلام يكره العتاب، لكنه يعود لمُصالحتها بعد أيام، وهي لا تُخبر أهلها بحماقاته معها كما لا تخبرهم أيضًا بتجاوزاته الكثيرة، القُبُلات التي يسرقها منها، ذراعه التي تحاوط ظهرها، يداه التي تتسلل تحت ملابسها في لحظات الخلوة، وهي تُحبه لكنها تغضب من جرأته ولا تستطيع مقاومتها، فالمقاومة معناها بالنسبة له "لا أريدك"، تجرحه مقاومتها ويتعجب من دموعها التي تنزل بعد كل لمسة مباغتة منه، وهي تخاف غضبه وتخاف الله.

بعد عدة أيام عاد ليُصالحها بالزهور، وعاد ليلتصق بها ويبثها شوقه بشفتيه أكثر من لسانه كلما سمحت له الفرصة.

-آه!

كانت هي مُستثارة لأقصى حد، عرفت معه معنى الشهوة وشهقات وزفرات الجسد، حتى إنها كانت تُسامحه بسرعه وتغفر أخطاءه الكثيرة حتى يعود لمغازلتها، صحيح أنها وافقت علي الزواج منه لأسباب عديدة: مثل قوة شخصيته، طيبة قلبه، إصراره ونجاحه في الإعداد لمستقبله، لكن تبقى مغازلته لها هي السبب الرئيسي في ولهها به.

لكنها نسيت معه أن تتحدث في حياتهما بعد الزواج وكيف سيديرانها وماهي الخطوط العريضة، نسيت أن تتحدث عن الإنجاب، عن زيارة أهلها وأهله، عن قوانين البيت والأشياء الصغيرة والكبيرة، نسيت حتى

أن تتحدث عن مُستقبلها، أو أن لها مستقبلاً سوى في الارتباط به، نسيت أهلها وأهملت صديقاتها، انصهرت تمامًا في شخصه، حتى أصبحت تُحدثه قبل أي تصرف وتستعين برأيه قبل أي قرار حتى لو كان القرار فيما لا يخُصّه تمامًا، لكن كل ما يشغلها الآن أصبح ملكه مثلها، أصبح يحمل أسرارها وأسرار أهلها وصديقاتها، وأصبحت حياته شغلها الشاغل ونجاحه هو جُلّ ما تتمناه، لم تعمل بعد التخرج بناء على رغبته غير المعلنة، وأكملت الزيجة تمامًا كما يُريد هو بعد أن هددت أهلها أنها ستتزوجه في كل الأحوال، أصبح مسيطرًا على كل خلاياها، لمجرد أنه امتلك مفتاح جسدها.

*****

ثلاث ليالٍ لا تنام، جسد مُلقى على السرير، عقل لا يكف عن التفكير، وعينان محدقتان في ظلام الغرفة، تنظر كل حين إلى ظهره العريض الذي اعتادت أن تتأمله بحب وتتمنى لو كانت طريقته في النوم مُختلفة حتى تستطيع أن تتسلل إلى حضنه دون أن يشعر وتنعم بدفئه وأمان صدره، لكنه اعتاد أن ينام موليًا إياها ظهره، اليوم تنظر له نظرة مختلفة، تشعر بغُربة جواره وكأنه إنسان غيره، تتساءل ماذا أتى به هنا أو ماذا أتى بها هنا، شكل ظهره اختلف، حتى صوت أنفاسه اختلف، تسمعه وهو يتنفس بانتظام فتتمنى لو توقظه وتلطُمه بقوة على وجهه، تبتسم مُنتشية من هذا الخيال، ثم تعود لشعورها بالغُربة.

هذا الشعور يُعطلها عن التفكير والتخطيط الذي عزمت عليه، تركت السرير وراحت تجوب الصالة بقدمين عاريتين وقميص نوم قُطني مُحتشم، بدأت أفكارها تنتظم، وأمسكت بأول الخيط، إن فرح لا ترتاح لفكرة ارتباطها برجل متزوج بدليل خجلها أثناء الاعتراف لهما بتلك الحقيقة، وعلامات الضيق والاضطراب التي كست وجهها، لكنها بالتأكيد تتوق للارتباط برجل يكون جادًا معها في مسألة الزواج ويكون رقيقًا وحنونًا كما ذكرت، أو كما تظاهر محمود، ويجب أن يكون مُتيمًا بها،

قاطع تفكيرها صوت خطوات محمود الذي اقتحم حرم أفكارها، فتظاهرت بالأرق ثم عادت معه لسرير الغُربة البارد. لم تعد عالية تُفكّر بجرح الخيانة أو بمصير زواجها. لم تعد تشغلها كرامتها المُحطمة ولم تعد مُهتمة بصغيرها وطلباته التي لا تنتهي، أصبحت لا تفكر إلا في عرس لفرح.. نعم، يجب أن تترك فرح محمود، لا أن يترك محمود فرح، إنه أقل مايستحقه، وإنها فقط الخطوة الأولى، عند العصر كانت قد استقرت على ما ستفعله بعد أن ربطت حلقات السلسلة جيدًا، فأمسكت الهاتف وطلبت خالتها، تحدثت إلى هيثم ابن خالتها وطلبت منه أن يزورها في المساء، تعجّب لجرأتها، فهو لم يعتد أن يزورها وحدها أبدًا، لم يدخل بيتها إلا مرتين، في مُباركة الزواج والإنجاب، والآن تطلب منه بنفسها أن يحضر ووحده..

-حاضر يا مجنونة.

زارها هيثم وقصت عليه الحكاية كاملة، دون دَمعة واحدة، بل على العكس كانت تضحك أحيانًا ولم تُفارقها الابتسامة، وكان هيثم ذو الخمسة وثلاثين عامًا رجلاً يهاب الزواج وتحمُّل المسؤولية، حياته سهر وسفر وفتيات ورقص ومتعة، تعرف أن محمود لا يرتاح له مطلقًا، لكنها تحدت زوجها ودعت هيثم للمنزل في غيابه، فهي الحرب، ليس لها قواعد، أما هو فرحّب بالخطة وتحمّس لها، ليس فقط لأنه يُتقن هذا الدور، لكن لأنه يُحب عالية ويعتبرها أُخته الصغيرة، ويكره أن يُضايقها محمود أو يؤذيها بأي شكل.

مرت أيام وهي لا تدري ماذا سيفعل هيثم، فقد أعطته كل المعلومت المتاحة، هي تثق في قدرته الفائقه على جذب الفتيات ولكنها أيضًا لا تعرف مدى حب فرح لمحمود ومدى تعلقها به، ومدى وعوده لها، كان يُرعبها أن تُخفق في الحلقة الأولى من خطتها إذا ما أخبرها هيثم أنه لم يجد إلا الصد، حتى جاء هاتفه بعد أسبوعين لينتشلها من حيرتها، أخبرها أنه بالفعل تعرّف على فرح بعد أن تظاهر بأنه ينوي افتتاح مركز تجميل ويُريد الاستعانة بخبراتها، ولم تتردد هي في أن تذهب معه لمُعاينة المكان، والذي كان في الأصل محل ملابس مُغلق مِلكًا لأهله، كان سعيدًا وهو يُقص على عالية تفاصيل لقاءاته بفرح، شعرت هي من بين كلامه أن الخطة قد دخلت حيز التنفيذ وقد يُكتب لها النجاح..

مرّ أسبوعان آخران دون أن يُعاود هيثم الاتصال بها، لم تعد تُطيق الانتظار، حتى قررت أن تقوم هي بالخطوة التالية، اتصلت بفرح وحددت معها موعدًا للقاء بأحد مقاهي حي المهندسين، وهناك كان لقاؤهما حميميًا، تظاهرت عالية بالحيرة بينما كانت فرح في حيرة حقيقية، بدأت معها الحديث مباشرة، فهي لا تعرف فنون اللف والدوران:

- أريد رأيك في موضوع مهم ومصيري.

- بالطبع يا حبيبتي.

(حبيبتك أم زوجة حبيبك) هناك من يريد الزواج مني.. رجل محترم ومناسب.

- إذن أين المشكلة؟

- مازلت مُتعلقة بزوجي.. لم أنسه بعد.

- ومن قال إنك يجب أن تنسيه.. لكن الحياة لا تتوقف والحي أبقى.

- الآخر يُحبني.. من سنوات طويلة.

- أرى أنك يجب أن تعطي نفسك فُرصة.. صعب جدًا أن تجدي في هذا الزمان من يُحبك ويتمسك بك.

قالت عالية ضاحكة: إذن أحتاج تشجيعك.. تزوجي أنتِ أولاً.

بادلتها الضحكة قبل أن ترد: أنا بالفعل أمامي مشروع زواج.

- مِن الرجل المتزوج؟

ارتبكت فرح قبل أن ترد: لا، لا، إنه...

وهنا رن جرس هاتف فرح فردت بسرعة وشغف وكأنها كانت تنتظر هذا الاتصال منذ زمن:

- آلو.. أنت أيضًا أوحشتني، أنا مع صديقة.. لن تأتي؟.. لم؟! آه، كل سنة وأنت طيب.. لا، لا تحدثني سأكون نائمة.. لن أسهر.

أغلقت الخط بغضب، واندفعت تُحدّث عالية:

- أرأيتِ.. كنا على موعد اليوم وأجّله.. بسبب عيد ميلاد زوجته.

تذكرت عالية أنه يوم ميلادها ولأول مره تنساه، لم تتخيل أن انشغالها بوضع الخطط وربط الخيوط قد يجعلها تنسى هذا اليوم، حاولت أن تُخفي مشاعرها وعادت للتسأل بهدوء مُصطنع:

- متى ستتزوجان؟

- هو مستعجل.. لكن أنا لست مطمئنة أو سعيدة كما كان يُجدر بي.. فهو يرفض إقامة فرح ولو صغير، ويرفض أن يُعلن الخبر لأسرته.. يريده زواجًا سريًا.. وأنا أكره هذا.. نحن لا نسرق حتى نختبئ، إنه شرع الله.. لذلك أُفضّل التأجيل.

ردت عالية بابتسمة خبيثة: أرى أن هناك شخصًا آخر.

أطرقت فرح ثم ردّت: هناك من دخل حياتي صُدفة.. أشعر أننا نقترب من بعضنا في وقت قيامي.. أخاف تهوره أحيانًا لكن لا أُنكر أنه لطيف.

صمتت برهة ثم استطردت:

- قد تكون ظروفه أفضل من محمود، لكن محمود يستحق أن أعطيه فُرصة ثانية.

اغتاظت عالية وأرادت أن تغيظها:

- بصراحة محمود لا يبدو أنه جاد في الزواج.. يُريد أن يتسلى أو يقضي أوقاتًا سعيدة معك فقط.. أنا لو مكانك أختار الأعزب.

- وكيف عرفتِ أنه أعزب؟

- قلتِ إن ظروفه أحسن.. يعني أنه بالتأكيد أعزب!

عادت عالية للمنزل وقد ارتاح قلبها كثيرًا من حالة التردد التي وجدت عليها فرح، انتظرت زوجها مساءً بأبهى صورها، تزينت بشكل يفوق العادي وكأنها ليلة اللقاء الأول.. أو الوداع الأخير. تعطّرت، وارتدت قميصًا جديدًا، على غير عادتها وهي التي نسيت هذه الطقوس، أتاها وهو يحاول أن يبدو سعيدًا، لم يُعلّق كالعادة على مظهرها، قدّم لها خاتمًا من الذهب الأبيض، كرِهته كثيرًا واعتبرته ترضية عن خيانته لها، قبّلها قُبلة مُهذّبة كعادته، وقبل أن يضمّها دفنت نفسها في حُضنه وبكت بكاءً مريرًا، لم يسألها عن سببه، فقط اكتفى بأن ضمّ ظهرها وجسدها المرتعش، كانت كلما لمسها ترتعد خوفًا من أن تكون هذه هي اللمسة الأخيرة، وبعد أن قضيا ليلة مُضطربة، ليلة فيها الكثير من الادعاء والقليل من الصدق، للقاء أتى بعد الكثير من البُعد، خلدا للنوم، شعرت به وهو يترك السرير ويخرج للشرفة بحذر، عاد بعد دقائق وهو مُستشيط غضبًا وأنفاسه مُتقطعة حارة، لم ترَ وجهه في الظلام، لكنها شعرت بحركته وقلقه طوال الليل، توقعت ما حدث، لقد خرجت فرح مع هيثم.

نعناع الجنينة مسجي في حيضانه.. شجر الموز طرح ضلل على عيدانه..

كُن ثلاث صديقات من أيام المدرسة، عُلا التي تجلس تستمع للموسيقى وتُراقبهما بسعادة دون أن تُشاركهما الرقص، وغزل التي ترقص بمهارة، تنزل وتطلع وتتثنى وترتعش كأنها حلوى الجيلي، وعالية التي ترقص كفراشة تملأ المكان إثارة بدلالها وخِفتها، تُلقي شعرها الطويل تارة على وجهها وتارة تُبعده ليُظهر وجهًا صبوحًا ملائكيًا، كان عيد ميلاد عالية الثامن عشر، حضرت صديقاتها بالهدايا الصغيرة والبهجة الكبيرة، كانت تعشق الرقص، كان بالنسبة لها تعبيرًا عن الفرح المُحلّق والحزن المذبوح، ترقص حتى تشعر أنها حيّة، لكنها أبدًا لم ترقص بعيدًا عن جدران غرفتها.

عودك في مشيته عاملّه مُنحنيات.. عضامك لينة لايجين على التنيات.. تانية واتنين تلاتة وأربع خمس تنيات..

غزل كانت تحدثهما عن صديقها بالكُلية، قصصها عن الحب والمصاحبة لا تنتهي، مبدأها في هذا الأمر كان (المصاحبة عند الاحتياج)، وكانت عالية تلاحظ غمزها للأولاد من أيام المدرسة وهمساتها معهم في الركن البعيد في الفناء والمعروف بأنه ركن العشاق، ومسكهم لها بطريقة فجة عند لعب الاستغماية، كانت تستنكر أفعالها لكنها استمرت على هذه الصداقة حتى تظل قريبة من الأشياء التي لا تستطيع الإقدام عليها، تراقبها وتترقبها باهتمام دائم دون أن تحاول نصحها، عالية كانت على العكس تمامًا لا تُكلم ولدًا طوال سنوات الدراسة إلا نادرًا، لا تنظر حتى في عيني ولد أو رجل يُحدّثها، أما عُلا فكانت ما بين البينين، لا تخشى أن

تُجرّب دون أن تتعمق أو تكمل التجربة لنهايتها، تتحدث مع الأولاد دون توتر ولها أصدقاء من الجنسين، تُعجب أحيانًا بولد وقد تتبادل معه الكلام دون أن تتطور العلاقة لمغازلة أو مصاحبه كحال غزل.

ثلاثتهن كن صديقات رغم الاختلاف، كان يجمعهن الاحتياج.. الاحتياج لإقدام غزل، رجاحة عقل عُلا وطيبة قلب عالية، توقفت غزل عن حديثها المتصل عن قصص الحب والإثارة وراحت تسأل عالية للمرة الألف عن إذا كان هناك شاب يعجبها في الكلية أو مكان آخر، وكان يزعجها نفي عالية الدائم، أخبرتهما أنهما خيبة وأنها ستسبقهما بالزواج حتمًا، لكن عالية رفضت الكلام.

عالية: ماما دائمًا تقول إن البنت التي لا تعرف الشباب وتصاحبهم تتزوج أولاً.

غزل ضاحكة: ماما أيضًا تقول نفس الكلام.. كلام فارغ.. والغد سيثبت العكس.

وتمر سنة وتُفاجأ الصديقات بخطبة غزل، تغيرت كثيرًا في الأيام التالية، ارتدت الحجاب، توقفت عن الحديث مع الشباب، كانت ضربة قاضية لهما، بعد أن انهارت كلمات الأمهات عن الفضيلة وعن أن البنت المؤدبة العفيفه تتزوج أولاً، والرجال يضحكون على البنات السهلات ويعبثن بمشاعرهن لكن لا يرتبطن إلا بالبنات الملتزمات، صحيح أنها انفصلت بعد عدة أشهر وخلعت الحجاب وعادت لأحاديثها ووقفاتها الطويلة في

الكلية مع الشباب، لكنها عاودت الكرّة بعد عام آخر وتمّ الزواج هذه المرة، وأقامت لبعض الوقت بإحدى الدول الخليجية مع زوجها وبنتين، أما عُلا فعاشت قصة حب مع زميل لهن بالكُلية تخلى عنها بعد الارتباط بها عدة أعوام، لتعيش هي على هامش قصتها الوحيدة، غارقة في الذكرى وإن تظاهرت بالنسيان، لم تعد علاقتها بعالية تتعدى السؤال والمُعايدات الباردة، فهي لم تستطع أن تُجاري حياة صديقتها المتلخصة في زوجها ورائحة اللبن والقطام، أما عالية.. فمرت بها الأعوام وتوقفت عن الرقص.

*****

صباح مُعكّر بغضبه، لم يكن الصباح الأول الذي يُفسده بغضبه، هو أغلب الوقت غاضب، خاصة عند الصباح عندما ترتطم جديّته بطفولتها الصباحية التي تجعلها في هشاشة غزل البنات، وهو يريدها المرأة الحديدية، يكره أن يراها مُدللة ويعتبر دلالها عدم نضج، لكن غضبه هذه الأيام مختلف وحارق، أصبح عصبي المزاج أكثر من ذي قبل، لا يصبّ غضبه عليها كالمعتاد وإنما يبتلعه ويكتمه عن عيون الناس وعن عينيها بالذات، هي لم يخفى عليها اشتعاله، كانت تراقبه وتتلذذ بانفعاله المكبوت وثورته الخرساء، كأنه وحش مُقيّد تنظر له من وراء القضبان وتغلبها أحيانًا الابتسامة.

لقد توترت علاقته بفرح، بل واقتربت من النهاية، تعرِف أن أكثر ما يثير غضبه ليس انتهاء العلاقة بقدر ما أنه قرار فرح وليس قراره، لم يكن يُحبها هذا الحب الكبير ولكنه تعلق بها بعد أن وجد منها الأنوثة القوية المُفعمة بالحيوية والنشاط، على العكس من زوجه الخانعة المسبّحة بحبه ليل نهار، الطائفة حول ملكوته، فرح هي الفتاة الناضجة التي يستطيع أن يعتمد عليها في حياته، يُسلمها مسؤولياته وقلبه وهو مُطمئن أنها ستتخذ القرارات الصائبة، ستُساعده في حياته الصعبة وتكون معه

كتفًا بكتف، ولا تترك كفها تذوب في كفه مثل عالية البريئة المُدللة، كما أن ظروف فرح تُناسبه، عندها شقتها الخاصة وذمتها المالية المُنفصلة، لن تعتمد عليه اعتمادًا كاملاً مثل زوجته مصاصة الدماء التي تسكن جلده كمخلوق طُفيلي، وهي لعوب، مُطيعة، مَرِحة، تُفاجئه بجرأتها، لكنها بدأت تهرب منه الآن وتنسحب كالماء من بين يديه بسلاسة لم يتوقعها، تزكُم أنفه رائحة رجل آخر، لكن كرامته تأبى التأكُّد ولا يقدر على استرجاع ما راح.

وهكذا، الحلقة الأولى من خطة عالية تمّت بنجاح، بدأت تستعد للانتهاء من امتحانات ابنها حتى تستطيع البدأ في الحلقة الثانية الأصعب، صعوبتها ليست فقط في التنفيذ ولكنها صعبة لأنها النقيض من شخصيتها ومبادئها وأفكارها، ترددت كثيرًا وباتت ليالٍ كثيرة لا تنام حتى استقرت على أنها لن ترتاح إلا إذا ردّت خيانته بخيانة. ساعدها على اتخاذ القرار ذاكرتها التي كانت تسرد عليها تفاصيل حياتها معه، كيف كانت واقعة تحت وطأة ما ظنّته حبًا بشكل هيستيري، تُسيّر حياتها وكأنها حياته، تتحاشى أن تطلب منه إلا الضروري فقط، تُحافظ على صورته أمام الناس بل وتمدحه بشكل مبالغ فيه، تتناسى جفاءه ومعاملته الغليظة لها، تهجر من أجله الأهل والأصدقاء، تسخّر وقتها كله له وتقبع في البيت دون عمل، ودون وجوده معها أيضًا، حتى وإن وُجِد فهو موجود بجسده فقط. لكن إحساسه لم يعد معها منذ أعوام طويلة، وهي التي لم تحيا سوى من أجله.

وبعد كل هذا وبعد أن أنجبت له فلذة الكبد، وكانت له السرير الناعم والاحتواء الدائم والوعاء الذي يُفرغ فيه سخطه وغضبه، تركها وذهب لمن لم تعطيه عُشر ما أعطته له، ذهب ليُعطي غيرها ما بخل عليها به من مشاعر، وكأنها امرأة لا تصلح للحب مثل الباقيات، ساعدتها الذاكره التي أجهدتها كثيرًا الأسابيع الماضية على الإصرار على ما نوت عليه، ربما تجد الراحة والسعادة عند غيره فتعتذره على ما فعل.

كان يؤرّقها سؤال واحد.. من؟ من ستختار لتُنفّذ خطتها معه؟

تتذكر رجالاً مرّوا بحياتها القصيرة قبل أن تعرفه، لكنها لا تعرف أين هم الآن وما مصيرهم، هناك ابن الجيران الذي كان يُلاحقها دائمًا وأول من ألقى عليها كلمات الشوق، لكنه هاجر إلى كندا، وهناك أخو عُلا صديقتها، الذي كان يرسل لها رسائل الحب العُذري بين طيّات الكتب، لكنه الآن متزوج ولا تريد أن تُفسد له حياته، راحت تبحث كل يوم بين ذاكرتها وصور المدرسة والكُليّة عن الشخص المناسب، تبحث في الماضي لأنها أصبحت تعتبره أجمل أيام حياتها بعد أن ظنّت أنها نسيت تلك الأيام واعتبرت أن حياتها بدأت يوم أن التقت بمحمود، تبحث عن شخص كانت تعرفه من قبل، وجهه مألوف بالنسبة لها، فهي لا تطيق أن تتعرف بشخص جديد وغريب عنها، تريد شخصًا مريحًا للأعصاب، هادئًا، ناعمًا كوسادة تبعث بها الأمان والراحة، تُريده أن يمتصّ حُزنها أو أن تبتلعه أو تحقن نفسها به كدواء لعله يشفي جِراح قلبها.

مرت أيام أصبحت رغبتها بمعرفة رجل آخر تملأها، انتهت امتحانات ابنها كريم فعادت تصطحبه للنادي القريب، هناك ظهر الرجل الذي كانت تبحث عنه. إنه ياسر صديق زوجها، كانت تلتقيه صدفة فتومئ له برأسها أو تُبادله التحية وينتهي الأمر عند هذا. دائمًا تشعر أنه يكتم بعض المشاعر تجاهها، لاحظت هذا الأمر منذ بداية زواجها، من طريقة سلامه عليها، نظراته المسروقة، مراقبته المستترة لها عندما يجمعهما نفس المكان، اهتمامه عندما تتحدث وكأن العالم خالٍ إلا منها، كانت تُلاحظ بعيون الأنثى غير المرئية وحاستها الخفية، وتتجاهل الأمر برُمّته، لا يشغل ثانية من تفكيرها، لكنها الآن لن تتجاهل الأمر كذي قبل.

في هذه المرة التي ألقى عليها السلام من بعيد كانت لديها الجرأة لتُنادي عليه وتبدأ معه حديثًا هامشيًا تتطرق منه لمواضيع متعددة، لم تكن "ترغي" هذا "الرغي" الفارغ إلا مع زوجها، الذي عوّدها أن تُثرثر كما تريد لكنه لن يرُدّ إلا على ما يهمه فقط. أمّا ياسر فكان مهتمًا بكل كلمة وحرف، وبدأت نظراته في الارتباك، ومن ثمّ لاحظت أنه ينظر للأرض أو الموائد والكراسي أو أي شيء آخر غير عينيها، طلبت منه أن يُشاركها المائدة وتجرّأت أكثر عندما صرفت ابنها للعب في المراجيح وبقيا وحدهما، حاول الانصراف هو الآخر لكنها بادرته بقول "ابقَ مِن أجل خاطري"، شعرت أنها بالغت كثيرًا عندما حلّفته بخاطرها وهو مُجرد صديق لزوجها، كانت تضحك ضحكة عالية مُتوترة، وسألته بإشارة:

- ألم يكن من المفترض أن تأتي النادي مع.. ابنك؟

- هذا لو كنت قبِلتُ العروس التي أتيتيني بها قبل عام.

- سلمى بنت رائعة.. أنت الخسران.

رد ضاحكًا: نعم، ولو كنتُ تزوجتها كنت سآتي للنادي مع ابني فقط.. لأننا سنكون قد انفصلنا.

- ألأنها تُحب عملها زيادة عن العادي؟

- هُنّ البنات.. إما سطحيات وإما عاملات يحببن أعمالهن وينشغلن بها لدرجة تُشعرك بأنك أنت السطحي التافه.

سألته بدلال: وفي أي الفريقين تراني يا ترى؟

رد بعد تردد: أنتِ غيرهن يا عالية..

وهنا قاطعهما كريم الذي أتى يشكو جوعه، فما كان من ياسر إلا أن دعاهما على بعض الشطائر، استكملا حديثهما وكانت كل نظرة أو كلمة منه تعبّر عن إعجاب شديد ومشاعر مكبوتة، كانت تُشجعه هي على الإفصاح عنها، بدى مصدومًا من جرأتها الحديثة وهذا التغيير الذي ألمّ بها، ثم ودّعته بلطف وضغطت على يده عند المصافحة، لكنها لم تدعه ينصرف إلا بعد أن اتفقت معه على لقاء آخر في النادي. هناك التقيا عدة مرات لم يكن بينهما حوار سوى عن الأمور العامة، ثم بدأ يسرد عليها بعض الأشعار والأعمال الأدبية التي تُعجبه، كانت تُسايره في

الحديث عن غير استمتاع أو اقتناع بأفكارة الأفلاطونية عن الحب، تنظر كثيرًا في الساعة وتحاول أن تُزجي الوقت معه بأي شكل.. عند العودة لم تكن تفكّر سوى بمخططها والخطوات القادمة. لم يُعجبها ياسر، لم تكن لغته الآسرة وسُكّر حروفه بالشيء المفقود في حياتها، صحيح أن محمود لم يُغازلها منذ سنوات طويلة ولكنها لا تحتاج لهذا الآن، هي تحتاج للرجل الصديق الذي يُعاملها بندّية وود، لا تحتاج لهذا الرجل الذي يُزلزل كيانها، فالمجروح لا يحتمل الزلازل والبراكين، ولكنها تحتاج لرجل يقيها من شرّ نفسها ويُخمِد نيرانها، وبالرغم من كلماته المفضوحة بالإعجاب ورومانسيته الطاغية، إلا أنه لم يملأ فراغاتها الكثيرة التي خلّفها جرح محمود.

كانت تتظاهر أمامه بأنها سعيدة ومهتمّة، يغلبها الانفعال أحيانًا فتبدو أجرأ من طبيعتها، حتى أنه فاجأها يومًا بقوله: تغيرتِ يا عالية، كنتِ كما يقول الكتاب بالضبط.. كتاب المرأة.. المرأة الجميلة.

الكلام يجب أن يدغدغ الإحساس لكنه لا يُدغدغها قط، ولا يقترب شبرًا من خيالها، فقط يجعلها تشعر بانتصار صغير وزهو كبير، ترُد بدلال مُصطنع: والآن...

- أصبحتِ أغرب.. لكن.. أشهى.

ردت بانفعال : انتبه.

- آسف أقصد...

انتفضت واقفة وهمّت بالانصراف، فألحّ عليها أن يوصلها للبيت مثل المرات السابقة، لم ترفُض، كانت تُفكّر.. تُفكِّر في جرأته وتطاوله معها وهل ستسمح به أم لا، وتُفكّر في نفسها التي تغيرت إلى هذا الحد الذي أصبحت تسمع فيه كلمات الغزل من شخص غريب وتقبلها ومن ثم تركب معه سيارته، في السيارة نام كريم فانعطف بها ياسر في شارع هادئ ووقف، ثم بدأ معها حديثًا آخر كسر الصمت بينهما..

- أنا أعرف كل شيء..

- ماذا تقصد؟

- أعرف أنكِ مجروحة.. تتصرفين كمجروحة.. أعرف أن محمود جرحك.

صمتت لم تجد ما تقوله، كيف فات عليها أنه يعرف بخيانة محمود لها، كل الأصدقاء يعرفون كم هي هيّنة وكم أصبحت كرامتها رخيصة.. استكمل هو حديثه:

- أنا لم أعد صديقًا لمحمود منذ أكثر من عام، وأرفض كل تصرفاته.. لا أعرف كيف يجرح إنسانة رقيقة، وديعة، مثلك.. أنتِ ملكة يا عالية.. يجب أن تُعاملي كأميرة مُتوّجة.

- لا، لا، أرفض هذا الكلام.. أنا لست ملاكًا.

- ربما في عينيه..

- بل كنتُ ملاكًا في عينيه.. وكان يُحب حياته بي ويكره يومًا أنا لست فيه.

- لم لا تُفكّري إذن لماذا فعل هذا؟

- لا لن أُفكّر.. ما أكثر التبريرات.. قد يقول لأنها لا تهتم بي أو لأنها لا تجد ما تهتم به وتركّز معه غيري.. إنها لا تُحبني كما يجب أو إنها تخنُقني بحبها الزائد.. إنها مُتحكمة في كل شيء أو إنها ليست صاحبة رأي أو رؤية.. إنها صعبة جدًا، لا أستطيع جذبها، أو سهلة جدًا تنفرط من بين يديّ.. كلها تبريرات لا معنى لها.. لأنه في النهاية خائن وفقط.

- لكن أنتِ مُخلصة.

صمت قليلاً ثم استطرد:

- أعرف أنكِ اقتربتِ مني لترُدّي كرامتك وتُداوي جرحك.. وأقبل أن أقوم بهذا الدور.. أي دور جوارك يُرضيني.. حتى لو كومبارس صامت.

- لكن أنا لم أقصد أن...

- أنتِ غالية عندي وعالية يا عالية.. لا تنظري للماضي.. افعلي ما يجعلك سعيدة.. وأنا معك.

أصابها خرس وذهول.. أفاقت منهما على كفّه الذي غطى كفها ووجهه الذي اقترب في محاولة لتقبيل كفّها، فزعت وصرخت صرخة مكتومة وهي تسحب يدها من تحت كفه المُغتصب، انزعج، ولم تبالِ. عندما عادت للبيت كانت تشعر بتلوث كبير، لم يُزل الماء الساخن الذي اندفع فوق رأسها أثره، تلوث داخلي يملأ أركان روحها المُتعبة، كانت تتمادى في عِنادها منتظرة من ياسر أن يصنع هو الحدود، لماذا توقعت منه الملائكية في حين أنها ليست كذلك؟ كيف افترضت أنه سيتصرف كرجل نبيل ويبتعد عنها بعد أن يُحاول أن يقنعها بالرجوع لمحمود؟ هو تصرف ميثالي بالنسبة لتربيتها ومبادئها، لكنه قد يكون تصرفًا أخرق بالنسبة لرجل عاشق، قبل أن تُحاسبه كان يجب أن تسأل نفسها كيف ارتضت أن تخون نفسها، إن قرارها بالخيانة هو سلاح ذو حدّين، أحدهما يصيبها أولاً.

عندما أتى محمود في المساء؛ على غير عادته الجافة طبع قبلة باردة على شفتيها البائستين، تعجبت من تصرفه، فمنذ زمن لم يقبّلها، وإذا فعل تكون قبلة آلية خالية من المشاعر، حتى ظنت أنه نسي كيف يكون التقبيل، علاقتهما كانت خالية من القبلات، هي كانت تُصِر على أن تُقبّله عندما يغادر في الصباح، وعندما يعود، وعند النوم، لكنها توقفت منذ زمن عندما استشعرت أن القُبل تُزعجه واقتراب جسدها منه في غير الوقت الذي يُحدده هو للعلاقة يُضايقه، منعها الحرج وبقايا كرامة من الاستمرار في تقديم وجبات مجانية من القُبل الساخنة.

كانت تُردد داخلها كلما باغتها بقُبلة باردة (قبّل أو لا تُقبّل.. قبّل بحرارة أو انسَ الأمر.. فهو ليس فرضًا عليك) أنصاف القُبل كالطعام القليل الذي تُلقي به لذئب جائع فتُثير رغبته للنهش أكثر، كانت تشعر برغبة شديدة في قُبلة شهية ساخنة تغتصب شفتيها الجائعتين حتى الشبع، وظلت الفكرة تُطاردها طوال الليل، قُبلة.. قُبلة.. قُبلة، تتذكر أول قُبلة في حياتها عندما بكت بين يديّ محمود بعدها دون أن تعرف السبب، وأول لمسة وأول خفقان للقلب، كلهم كانوا من نصيب محمود، فهو دائمًا صاحب السبق، كما كان صاحب السبق في جرح قلبها وإهدار كرامتها وتدمير حياتها.

لم ترد على مكالمات ياسر الهاتفية بعد هذا اليوم وتوقفت عن الذهاب للنادي.. اكتشفت أن جرأتها المُستحدثة لن تُجدي أمام حيائها وتربيتها الصارمة، هي لن تستطيع أن تخون محمود حتى وإن فعل هو، هكذا استقرت على ألا تُنفّذ الخطوة الثانية من خطتها، لكنها أصبحت أكثر عصبية وحِدّة في البيت، أصبحت تفتعل المشاحنات مع محمود وأصبحت أكثر جرأة عليه وعنفًا معه، والغريب أنه كان يتحملها على عكس طبعه وعادته، وكلما ازداد احتمالاً ازدادت وقاحة عليه، كانت تستشعر كُرهًا عميقًا له يجعلها تستنكر وجوده جوارها، وجوده في البيت، وجوده في حياتها من الأصل، تهرب من دعوته لها للسرير بالتظاهر بالتعب والإرهاق، بعد أن كانت تنتظر هذه اللحظة بالأيام فقط لتشعر أنه يُحبها، فتلك هي الأوقات الوحيدة التي يقترب منها ويتودد لها، لكنها

أصبحت لا تقوى حتى على النظر لعينيه لأنها تُذكّرها ليس فقط بخيانته لكن أيضًا بالتلوث الذي أصابها بسببه.

القاهرة الجديدة.. جديدة تمامًا عليها، شوارع واسعة بشكل غير مُعتاد تكاد تخلو من البشر، فيلل مُتناثرة، عمارات قصيرة مصطفة بشكل أنيق محاطة بحدائق صغيرة، لكن الأغلبية كانت مبانٍ تحت الإنشاء، تجلس هي في سيارة الأُجرة محتارة، تُكرر على السائق اسم المدرسة والحي الذي تود الذهاب إليه:

- مدرسة جرين هاوس للغات في التجمع الثاني.

-أعطني أي علامة يا مدام!

تُحاول الاتصال بزوجها، لا يرد، لا يوجد ظِل بشري يُمكن سؤاله، حتى السيارات المارة بهم سريعة غاضبة في عجلة من أمرها كحال البشر، ساعة كاملة تلف بسيارة الأُجرة دون جدوى، لم تستطع الوصول للمدرسة، ولا السائق صبر عليها فأنزلها هي وابنها عند مدرسة أخرى دون رغبتها، وقفت بخوف وقلق كأنها طفلة فقدت الطريق لمنزلها، كانت تمنع دموعها من السقوط بصعوبة حتى لا تُقلق صغيرها، لم تعرف كيف تتصرف، هو من وضعها في هذا الموقف عندما أصرّ أنها يجب أن تذهب وحدها للتقديم لكريم في هذه المدرسة، ولأنها كانت قليلة الخروج إلا معه، ولا تعرف وسيلة مواصلات سوى سيارات الأجرة، والقاهرة الجديدة

بالنسبة لها - رغم أنها تسكنها منذ أربعة أعوام - كأنها مدينة غريبة ببلد غريب، فكان من البديهي أن تضل الطريق.

بعد ساعتين من الانتظار أمام المدرسة غير المرجوّة، هاتفها محمود أخيرًا بعد أن انتهى من عمله، وبعد نصف ساعة أخرى كان قد وصل لها، قبل أن تتفوه بكلمة نزل هو من السيارة بعصبية وبكل طاقة صوته صرخ فيها:

- أضعتِي موعد التقديم يا غبية.. لأنك غبية وضعيفة.. تزوجت طفلة لا يُعتمد عليها.. بلا تعليم، بلا مدارس.. أنتِ أم ناقصة تأهيل..

سارت ببطء وضيق شديد وهي تشعر بأنظار المتواجدين تلتصق بها وتشعر بأنفاسهم المتعاطفة معها، صرخ فيها مرة أخرى:

- ابكِ.. ابكِ.. فأنتِ لا تجيدين إلا البكاء.

انفجرت في البكاء في السيارة وصمت هو والغضب لازال يتصاعد من رأسه، لقد فات موعد تقديم المدرسة.. لكن ما يُبكيها كان أكبر، كان شعورها بأنها إنسانة بلا قيمة، بلا نفع، بلا كرامة، بل بلا شيء، تشعر في هذه اللحظات التي يقسو عليها فيها أنها لا تستحق الحياة، فقسوته لا تُشبه قسوة أهلها أو صديقاتها، قسوته مُهينة، ومُصوّبة تمامًا إلى قلبها الذي أحبّه دون شروط، ولم يعش إلا على أمل واحد أن يرضى عنه ويمدّه بالدفء والأمان.. لكن كيف تشعر معه بالأمان وهو لا يتوانى عن أن يُهينها أمام الناس، فغضبه لا يُفرّق بين البيت والشارع، والداخل

والخارج، لكن غضبه يستطيع أن يُفرّق جيدًا بينها وبين الغرباء، فكانت القسوة من نصيبها وحدها.

تحاملت على نفسها ولم ترد على سموم كلماته التي كان ينفثها في وجهها، تمنت كثيرًا لو تُلقي بنفسها من السيارة وتتخلص من كل هذا العبث، لكن عيون صغيرها المترقّبة كانت تمنعها، في البيت أكمل مواويله عن عدم نفعها وشخصيتها الهشة الضعيفة، ثم أعاد شريط حياتهما وكيف أنها لم تُشاركه اختيار أي شيء في منزلهما، لم تشاركه أيًا من أعباء الحياة، لم تطرح عليه فكرة، لم تمدّه بنصيحة، لم تُساعده ولو حتى معنويًا، أثبت لها بكل الطرق أنها زوجة فاشلة وإنسانة عالة على الحياة، دِفاعها عن نفسها لم يزده إلا تمسكًا برأيه، محاولتها أن تُثبت أنها أكثر من النكرة بقليل كانت غير مجدية، فعادت لصمتها، وعادت لتطوف في ملكوتها الحزين وحيدة ضعيفة كطائر فقد جناحيه، تستمد ثقتها بنفسها من ذكرياتها القديمة مع الأهل، ومعه قبل أن يمتلكها في بيته.

في المساء كانت حريصة على متابعة المسلسل التركي الذي يُخرجها من غياهب الحزن ويضعها في قمة الخيال عند بلاد جميلة، شوارعها واسعة نظيفة، طبيعتها خلابة، أُناسها أقمار بملامح شرقية، ترتشف الرومانسية بجرعات كبيرة تقيها جوع الأيام الجافة، ثم تُشاهد بشغف برامج الموضة والجمال، أما النهار فكان للمسلسلات العربية وبرامج الطبخ، تُزجي وقتها بين التليفزيون والمطبخ، وتستعد بعدها بروح عالية لنوبات غضبه واعتراضه الدائم، جلست أمام جهاز الحاسوب الذي لا تُجيد استخدامه

وكتبت رسالة إلكترونية لإحدى برامج الموضة ترجوهم أن تشترك معهم ليعدوا لها (نيولوك) جديدًا، قد يرفع من روحها ويجدد من علاقتها بزوجها، أتاها ينفخ الغضب ويصرخ : لماذا لم تحيكي الجوارب.. كل جواربي مُهترئة وأنتِ لا تتصرفين؟!

أجابته وهي تحاول أن تُداري خوفها منه: لقد تصرفت يا محمود واشتريت لك جوارب جديدة وضعتها في خزانة ملابسك.

- أعرف ورأيتهم ولم يروقوني.. كالعادة لا تُجيدين شراء شيء..

- لكن جواربك قديمة لن تحتمل الحياكة..

- إذن ابقِ في برامجك ومسلسلاتك وسأذهب لأُمي، فهي الوحيدة التي تستطيع أن تقضي طلباتي.

وخرج صافقًا الباب في وجهها، أكملت رسالتها البائسة وأرسلتها للبرنامج.. ودموعها تغسل أزرار الحاسوب.

*****

تبحث بين الأسطوانات عن أسطوانة فيروز الجديدة، تضعها في المُشغّل وتذهب إلى المطبخ لإعداد كوب النسكافيه الكبير الذي اعتادت أن تشربه كلما بدأ عقلها في التنميل، وكأنها توقظه بالكافيين، فردت نفسها على شيزلونج مريح كانت قد وضعته بغرفة المعيشة وليس في مكانه المعتاد بغرفة النوم، فغرفة المعيشة بالنسبة لها هي أهم جزء في البيت، فيها الحاسوب والتلفاز وحائط كبير من الصور لها في مراحلها المختلفة ولأسرتها وصديقاتها، وفيها مدفأة حطب كبيرة تستعملها ولا تكتفي بها كقطعة ديكور، أما غرفة النوم فهي مكان كئيب يحمل ذكريات الأرق وبقايا الدموع ورائحة الوحدة، لا تلجأ إليها إلا بعد يومٍ شاق أو عندما تُريد أن تخلو بنفسها للتفكير بعيدًا عن كل وسائل التواصل المتاحة أمامها.

على الشيزلونج كانت تقرأ رواية إنجليزية وهي ترتشف النسكافيه وتستمع لفيروز كخلفية سعيدة تمنحها الراحة والقدرة على الانفصال عن الأرض، هي تعيش وحدها منذ سنوات عديدة ومع ذلك لا تشعر بالاحتياج لأحد يُشاركها المنزل، وحدتها تكفيها وتُرضيها.. احتياجها الأساسي كان لقلب يؤنس قلبها ويُدفئه، سنوات عمرها الثلاثة والثلاثون أخذت من قوّتها

الكثير، فهي اعتادت أن تعيش حياتها بحُرّيّة، تُجرب كل شيء، لا تخشى المجازفة، تختار وترفض كما يحلو لها، بين الأحبة والدراسة والعمل، كانت دائمًا مُجازِفة، سعيدة مرحة، لا تُبالي بتقدم العمر ولا يهمها نظرات الناس وهمساتهم، فهي تكاد لا تراهم ولا يعنون لها شيئًا، لكن قوّتها بدأت في التلاشي لسبب تجهله، قد يكون لأنها سئمت أن تلعب كل الأدوار.

فهي الأم التي تُطبطب على نفسها في الحزن، وهي الأب الذي تستشيره في مشاكلها، وهي الأخت التي تُحاول أن تُسلي نفسها وتجتاز مع نفسها الأزمات، وهي التي تُعلّم نفسها وتقود نفسها وتُعاقب نفسها عند اللزوم، لكنها سئمت وتحتاج لمن تتكئ عليه، ليس كعصاها أو كحائطها وظلها كما تقول الأمثال، ولكن تتكئ علي كتفه فتهدأ كل مخاوفها وتنزاح كل همومها، تحتاج لمن لا تخشى أن تُظهر ضعفها أمامه، لمن تهدأ أنوثتها بين ذراعيه، هي دائمًا الفتاة القوية، الذكية، البنت التي تساوي مائة رجل، لكن ألم يأن الأوان بعد لتُساوي أنثى واحدة ضعيفة، سطحية، مُدللة، بين يديّ حبيب حقيقي؟!

قطع قراءتها رنين الهاتف المحمول، نظرت إليه بشغف فإذا به هيثم، هذا الغريب الذي تعرفت عليه منذ أسابيع وشغل حيزًا ليس بهين في تفكيرها، رغم ارتباطها بمحمود الذي لم تشعر يومًا معه بالاحتواء الذي كانت ترجوه، محمود كان برًا آمنًا رست عليه مراكبها وهي تُبحر بحثًا عن الحب، عرفته في أحد المنتديات الأدبية على الإنترنت، لم يكن مهتمًا

بالأدب، كان فقط متصفحًا عاديًا، كان يُغريها بغموضه، وبدأت تنتظر ظهوره كل حين بشغف وتُعلّق على كل كلمة أو رأي يكتبه بما يتفق مع جرأتها، ثم بدأت تلعب دور الساذجة وتُرسل له الرسائل والأسئلة الكثيرة الغريبة بِحجّة أنها معجبة بآرائه، لكنها في الحقيقة كانت تريد أن تعرف عنه أكثر، لم تكن طبيعتها مندفعة في خوض العلاقات، بالرغم من أن لها علاقات حب كثيرة سابقة منذ أيام المدرسة مرورًا بالكُلية والعمل، فهي دائمًا مرغوبة ودائمًا تُعطي بالقدر الذي يُغري ولا يُشبع، وتعرف كيف تتوقف في الوقت المناسب، فاحتفظت بنفسها عذراء، ولم تخسر أحدًا من أحبّتها، كلهم ظلوا أصدقاء لها ماعدا واحدًا فقط هو هشام، الذي أحبته حبًا حقيقيًا واستغلها وعذبها وآلمها كما لم يؤلمها أحد، ثم قضى عليها تمامًا عندما تزوج بسرعة بعد مرة من مرات الانفصال الكثيرة بينهما، لم تعد بعدها لحياتها الطبيعية وتتعافى إلا بمساعدة طبيب نفسي ترددت عليه لعام كامل، ومازالت تزوره بين الحين والآخر.

أضافها محمود لقوائم أصدقائه على مواقع التواصل الاجتماعي، ومن ثم تطورت علاقتهما سريعًا حتى تقابلا، ووجدت فيه رجلاً خشنًا به لباقة، كان مقبلاً عليها رغم بعض الجفاء الذي كانت تستشعره خاصة في البُعد، عندما كانت تمر أيام لا يُحدثها بِحجّة انشغاله في العمل، أو تمرّ مناسبات يكتفي فيها بالتهنئة الشفوية، كانت دائمًا تنتظر منه أكثر، لكن رجولته الفتيّة وذراعه القوية التي كان يجذب بها أنوثتها ويحمي بها طفلتها العابثة كانتا تغفران له جفاء طبعه، لكن مشكلتها معه لم تتوقف عند جفائه،

المشكلة الأساسية أنه متزوج، هي لا تعبأ كثيرًا بمشاعر زوجته، ليس لأنها معدومة الإحساس، ولكن لأنها تؤمن بقاعدة العشق التي تقول نحن لا نتحكم بمشاعرنا، ولأنها ترى أن زوجته محظوظة به وستظل، يكفي أنها بداية ونهاية يومه، أما هي فمحرومة من أن تكون معه طوال الوقت، مشكلتها أنها تشعر أنها بعضًا من وقته، أو الفائض من وقته، عندما تُهاتفه وهو في بيته لا يرد أو يرد بشكل رسمي، عندما تحتاجه في الليل لا تجده، فهو نادرًا ما يسهر خارج المنزل، عندما تكون مريضة لا تجد منه إلا سؤالاً هاتفيًا وأحيانًا يشتري لها الدواء ثم يتركها، أين احتواؤه ومشاركته؟

عندما تعود للمنزل ترقص من السعادة لأي سبب وتتصل به ليُشاركها الرقص؛ فلا يرد، عندما تبكي وتتصل به ليمسح دموعها لا تجده، عندما تُريد استشارته في أمر ما عليها أن تنتظر وقته المناسب، عندما تريد أن تُجنّ عليها أن تُحجّم جنونها إلى أن يُناسبه التوقيت، لا يشاركها تناول الطعام إلا نادرًا، لا يظهر معها في الأماكن العامة إلا البعيد منها ويكون حذرًا مضطربًا بشكل لا يُلاحظه سواها، حتى عندما تكون جواره في السيارة تجد بصره زائغًا وعيناه تُراقب المارة خوفًا من أن يتعثّر بمن يعرفه، حتى هاتفه المُغلق في بعض الأوقات يُثير غضبها وحنقها، ويُشعرها بأنه ليس لها.

حريص هو على ألا يُحدّثها عن زوجته ولا يُشير لها إلا من بعيد، حتى إنها طلبت منه عدة مرات أن ترى صورتها وكان يتهرب وكأنه يُحافظ على كنزه

الثمين ويدثّر ملاكه عن العيون حتى لا يراه بشر، لم تُصدّق الفتاة الغبية داخلها التي أخبرتها أنه يخاف أن يجرح مشاعرها، وإنما صدّقت الفتاة القوية التي أخبرتها أنه يعشق زوجته حتى وإن تظاهر بغير ذلك، وأنها عليها أن تقبل بوجودها في حياته وبالسياج الذي فرضه حولها، لكن هذا لم يمنع أنها كانت تُفكر كل حين في فرصة انفصاله عن زوجته حتى تهنأ بحياتها معه، ويكون كله لها، تُمتعه ويُمتعها وتمارس معه جنونها بحُرّيّة، لكنها لا تلبث أن تعود للواقع الذي يقول إنَ زوجته هي أهم ثوابته والعمود الخرساني الذي تتكأ عليه حياته.

كانت هواجس هجره لها تُطاردها، رغم ثقتها الكبيرة بنفسها، ربما لأنها لم تنسَ الرحيل الأخير لهشام حبها الكبير، لم تنسَ خذلانه لها ودموعها الساخنة والحزن الذي تجرعته وحيدة كالعادة، لكنها قصّت كل شيء عنه لمحمود، فكيف له بعد أن سلّمته سرّ قلبها أن يخذلها؟ في الحقيقة هو يخذلها بطريقة أخرى، عندما لا تجده جوارها ولا تشعر بوجوده إلا عندما يشتاق وتسمح ظروفه ووقته بلقائها، ظهر هيثم في حياتها كمجرد رجل لطيف يُظهر اهتمامه ويُقدّم خدماته مثل معظم الرجال، لكن ما جذبها فيه هو عفويته، لم يكن ذلك الرجل الذي يتظاهر بكونه المُجرّب الذي خاض كل الحروب العشقية وعرف كل شيء عن الدنيا ويستطيع أن يفهم الناس حوله من نظرة واحدة، لم يكن يُمثّل دور الرجل العاطفي الحنون، ولم يكن خشنًا مثل محمود، كان بسيطًا ضحوكًا، ضحكته كانت كأنها دقات أجراس الفرح.

وأجمل ما فيه أنه كان دائمًا يُشعرها أنه متاح لها، يطلب منها أن تتصل به في أي وقت، يتلو على مسامعها الجملة المأثورة التي لم تكن تسمعها سوى منه "خلّي بالك من نفسك"، كان يُعطيها أمان واحتواء الصديق رغم آيات الإعجاب التي كانت تنطق بها عيناه، هي لا تُنكر أن مشاعرها تجاه محمود بدأت تنطفئ، راحت تُلاحظ جفاءه الواضح، وأنانيته المُفرطة، بدأت تُقارن بين الاثنان رغمًا عنها، فظهور هيثم أكدّ لها هشاشة مشاعرها تجاه محمود، والفارق الكبير بين حبيب متزوج بنصف قلب ووقت واهتمام وحبيب أعزب بحياة كاملة تنتظرها، بدأت لا تطيق بُعد محمود وانشغاله وتكتمه على بيته وزوجته المقدّسة، وبدأت زهورها في الميل لشمس هيثم الطفل الكبير، المشاكس الطيب والصديق المحب.

ردّت بسعادة تُناسب رنين الفرح في صوته واتفقت معه على موعد جديد يستكملان فيه حوارًا ظاهره فيه العمل وباطنه فيه الانجذاب.

في ركنٍ منزوٍ بمنزل أهل محمود كانت تجلس عالية كطفلة معاقبة، مُطأطأة الرأس، دامعة العين، فقد نهرها بشدّة قبل قليل أمام والدته لأنها لم تُساعد في تقديم الطعام وتتصرف كصاحبة بيت، بل كانت تجلس كغريبة تنتظر أن ينادونها عند إعداد المائدة، ناداها لتُساعد فقطعها عن حلقة تليفزيونية تُتابعها باهتمام، ردّت بعدم اكتراث ونفاد صبر، فصرخ بها بشدّة أفقدتها اتزانها، جلست معهم تُمثّل أنها تتناول الطعام بلا روح، الكل يضحكون ويثرثرون ولا أحد يوجه لها حديثًا، وكأنهم اتفقوا جميعًا أنها مذنبة ولا تستحق إلا الإهمال.

كانت تسترق النظرات له فتجده مندمجًا في حديث أو غارقًا في ضحك، وكأن شيئًا لم يحدث، أخوه يُدلل زوجته كل حين بدعابة أو لمسة مباغتة، وأخته تقود الحديث بحكاياتها وقفشاتها التي لا تنتهي، لا أحد يبالي بها كأنها قطعة زائدة من الأثاث، لا يُهمها إهمالهم لها، لكن هو.. كيف يتجاهلها في بيت غريب عنها، كيف يتجاهلها في وجود أغراب عنها، وهي عروس أشهر لم تأخذ نصيبها من الصبر بعد، فتاة في العشرين من العمر في أولى سنوات التعامل مع زوج، ظلّت في كرسيها البعيد صامتة تُراقب الشُرفة القريبة، تتذكر قبلات مسروقة في زاويتها، تتذكر شابًا مفتونًا ينظر لها كالمصعوق، ويُحيطها بعينيه، يعدها بالاحتواء والعشق الأبدي، تتذكر كلمات عشق رقيقة كانت تنساب في مسامعها عند الغروب في نفس هذه الشُرفة الجامدة الصامتة مثلها الآن.

استبدت بها رغبة أن تُثبت لذاتها أنه لم يتغير عن هذا العاشق الذي كان يُشاركها الهمس في الشُرفة، فنادت عليه، لم يرد، نهضت وحاولت بأنفاس مُتقطعة أن تُشاركهم الأحاديث موجهة كلامها له، لم يرد، وجهت حديثها مرة أخرى لأخته فتجهمت وردت باقتضاب، خبرتها القليلة لا تُسعفها، عاتبته بلهجة حادة وأشعرته بغربتها في بيت لا أحد يُحدّثها فيه حتى زوجها، فنهرها بشدّة، حاولت الاتصال بوالدها ليأتي وينقذها من كل هذه القسوة، فقفز زوجها كالممسوس وخطف منها سماعة الهاتف وقذفها بها، فأصابت وجهها وتركت عند ذقنها كَدمة كبيرة وتركت في قلبها جرحًا أكبر، همّت بالعودة إلى مكانها البعيد وهي تتمنى لو أنها تسقط

ميتة قبل أن تصل للكرمي، وبالفعل خارت قواها وافترشت الأرض، وقفوا جميعًا ساهمين إلا زوجة أخيه الوحيدة التي شهقت قلقًا ثم حملتها برفق وأجلستها على أريكة قريبة. استفاقت من ذهولها باكية تنظر له عاتبة، فيزداد قسوة عليها ويتهمها بالدلع والادعاء، لم يقلق عليها أو يحنو عليها أحد، ولم ينتبه أحد أنها كانت في شهرها الأول من الحبل.

*****

وقفت أمام المرآة تُكمل زينتها، وكانت نادرًا ما تخرج مكتملة الزينة إلا إذا كانت بِرفقة محمود، أما الآن فقد تغيرت وأصبحت تتصرف بشكل عكسي لما كانت عليه، حتى إنها تتوقف لتتذكر ماذا كانت ستفعل من قبل ثم تتصرف بالنقيض، صبغت شفتها باللون الخوخي وفرشت وجنتها ببودرة من نفس اللون، واعتنت برسم عينيها الواسعتين جيدًا، كانت تريد أن تُظهِر جسدها الرشيق الذي لم يعبث به الزمن كثيرًا، وتحاول أن تُخفي ملامحها الطيبة التي اعتادها الناس، تريد أن تظهر اليوم ليس كالزوجة الحالمة والأم الحنون الطيبة، إنما كعالية الفتاة الجديدة المتحررة من قيود واقعها السخيف، بين طيات جسدها نثرت العطر الثمين الذي كانت تدخره للأفراح والمناسبات، نظرت لنفسها نظرة أخيرة متفحصة، شعرت أنها كالمزهرية الجميلة الملونة، مرسومة بعناية ودِقّة، وداخلها خواء، هي في الحقيقة مزهرية مشروخة لكن لا أحد ينتبه للشرخ، لأنها اعتنت بإخفائه بين الزخارف الكثيرة الدقيقة.

في حي المعادي تركت سيارة الأجرة بعد أن اتفقت مع السائق على المرور عليها بعد أن تنتهي من زيارتها، لم تكن المرة الأولى التي تزور فيها صديقتها غزل، فقد زارتها من قبل عند زواجها ومرتان للمباركة إثر ولادة ابنتها،

دعتها غزل بعدها كثيرًا لزيارتها والتجمع مع صديقات الكُلية، لكنها كانت دائمة الرفض وحريصة ألا تُبدد وقت بيتها وألا تشغل محمود بتلك الأمور الصغيرة، فكانت دائمًا تكتفي بعالمها المتلخص فيه، واكتفت بمهاتفتها في المناسبات، لكن هذه المرة لم تُقاوم رغبتها بالخروج والالتحام بالناس علّها تهدأ من أحاديث ذاتها المؤلمة، وعلّ قلبها ينشغل عن عذابه، وخواؤها المُرعب يمتلئ ببعض التفاهات، فتحت لها غزل الباب، كانت مرحة ومُغرية، ترتدي بنطال جينز ضيق يُظهر حجم مؤخرتها الكبيرة، وبلوزة مفتوحة الصدر وعارية الأكمام، كعادتها تُبالغ في إظهار أنوثتها وأناقتها التي تتوهم أنها تبرز بالثياب الضيقة والزواق الكثير، فكانت مؤمنة بأن مستوى الأناقة مُتناسب طرديًا مع مستوى العُري، رحبت بعالية وأبدت إعجابها الشديد بمحافظتها على رشاقة ما قبل الزواج، دخلت عالية لتجد العديد من زميلات الدراسة وقد اختلفت أشكالهن كثيرًا، فمنهن من ارتدت الحجاب ومنهن من ازدادت في الوزن، وتغيرت طريقة لبسهن؛ فالبعض أصبحن أكثر تحررًا والبعض اكتفين بالعباءات الفضفاضة، حتى الملامح أصبحت أكثر انتفاخًا وأقل إشراقًا، ماعدا عُلا التي أصبحت أنحف وأكثر شبابًا بثوبها الزاهي وحذائها ذي الكعب العالي، رغم أن وجهها قد بدأ يفقد استدارة الشباب، وكانت طلتها المختلفة لها سيبها الجوهري؛ فهي الوحيدة بينهن التي لم تتزوج.

الحديث بينهن لم ينقطع، كانت تشرد قليلاً لكن سرعان ما تُداري الشرود بضحكة ومزحة ليست في محلها، محاولة الظهور في مظهر صبياني عكس

الصورة الأرستقراطية التي كانت تُحافظ عليها أمام الأغراب، بعد الحوارات العادية والأسئلة المعتادة عن عدد الأبناء وأسمائهم ومشاكل العمل والملل والروتين القاتل، التفنن في دائرة كثيفة ضيقة، وبدأن حوارًا تعرفه جيدًا لأنه تكرر في المرات القليلة التي اجتمعت فيها معهن، راحت غزل تحكي عن تهربها من زوجها عندما يطلبها للسرير وزعمها الدائم بأنها تُعاني من الصُداع أو الإرهاق، حتى إنها اضطرت يومًا بأن تكذب عليه وتُخبره أنها تُعاني من التهابات تحتية تمنعها من الاقتراب منه لفترة طويلة، انفجرن جميعًا بالضحك وهي تحكي وترتج بالضحكات بين الكلمات، وراحت صديقتها نهى المتيدنة تنهرها عن هذا السلوك وتُحذّرها من غضب الله، فردّت عليها رنا، صديقة أخرى متحفظه قليلاً لكنها مستمعة جيدة: "و هل يغضب الله على الرجل الذي يُهمل زوجته في السرير حين تريد؟" صمتن جميعًا مثبتين أعينهن عليها، لم تجد إحداهن ردًا مناسبًا حتى نطقت غزل أخيرًا، وقد ناقضت نفسها خوفًا من الحسد: "كلهم نفس الرجل يا رنا، صدقيني.. لا يهمهم إلا أنفسهم".. طرحت إحداهن سؤالاً جريئًا: "متى تشعرين أنه قد تأخر في دعوته لل(حب)؟" جاءت الردود مُتفاوتة، فمنهن من قالت "أسبوعًا"، ومنهن من قالت "شهرًا"، وأخرى قالت إنه يطلب منها هذا أكثر من مرة في اليوم بشكل مرهق ومنفّر، حتى إن شعرها لا يكاد يجف من غسيله اليومي، رمقتها بحسد مستتر باستياء من طبيعته الحيوانية وتعاطُف مع جسدها الذي يتحمل كل هذا العبء، أما رنا فصمتت واكتفت بابتسامة بائسة، شعرت عالية كم هي حزينة وغاضبة دون أن تجرؤ حتى على التذمر، تابعت

حركاتها فوجدت يديها ترتعشان وهي تصُب الشاي وتضع الجاتوه السواريه في الصحن الصغير، كانت نظراتها زائغة مضطربة وابتسامتها مرسومة بدقة فوق حزن كبير لا يشعره إلا من ذاق مثله.

انتحت عالية بعُلا جانبًا، وقد كان الشرود حليفهما تلك الليلة، كانت عادة عالية أيام الصداقة القديمة أن تُبادر هي بالكلام وتُسدي النصائح، وتلعب دور الأم الصغيرة أو الأخت الكبيرة لصديقاتها المُقرّبات، وكان لكلامها وقع حنون وطيب، لكن لم يكن يُلامس رغباتهن بل يتقاطع معها أحيانًا، فهي كانت تستند في كلامها دائمًا للمنطق وما يصح ولا يصح، كانت متأثّره بطريقة أمها في تنشئتها بشكل كبير، حيث المثالية هي الهدف، لا مجال للأخطاء، لا يجب أن تُخطئ، وإن فعلتَ فعليك أن تجلد نفسك حتى الموت، فكُن يستمعن لرأيها الذي لا يتناسب مع سِنّها، وكأنه صوت العقل الذي يمر بنا فلا نطرده ولا نُقدم عليه إلا صاغرين، لكن فائض الحنان الذي كان ينهمر منها بدأ في التصويب، لاحظت هذا عندما ضبطت نفسها لا تجد كلمات تقولها لعُلا التي تبدو مجروحة، لا تجد لمساتها التي كانت تُصدّر بها رسائل الحنان والطمأنينة، شعرت أنها أصبحت عين جافة ليست بقادرة على بلّ حتى حلقها الملتهب، عُلا لم تكن في انتظار مواساة صديقتها أو سؤالها، كان مجرد جلوسهما وحيدتين في الزاوية كافٍ بأن يجعلها تتحدث وتروي لعالية تفاصيل مشاكل العمل وكيف أنها اضطرت لتركه بعد الكثير من المعاناة مع إدارة عقيمة، شكت لها وحدتها وتشابه الأيام وقسوة الحياة التي بخلت في منحها شريكًا جيدًا

على أقل تقدير، فكل من صادفتهم في الحياة عناوين للخذلان وعدم تحمُّل المسئولية، كانت قد حصلت خلال سنوات عملها على العديد من الدورات في شتى المجالات، وانتهت منذ شهور من الحصول على الماجيستير، تُزجي وقتها في الدراسة وتملأ خزائنها بالكثير من الشهادات العلمية عوضًا عن قُمصان النوم الخفيفة وثياب الحمل الفضفاضة وأغراض الأطفال الصغيرة.

"لا أحد يُدرك شعوري يا عالية.. هل جربتِ أن تجدي نفسك حبيسة مكان تمرّ به كل يوم فتاة، تصبحان صديقتين وفجأة تأتي العمل بالدبلة الذهبية في خنصر يدها اليُمنى، وباليد الأخرى تُقدم لكِ الشوكولاتة، فتُباركي لها بسعادة، ثم تُصبح حياتها كلها هو واتصالاتهما الطويلة وقُربه وخِصامه وأُسرته غريبة الأطوار، ثم لا تتحدث إلا عن إعداد بيت الحياة وكل تفاصيله، وقد تحتاجك لمساعدتها في شراء مستلزمات العروس، ثم تدعوكِ لفرحها، فتُفصّلي ثوبًا جديدًا لتكوني زاهية وتظهري سعيدة في الصور، ثم تغيب وتأتي بعد شهر بوجه مُضيء وملابس جديدة وأحذية بكعوب عالية، لا يلبث أن يشحب الوجه الجميل وتتبدل ملامحها لذبول أيام الحمل الأولى.. ثم تنتفخ بطنها وتُبطئ حركتها شيئًا فشيئًا، وترتدي الأحذية المنخفضة المريحة، لا تتحدث إلا عن أعراض جسدية مقززة وأغراض صغيرة مبهجة.. ثم تغيب لتضع الطفل، وتعود وكأن الزمان لم يمر إلا على جسدها المُترهّل وعقلها المشغول وتركيزها الضائع، وتتكرر القصة حولك بأبطال مختلفين، وتبقين وحدكِ المشاهدة التي تُبارك

وتُشارك وتُفصّل الفساتين الجديدة وتتصنع الابتسامة وتودّع وتستقبل.. ثم تسأليني عن الملل؟!"

"أنتِ في نعمة لا تُقدرينها يا عُلا.. أنتِ لا تُدركين معنى أن ترتبط حياتك بشخص لا تأكلين إلا معه، لا تنامين إلا إذا نام، لا تخرجين إلا إذا وافق، لا تتحدثين إلا إذا كان مستعدًا للإنصات، ويجب أن تُنصتي إذا أراد هو التحدّث، وهذا نادر.. أنتِ لا تُدركين معنى القيود التي تظل تُلاحقك طوال اليوم، حتى لا تجدين متسعًا من الأكسجين للتنفس، في الزواج أيضًا تتصنعين الابتسامة والراحة حتى وإن كنتِ حزينة وتعِبة، تبتلعين غضبك حتى يمُرّ اليوم بسلام، وتتحملين وتتغاضين عن الكثير من المشارط التي تهش كرامتكِ.. ثم تسأليني عن الإحباط؟!"

"اسمحي لي يا عالية.. هذا ضعف.. سبب استسلامنا للطرف الآخر ليس قوّته ولكن ضعفنا".

"هناك ضعف إجباري يا عُلا.. ولا تغُرّنك متصنعات القوة.. فهن إما أضعف من ألسنتهن الحادة وطباعهن الجافة التي يُدارين بها عجزهن.. أو أن الطرف الآخر اختار أن يضع في أياديهن مقاليد الأمور حتى يتخلص من مسؤولياته، فاضطررن أن يكن أقوياء!"

- أشعر من كلماتك بتغيير كبير.. تغيرتِ يا عالية.

لقد اعتادت أن تسمع هذه العبارة في الشهور الأخيرة، فلم يُصبح لها صدى غريب في أذنها، شعرت أنها فتحت بابًا من النصائح الغالية عن الزواج والمسؤوليات والتقصير، التي عادة ما توجهها العازبات للمتزوجات، والتي تُصيبها بارتفاع في ضغط الدم ومنسوب المرارة، كيف لا وهن لا يشعرن ولا يدرين شيئًا عن المشاعر التي لا يتعاطفن معها بل وينتقدنها لصالح الأزواج الطيبين، وهن يظنن أن الشكوى عادة للمتزوجات ودلع وسوء تصرف، حاولت أن تُغيّر دفّة الحديث حتى لا ينقلب في اتجاهها، فسألتها باهتمام:

- لكنك جميلة يا عُلا ومستواكِ الاجتماعي والثقافي مرتفع وأهلك طيبون.. ماذا يريد الرجال أكثر؟

- مازالوا يتقدمون للزواج يا عالية.. وليتهم يتوقفون..

- حدثيني عن آخر عريس قابلتيه إذن.. قد ألمس موضع المشكلة.

قالت باسمة: إنها مواضيع كثيرة يا عالية.

ضحكا بمرح ثم استطردت عُلا:

- كان مُهندسًا يعمل بشركة للبترول في الصحراء الغربية.

- لا أجد غضاضة في بُعد عمله أو سكنه.

- ليست تلك المشكلة.. تعرفين أنا لا أهتم كثيرًا بهذه المسائل، لكنه كان بشارب غير مُهذّب، ويرتدي بذلة من طراز قديم لونها مشمشي وينثر الرذاذ من فمه أثناء الكلام، الأدهى أنه كان يضع في إصبعه خاتمًا بفصّ كبير.

انفجرتا في الضحك وراحتا تستعيدان ذكريات عرسان الغفلة بمظاهرهم المضحكة وتصرفاتهم الكوميدية، ضحكتا بشكل هستيري حتى اغرورقت أعينهن بالدموع، وكادت عالية تُبلل سروالها الداخلي كعادتها القديمة في نوبات الضحك الكبيرة، والتي أصبحت نادرة منذ تزوجت، اقتربت منهن الفتيات ورحن يشاركنهما قفشات زواج الصالونات، غرق الجميع في ضحك يُشبه البكاء.

في طريق العودة اصطحبت عالية صديقتها نورا، هي ليست صديقة بقدر ما هي زميلة دراسة، كانت فتاة منغلقة على نفسها إلى حد كبير، لا تعرف إلا عددًا محدودًا من الأصدقاء، دائمًا تدّعي الثقافة والمثالية، تُعامل الجميع بلهجة متعجرفة وادعاء بالتواضع، لذلك لم تكن صديقة لعالية التي تُفضّل التعاملات البسيطة العفوية، لم تعد تراها بعدِ أن انشغلت الاثنتان بقطار الزواج الذي يدهس الأيام والأحلام دون هوادة، ولم تتقابلا إلا مرات قليلة عند غزل، كانت تسكن بالقرب منها فاصطحبتها لتوصلها في طريقها، كانت نورا ساهمة، مكتومة، كأنها على مشارف الانفجار، لم تسألها عالية السؤال المعتاد "ماذا بكِ؟" رُبما لأنه يُضايقها هي ولا تطيق أن تسمعه في زُمرة ألمها وحزنها، لكنها لم تجد مفرًا مع لفحة الاحمرار التي لسعت وجه نورا وكأنها قطعة كعك تركت الفُرن توًا،

وسألتها فإذا بنورا تبكي دون إجابة، ثم تميل على عالية وتدفن رأسها في صدرها في حركة مباغتة وتستمر في الأنين الحار، أمرت عالية السائق بالوقوف أمام مقهى قريب هادئ، أعطت نورا المناديل حتى تمسح دموعها وربتت على كتفها، ثم سحبتها للمقهى ودعتها إلى كوبين من القهوة الإكسبرسو بالحليب.

كانت نورا تبدو كالدمية مسلوبة الإرادة، لم تنطق إلا بعد حديث طويل من عالية عن مواضيع كثيرة غير مترابطة، ولم تكن عادتها الثرثرة إلا مع محمود، لكن هشاشة نورا ونارها المشتعلة أثارا فيها الرغبة للحديث الفارغ فقط من أجل الترويح عنها، أما نورا فبدأت حديثها بفاجعة:

- لقد خانني يا عالية.

تسمّرت عالية في مكانها لا تُدرك من الكلام إلا حروفه، إنها تعرف أن نورا مُطلّقة منذ عدة أعوام ولها طفلة صغيرة، لم تُدرك من الخائن، أهو الزوج وقد عاد أم أنه رجل آخر، تقافزت الأسئلة في عقل عالية التي لم تنطق رغم زخم الكلمات وبزوغ علامات الاستفهام، أنقذتها نورا من حيرتها واستكملت حديثها دون النظر لعالية وكأنها تُحدّث نفسها:

- أحببته وشاركته بكل ما في قلبي، وعدني بأزهى وأقوى الوعود، وعدني بأن يكون هنا من أجلي وأن يحمل عبء قلبي معي، وكان مُقدّر لنا أن نتزوج في الصيف القادم، ثم أكتشف بالصدفة خيانته الوقحة لكل ما بيننا.

لم تعرف عالية كيف تهوّن عليها، تشابه الألم واختلفت الجراح، فمنذ عدة أشهر كانت في نفس الكرسي ولكن شعورها كان أقسى لأنه زوجها بالفعل، والرجل الوحيد الذي باعت دُنيتها من أجله وسلّمته كل مفاتيح مشاعرها، يا الله؛ مالِ هذه الليلة تحمل الكثير من الوجع؟! ذهبت معهن بدافع البحث عن سعادة، خرجت ولم تعد فما وجدت غير الألم خلف الضحكات العاليات والوجوه المصبوغة، كلمات المواساة تنتحر على شفتها وقلبها يئن بوجعه الخاص، فلتت منها كلمة واحدة لا تُسمِن ولا تُغني من جوع:

- معلش.

- أنا لست حزينة عليه بقدر حُزني على نفسي.. على ثقتي التي وهبتها له وهو لا يستحق.. لم يستحق كل ما تجاوزته من أجله.. لقد خذلني.. لا أحد يعرف الخذلان مثلي.

- لا عليك يا نورا.. سيأتي غد يندم فيه ويدفع ثمن خيانته.

نظرت لها نورا نظرة حادة وكأنها تقول "توقفي، جئت معك فقط كي أتحدث وتسمعي، وليس لأسمع كلماتك الخائبة". عادت عالية للوراء بعد أن أدركت الرسالة وتابعت الحديث بعينها، استمرت نورا في الحكي الذي يتخلله البكاء، إلى أن قالت جُملة استوقفت عالية وجعلت قلبها يقفز من خلف ضلوع زنزانته..

- ما يؤذيني أكثر أنه سيستمر في حياته وكأن شيئًا لم يكن.. سيستمر في ممارسة دوره كزوج وأب، وكأني ما كنت...

- زوج.. وأب؟!

هكذا استنكرت عالية بصوت ما من أعماقها.

- نعم يا عالية، زوج وأب.

- وكنتِ ستتزوجينه وهو متزوج؟

شعرت نورا بحرج وأدركت كم تمادت في حكيها لعالية، وكان لابد من تقديم مستندات الدفاع من تهمة وقعت عليها في غير وقتها.

- جمعنا الحب يا عالية، لم تكن الظروف عائقًا بيننا.

- خانك وهو متزوج؟ مع امرأة أخرى.. ثالثة!

انكمشت نورا وكأنها أدركت حقيقة كانت غائبة عنها، ليس حقيقة أنه خانها وهو يخون زوجته، ولا حقيقة أنه لم يُخلص لخيانته، ولكنها حقيقة أنها حكت قصتها للإنسانة الخطأ، كيف نسيت أن عالية هي الفتاة المُتحفّظة المُدللة، التي لم تعرف الحب ولا عذاب الطلاق ولا الخيانة، إنها الطفلة التي تعيش دائمًا كعرائس الماريونيت يتحكم بكل زوجها خيوطها، لا تعرف شيئًا عن الحياة إلا ما سمح لها هو بأن تراه وتعرفه

- عالية، لا أريد سماع رأيك أرجوكِ.

ردت عالية كأنها لم تسمع شيئًا، وكانت لم تفق من ذهولها بعد:

- كيف تُساعدين رجلاً على خيانة زوجته وتنتظرين منه الإخلاص؟

- عالية، يجب أن تعرفي أن الحب يأتي دون سبب، أنا لم أقصد أن...

- أنتِ لم تري إلا نفسك واحتياجك للحب، ولم يهمك سوى تنفيذه لوعوده لك، وماذا عن وعوده لزوجته يا سيدتي؟ هل حلال أن ينقض وعوده لها وحرام أن ينقض وعوده لكِ؟

- أنتِ لم تُحبّي يومًا يا عالية حتى تفهميني.

- لو كان هذا هو الحب فأنا لا أريده..

بكت نورا بحُرقة لم تبلغ مداها منذ بدأ حديثهما، حاولت عالية أن تُطفئ شعلة غضبها دون فائدة، لكن رغمًا عنها تعاطفت مع المرأة المتعجرفة المنهزمة أمامها بدعوى الحب، قالت لها بنبرة أهدأ:

- اسمعي يا نورا.. لو كان يُحبك كان سيُحافظ على علاقة طيبة بك، وصداقة يستطيع من خلالها أن يظل بقربك ويُساندك بعشم الأصدقاء، دون أن يؤذي حياتك أو حياة زوجته، لكن هو لم يُحبك، هو أرادك، أنانية الرجل فيه وطمعه جعلاه يُصرّح لكِ بحبه ويعدك بما لا يستطيع، ورغبتك في الحب صوّرت لك ما هو أكثر.. يا عزيزتي لا تشكي بعد اليوم

من خيانة خائن.. هو لم يكن لكِ على أي حال حتى تشعري بأنه خانكِ، هو كل ليلة ينام في حضن زوجته.. تذكري هذا جيدًا.

قالت الجملة الأخيرة وهي تتكئ على حروفها، ثم نهضت لتهمّ بالخروج، لكن نورا رفضت أن تُرافقها وأخبرتها أنها تودّ المكوث وحيدة لبعض الوقت، لم تُلح عليها عالية إنما تركتها ببساطة، وعادت للمنزل وهي تستعد لمشاجرة محمود الذي طلبها عدة مرات على الهاتف حتى يأمرها بالعودة أو يُعاتبها على التأخير؛ ولم تُجاوبه، اعتادت أن تخاف مشاجرته وعتابه وتحاول جاهدة انتقاء الكلمات التي تُخفف من غضبه، لكنها الآن أصبحت لا تخشى غضبه، هي فقط تستعد بأن تضع مشاعرها في قمة ثلجية حتى لا يستفزها لارتكاب حماقة تهدم كل ما خططت له، بكاء نورا وشكوتها المريرة من الخذلان، التي بدت لها شكوى مثيرة للاستياء أكثر منها للشفقة، جعلاها تشعر بأن جرحها بدأ ينزف من جديد والحُزن الثقيل عاد يُخيم على قلبها، لكن شعورها بالاستياء كان أكبر.

وقفت أمام فاترينة المحل في حالة تردد، فهي تمرّ جواره كثيرًا تُشاهده بطرف عينيها، ولم تجرؤ يومًا على الاقتراب، كل يوم يعرض لونًا مختلفًا وموديلات مثيرة، اليوم قررت أن تزوره أخيرًا بعد إلحاح من عقلها، وبالصُدفة كان لونه أحمر، الأحمر لم يعد يجذبها كثيرًا.. كانت تعشقه حتى علّق عليه محمود وأخبرها أنها تبدو رخيصة بالقميص الأحمر القصير عاري الصدر، لم ترتدِ أحمر بعدها، سرحت بخيالها في القطع

المعروضة، تتخيل نفسها بكل قطعة وتحاول أن تتوقع أيهم سيكون أكثر إثارة.

دخلت المحل بخُطى مترددة، ارتاحت عندما خرج صاحب المحل تاركًا إياها مع البائعة الصغيرة، سألت ببراءة لا تتناسب مع كونها زوجة منذ عدة سنوات:

- أريد قميصًا جيدًا..

ردت البائعة باستنكار: جيد كيف يا سيدتي؟ تُريدينه محتشمًا مثلاً؟

- لا، لا، أقصد.. أريده جذابًا فحسب.

تنهدت البائعة: هل هو لكِ أم هدية؟

فأشارت إلى نفسها، فعادت البائعه تسأل:

- تريدينه طويلاً أم قصيرًا؟

- قصيرًا.. لأني قصيرة، سيناسبني أكثر.

البائعة بغمز: الرجال يحبّون المرأة القصيرة على أي حال.. حسنًا، أي لون تفضّلين؟

- أي لون عادا الأحمر.

ردت البائعة باستنكار: لا تذهب عقولهم إلا أمام الأحمر.

حرّكت كتفيها في استسلام وأطبقت فمها، تذكرت المرات القليلة التي زارت فيها محلات "لانجيري" مع بنات خالها، وكانت كل واحدة منهن تعرف جيدًا ماذا يُفضّل زوجها وماذا يجعلها أجمل وأشهى في عينيه. أما هي فأبدًا لم تعرف يومًا ما يُعجبه فيها أو عليها، فكله عنده سواء، كن يسألنها عن نفسها فتجاوب بسذاجة أنه لا يحب هذه القطع.. فلطالما كان رأيه أنها غير مفيدة، لا تقبع على الجسد أكثر من دقائق، فما جدواها؟ يضحكن بهيستيريا من كلامها، تظل لا تشتري رغم الإغراءات، ورغم شغفها بهذا التفنن الراقي في شتى أنواع العُري.

أفاقت من سرحانها على البائعة التي أحضرت لها قميصًا أحمر قصيرًا وواسعًا بحمالتين كخيوط النور، وقالت كخبيرة:

- هذا سيناسب ملامحك البريئة وسيجعلك مثيرة بدون الكثير من التفاصيل.

وافقت كالمجذوبة واشترته دون أن تنطق بكلمة، احتفظت به في مكان سرّي، سترتديه الليلة؛ هكذا قررت، مهما كانت ردّة فعله، حتى لو أتى منهكًا ولم يرها ونام، ستنام ليلتها به ربما تختلف الأحلام، سترتديه من أجل نفسها وليس من أجله، فهي تحتاج أن تشعر أنها جميلة ومُدللة وامرأة!

وقفت به أمام المرآة وكأنها أمام امرأة أخرى لا تعرفها، حررت شعرها الكستنائي الأشقر، أحمر أبيض أشقر.. "رخيصة، تبدين رخيصة"، كلماته لا تُفارق خيالها. حسنًا، ستُجرّب أن تكون رخصية هذه الليلة، فلطالما مثّلت أدوار الأرستقراطية والنضج وعدم الاكتراث، لكنها حقًا تكترث وتتوق لأن تكون مختلفة همجية حافية القدمين هذه الليلة.

جلست أمام المرآة في مشهد نادر لا تراه إلا في أفلام السينما، كانت تُجرّب أن تضع الزواق بشكل أكثر إثارة وكثافة، أحمر الشفاه يجعل شفتيها كحبات الكرز، والكحل الأسود يجعلها ناضجة، أما البودرة الخوخية فتجعل وجهها مُضيئًا، لكنها سرعان ما مسحت وجهها بمجرد أن انتهت، فلطالما آمنت أن ملامحها البارزة، بشرتها الصافية وشفتيها الوردية العارية تجعلها أشهى.. ولكنها لا تدري بماذا يؤمن هوا

ستُعدّ نفسها له بالموسيقى والرقص، ليس فقط لتحلّق روحها بعيدًا عن هذا الجسد المحبوس، ولكن ليحيا هذا الجسد، ليفيق من سباته، ليصيح ويضحك ويبكي.. ظلت ترقص، تنثني وتدور حتى تلاشت كل الأحداث من ذاكرتها فأصبحت كصفحة بيضاء، تخلّصت من كل آلامها، جراحها، وحتى روحها التي تعذبها.. جسدها الميت عاد للحياة لكن دون روح..

ألقت بنفسها على السرير منهكة من الرقص، هذا السرير الواسع، تتذكر جيدًا يوم شرائه عندما قال زوجها للبائع "أريد أكبر سرير لديك"، وقتها

غضبت في أعماقها، كانت تتمنى أن يشتري أصغر سرير، أصغر مكان يجعل الأجساد مُلتصقة دائمًا بحميمية عن دون قصد، جسدها يُشع حرارة ورغبة، صدرها يرتفع وينخفض من فرط التوتر، بعض الشعيرات ملتصقة على جبينها بحبات العرق، أغمضت عينها وتخيلت يديه وهي تخمش هذا الجسد الناضج تمامًا، نظرته الشهوانية التي تُخضع ما تبقى من مقاومتها، وصدره العاري الذي يقترب منها في حنان حبيب ورغبة رجل، فيصرع خجلها بالضربة القاضية، حتى لو رفضها، حتى لو طلب منها أن تبدأ هي بكل شيء لأنه تعب، حتى وإن لم تُغره، ستكون اليوم أنثى جذابة رغم أنفه، ستكون مُغرية وشهية حتى لو لنفسها، هذا الجسد الجائع قد ترويه بعض نظراته أو لمساته، وقد يبات ليله جائعًا كأيام طويلة مضت، لهذا هي تخشى الزواق الليلي، لهذا هي تكره اللانجيري، تكرهه لأنه كثيرًا ما يخذلها، كثيرًا ما يجعلها تشعر بأنها لا وجود لها، وبأنها أكثر مخلوق منبوذ على وجه الأرض.

عندما دخل غرفته مساءً كانت هي على السرير ببيجامة محتشمة واسعة بلون السماء، منقوشة بدباديب صغيرة صفراء، كان مشغولاً كالعادة، لم تلفت انتباهه رائحة عطر كانت تسري على استحياء في الغرفة، لم يرها وهي ممددة باستسلام، لم يشعرها، لم يدرِ شيئًا عما بها، ولم يلحظ القطعة الحمراء المُلقاة تحت قدميه..

*****

التليفزيون لم يكن لها مجرد أداة للتسلية، كان منذ تزوجت أنيسها، مُعلمها، صديقها، ومُهرجها الذي لا تملّه أبدًا، كانت تُتابع به كل البرامج الصباحية، وخاصة برامج الموضة والأزياء، لولعها التام بأحدث الخطوط ومحاولتها الدائمة لمجاراتها بما يتفق مع واقعية الحياة، ولأنها كانت قديمًا تهوى رسم الموديلات وتصميم الملابس، في المساء كانت تُشاهد الأفلام الأجنبية والمسلسلات التركية، تغلبها دموعها في النهايات وتحفظ الجُمل المؤثّرة عن ظهر قلب، أما الآن فأصبحت قليلة المتابعة لشرودها الدائم وعقلها الذي لا يهدأ، وجدت في نفسها ميلاً كبيرًا لمشاهدة الأفلام الأبيض والأسود كل ليلة، وكأنما تستعيد بها سعادة وطمأنينة الطفولة والشباب المُبكر.

ما كانت تُتابعه أيضًا بشغف منذ مُدة هو تطورات أحداث ثورة ٢٥ يناير، التي كانت تُشجعها وتباركها من مكانها أمام شاشات التليفزيون والكومبيوتر، وكم تمنت لو تُشارك فيها بوجودها كما تُشارك بروحها، لكن مجرد التفكير في مثل هذا الأمر كان مرفوضًا بالنسبة لمحمود، الذي صرخ فيها بعنف عندما واجهته بأنها تنوي النزول للميدان يوم جمعة الغضب الأولى، بل وأغلق عليها الباب بالمفتاح وتركها وحيدة وذهب

للاطمئنان على أسرته، لذلك ظلت تُحلّق بروحها هناك، تُشجّع، تَبكي، تُداوي، تزأر وتهتف، دون أن تُغادر مقعدها الأثير أمام الشاشات، لم تكن تثق بكل ما تقرأ أو تسمع من المحللين السياسين وأصحاب الرؤى والمصالح، ثقتها كانت من قلبها وتصديقها كان لعينيها، لا جدال في عشقها للوطن، لكنها ما كانت تعرف أنها ترغب من أعماقها أن تموت من أجله، منذ قيام المظاهرات التي أثمرت ثورة لم تكتمل بعد وهي تتمنى أن تكون نهاياتها وهي تصرخ في وجه ظلم واستبداد النظام، وقهر البشر والأحلام، لكن ظلّت الثورة بالنسبة لها حلمًا بعيدًا، وهي التي تقبع في البيت مُكبّلة بألف قيد وقيد، تنتظر الأوامر كعساكر الأمن البسطاء المنبوذين.

في هذا المساء كانت تُشاهد معارك المتظاهرين مع أفراد الأمن، والتي تحولت لحرب شوارع وكرّ وفرّ في ميدان التحرير وشارع محمد محمود خاصة، كانت مذهولة من كون الشرطة مازالت على عنفها وغباء تعاملها بالقنابل والغاز والرصاص الحي مع متظاهرين عُزّل إلا من الحجارة والألعاب النارية، رغم مرور أحد عشر شهرًا على الثورة وعلى إسقاط نظام كان يلجأ لقمع المتظاهرين بالعنف والقتل، لكن يبدو أن لا أحد يتعلم الدرس. رأت صورًا عديدة ومقاطع فيديو لضباط وأفراد أمن يصوبون أسلحتهم على وجوه وأعين المتظاهرين، إن قصدهم هذه المرة ليس فقط إثارة الخوف والبطش بهم، بل أرادوا تشويههم وإحداث إعاقات لديهم، وليس أسوأ من أن تؤذي أحدًا بأن تشوهه فيظل يذكر الجرح كل يوم وكأنه جزء من ملامحه.

لم تبكِ كما كانت تفعل أيام الثورة عند رؤية مشاهد العنف والقتل، هذه المرة كانت داخلها صرخة كبيرة مرعبة، ليست صرخة احتجاج فقط، لكنها صرخة ألم محبوس ومحتقن في كل شرايينها، ألم من وطن مجروح، كرامة مجروحة، إنسانية مجروحة وقلب مجروح، إنها تشعر بنفس شعور آلاف المصابين، داخلها نفس التشوّه الذي أحدثه الأمن لهم، لكنه تشوّه صعب الشفاء منه، كندبة في القلب لا تندمل، خيانة محمود، محاولتها لخيانته، تمثيلية الحب التي أوقعت فيها فرح، شعورها الدائم بالمهانة، الصرخة تُريد أن ترتفع في السماء وتدوي بكل ما فيها من ألم، في لحظة تمرُّد أخرى قررت أن تنزل ميدان التحرير، لن تأبه بأوامر محمود بعد الآن، لقد خرج العصفور من القفص ولن يُقبض عليه من جديد، فهو حتى وإن نسي التحليق البعيد لازال بإمكانه الهروب لأقرب شجرة حُرّة، كل قيم الطاعة والإذعان الآن لن يُصبح لها معنى بعد أن سقطت أوراق التوت عن سوءتهما وانكشف مكنون النفوس، نفسه الأنانية الخائنة ونفسها المنقادة التابعة، الكارهة، إنها تكره.. تكره بكل ما أوتيت من قوة في قلبها.

في الصباح أرسلت له رسالة هاتفية تُخبره أنها ستزور المركز التُجاري القريب لشراء بعض الأغراض، دخلت الميدان وكانت ترتدي بنطال جينز تحتفظ به من أيام الكلية، حيث لم يزدد وزنها إلا زيادة طفيفة عند البطن والأرداف، وبلوفر أبيض طويلاً محايد زيّنته بكوفية مزركشة، طرحة منقوشة بوردات صغيرة فوق رأسها، حذاء رياضي خفيف وحقيبة

كبيرة بذراع واحد يمر فوق عنقها وصدرها لتستقر الحقيبة على جانبها الأيمن، وضعت بها كعكات منزلية صغيرة صنعتها في اليوم السابق بالزبيب وعين الجمل، زُجاجة مياة معدنية، ولوحة طويلة مطوية كتبت بها بخط جميل (يسقط يسقط حُكم العسكر).

لم تكن تعرف أن زيارتها لميدان التحرير في هذا اليوم سَتُغيّر أقدارها للأبد، كانت قد مرت كثيرًا بالميدان قبل سنوات الزواج، وكثيرًا ما كانت تُقابل صديقة لها طالبة بالجامعة الأمريكية وتتناولان البيتزا ثم تتسكعان سويًا في الشوارع هناك، كانت علاقة واندثرت مثل معظم علاقاتها الاجتماعية، لكن الميدان اليوم مختلف، مختلف حتى عن صورته في التليفزيون والإنترنت، يبدو سوقًا شعبيًا رخيصًا، الباعة الجائلون وبائعو المشروبات والأكلات الخفيفة في كل مكان، بائعو الأعلام أيضًا أكثر عددًا من حملة الأعلام، بدأت تخاف عندما رأت مجموعات من الشباب المُهتاج يُغنون ولا يهتفون، يقتربون كثيرًا من المارة في خطواتهم، مظهرهم رث وعيونهم الزائغة تدل على نوايا مُبيّتة لأي شكل من أشكال التحرُّش، كاد سِحر المكان الذي طالما تخيلت وحلمت بتواجدها به يتلاشى، إلى أن ظهرت في إحدى الجوانب مظاهرة كبيرة تسير باتجاه شارع محمد محمود، أفراد الأمن في كل مكان بالقرب من المظاهرة كانوا قد صنعوا سياجًا بشريًا هائلاً، ربما منع خطوات المتظاهرين لكنه لم يمنع حناجرهم وقلوبهم التي كانت تهتف وتصرخ بقوّة، اقتربت منهم وحاولت جاهدة أن تهتف معهم، لكن صوتها أتى ضعيفًا وكأنّه سحابة تسير ببطء وسط

عاصفة عظيمة، ازدادت أعداد المتظاهرين حولها، شعرت بدوار من جراء زحام لم تعتده، الاحتكاك المباشر بالناس كان غريبًا عليها، لم تُمارسه سوى في المترو في عربة السيدات منذ أكثر من ثمانية أعوام، أما اليوم فهي تُمارسه مع أطياف متعددة من البشر روائح أجسادهم وعرقهم تزكم أنفها، لكن لم تتوقف الروائح عند العرق، فبدون أي إنذار فوجئت عالية بسحابة بيضاء تُعبّئ الجو وتخترق جدار أنفها الدقيق، شعرت أن جلد وجهها يتساقط وأن عينيها تحترقان، وقبل أن تُفكّر كانت رغبتها بالسقوط تعظم، صرخت لتستنجد بهم، فظنوا أنها تصرخ غضبًا واحتجاجًا، حتى سقطت بالفعل.

كانت بنصف وعي تشعر بأشخاص يسندونها وتسمع أصواتًا مُمتزجة دون أن تُميّز الكلمات، تتحرك دون أن تسير، لا تدري إلى أين، تتمنى أن يكون كل شيء ليس أكثر من حلم مزعج، فتحت عينيها لتجد نفسها مستلقية على غطاء سرير من الصوف فوق الأرض في مكان إضاءته ضعيفة، جوارها تقف فتاة في يدها زجاجة عِطر ومنديل، فهمت أنها كانت تُحاول إفاقتها، وحولها بعض الناس مشغولين بإسعاف آخرين، رأت مشاهد مشوشة لدماء على الملابس ووجوه حمراء كأن دماء الجسد كله تجمعت بها، أصوات أوامر سريعة، كلمات مبتورة ممتزجة بتأوهات، نهضت بجزعها لتتفحص المكان وهي تسمع "حمد الله على السلامة" من الفتاة المجاورة، كان مكانًا أنيقًا بسقف عالٍ تُزيّنه صور جميلة وزُجاج مُلوّن، بعض التماثيل برزت من الجُدران والبعض كان متناثرًا عند الأركان، به

منصّة صغيرة، وفي ساحة قريبة رأت مقاعد صغيرة مرصوصة بشكل منظم، كان يُشبه أماكن شاهدتها في الأفلام الأجنبية لكنها لم تستطع أن تتكهن ماهيته، فعقلها مازال يعجز عن العمل بكل طاقته، ثم أدركت فجأة أنها أول مره تتواجد في كنيسة.

سمعت كثيرًا عن المستشفيات الميدانية، وشاركت العديد من صورهم على مواقع التواصل، لكنها المرة الأولى التي تدخل فيها الأحداث حيز حياتها الافتراضية التي عايشت بها الثورة، المستشفى كانت داخل الكنيسة والفتاة التي كانت تُفيقها هي طالبة بكُلّية الطب وتعمل بالمستشفى، غادرت المكان وهي مبهورة ومأخوذة بالأجواء الجديدة عليها، ولولا أنها تذكّرت ميعاد عودة محمود وأنها تُريد أن تسبقه للبيت لمكثت وقتًا أطول في الميدان، وفي المستشفى تحديدًا، فقد وجدت في نفسها رغبة للمُداواة، خاصة وأنها حصلت في إجازة صيف قديمة على دورة في الإسعافات الأولية، لم تتخيل أنها ستنفعها يومًا ما، إنما حضرتها لتُزجي وقتها وتُرافق صديقة قديمة، في الشوارع المُحيطة بالميدان وجدت مظاهرات متعددة، لاحظت أن كل مظاهرة لا تُشبه الأخرى، مناظر المتظاهرين وهيئتهم كانت هي مصدر الاختلاف وإن توحدت الأهداف والشعارات، حتى الهتافات مختلفة بين المظاهرة والأخرى، هناك هتافات ناقدة لاذعة، وهناك هتافات تحمل الألفاظ النابية والسُباب المباشر، وهناك هتافات حماسية على دقّات الطبول وأخرى أقل حماسًا، هذه المرة لم تُفكّر بالمشاركة في أي من المظاهرات، كانت تُشاهد وكأنها تمر

بكرنفال غريب في بلاد غريبة والأمر كله لا يعنيها، ما يعنيها فقط أن تعود للمنزل قبل محمود، في الطريق لمحطة المترو وجدت تجمعًا من عشرات الشباب والفتيات صامتون جميعًا وكأن الطير فوق رؤوسهم، اقتربت حتى سمعت الصوت الذي غير مجرى أيامها التالية.

كان لصوته رنّة مميزة حادة، وكان كلامه وكأنه مختلط بسحر يجعل كل من يسمعه يقف مشدوهًا منجذبًا لكل تفاصيل حديثه، هي لم تكن دخلت هذا العالم بعد، كانت مازالت بعالمها المنزلي الدافئ الآمن وبعقلها الذي يرى الكون من خلف ورق السولوفان، فسمعت كلامه بوعي كامل وبدأت تتمعن في مقاصده، كان يتحدث بانسيابية شديدة، كلامه كان ينبع من التاريخ ليصب في السياسة ثم يطير للجغرافيا ويعود ليرسو على الأدب، لم يكن الناس مأخوذين بثقافته الواسعة بقدر انجذابهم لأدائه كحكّاء وصديق ومُعلم وصبي ورئيس إن لزم الأمر، أما هي فكانت تتجنب سحر أسلوبه الذي بدأ يلعب برأسها وترنو فقط إلى الكلمات، أثناء تنقله بين المواضيع وحكاياته الكثيرة المتصلة ارتطمت إحدى أفكاره برأسها العتيد، عندما دافع عن أطفال الشوارع والبلطجية المندسين بين المتظاهرين وقال إن من حقهم أن يتظاهروا ويُنفّثوا عن غضبهم، من حقهم أن يُشاغبوا ويحرقوا ويسُبّوا ويبولوا على عساكر الأمن والجيش إن لزم الأمر، انتفضت هي ولم تصمت كطبيعتها المتحفّظة، فقد تغيرت كثيرًا في الشهور الماضية.

- يا أستاذ حضرتك تُحرّض على المزيد من المشاغبة وأعمال العنف التي تتنافى مع طابع الثورة السلمي.

توقف عن حديثه الشيق ونظر لها بتعجُّب وتَفحُّص دون أن ينطق، بينما اتجهت أنظار المستمعين إليها، تسرب القلق لقلبها لكنه لم يظهر على ملامحها المُصرّة، وقبل أن يرُد استكملت:

- أيضًا حضرتك تَستخدم ألفاظًا وعبارات لا تليق أن تُقال على الملأ، خاصة أن حولك الكثير من النساء.

رد بهدوء وابتسامة حاول أن يحتفظ بهما:

- هل هي أول مرة لكِ في الميدان؟

ارتبكت، تساءلت داخلها كيف عرف، ثم جاوبته بثبات:

- ليس من المناسب أن تُجاوب على النقد بسؤال.

- السؤال إجابته متعلقة بردي عليكِ.. فإذا كنتِ من مُرتادي الميدان ومعتادي المظاهرات كنتِ ستدركين ما قلته وكنتِ ستجتازين الألفاظ والسباب لما وراءه، فدائمًا ما وراء الكلمات أكبر، والتعبير في الشارع يكون بلغته وليس بِلُغة الكتب والمقالات، أما إذا أساءك حديثي فما كان لكِ أن تقفي وتسمعيه، ثم تُقاطعيني لتُعلّقي عليه تعليقًا خارج السياق.

صدمها رده، ولكنها لم تصمت، قررت أن تُلملم ما بدأته:

- أنا لم أتكلم خارج السياق، وبما أنك تخطب في الشارع فليس عليك أن تختار مستمعيك وليس عليك أن تفرض شرط عدم النقد لأنه حق لكل من يسمعك.

- أختي العزيزه أنا لم أقصد أن...

- أنا لست أختك!

قالت الجملة الأخيرة بغضب ونفاد صبر بعد أن شعرت أنها تَعِبة وغريبة تُريد أن ترحل بأي ثمن حتى وإن هُزمت في الحوار، امتقع وجهه غضبًا من جملتها الحادة وحاول جاهدًا أن يحتفظ بجزء من هدوئه، بينما انفجر العرق من جبهته السمراء:

- وأنا لا يعنيني أن تكوني أختي! أنتِ لا تُجيدين الحوار لذلك أُفضّل أن أنسحب.. (نظر للناس حوله) عُذرًا سأذهب الآن ولنستكمل حوارنا في وقت آخر.

بدأ الناس في الهمهمة والتفوا حوله ليقنعوه بالبقاء، أما هي فانسحبت بسرعة وخوف، لم تتوقع أن يرد عليها بهذه الحِدّة، فمِن خلال تعاملاتها القليلة مع الرجال عرفت أنهم مُهذّبون.. إلا مع زوجاتهم.. وحتى لو حدثته بسخافة فكان واجبًا عليه أن يُظهر لها احترامًا أكبر لأنها فتاة، هكذا علّمتها الحياة، هكذا عاملها المحيطون بها، طوال اليوم والأيام القادمة لم تكن تُفكِّر إلا في هذا الموقف، النهار كله الذي قضته بالميدان كان

يشغلها، لكن تلك الدقائق التي اشتبكت فيها معه كانت تشغلها أكثر، فكّرت أنها لو قابلته مرة أخرى ستعتذر له، ثم طردت الفكرة من رأسها وودّت لو رأته مره أخرى حتى تلومه وتوبّخه، لكن من يكون هو حتى تلومه أو تُعاتبه، ومن يكون حتى تُفكر فيه من الأساس؟ نحن لا نلوم إلا من يَعنون لنا شيئًا، لا نُعاتِب إلا من تهمنا صلتنا بهم، وهو ليس سوى رجل عابر مرّ خارج أسوار حياتها.

عادت لمتابعة أحداث الميدان وشارع محمد محمود ومشاهدة الفيديوهات التي اشتهرت لقناص العيون (جدع يا باشا)، هذه المرة لم تكن مكتفية بالمشاهدة وتمنّي المشاركة، كانت مشتاقة للميدان، صحيح أن الساعات التي قضتها هناك كانت صعبة وغريبة لكنها تعلّقت بالمكان، تراب المكان مثل ماء النيل: من يتذوقه يرغب دائمًا في العودة إليه، وهي لم تعُد تُفكّر إلا في العودة مهما كلفها ذلك من عناء، في المساء كانت قد حسمت أمرها، في الصباح كانت في الميدان عند الكنيسة بالتحديد، فقد قررت أنها ربما لا تصلح للالتحام مع البشر في المظاهرات، لكنها تصلح لأشياء أخرى، مكثت هناك طوال النهار، شاركت الطبيبات الصغيرات في مُداوة المجروحين والمصابين من قنابل الغاز والخراطيش، قضت أجمل ساعات حياتها وهي تُسعف، تمسح الدماء، تضع قطرات العين، تلف الشاش والقطن وتُطهّر الجروح، كانت فخورة و سعيدة، شعرت أنها جزء من هذا الوطن وليست مجرد مشاهدة تتمنى وتدعو وتنفعل، تُتابع عبر الشبكة العنكبوتية، تُعجب وتُشارك وتعلّق، في الأيام التالية حرصت على

الذهاب من الصباح بعد نزول محمود وحتى الساعة الرابعة قُبيل عودته من العمل، كانت أكثر مَرحًا ونشاطًا في البيت، وهو بدى أكثر ذبولاً وانفعالاً، كان يشتم المتظاهرين ويُدافع عن الجيش باستماتة، وكانت حريصة على عدم الخوض معه في أمور السياسة، فهي تعرف آراءه مُسبقًا ومواقفه من بداية الثورة، التي تتنافى مع قناعتها بحتمية الثورة وحتمية تحقيق أهدافها، ولا تُريد أن تُفسد على نفسها شعورها بنشوة الوطنية.

ثقّفت نفسهًا كثيرًا في مجال الطوارئ والإسعافات، لم تكتفِ بالذهاب والمشاركة، من مواقع الإنترنت عرفت معلومات مفيدة عن قنابل الغاز الجديدة وكيفية الوقاية منها والعلاج، كانت تُحضر معها للمستشفى بعض المستلزمات والأدوية النافعة، وراحت تُسدي النصائح وكأنها خبيرة، هي لم تكن خبيرة لكنها كانت مُخلصة، والإخلاص ينفع الناس ويُثري العمل أكثر من الخبرة، ترددت أسماء كثيرة على مسامعها وحكايات عن بطولات لم تكن تقرأها أو تسمع عنها في مجالاتها المنزلية، بدأت تتردد أيضًا على بعض الدوائر التي يخطب بها الثوّار أو المثقفون، وطفقت مراوح عقلها في الدوران وطرد الهواء الراكد والأفكار الفاسدة، لسبب لا تعرفه كانت تبحث عنه كل يوم وتحرص أن تَمُرّ بنفس البُقعة التي سمعته عندها وهو يخطب في الناس، لكن دون جدوى، لم تجده ولم تحرص على أن تجده، كأنه مجرد شبح عبر دون استئذان ثم رحل كما أتى، كانت كثيرًا ما تتخيل حوارًا طويلاً بينهما، وأحيانًا تتخيله بطل

الحواديت البطولية التي تسمعها، هو لا يُعجبها كما لم يُعجبها رجل من قبل، حتى زوجها ما كان يُعجبها إلا بعد الكثير من محاولات الجذب، هي فقط مغتاظة منه، تُريد أن تُبارزه بسيف، تخرق قلبه أو يخرق قلبها، ويزداد غيظها من نفسها كلما فكرت به، لأنها فكّرت به، فتدخل مرغمة في دائرة مغلقة من الغيظ. لا تعرف لماذا يشغل هذا الحيز من تفكيرها وهو مجرد شبح، حتى رأت الشبح في اليوم السادس لها بالميدان، لكنه لم يعد شبحًا، كان إنسيًا بعيون حمراء ووجه مُلتهب، يسنده صديقان من ذراعيه، يضعانه أمامها على فِراش أرضي خفيف، كانت تقف عند رأسه تجمع كل مشاعرها المُشلتة لتراه وتحفظه، وتطبعه في مخيلتها، قبل أن تُساعده.

سبقتها طبيبة صغيرة لتمسح له وجهه وأخرى وضعت القَطرة في عينيه، كنّ معنيات به كثيرًا لدرجة أثارت اندهاشها، حاولت أن تَظهر في الصورة وتجعله يراها، عاودها إحساس قديم أيام الكُليّة عندما كانت الفتيات يتسابقن للظهور بشكل جذاب أمام أي شاب مميز، طالب أو مُعيد، وكانت هي تسخر منهن ولا تشاركهن في هذه المواقف الاستعراضية، ليس فقط عن تحفُّظ وخجل لكن عن عدم اقتناع أيضًا، ثم إنها لا يُعجبها أحد، هكذا كانت ومازالت تُردد داخلها، لكن هذا اليوم ضبطت نفسها تتسابق معهن لتجد المكان المناسب الذي يراها منه، لكن ما لبثت أن عادت لطبيعتها المتحفّظة وابتعدت وشغلت نفسها بشيء آخر، عندما استفاق شكرهن بوُدّ وغادر دون أن يلحظها، سمعتهن يتحدثن عنه

بشغف، عرفت أنه ثائر نشط وليس ناشطًا سياسيًا، لا ينتمي لأي حزب أو حركة، لكنهم جميعًا يستعينون به في الخطب والاجتماعات والمحادثات، لأنه خطيب مُفوّه حلو الحديث ولأن لديه ثقافة واسعة وقُدرة كبيرة على الاستنباط والتكهُّن وربط الأحداث في مصر والعالم، كنّ يتحدثن عنه بحب وفخر لمسته في عيونهن المتسعة وحناجرهن المتحمسة، لم تهتم بحماسهن كثيرًا فهي تعرف أن الفتيات يعشقن الرسم في الخيال والتهويل والتعظيم لإرضاء هذا الخيال، هي متأكدة أن معظمهن يعشن وهم أنهن يحببنه وبعضهن يعشن وهم أنه يبادلهن المشاعر! أما حقيقة ما رأته أنه رَجُل يجيد اختراق القلوب.

لماذا لا تقول لي "أحبّكِ" إلا وأنت فوق السرير، أو فوقي بمعنى أدق؟

لماذا لا تُناديني بحبيبتي؟

لماذا لا تجلس جواري ونحن نُشاهد التلفاز؟

لماذا لم تَعُد تُقبّل يديّ أو حتى تُمسكها؟

لماذا لا تبتسم لي؟

لماذا لا تُغازلني؟

لماذا لا تُشاركني اهتماماتي أو تدعني أشاركك اهتماماتك؟

لماذا لا تحضنني وتمسح دموعي عندما أبكي؟

لماذا إذا نمت فوق صدرك لا أسمع نبضًا يهتم بي؟

لماذا لا تُفاجئني؟

لماذا لا تُجن وتفقد عقلك معي؟

لماذا لا تُحاول أن تُرضيني؟

لماذا تتذمر من كل تصرفاتي؟

لماذا كل شيء فيك يقول إني لا أعجبك؟

لماذا تزوجتني؟

لماذا لا تتركني؟

طوت الورقة التي تحمل كل هذه التساؤلات ووضعتها في جيب السُترة التي أعدتها له ليرتديها. عندما أقبل عليها وجدت الغضب يعلو وجهه قبل أن يصرخ بها "أين روشتة طبيب العيون؟" ردت بهلع:

- لا أدري.. هل بحثت عنها في درج التسريحة؟

- بحثت عنها في كل مكان ولم أجدها.. وكيف أجدها في الفوضى التي أعيشها معك.

لم تُحاول الدفاع عن نفسها، فهي تعرف أنها محاولة فاشلة لن تُجدي معه نفعًا، بل وستُشعل من غضبه، كانت في أول عام من الزواج تبكي من انفعالاته الشديدة واتهاماته الغاضبة وعدم صبره، ثم بدأت في العام التالي تَرُدّ عليه وتقف أمامه كديك شركسي أرعن، فلم ينبها إلا الأذى النفسي والبدني، فقررت في العام الثالث أن تصمت أمام عاصفته. حتى إن انتزعت كل أوتاد صبرها، ذهبت للبحث عن روشتته في كل مكان رغم أنها طلبت منه مرات عديدة أن يضع أشياءه في مكان يسهل تذكُّره بدلاً من أن يتهمها بالفوضى والإهمال كل يوم، وصلها صوته العالي من غرفة المعيشه وهو يُردد:

- إنسانة مهملة لا تتحمل المسؤولية.. تسهر في المسلسلات وتستيقظ عند الظهيرة لتواصل وخمها.. إنسانة كسولة لا تفعل شيئًا أبدًا إلا التفاهات.. إنسانة على هامش الحياة، لا تبتكر، لا تصنع السعادة، ولا حتى تُجيد فِعل أبسط الأشياء.. كان يوم تعاستي يوم أن خُدعت في هذا الوجه الجميل وظننت أن وراءه شخصية أجمل..

"حسنًا، أنا أسوأ امرأة في الوجود" هكذا قررت داخلها باستسلام وحُزن دون أن تَنطِق، واستكمل هو موشّحه اليومي من ندب حظّه معها:

- بيت غير منظّم وحياة مُملة.. لا تفعلين شيئًا إلا مشاهدة برامج الموضة والجميلات اللاتي لن تصلي لأن تكوني مثلهن أبدًا.. طالما أنك تتشحين من رأسك لأخمص قدميك بالقُطن، وبرامج الطهو التي تملئين كراريسك

بوصفاتها ثم تصنعين مصيبة جديدة كل مره تُجربين فيها، لا تستطيعين أن تقودي سيارة أو تتحدثي بلباقة أو تواجهي الناس وحدك.. أنتِ حتى ليس لكِ مُجتمع.. عروسة جميلة تجلس في البيت تنتظر زوجها حتى تُؤلم رأسه بالحكي الفارغ وحسب..

عثرت أخيرًا على الروشتة في جيب أحد قمصانه، أحضرتها له وهي تقول بنفاد صبر:

- هكذا أردتني يا محمود.. عروسة جميلة.. هكذا حافظت عليّ في البيت لا تسمح لي بالعمل أو حتى الخروج.. هكذا وضعتني في مدينة جديدة أشبه بالصحراء لا أستطيع التحرّك منها إلا بالسيارة التي ترفض كل مرة أطلب منك أن تُعلمني قيادتها، بل وترفض التحاقي بمدرسة لتعليم القيادة.. أنا لم أقصّر يا محمود.. أحاول دائمًا حتى وإن فشلت محاولاتي.. أحاول أن أكون كما تُريدني.. ولو أني لا أعرف كيف تُريدني امرأة بمائة رجل أم أنثى تهتم بكل تفاصيل الأنوثة، ومع ذلك فأنا أحاول أن أدير أموري وحدي لأنك ترفض أن تُحضر من يُساعدني وترفض أن أنزل للحياة وحدي، وتؤنبني لأني أعتمد عليك.. تُعايرني دائمًا بأني لا أفعل شيئًا.. كيف لا أفعل شيئًا وكل احتياجاتك واحتياجات طفلنا أُلبيها.. كيف لا أفعل شيئًا وأنا من أُعطيك وقتي وعمري وجهدي كله.. حتى حسابي البنكي الصغير تنازلت عنه لك.. ماذا بإمكاني أن أفعل أكثر؟

- أموالك لا تُساوي شيئًا بالنسبة للأموال الطائلة التي أنفقها عليكِ وعلى هذا البيت، ومحاولاتك كلها فاشلة مثلك.. أنتِ إنسانة فاشلة.. لم تُقدمي لي شيئًا إلا النكد والحياة البائسة.

همّ بالخروج فاندفعت خلفه تحاول أن تنزع الورقة التي وضعتها في جيبه، دفعها بعيدًا عنه وفي يدها الورقة، نظر لها وللورقة باستهزاء وهو يقول: "ماذا كتبتِ هذه المرة.. أغنية أخرى؟ لا فائدة منك.. لن تنضجي أبدًا يا تافهة!" صفق الباب وراءه تاركًا نهرًا من الدموع في عينيها وقد ارتفع صوت أغنية من المنزل المجاور لفيروز وهي تَصدح..

(معقول في أكتر.. أنا ما عندي أكتر.. معقول في أكتر.. أنا ما عندي أكتر)

*****

غضبت كثيرًا عندما عرفت بحريق الجامعة الأميركية. لم يقتصر الخراب على الأماكن البعيدة عنها فقط وإنما امتد ليشمل أماكن مُتعلّقة بها وشهدت خطواتها وشهيق الفرح وزفير السخط. كانت غاضبة من الوضع برُمّته رغم أنها لم تتعمق يومًا في السياسة. وكانت تُتابع الأحداث وتنفعل وتثور بدافع وطني فقط وليس سياسيًا. بل إنها تمقتُ البرامج الحوارية ونشرات الأخبار ولا تفقه شيئًا عن الأحزاب والحركات السياسية. حتى عندما بدأت في نزول الميدان اهتمت بالجانب الإنساني والوطني ولم تشغل نفسها بمعرفة تفاصيل الأحداث. فدائمًا ما يعطل عقلها عند المواضيع الجادة الجافة التي تُشبه مصطلحات المراجع الكبيرة. وقد كرّست تفكيرها من قبل ومن بعد في زوجها المقدس ومحاولة إرضائه، ومن ثم في محاولة الانتقام منه. وحتى خططها التي أعدتها وربطت خيوطها لم تعد تشغلها بعد أن وجدت في أرجاء الميدان روحها التي تاهت عنها طويلاً.

تركت صغيرها عند صديقتها مروة كما اعتادت في الأيام السابقة وقضت نهارها في المستشفى الميداني. كانت تخرج منها للشارع كل حين لتشاهد المظاهرات والاشتباكات دون أن تتجرأ على المشاركة إلا من خلال واجبها

كمُسعفة، وأثناء النهار الدافئ بشمس نوفمبر الحنون في الساعة الحادية عشرة تمامًا رأته، كانت تقف على مسافة من الكنيسة وكان يقترب منها وهو ينظر لها دون غيرها، تخيّلت أنه أتى خصيصًا ليراها، ابتسمت ابتسامة واسعة لهذا الخيال، ابتسامة حبيبة تستقبل حبيبها بسعادة وترحاب، وقف أمامها بطوله الفارع وقال بودّ دون أي مقدمات "أنا آسف". رفعت كتفيها في تساؤل جسدي، وعيناها ترقصان فرحة رغمًا عنها وقلبها يكاد ينخلع من مكانه من شدّة الفرح، إنها لم تره فحسب ولم يأتِ من أجلها فحسب، ولكنه يعتذر، وهذا في حد ذاته بالنسبة لها يُعد من أشدّ المعجزات، أن يعتذر رجل! قال لها ببساطة: "أنا حسن المنذر". ردت بصوتٍ فَرِح: "وأنا عالية". كانت تشعر وهي تُقدم له نفسها أنها غيرها، ربما أصغر أو أجمل أو أكثر تحررًا، هي في دنيا غير الدنيا وعلى أرض غير الأرض، كأنها تحلم، لقد بدأ الحلم توًا.. قال:

- رأيتك أمس في المستشفى الميداني.. فأدركت كم كنت مخطئًا عندما ظننت أنكِ مجرد زائرة مُستفِزة من سُيّاح الميدان.

ردت بصعوبة: أنت لم تُخطئ يا أستاذ حسن لأنها بالفعل كانت مرّتي الأولى في الميدان.. وكنت أظنّها الأخيرة.

قال ضاحكًا: إذن أسحب اعتذاري.. فأنتِ كنتِ حقًا مُستفِزة.

ضحكت وتعجبت من جرأته وغرابته، أول مره يتحدث معها يتعارك معها ولا يأبه بإحراجها، وثاني مره يُخبرها أنها مُستفِزة، وربما بعد قليل يسُبَ أهلها! ردت وقد بدأت تستجمع نفسها:

- وأنتَ لم تكن أبدًا gentelman

ضحك بذهول وهو يحاول أن يبحث في وجهها عن شيء ما، ثم قال بلهجة آمرة وهو يتقدم خطوتين:

- تعالي نتمشى.

نفّذت الأمر دون تفكير، خطت جواره كأنها تُحلّق، وبينها وبين الأرض القُطنية مسافة من السعادة، كانت خطوته أصغر من خطوتها وأبطأ، فسبقته بمرح طفولي: "أنتِ مستعجلة؟". قالها باستنكار وهو يُصرّ على أن تُجاريه في خطواته البطيئة، فأذعنت. حدّثها في الطريق عن حادثة اختناقه بالأمس جراء قنبلة غاز، وعن الأعداد الكبيرة من قنابل الغاز التي لم يشهدها من قبل، حدّثها عن مواقف بسيطة طريفة حدثت له في كل شارع، دُكّان وقهوة مرّا بها، حدّثها عن أخته وابنها وعن أبويه وحياته الهمجية، حديثه كان حميميًا عن تفاصيل عائلية صغيرة وليس الحديث المعتاد بين رجل وامرأة غريبان، يعتصر كل منهما نفسه ليُظهر أروع ما فيه وينتقي أوسم الأقنعة وأكثر الثياب مثالية، أحبّت حديثه الذي حررها من تَحفُّظها وببساطة حلّ كل العُقد وذوبّ كل ثلوج روحها المُتراكمة هنا وهناك، الشوارع بدت هادئة أو أنها شعرت أن الكون كله هادئ وخالٍ من

البشر، تسير في طريق غريب بجوار رجل غريب يتصرف بشكل غريب، ومع ذلك تشعر أنها مطمئنة ومسترخية كما لم تشعر من قبل، طلب منها بلهجة جادة أن تحمل عنه حقيبة الحاسوب المحمول لأن كتفه بدأ يؤلمه من حملها، فضحكت ملء صدرها وضربت كفًا بكف، ابتسم بحميمية وهو يُبدي تعجُّبه وتأففه من حركات البنات كما سمّاها، لم تسأله إلى أين يذهبان، كانت تسير معه فحسب مستسلمة لنشوة المغامرة ولذة المجهول، حتى وصلا إلى مقهى أنيق، طلب منها أن يتناولا القهوة ويتحدثا قليلاً، لم يطلب بصيغة الرجاء وإنما بصيغة الأصدقاء المقرّبين الذين تتحول صداقتهم فجأة لمشاغبة ومناكشة محببة.

- تعالي أدعوكِ على قهوة وأمري لله.

ابتسمت واستمرت في مغامرتها دون تفكير، بحِسبة صغيرة حسبتها وهي في الطريق؛ لن يضُرّها شيء إذا خرجت عن قُضبانها في استراحة قصيرة، تعود بعدها للهث وراء المحطات، ماذا سيحدث لو نزلت من فوق أرصفة المنطق والعادي وعاشت ولو للحظات في شوارع اللامنطق، ولماذا تخاف من شيء مجهول إذا كان المعروف المُطمئن القريب غدر بها، ثم إنها أبدًا لم تشعر طيلة سنواتها التسعة والعشرين بمثل هذه السعادة (من أنتَ يا حسن لتهُزّ كياني بهذا الشكل؟) جلست في المقهى قِبالته وكانت مرتبكة، فتلك هي أول مرة ترتاد فيها مقهى مع رجل، حتى زوجها لم تكن تذهب معه للمقاهي، كانت مرتبكة أيضًا لأن المكان كان مزدحمًا بالبشر، وزاد ارتباكها إلى أقصى حد عندما سألها إن كانت ترغب في التدخين، ردت

عليه بنظرة مصدومة ومستنكرة رغم أن داخلها كان مبهورًا مأخوذًا، امتص هو ارتباكها بعفوية حديثه، لم يكن يتحدث باللباقة نفسها التي سمعته بها أول مرة، حديثه كان مُحمّلاً بروائح عديدة، لكنه سهل وقريب للقلب والعقل، حدّثها عن الميدان بشكل جديد لا يتضمن أطروحات سياسية، حكى لها عن صور مؤثّرة للسخط والغضب والوطنية التي ملأت البشر، حكى لها عن أوجاع الناس وطيبتهم وإصرارهم، حكى لها عن الأيام القليلة خلال الثورة التي سقطت فيها دموعه، حكى لها عن كتاب يقرأه وأغنية يُحبها، حكى لها عنْ أمله في سقوط رموز الفساد وأن تستكمل الثورة أهدافها ويُمسك الشباب الزمام، حكى لها عن خيباته وإخفاقاته التي لم يعُد يكترث بها، حكى عن حبيبة سابقة هجرته لأنه اعتنق الحُرّية والطيران خارج السرب والسير والناس نيام والصُراخ والناس قتلى الصمت، حكى لها عن إشاعات وأقاويل تُطارده أينما ذهب وعدم اهتمامه بالرد عليها، حكى لها عنها، عن سبب مجيئها في هذه الأيام للميدان، عن أشياء يراها في عينيها وخطوتها الواثقة وكفّها المرتبك، وعن طبيعتها المُختلّة التي لفحته من أول يوم رآها.

كانت تسمعه بشغف وتوتر، أخفت رعشة يديها بأن شبّكت أصابعها وسندت ذقنها فوق يدها وذراعاها ضاغطان على المائدة، لكنها لم تستطع إخفاء الدهشة المزدانه بالفرح التي كانت تحت جفنها الذي لا يرمش، "هو أيضًا سعيد"، قالتها في نفسها لتؤكد شعورها بأن ما يحدث معها لابد أنه يحدث معه، هذا الفوران من المشاعر، لم تنطق سوى بكلمات قليلة

فضحت سعادتها، حكت له عن موقفها من الثورة ورغبتها الجامحة في المشاركة والتي كانت القيود الكثيرة تحول بينها وبين تحقيقها، ضحكت كثيرًا عندما قال لها إنها من (حزب الكنبة)، ودافعت عن نفسها بأنها من (حزب الفيس بوك)، ثم ما لبثت أن أخبرته أنها أم، وكأن هذا يكفي بالدليل أن يعرف أنها متزوّجة، لم تتغير ملامحه ولم يُهمه الخبر الذي ظنت أنه سيُفاجئه، ومع ذلك لم تجرؤ أن تسأله عن نفسه، خافت وفضّلت أن تظل هناك مسافة الغريب حتى وإن تخطاها هو، شربت العصير وانتهى من قهوته، لم ينتبها أنه مرّت ثلاث ساعات من وقت أن التقيا، أخبرها أن لديه موعدًا مُهمًا، وأخبرته أنها يجب أن تعود للمنزل، فغادرا المكان بخطوات ثقيلة وسارا باتجاه محطة المترو بخطوات أثقل، هناك قرر فجأة أن يستقل معها المترو، وكانت كل قرارته فُجائية تنبع من نبضه ليس من عقله، ركبت معه عربة الرجال المزدحمة، كان أكثر طولاً في المترو، ربما لأنه كان أكثر قُربًا، حاولت أن تُركز على أي شيء بعيد لكن مغصوبة كانت تنظر إلى صدره الذي يُواجه عينها ويحيط بصرها، ندّى الخجل جبينها بحبات العرق، وكانت أنفاسها تلهث من نشوة المغامرة رغم فراشة الخوف التي كانت تخفق في قلبها، والتي طارت وحلقت في محيط القلب عندما تأرجحت عربة المترو بشدّة فتمسّكت بكُم قميصه وأمسك هو بكفّها للحظات، شعرت أنه يضغط على أصابعها فسحبت يدها بسرعة وارتباك، عند المحطة نزل معها وقال لها: "غدًا بعد صلاة الجمعة سألقي كلمة من أمام مسجد عُمر مكرم.. بعدها ستقوم مظاهرة كبيرة". ثم بلهجة حانية لم تسمعها منه طوال النهار: "أُريد أن أراكِ".

ردت بدلال فتاة لم تُكمل عامها السادس عشر "حسنًا، سأحاول.. بكل ما في وسعي". رد بلهجة أكثر ودًا: "وأنا سأنتظرك.. بكل ما أوتيت من صبر".

لا تذكر منذ متى بدأت تكذب على محمود، تقريبًا منذ ثلاثة أشهر، من ليلة العيد تحديدًا، لم تندم أو تؤنب نفسها، بل استمرت في الكذب أكثر، إما بتمثيل أدوار الهدوء والطيبة والقطة التي لازالت مُغمضة العينين، إما بالخروج والحِجج وعدم مشاركته تفاصيل حياتها كالسابق، لم تحسب في حسبتها الطويلة أنه سيكشف كذبها يومًا ولن تكون لديها الحجج، وصلت لباب المنزل فتنهدت وأغمضت عينيها، حاولت أن تنزع نشوة مغامرتها من ملامحها وترتدي ثوب الجد والمنطق والعقل من جديد، دخلت فرأته قد عاد مُبكرًا، لم يكن ذابلاً كالأيام الأخيرة، استعاد صِحته وشكيمته بالغضب وتورد وجهه من الحنق، انتظرت صرخة تعرفها جيدًا، غالبًا تتلوها هجمة تُسقطها على الأرض أو ترزعها في الحائط، لم تخف.. لم تعد تخاف، كانت سعيدة في مزاج صافٍ لا تسمح مائة هجمة بتعكيره، لكنه لم يصرخ واكتفى بأن سألها بهدوء جاهد كثيرًا حتى يُبقي عليه:

- منذ متى وأنتِ ترتدين بنطال جينز.. أين تنانيرك؟

- التغيير جيد يا محمود.. ثم إن البنطال الجينز أكثر عملية من التنانير.

- وهل تسمح لي زوجتي العملية بأن أعرف أين كانت حتى الخامسة عصرًا.

- كنت عند مروة.

- كاذبة.

كيف فاتها أن مروة زوجة صديقه، وأنه حتمًا قد اتصل بهما عندما أتى ولم يجدها هي والصغير بالمنزل، لم تُجهد نفسها في اختلاق أعذار، كانت الحياة زاهية ومختلفة في عينيها فلم تعبأ بتحضير كذبة جديدة أو الخوف من نتيجة فِعلها، قالت بأعصاب باردة:

- حسنًا.. أنا تركت كريم عند مروة.. وذهبت إلى ميدان التحرير لأُشارك في التظاهر.

صدمته كلماتها فصرخ وهجم وطرحها أرضًا وهو يهذي بكلمات التوعد والعذاب، كانت مستسلمة لقبضته كدمية من قماش، يرفعها من الأرض ليصرخ بها ويلطمها ثم يطرحها أرضًا من جديد، صمتها أشعل ثورته أكثر وكان هذا هو الوقت المناسب للتنفيث عن غضب الشهور الماضية المكتوم في صدره، شعرت هي بالدماء تنفجر من أنفها وتُغرق ثيابها لكن ما أزعجها أكثر من منظر الدماء هو منظر صغيرها المذعور الذي كان يرتعد خلف باب غرفته وهو يمد رقبته وينظر لهما بأسى، انفلتت من بين يديه ودخلت الحمام، همّت بإغلاق الباب لكن قوتها لم تُسعِفها ففتح عليها الباب وصفعها كما لم يصفعها من قبل بكل غضب الرجل وقهره، فسقطت على السيراميك الأزرق البارد الزلق مغشيًا عليها.

- لماذا فعلتِ هذا؟

كان سؤاله أول ما سمعته عندما أفاقت في سريرها، تحسست رأسها الذي يؤلمها بشدّة وبعض مواضع الكدمات التي بدأت في الازرراق، كانت ترتدي ثوبًا منزليًا خفيفًا نظيفًا، وكان هو يجلس على طرف السرير وفي عينيه آثار دموع وقلق، أشفقت عليه رغم ما نالها منه، وللحظات شعرت أنها كانت تحلُم وعادت إلى ما كانت عليه منذ ثلاثة أشهر، أعاد سؤاله ولم تكن قادرة على الإجابة أو حتى الحركة، همّ بالانصراف وقبل أن يُغادر الغرفة قال تحذيره الأخير: "إذا كررتِ فعلتك وخرجتِ لمكان دون عِلمي فاعلمي أنها ستكون النهاية".

ما إن خرج حتى دخل كريم الصغير واندسّ في حُضنها، يؤلم جسدها المُجهَد ويُداوي قلبها بقُبُلاته الحنون، تعرف أنه ليس طفلاً عاديًا وأن إحساسه أكبر من عُمره، هو لا ينسى مِثل أبيه ولا يُعبّر عن مشاعره حتى من الرفض والقبول سوى بنظراته التي لا يفهما غيرها، فهذا هو طبعه المُتحفّظ الذي ورثه عنها، بكى كثيرًا وبكت حتى اختلطت دموعهما، أخبرته من بين الدموع أن أباه رجل طيب وأب عظيم ويحبهما، وما حدث كان من فعل الشيطان الذي وُجِد ليُفسِد حياتنا ويُشعِل من غضبنا حتى نُخطئ وأننا يجب ألا ننصاع له، طمأنته أنها وأبوه بخير، وبأن غدًا الحياة ستُصبح أجمل.

أمسكت بالبطاقة لتحفظ العنوان والاسم (Feminine gym)، جهّزت حقيبة صغيرة بها بِنطال رياضي وبلوزة خفيفة بدون أكمام ومنشفة. حضنت الصغير ذا الستة أشهر فإذا به يئن ويشد ثيابها حتى يُظهر له مبتغاه، ضمّته برفق لتُرضعه وتتصل عيونهما في لقاء حميمي يجمع بينهما كل رَضعة، تُداعب رأسه الصغير المستدير والزغب الأشقر الذي يكسوه، وأُذُناه الصغيرتان وعُنقه الدقيق، كانت تُمسّده بحب عندما دخل محمود فنظر إلى ما ظهر منها نظرة خالية من الشهوة ومن أي شيء، ثم قال ساخرًا مداعبًا مؤلمًا: "صدرك رحمه الله.. كان رجلاً طيبًا قبل أن يتحول لمطعم ويلقى نحبه". حاولت أن تبتسم أو تضحك على المزحة فلم تستطع، انتهى الصغير فغادرا المنزل للنادي الصحي الجديد، حيث قررت أن تُمارس الرياضة لتُحارب هذه البطن الجديدة التي اكتسبتها من احتواء الصغير وهو ينمو بين أرجائها، والتي يسخر منها ويعايرها بها محمود في كل مناسبة، ويدّعي أنها حامل في شهرها الخامس ويتأفف منها في مناسبات أخرى!

ولأنها تُحبه لم تكن تلحظ كِرشه الصغير حتى تُبادِله المعايره، وإنما كانت مكتفية بالغضب المكتوم الذي تنفث عنه أحيانًا بتنهيدة أو نظرة غاضبة معاتبه لا يكترث بها، ولم تكن بطنها الشيء الوحيد الذي يُعلّق عليه بسخرية، كان يسخر أيضًا من شعرها ويصفه بأنه بلا شكل، وأنه كان يُفضّله متموجًا غجريًا، ويسخر من رِقة جسدها ويُسمّيها ضعفًا، كانت تغضب وتحزن وأحيانًا تبكي وحدها، لكنها أبدًا لم تفقد ثقتها العالية

واعتدادها بنفسها الذي بناه فيها والداها، تحسست بطنها التي تُشبه وسادة صغيرة وهي تُبدّل ملابسها لتنزل صالة الألعاب الراقية، حيث الموسيقى الأجنبية الصاخبة ملأت أرجاء المكان، صُدمت عندما وجدت المدربات لهنّ بُطون أكبر من بطنها، تساءلت كيف سيساعدنها على التخلُّص من حِملها إذن إذا كُنّ لا يستطعن مساعدة أنفسهن، الإضاءة نيون قويّة والأرض خشبية لامعة، أصوات الآلات الرياضية مع الموسيقى أغرتها بالتحرر، لاحظت عدم اهتمام الفتيات المحجبات بشعورهن، يتركنها مكوّمة على شكل كعكة خلف الرأس على مختلف الأشكال، كعكة مُشعثة، مُهذّبة، مصبوغة، نديّة، أمّا هي فقد عقصت شعرها ذيل فرس طويل ومهندم، فهي دائمة الاهتمام بنفسها، ويزيد الاهتمام كلما اقترب من جسدها أكثر، فمن يعرف أنها لا ترتدي من الملابس الداخلية سوى أغلى وأرقى الماركات (حتى زوجها لا يعرف ولا يلتفت لها عند تبديل ملابسها) وتهتم كثيرًا بنظافتها الداخلية مستخدمة الشاور جل وكريمات الترطيب والعطور الطبيعية المُنعِشة، تعلّمت كل شيء من البرامج وحافظت على ثقتها في جسدها.

بعد القليل من اللعب تغيرت الموسيقى الغربية لأُخرى شرقية، وترك الجميع الأجهزة ونزلن بساحة اللعب الخشبية، وقفت المُدرّبة في المنتصف، تحركت بِخفّة ما بين الرقص والرياضة وقلّدها الجميع، وقفت هي لدقائق خجِلة حتى تجرأت وشاركتهنّ الرقص، لأول مرة ترقص خارج جدران غرفتها، رقصت وتعرّقت، كانت في منتهى السعادة وهي تُحرر

جسدها من جمود الحياة وتختلط بنساء يبدو أنهنّ سعيدات، يضحكن ويتهامسن ويرقصن بمرح، سألتها امرأة في العِقد السادس من عمرها عن سبب نزولها للنادي الرياضي رغم نحافة جسدها، فأشارت إلى بطنها وقالت من أثر الحمل، ضربت المرأة كفّا بكف وقالت لها إن زوجها يجب أن يبني لها تمثالاً لأنها مازالت بهذه الرشاقة والجمال بعد الولادة، لوت شفتيها في مرارة لأنها تشعر أنه يراها أقبح امرأة في الوجود، عادت للمنزل وهي تُغني وقلبها مازال يرقص، حكت لمحمود عن القاعة والتدريب والرقص، انتبه على سيرة الأخير وسألها باستنكار:

- إذن تعرفين كيف ترقصين؟

- أكيد يا محمود.. هل توجد بنت مصرية لا تعرف!

- ولماذا لا تستغلين مواهبك هنا بدلاً من أن تُمتعي بها الناس.

جمدت في مكانها لا تعرف هل هو جاد أم يمزح، وهل تردّ عليه بما يستحق أم تصمت اتقاءً لشرّه؟ خُيل إليها أنه لا يفهم ما كانت تحكيه، عاد ليسأل:

- لماذا لا ترقصين لي؟

- لأنك لم تطلب.

- وهل عليّ أن أتوسل حتى ترقصي.

- لا ، عليك فقط أن تُجهز الطقس المناسب، أم تريدني أن أدخل عليك راقصة هكذا دون مناسبة وتقديم.

- الهانم لا ترقص إلا بتقديم؟

- قدّموا لأنفسكم يا محمود، إنه ديننا يا عزيزي.

- أنا سأعرف ديني منكِ إذن؟

كانت تعرف أنه سيحوّل الحديث لمُشاحنة، وكانت تعرف أنه مغتاظ من خروجها، وأنه يغتاظ من سعادتها لأي سبب غيره، وبدأت تتأهب أنه يُحضّر لشيء يقسِم به سعادتها، وكان حدسها صحيحًا، إذ قال ببساطة وهو يستعد للنوم:

- لا داعي للذهاب للنادي الصحّي مره أخرى، أنا لست مطمئنًا عليك هناك ولا لركوبك سيارات الأجرة، سأحضر لكِ أسطوانة لبعض التمارين إن أردتِ أن تُمارسيها في البيت.

*****

المنظر من شُرفة مروة أجمل لأن شقتها في الطابق الخامس وتُطلّ على الشارع العمومي بتفرعاته، بخلاف شقتها التي تُطلّ على شارع خلفي هادئ لكنه يروقها. الطريق خالٍ إلا من بعض باصات المدارس شبه الفارغة والحافلات الثقيلة. بعد قليل سيُصبح أكثر ازدحامًا مع وقت خروج التلاميذ. المدرسة القريبة أنيقة البناية وصوت التلاميذ فيها هو مزيج من اللهجات الأجنبية والضحكات المرحة. كانت مروة تقف ساهمة وهي ترتدي بيجامة شتوية من القطيفة الناعمة وتُراقب المدينة الهادئة من حولها. أما عالية فجلست ترّص الكعك الذي صنعته توًا في طبقين صغيرين وهي ترتدي إسدال الصلاة الأزرق الفضفاض. مرّ أسبوع على حادثة الضرب. لم تُحاول إخبار أهلها لأنها تعرف أنهم لن يتنازلوا عن الثأر لكرامتها ولن يجعلوها تعود له إلا بعد حين، إذا عادت من الأساس، وربما تنسى وينسى هو كل ما كان، ويبقى أهلها متألمون على كرامة صغيرتهم التي أُهدِرت. بدأت هي محاولة جديدة لاستعادة بيتها ليس لسبب إلا من أجل عيون كريم البائسة ونظراته المذعورة. هي لن تسمح لشيء بأن يُعكّر نفسيته ويجعل منه طفلاً مُعقّدًا. ستُحاول بكل ما فيها أن تُصلح ما أفسده أبوه، حتى إن اضطرت لأن تتخلى عن بعض من

كرامتها وعن أشياء تُسعدها وتعطيها الطاقة الإيجابية والقدرة على الحلم، ستبحث عن هذه الطاقة هنا في بيت محمود، الشيء الوحيد الذي لم تستطع القيام به هو أن تُعطيه جسدها، فكل قطعة أصابها بقسوته لا تقبل أن يقترب منها بحنانه، جسدها له بقايا كرامة تأبى التسامح الأحمق وقلبها لم يغفر بعد، هي فقط تُحاول إصلاح الأمور الظاهرة أمام عيون ابنها الغالي.

مروة أيضًا لا تبدو على ما يرام، هي التي حضّرت لهذا اللقاء وأخذت إجازة من العمل حتى تستطيع الجلوس منفردة مع عالية دون صخب الأطفال، ومع ذلك فهي لم تنبس بكلمة سوى كلمات الترحيب العادية، يبدو أنها كانت تودّ الجلوس مع نفسها أكثر، أحيانًا نُفضّل الجلوس مع أنفسنا أمام شخص نُحبّه ونثق فيه، فحوارنا الصامت وأنفاسنا المتبادلة تُساعدنا على ترتيب الأفكار التي تُبعثرها الوحدة والتفكير الذاتي، لكن عالية لا تُريد الصمت، فالصمت يجعلها تُفكّر بوضوح وهي تُريد أن تُشوش على أفكارها، تُريد أن تمضي في الحياة عمياء صماء بكماء دون شعور، تُقدّم خدماتها للبيت ووقتها وحبها لهما فحسب، تحدّثت عن الكعكة وطريقة صُنعها وطريقة صُنع أنواع أخرى من الكعكات والبسكويت، حتى وجدت مروة تدُس يدها في جيبها لتُخرج علبة سجائر وببساطة تُشعل واحدة وتنفث الدخان باستمتاع، اتسعت عينا عالية دهشة، فهي لم ترَ مروة خلال صداقة الأعوام السبعة الماضية تُدخن، بل ولم تتوقع منها هذا.

-كنت أظن أني الأكثر بؤسًا هنا، لكن يساورني شعور أني لست وحدي.

ابتسمت مروة بمرارة، لم تكن كثيرة التذمر والشكوى من الزواج وسنينه مثل بقية النساء المتزوجات، وكان هذا هو سبب ارتياح عالية لصداقتها، فهي كانت تبغي صداقة تُهوّن وتبعث السرور والترويح عن النفس، وهذا ما لمسته في شخص مروة المرح، لكن اليوم مروة تبدو مختلفة، ما بها فاض وبدأ يبحث عن طريقه للخروج، انتهت من سيجارتها ثم بدأت في الحديث بانفعال غريب لم تُشاهده عالية عليها من قبل:

- أنا أسعد امرأة في الوجود.. هكذا يقول المنطق ويرى الناس، زوجي يعشقني ويُخلص لي، ابنتي جميلة وتنثُر البهجة أينما وُجدت، أعمل في مكان مميز وأتقاضى راتبًا يكفيني ويزيد، زوجي يحاول أن يُرضيني بكل الطرق، بيتي منظم وأنيق، لدي خادمة مقيمة تُساعدني في كل شيء، خزانة ملابسي تحوي أجمل وأغلى الثياب، المفترض أنه لا ينقصني شيء.. لكن لا أدري يا عالية.. أوووه.. أنا تَعِبة، أشعر أني أتعس امرأة في الوجود، وبأني لست حُرّة، أشعر أن زوجي وابنتي قيود ثقيلة تُكبّلني وتحُد من حركتي، أشعر بعدم تواصل معهما وعدم انتماء لهذا البيت، عندما أجلس معهما أضع سماعات في أذني لأُشغل نفسي بأي شيء وأحيانًا أهرع للنوم لأهرب من عيونهما السعيدة المُتسائلة عن حالي، أصبحت أبكي لأشياء غامضة وأنهار لأسباب أكثر غموضًا، وأشعر بالحنين لشيء لا أعرفه، بداخلي رغبة جامحة للهروب من دُنيتي المثالية، ثم أعود لأشعر بالندم من رغباتي غير المُبررة، وأبكي كلما رأيت زوجي وهو يُدلل الصغيرة

ويناديان عليّ لأشاركهما ما يفعلان في سعادة جمّة، لا يدركان ما تُخفيه نفسي من غدر، فأسقط في دائرة من تأنيب النفس والألم بجانب مشاعري المضطربة ورغبتي بالهروب.

تعجبت عالية من أمر صديقتها، لقد لاحظت شرودها في الفترة الأخيرة، كانت تسرح بعيدًا وتتغرب عيناها، لم تتصور أن يكون داخلها كل هذا الاضطراب الذي بدا لها نوعًا من عدم الرضا، لكنها لم تتطوع بالنصيحة وإبداء الرأي واكتفت بأن تكون مستمعة جيدة، تسمع بقلبها أولاً وتُعطي صديقتها حق وراحة الاعتراف، مروة استمرت في الحديث وهي منفعلة وشبه باكية، لم تستطع عالية أن تفهم مشكلتها، أو ربما لأنها صاحبة مشكلة كبيرة؛ وهؤلاء يرون أن أي مشكلة للآخرين تافهة ولا تستحق العناء والمعاناه، فالبشر كلما تألموا كلما ازدادت أنانيتهم وسخطهم على الجميع، ما وصلها أن مروة تبحث عن اللذّة في الحياة وأنها لاتجدها في كل ما حولها، لكن هل يفوق شعور البحث عن اللذة في المرأة شعور الأمومة؟ وهل الحُرّية التي تفتقدها في حياتها غير مرهونة بمسؤولية؟ كانت عالية أيضًا باحثة عن لذّة الحُرية، لكن لم تسمح لهذا الشعور بأن يُسيطر عليها حد الأرق والاكتئاب، كانت تغوص في خيالها مع مسلسل أو فيلم أو رواية، وتنتهي بمجرد أن يدُق ناقوس الواقع في عقلها، فتنهض نشيطة لتُمارس دورها في الحياة، بمتعة أو بدون لا يهم، المهم أن تقوم بواجباتها، لم تتوقف مروة عن حديثها إلا عندما سمعت صوت الخادمة وهي تُحضر الشاي وبسكويت اليانسون والقرفة.

ارتشفت الشاي وهي تفتح مشجب الصدر في بيجامتها من أثر حرارة الجو والشاي، لاحظت عالية كدمة على شكل تجمُّع دموي كبير في عُنق صدر مروة، تبدو كعضّة. لم تستطع أن تُمسك نفسها عن سؤالها عنها، ربما لأنها كانت في حاجة أن تعرف أن هناك زوجات أُخريات غيرها يُضربن وتمتلئ أجسادهن بالكدمات، كانت ستسعد من داخلها وإن أظهرت الضيق لو أخبرتها مروة أن حُسام زوجها يضربها ويترك الآثار على جسدها وفي قلبها، فكل إنسان رغمًا عنه يتمنى أن يتعثّر بمُتذوّق آخر لألمه حتى يُشاركه الآهات ويُهوّن عليه الشعور بأنه وحده من مرّ بهذا الألم، لكنها ردت ردًا مختلفًا تمامًا عما تمنت عالية:

- إنه حسام.. يترك آثاره دائمًا بعد كل لقاء.

شعرت عالية بالحرج، واستغربت كثيرًا تلك اللهجة المستنكِرة التي تكلمت بها صديقتها، في حين أنها حتى وقت قريب كانت تتمنى أن يترك محمود عليها آثارًا لعشقه واشتهائه لها، لكنه أبدًا لم يفعل، كان يأتيها بتحفظ وخمول يُشعرها أنه غير راغب بها وأنه ما يفعل هذا إلا استمرارًا لفيسيولوجية الحياة! حتى فقدت ثقتها بكونها امرأة مشتهاة، لم تتوقف مروة عند هذا الحد، إنما استكملت باستنكار قصة الكدمة!

- يُرهقني إفراطه في العلاقة.. لا يشعر بي، وأنا أسأل نفسي متى سينتهي، أشعر معه أني أداة للذّة، جسد يطوّعه حسبما أراد، يأمرني بأشياء

أفعلها فقط حتى لا أُغضِبه، لكني لا أستمتع، ربما السبب شرودي.. لا أدري.

كادت عالية أن تصرخ بها وتقول "أنتِ امرأة أنانية وجاحدة، كيف لا تشعرين بالمتعة مع رجل يعشق بهمجية ويترك آثاره عليكِ؟! كيف تشعرين أنك أداة للذّة وأنتِ تتصرفين كالعاهرات؛ تُعطينه جسدك دون روحك فتُفقدينه المتعة التي ينشدها، ويضطر للافراط حتى يحصل على متعة الجنس بالألم طالما أنكِ منعتِ عنه الإحساس!".. لم تدرِ عالية هل كان حنقها الداخلي على مروة بسبب أنها رأتها بالفعل مذنبة، أم لأنها قارنت بين حالها وحالها مع محمود الذي لا يُحاول أن يتّخذ منها أداة للذّة أو الحب، هو فقط يقوم بالواجب الذي تُحتمه عليه الحياة، هكذا كان شعورها باقترابه. أما مروة فاستمرت في حديثها المضطرب الذي لم تتعاطف معه عالية، ولولا أنها تثق في صدق مروة لكانت ظنّت أنها امرأة أخرى تمارس دور الضحية كعادة النساء.

- لماذا لا تُعطينه تركيزك حتى تستمتعي معه؟

- التفاصيل الصغيرة تفصل كل مشاعري يا عالية، قِشر شعر أجده في رأسه، شعرة غريبة نبتت في عُنُقه، ظُفر طويل ألمحه في يده، صوت عالٍ في الشارع، أي تفصيلة صغيرة تلفت نظري وتجعلني أفقد تركيزي تمامًا.

تيقنت عالية أن مروة لم تَعُد تُحب زوجها، فالحب يخفُت والمشاعر تفتر لو لم نروها كل حين بضجيج الجنون، الحيدة عن مسار الروتين اليومي

ومحاولة الخروج عن النّص، هذا ما تفتقده هي أيضًا، لكن لأنها كانت تُحب محمود كانت تفقد معه كل شعورها بالتفاصيل الصغيرة، لو كانت مروة تُحبه لم تكن لتنتبه للتفاصيل، فالعقل لو لم يغب في لحظات العشق الصارخة وظلّ متيقظًا فهو لم ولن يصل لذروة العشق أبدًا.

تقمّصت عالية دور أمها وطالبت صديقتها بالتقرُّب إلى الله. كانت تُجيد دور الأمهات في الإرشاد والإنصات، لكن هذه المره شعرت بالسأم من كلمات النُّصح الجامدة التي اعتادت ترديدها وتُجاهد حتى تُصدّقها وغالبًا لا تعمل بها، ليس لأنها لا تُؤمن بالتقرب إلى الله، ولكن لأنها لا تُؤمن أن كل سوء هو من عمل الشيطان، ماذا عن عمل ابن آدم نفسه؟ أين العقل والمنطق والدوافع والمبررات؟ هي لا يُقنعها إلا حديث عقل لعقل، أمّا الكلام العائم والنصائح العامة التي تُقال بالجُملة في كل المِحن ومُصادمات الحياة؛ فهي لا تُجدي معها نفعًا، تُكررها فقط كعادة لم تُفلح في قطعها، مروة شعرت بحيرة صديقتها ومجاهدتها في ارتداء عباءة النُّصح والتهوين، فغيّرت مجرى الحوار وحاولت أن تعود لمرحها القديم، كان من المفترض بها أن تُرفّه عن صديقتها (المضروبة) بدلاً من أن تُحمّلها همّها الخاص جدًا.

في المساء كانت لاتزال تُفكّر في الميدان وأيامها هناك، أصوات المظاهرات، المصابين وتأوهاتهم، حماس مرتادي الميدان والروح الوطنية العالية التي كانت تشتمها في أرجاء المكان، إنها تفتقد كل لحظة قضتها هناك، ولا تمنع نفسها عن استعادة كل تفصيلة وكلمة، كل كلمة قالها حسن،

عيناه كانتا تتسعان وتضيقان مع الحوار، حاجباه كانا يُشاركانه الحديث أيضًا، إنه حين يتحدث أو يسير أو حتى يصمت يُحدِث شغبًا من حوله، إنه مشاغب.. وهي تفتقد المشاغب الذي حررّ فراشة كانت تسكن صدرها، لكن هذا لن يُثنيها عن قرارها بإصلاح حياتها والتجاوز عن ذنوب محمود، لأجل الصغير أولاً، ستجعل هذه الأيام في الميدان وهذا اليوم بالذات، يوم أن رافقت حسن في وسط المدينة، كذكرى جميلة ليوم تحررت فيه وحلّقت عاليًا دون أن تترك الأرض، ستعيش عليها وتهرب لها كلما ضاقت بها الحياة، ستُبقي على ذكراها في خيالها، تُسافر معها كل حين لتعود بروح حُرّة عالية وبلا شيء تلمسه بيديها، مجرد ابتسامة كبيرة تكسو وجهها كلما مرّت بها الذكرى.

رتقت جواربه، فرشت ملاءات نظيفة، رتّبت الغرف، نظّمت أغراضه، أعدّت طعام الغداء، الملوخية بالأرانب التي يُحبها، أشعلت البخور ووضعت كل أعصابها التالفة في قطب بعيد بارد، عاد من عمله متجهمًا كعادته في الشهور الأخيرة، تجاهلت لفتاته المحتدة عليها وتأهبت لأن تكون لطيفة مهما كان الثمن، قدّمت الطعام وبمجرد أن تذوقه صرخ: "ما هذا القرف؟ طين في الطعام؟" تذوقت بدورها فلم تشعُر بأي طين، نهض عن المائدة وهو يقول بلهجة عصبية: "كل طعامك خراء!" ابتسمت في مرارة وهي تُقلّب بالملعقة في صحنها، كيف يستمر على عنفه وجفائه ولا يُقدّر أنها لم تترك له البيت بعد أن ضربها مثل كل النساء، ولم تترك حتى سريرها أو تُعاقبه بأي شكل، هل جزاء التسامح المزيد من العنف؟ هل

يظنها ضعيفة وبائسة إلى هذا الحد؟ ظلّت في مكانها حتى أتاها وهو مستمر في الصراخ: "أهلك لم يُفلحوا في تعليمك أي شيء.. بئس الزوجة أنتِ!" ردّت بهدوء وهي تكظم كل ما في قلبها من غضب: "لا شأن لك بأهلي"، بذراع واحدة جذبها من شعرها وأمسك بها بقوة آلمتها كثيرًا، آلمها أكثر حين نظرت له وهي تحت قبضته بعتاب واستجداء أن يتركها، ولم تجد في عينيه إلا القسوة، حين تركها لم تبكِ، وحين باتت ليلتها على أريكة في البهو لم تبكِ، لقد فقدت الدموع طريقها إلى عينيها، كما فقد الحب طريقه إلى قلبها منذ مُدّة طويلة.

سأحاول مرة أخرى.. هكذا قررت بعد تفكير طويل، "كريم يستحق المحاولة". لم يكن كريم فقط من يستحق المحاولة، كانت تُبقي أيضًا على سنواتها الطويلة مع محمود وذكرياتها القديمة معه، أصعب شيء على المرأة التخلي عن ذكرياتها الحُلوة، فهي وقود الحياة والشاطئ الذي تلجأ إليه كلما تكاثرت الهموم، وعلى العكس من حالها عند كل غَضبة، حين كانت تمحو من ذاكرتها كل لحظة جميلة أضافها لها وتتذكر فقط ذنوبه الكثيرة في حقها؛ هذه المرة كانت تُحاول بكل جهدها ألا تتذكر إلا أيامهما المميزة، وكل كلمة أو فعل قام به ليجعلها أسعد وليُثبت حبه عمليًا كما كان يؤمن، فعلت هذا بدافع الحِفاظ على آخر فرصة لاستمرار زواجها، فلم تكن عائلتها تعرف معنى كلمة (طلاق)، رغم النِسب العالية لكن عائلتها الكبيرة ميسورة الحال حققت نسبًا أكبر في الاستقرار الزوجي والإنجاب، فكل واحدة من قريباتها لها ثلاثة أطفال على الأقل، وبينهن هي

الغريبة، يرمقنها بشفقة كأن لديها عيبًا صحّيًا يمنعها مِن مُخاواة ابنها، ولم تكن تكترث بظنونهن، فكريم قد حقق لها الأمومة التي ترجوها، ومع ذلك كانت تنوي هذا العام نزع اللولب وانتظار طفل جديد يُسلي كريم ويُصبح سندًا له أو فتاة تملأ البيت بالحنان وتُضيف للحياة اللون الوردي، لكن ما حدث منذ ليلة العيد قطع عليها كل الطرق التي تجعلها تُفكّر في المزيد من الارتباط بمحمود.

سبب آخر كان يحفّزها على الحفاظ على البيت، هو ضميرها المُتألِم من جراء التفكير في ذاك النهار الشارد بوسط المدينة، كانت تُقاوم هوسها بهذا اليوم وهذا الشخص الذي أثار فيها جانبًا لم تكن تعلم حتى بوجوده؛ بأن تبذل المزيد من المجهود في البيت والمزيد من الصبر على محمود، في الأسبوع التالي كانت مازالت على هدوئها وكأن شيئًا لم يكن، واستمر هو على فظاظته، اشترت لوحًا كبيرًا وضعته بغرفة المعيشة ونثرت فوقه صورًا كثيرة لهما، ثماني سنوات جمعتهما لقطات سعيدة منذ الزفاف مرورًا بالسهرات القليلة والنزهات والشواطئ، أعياد الميلاد، أول يوم مدرسة، ثم حفلات المدرسة المتتالية، لاحظت وهي ترصّ الصور أن صورها مع محمود وحدهما كانت نادرة باستثناء صور الزفاف، كما لاحظت أن جميع الصور كانت مقصودة، حاولت أن تجد صورة عفوية طبيعية لا ينظران فيها إلى عدسة الكاميرا لكنها لم تجد، هكذا هي حياتها مع محمود وهكذا هو محمود، مُرتب، أنيق، يعرف كيف ومتى يبتسم حتى يحتفظ بابتسامة الصور، إنها تُشبه حياتهما كثيرًا، يراها الناس فيظنون

أنهما أسعد زوجين، يرون ضمة يده على كتفها في الصور فيظنون أنه مثال الحنان والحب ولا يدرون أنه لا يُضمها ولا يُقبّلها أبدًا، يقترب منها فقط وفق رغباته المُنظمة أيضًا.

عندما أتى في المساء ووجد اللوح المُزدان بلقطات الثماني أعوام، فرح بتحفّظ وراح يُعدّل من وضعية بعض الصور، ثم نقد جودة اللوح التي بدت له سيئة، وبعد قليل بدأ ينقدها هي أيضًا لأنها أضاعت المال في غير محلّه وكان بإمكانها شراء شيء أفيد للبيت، ثم لم يشكرها ولم يُقبّلها ولم يضُمّها وذهب للنوم، وذهبت للاستلقاء جواره كجُثّة، أغمضت عينيها وطافت في الميدان.

الأمور في البلد أصبحت أكثر سوءًا وأشدّ خطورة، لن يغفر أحد للجيش، الجميع غاضبون ساخطون، كعادة كل من بيده الأمر يتمخض كالجبل ليلد فأرًا، وهذا ما ظنّه الناس بالحكومة الجديدة التي بدت شيخة كبيرة لا تُعبّر عن عنفوان الثورة، لكنها احتارت مَنْ ممكنٌ أن يُعبّر عن الثورة؟ فالكل ملوّثة يداه إمّا من النظام القديم الفاسد، أو من أنظمة المصالح والالتفاف على الثورة، الكل يزعم ويدّعي ويندد ويسُبّ غيره وينتقده، لا أحد في الأفق يُعبّر عن أحلام هذا الجيل الثائر السياسية، كانت هي تُتابع الموقف بشغف وعادت لحزبها الأثير، حزب الفيس بوك، إلى أن كانت هذه اللحظة التي رنّ فيها هاتفها برقم غريب، وعندما ردّت وجدتها "صفا" الطبيبة الصغيرة التي كانت تُشاركها العمل بالمستشفى الميداني، عرفتها دون تردُد، راحت تطمئن عليها وعلى سبب توقفها عن المشاركة،

وكانت عالية فَرِحة بالمكالمة، شعرت أنها تشتم رائحة الميدان وعرق الثوار وتسمع أنّاتهم وهتافاتهم المدوّية، وفي عزّ تلهفها عرضت عليها صفا المشاركة معهم في الجمعة القادمة وشددت عليها أنها ستكون في انتظارها، وإن تقاعست ستحضر لتأخذها من البيت بنفسها، الدوافع تبدو وطنية لكن بالنسبة لعالية كانت دوافع إنسانية، فهي لم تشعر بإنسانيتها مثل ما شعرت بها في تلك الأيام وهي مُلتحمة مع أناس صادقين في حبهم للوطن ونواياهم، لا يبغون من المُلك شيئًا، وليس لأحد عليهم من سلطان، أغلقت الخط وهي شاردة، خائفة، تشعر بالتهوّر يملؤها ورغبة جديدة بالتحرر تزحف إلى صدرها.

وقفت أمام المرآه تُراقب نفسها في الثوب الجديد، تتأكد من أن خط الكتف عمودي على الكتف، وأن الخصر مضبوط والذيل لا يحتاج لتقصير، الثوب كان يُناسبها تمامًا كما توقعت، فقد تواصلت معه بمجرد أن رأته في الفاترينة وشعرت أنه لها، أو أنها له، البائعة أيضًا أشادت به عليها، هي لا تُصدق البائعات، تعرف أنهنّ يُعجبن بأي شيء تقيسه من المحل، حتى وإن كان ملابس رجالية ستجد البائعة الكلمات لتجعلها تُصدق أنها تُناسبها، ولكنها صدّقت هذه البائعة لأن آثار الإعجاب كانت جلّية على وجهها، "حسنًا، سآخذه". راجعت ثمنه والمبلغ في حافظة نقودها فوجدت أنها ستحتاج لمائتي جنية على الأقل حتى تستطيع شراءه وشراء ثوب آخر أو حتى تنّورة جديدة، لم تكن تتوقع أن الأسعار ارتفعت بهذه الصورة منذ آخر مرة اشترت ثيابًا في العام الماضي.

أسبوعان وهي تذكر كلما مرّت أمامه أنها بحاجة لشراء ثياب جديدة لأن ثياب زواجها أصبحت ضيقة، فقد استدار جسدها ولم تعد تستطيع غلق كل الأزرار. لكنه لم ينتبه. حتى عندما قالت له إنها ستخرج اليوم لشراء ثياب جديدة اكتفى بأن أمرها ألا تتأخر. لم يُكمل زواجهما عامه الأول وكانت هي خجولة ومُتحفظة كعادتها، فلم تسأله طيلة هذه الشهور عن مصروف أو مال يكون تحت تصرفها، فكل احتياجات البيت كان يأتي بها وحده أو وهما سويًا من متاجر الجُملة الكبيرة. حتى احتياجاتها الصغيرة كانت تُحضرها في وجوده حتى يُحاسب هو الصيدلية، لم تجرؤ قط أن تطلب منه مالاً، واكتفت بأن تصرف في حدود ضيقة جدًا من أموال قليلة كانت تحتفظ بها قبل الزواج، وعندما لم تجد منه أي استجابة على تلميحاتها بشراء الثياب، قررت ألا تُذلّ نفسها أكثر وأن تشتري بقدر المال المُتبقي معها.

الثياب غالية، ولم يعد بإمكانها شراء الثياب الرخيصة، خاصة وأنه رجل يُحب الأناقة ويؤكد عليها في مناسبات كثيرة أن ترتدي أجمل وأثمن ثيابها وهي معه، فهو دائم الزهو بها أمام معارفه، وينتقدها بشدّة إن ارتدت أقل من المستوى المطلوب الذي يليق بمكانتهما، أو مكانته بالأصح، ومثّل هذا عبئًا أكبر عليها عند الشراء، فهي تريد ما يجعلها أنيقة في عينيه، فما أكثر ما أثار حنقها بمقارنته بينها وبين زوجة فُلان وخطيبة علّان، بحجة أنه يريدها الأفضل، وكان هذا يُثير سخطها ورغبتها في المزيد من التحفّظ والبُعد عن الحياة الاجتماعية التي يفرضها عليها، لم يكن أمامها سوى

سبيل واحد لتتخلص من هذا الموقف السخيف أمام البائعة دون أن تجرح كبرياءها أمامه. اتصلت بوالدتها وطلبت منها أن تأتي وتُحضر معها بعض المال.

لم تتردد والدتها في القدوم، فمنذ زواج عالية وهي لا تراها إلا نادرًا ولا تطمئن عليها أبدًا. دائمًا تلمس هذا الحزن الشفيف في صوتها، وتعرف أنها لن تشكو شيئًا في حياتها لأنها هي من اختارت زوجها بمحض إرادتها. كانت صغيرة بدون خبرة ولكنها أيضًا كانت عنيدة ولم تستجب لنصائح أمها. نصحتها بأن تحفظ كرامتها مهما كانت العواقب، وألا تسمح له بأي تجاوز وإلا سيستمر على ما سمحت له به طوال العُمر. نصحتها بأن تكون أكثر صلابة ولا تنهار بسرعة من قسوته وتخضع له دون تفاهم، نصحتها أن تكون صديقة له لها شخصية وإرادة وليس فقط حبيبة ضائعة بين خطوط يديه. لكن هيهات، فعالية كانت هائمة به في فترة الخطوبة، وبعد الزواج بَعُدت وأصبحت أكثر تحفُّظًا وحزنًا حتى وإن دارت هذا بابتسامة مُهذّبة. ولم تحاول هي أن تتدخل في حياة ابنتها، اكتفت بأن تستمر على نُصحها لها بأن تكون ذات شخصية قوية وأن تُثقف نفسها وتخرج للحياة وتتمسك بالصداقة ولا تعيش في حدود دائرته، لم تكن أمها من هذا النوع من الأمهات اللاتي ينصحن بناتهن بالصبر والإذعان حتى تستمر الحياة.

كانت امرأة قوية عكس عالية، تعمل منذ سنوات تخرجها حتى أصبحت مُديرًا عامًا، امرأة أنيقة، مثقفة، وسيدة مجتمع تحوذ الإعجاب

والاهتمام أينما وُجِدت، صاحبة الكلمة الأولى دائمًا في البيت؛ ليس لضعف في شخص زوجها، لكن لأنه دائم الانشغال بعمله وحياته، فترك لها مقاليد الأمور عن تفاهم واتفاق، وبقي هو صديق الأبناء وليس واعظهم، أحبته عالية حبًا عظيمًا لأنه لم يكن مصدر الخوف والرهبة وكان مُفعمًا بالخيال والرومانتيكية، كما أحبت والدتها الحنون، لكن جدارًا كان بينهما من الصمت الجامد بسبب تربية والدتها المثالية وجزعها إن حادت عالية عن المسار الذي رسمته وحلمت به لها، مما قاد عالية لتُخفي حقائقها، كانت حريصة على ألا تُشبهها، فكانت تسير في حياتها بعكس كل ما رأت عليه أمها، لم تعمل حتى توفّر وقتًا أكبر للبيت، وكانت أكثر تحفظًا في مظهرها ومعاملاتها مع الناس بعكس والدتها الاجتماعية صديقة الجميع، وكانت تنصاع لزوجها وأسلوبه الجاف ولا تقف في وجهه كأمها الحرون، التي كانت لا تسمح بأن يفرض عليها زوجها شيئًا لا تُريده.

اشترت الثوب وثوبًا آخر اختارته والدتها وكان أجمل، لم تشأ أن تفتح معها الموضوع بسبب الحرج، لكن والدتها كانت قلقة وغاضبة، قالت جملة واحدة اعتراضية بين حديث هامشي: "إذا لم يُرد إعطاءك مالاً يكفي احتياجاتك.. فعليه أن يدعكِ تعملين حتى تُصبح لكِ ذمّتك المالية المُنفصلة". كادت عالية تبكي من الحرج، فهي تعلم أنه ضد عملها، وهي أيضًا لا تميل للعمل، فمنذ طفولتها الناعمة كانت تحتاج لوالدتها ولا تجدها، أو تجدها في نهاية اليوم مُرهقة وتَعِبة لا تستطيع أن تتواصل معها أو حتى تحكي لها قصة قبل النوم، في الصباح الباكر تجدها مُنهمكة

في تكويم الأثاث ومسح المنزل، وعندما تعود تفرش المنزل وتُنظِّمه وتؤدي كل شيء وحدها تمامًا، وكبرت وأصبحت ترى والدتها وهي تُعاني معاناة مُبكِّرة من الروماتيزم والديسك وضغط الدم، لماذا تعمل؟ حتى تخسر صحتها ورونقها وعلاقتها بابنها؟ لا حاجة لها بعمل يُفسد حياتها كامرأة مُدللة وملكة بيت، عندما تكون مع صديقاتها أو قريباتها تخجل أن تفتح حافظتها حتى لا ينكشف خواؤها إلا من الفكّة البسيطة، رغم أن زوجها ليس مُتعثرًا أو غير قادر وليس بخيلاً، فهو لم يكن من ذلك النوع الذي يُفاصل في مصاريف الزواج أو يُماطل في طلب لها، إلا أنها حاولت أن تتخذ له العُذر، قد يكون غافلاً أو قد يظن أنها تملك مبلغًا ماليًا كبيرًا يغنيها أن تطلب منه.

في المساء اختارت وقتًا مناسب وهادئًا بعد العشاء لتُريه صيدها الثمين، أبدى إعجابه بالثياب فاطمأنت، لكنه لم يذكر شيئًا أكثر، فأخبرته هي أن أموالها لم تكفِ وأنها اضطُرت للاستعانة بوالدتها، اكفهر وتلبد وجهه وبلهجة قاسية طلب منها ألا تسأل غيره عند احتياجها للمال، وفي الحال أعطاها مبلغ خمسمائة جنيه وأنهى الموضوع بإشارة من يده، كانت هي سعيدة رغم قساوة أُسلوبه، لكن في النهاية المعلومة وصلت والنتيجة مبلغ من المال.. قد يكون شهريًا.. بعد عدة أيام طلب منها المبلغ لأن البنوك أجازة ويجب أن يشتري قطعة غيار مُهمة للسيارة.. واستمرت حافظتها لا تعرف إلا الفكّة.

*****

أذهب لا أذهب، أذهب لا أذهب، أذهب لا أذهب.. تكررت الكلمات داخلها وهي تقطف أوراق صبرها في تردد صعب، هل تذهب وتُرضي روحها ورغبتها العميقة في الانضمام للمسيرات ومشاركة المظاهرات؟ أم تظل على محاولاتها لكبح زمام الاستقرار وضمّ أوصار البيت، لماذا لا يفهمها محمود ويشعر بها؟ لماذا لا يُشارِكها حياتها وينزل معها، أو يسمح لها بالنزول دون أن تضطر للكذب عليه؟ هي تعرف جيدًا أن مشاعرها تجاهه تغيرت منذ ليلة العيد الماضي، وبشكل أكبر من يوم أن أطاح بها على سيراميك الحمام، لم تعد تُحبّه، حتى محاولاتها تقوم بها من أجل الصغير. والآن عليها أن تختار؛ إما أن تُبقي على حياتها الماضية وتستمر في تمثيل السعادة إلى أن تُصدّق الدور الذي تُمثّله، وبهذا تكسب حياة مستقرة وابنًا سويًا سعيدًا يكبر بين أبوين، أو أن تُحرر روحها وتُخرِجها من القُمقم الذي سجنتها فيه طوال الثماني سنوات، وسخّرتها لحب محمود، وبهذا تكسب عودة إرادتها وحياة جديدة تُشرع أمامها خالية من الإهانة والخيانة. فكرت كثيرًا في خلق حل وسط يُرضي كل الأطراف، لكن بدا لها أن محمود لا يُرضيه شيء أبدًا غير أن تكون محفوظة في خِزانته، وروحها ما عادت ترضى بالذلّ في الهوى.

لم تنم، ظلت تتقلب على فراش التردد والحيرة بعيون مفتوحة وقلب مُتعب، كانت في زمن ماضٍ تنام ملء جفونها جوار محمود، تشعر أنها امتلكت الدنيا لمجرد أن أنفاسه تتردد في فراشها، الآن هي تشعر أنها وحدها في الفراش، فقد نجح محمود أن يُخرج نفسه من جنّة مشاعرها وينزل على الأرض، ليُصبح لا يشغلها إلا عندما تحسب الحسابات وتضع الخِطط، أصبح مرتبطًا عندها بالألم والغضب المكتوم، غادر أسباب سعادتها وخرج من كل أحلامها الجميلة التي استأثر عليها أعوامًا طويلة بطمعه في حبها الرقيق الفياض، وبتصوره أن رصيده عند قلبها لن ينضب أبدًا.

قامت بهمّة عالية مُنقِضة عن رأسها أوهام المساء وتعبه، مُصوّبة عيناها تجاه هدف واحد دون عناء التفكير في جوانب الصورة وخلفيتها، راحت تُنظّم خزانات الملابس ثم صنعت الغداء وكعكة الشيكولاتة التي يُحبها محمود، ولم تنسَ أن تُعدّ كريم ليجده أبوه في أنظف وأجمل صورة عندما يعود، وهي بدورها تزينت وارتدت الفستان السماوي القصير الذي أثنى عليه في سابقة نادرة، ورفعت شعرها لتُظهر عُنقها الطويل الذي كان يشتهي تقبيله في زمن مضى، وانتظرته وهي تشعر أن قرارها هو الصواب وأن لا حياة سوى بين جدران هذا البيت.

كان عنيفًا معها في الفراش على غير عادته المُتحفّظه، شعرت أنه يصب فيها غضبه وليس عِشقه، كانت لمساته مُلتهبة وقُبُلاته محمومة وعيناه زائغة أو مُغمضة، كأنه يتحاشى النظر إليها، وكانت معه بكل مشاعرها،

تستقبل كل رسائل الجسد والروح، لكن روحه لم تكن معها وجسده كان ينتفض بكاءً دون دموع، آهاته كانت تُعلن عن وصوله للقهر وليس للنشوة، كادت تلفظه عنها، فهي وإن أحبّت زخم العلاقة لكنها تعتبر انفصال روحه مع التصاق جسده إهانة لا يغفرها القلب، كل ما فيه كان يُخبرها أن الحدث جلل وأنها ليست المقصودة بهذا المجهود والعرق، عندما انتهى غادرها فورًا دون أن يطبع على شفتيها قُبلته الأخيرة المعتادة التي تحمل العرفان والود، ذهب ليغتسل بسرعة دون كلمة واحدة، في مشهد يحمل إهانة أكبر، وراحت هي تبحث بين طيات ملابسه عن دليل لهواجسها، في الهاتف كان الدليل، كانت مرتها الأولى التي تعبث في هاتفه، حتى بعد اكتشاف خيانته لم تفعلها، كانت تخشى هذا اليوم وتحاول عبثًا أن تُوهم نفسها أن كل شيء سينتهي وسيعود لها في النهاية، لكن بعد أن قرأت رسالته الطويلة لفرح على الهاتف أيقنت أنه لن ينسى وأنها له مجرد أداة، أداة لاستكمال المظهر الاجتماعي، أداة لتنظيم أمور البيت، أداة لإنجاب الأطفال، أداة للذّة، أداة للتنفيس عن غضبه، أمّا فرح فهي سر الحياة وروعتها كما ذكر في رسالته الصفراء على الهاتف.

بدأها بأبيات لا تعرف إن كانت له أم منقولة، ولم تكن تعرف عن اهتمامه بالشعر، فهو لم يُظهر لها هذا الجانب أبدًا، بل على العكس كان يهزء من المُهتمين بالشعر والأدب أمامها، زاعمًا أنهم كاذبون ويقولون ما لا يفعلون، وأنهم لا ينتمون للواقع ولا يؤثرون إلا الخياليون، وقد انتهجت نهجه طوال السنوات الماضية، فلم تُبدِ أي اهتمام بالأدب على أنواعه،

بعد الأبيات التي تبُثّ الشوق والحرمان كانت كلماته المتوسّلة بالعودة، والتي ترمي بأي شيء دونها عرض الحائط. وصف نفسه بالميت الذي يتلمّس طريقه في الظلام ويتسول النور بعدها، وأنها له كل النساء ولا أحد يمنحه سِحرها، كانت كل كلمة في الرسالة طعنة في قلبها المهزوم وصفعة لبقايا كبريائها. النهاية كانت رجاء بالإبقاء على أي شكل من أشكال العلاقة حتى وإن كانت صداقة، بسرعة بحثت في الردود، وجدت أن الرسالة بدون رد؛ فأيقنت سبب ضجيج الحزن في جسده، أعادت الهاتف كما كان واختبأت خلف وجه جامد وملامح باردة تُخفي نيران صدرها، تئزّ الدموع داخلها وتحتضن الصغير كل حين دون مناسبة، كأنما تحتمي به من موتها. عند الصباح وهي تُخرج القمامة كعادتها وجدت عتبة البيت مكسورة.. دون سبب.

هذه المرة نزلت الميدان بدون عذاب الضمير الذي كان يُلازمها، المكان كان أكثر ازدحامًا وتوترًا عمّا توقعت، لم تشعر بأُلفتها السابقة معه، لكن شعرت بخوف شديد يزحف إلى صدرها، هناك شيء ما تجهله لكنه يُثير قلقها، منظر رجال الجيش كان مختلفًا عمّا اعتادته، كانت ملامحهم أشدّ قسوة وعيونهم أكثر عنادًا، والمتظاهرون أيضًا كانوا أكثر إصرارًا، كان أغلبهم يسيرون في مسيرة كبيرة طويلة مُتجهة إلى مجلس الوزراء، أمّا هي فقررت البقاء في الميدان مع بعض المتظاهرين وعدد من الفتيات، لا تعرف ماذا ينتظرها لكن روحها كانت غاضبة، ثائرة على كل شيء، تهتف ضد حُكم العسكر وقلبها يهتف ضد حُكم الزمان، تبكي تأثرًا على وطنها

المجروح الضائع حقّه وتنزّ دموعها الداخلية على قلبها المجروح الضائع حقّه، تسمع أحاديث سياسية عن القهر والظلم وكشوفات العُذريّة والأهداف الضائعة والمحاسبات المؤجلة، كيف تضافرت آلام الوطن مع آلامها وكيف سكتت وسكتنا حتى تفاقمت الأزمات، وكيف وثقنا واطمأننا لمن كان يُبيّت لنا الغدر، إن كانت هي قِطة منزلية طيبة فماذا عن شعب بأكمله تربى نِصفه في الشوارع؟ كيف صمتنا؟ وهل افترضنا أن الاستقرار في وحل الجهل والمرض والفقر والاستغلال والفساد الصريح أحمد من التغيير؟ وحتى عندما زأر الناس في الشوارع والبيوت وانتفضوا بعد طول سكون لم تدُم لهم الأحلام، فانتهت على فرحة قصيرة وحماس جعل الشوارع نظيفة والأرصفة مدهونة لبعض الوقت، ثم مالبث أن تحوّل كل شيء إلى كابوس عظيم.

وبينما تقف مع البعض كان جزءًا منها يبحث عنه، عن الشبح الذي مرّ بحياتها كالطيف فلا تذكُر ملامحه أو تفاصيله، فقط تذكُر أنه كان هنا شبح ألقى الدفء في قلبها البارد ثم ذهب، المكان كان مُعبّأ برائحته، هي لا تذكرها أيضًا لكنها تذكر أنها تُشبه رائحة الميدان والبشر الملتحمين، رائحة إنسانية خافتة لكنها تعلق بالأنوف، تعِبت من الوقوف فجلست على سور حديدي أخضر بالٍ يُحاوِط مُجمع التحرير، تترقب المكان في صمت وقد بدأ الخوف يتلاشى من قلبها، فمعظم المتظاهرين في طريقهم للاعتصام عند مجلس الوزراء والميدان شبه خالٍ، لكن ما لبث الهدوء أن تعكّر بصُراخ حاد، سمعت ورأت كل شيء، إنها الفتاة التي كانت تهتف معها

منذ قليل مُمدّدة على الأرض ونصف عارية، رأتهم وهم يلاحقونها ورأتها وهي تتعثر في عباءتها الطويلة السوداء، رأتهم وهم يسحلونها ويركلونها دون رحمة، ورأت ملابسها وهي تتمزق وتُغادر جسدها، صراخها كان مؤلمًا وكأن كرامتها وشرفها هو ما تعرّى وليس فقط جسدها، لا أحد يستجيب للصراخ، اندفعت تجاهها وقد سبقتها سيدة أخرى تحاول أن تُغطّي الجسد المُلقى على الأرض، لكن ما لبث أن طالها ما طال الفتاة من سحل وضرب ببيادة العساكر حتى إنها سقطت هي الأخرى وفقدت الوعي، أمّا عالية فراحت تصرخ بهيستريا، اقترب منها بعض العساكر في محاولات بذيئة لإبعادها عن الميدان بملامسة جسدها، لكنها تصدّت لهم بكل روح الوطن فيها وانهالت عليهم بحقيبتها الثقيلة وهي تسُبّ وتصرخ كما لم تفعل طوال عُمرها، حتى رحلوا عنها لفتاة أخرى يلاحقونها ويلامسون جسدها ببذاءة حتى تستسلم وتبتعد.

تسمّرت عالية بالقرب منهما تخشى الاقتراب أكثر ولا تستطيع الفرار، دماؤها فقط هي من فرّت منها وتركتها دُمية بلا حراك. لقد رأت كل شيء ولن تصمت بعد الآن، توجّهت للفتاتين وقد تجمع حولهما البعض ليحملوهما لأقرب مستشفى، ذهبت مع الموكب الصغير إلى المستشفى وهناك كان عليها أن تُقرر ماذا ستفعل، في قسم قصر النيل وقفت أمام الضابط في ثبات وقصّت كل ما رأته جُملة وتفصيلاً، كانت منفعلة وباكية، لكنّ هذا لم يمنعها من أن تستجمع كل شجاعتها في البلاغ الذي شهدت به بكل ما حدث، عندما انتهت خرجت من غرفة المباحث لتجده،

نظرت له بعمق وهي تشعر أنها في حلم، لكن ابتسامته الواسعة التي لا تصل لعينيه الجادتين، إنما تنبت فقط على شفتيه فتكسبه وقارًا، أعادتها للواقع. سلّم عليها بحرارة وأبدى اندهاشه من وجودها، كانت قد فقدت كل ثباتها عند الضابط فراحت تُجاوبه بتلعثم وتوتر شديد، سحبها من يدها كما فعل في ثاني لقاء لهما عندما سحبها من خيالها، وكان له سِحر غريب كأنه يجذبها دائمًا بخيط غير مرئي، هناك على رصيف عالٍ جوار قِسم الشرطة جلسا متجاورين، هدأت قليلاً عندما أحضر لها مياهًا غازية وشكولاتة، بدأت تشرب على مهل حتى تنتهي ارتعاشة جسدها، وأعطته من كعكاتها المنزلية التي كانت تحتفظ بها في حقيبة يدها، روت له ما شاهدت وحكت له عن حديثها الداخلي الذي استقر على ألا تصمت وأن تشهد على كل ما رأت، أمّا هو فعرفت أخيرًا أنه محامٍ ولكنه لا يعمل إلا وفق إرادته أو حاجته، وقد ترك اعتصام مجلس الوزراء عندما سمع بأمر سحل الفتيات وتعريتهن وأتى ليكون لسان الثوار في البلاغات التي سَتُقدّم، ضبطت نفسها تنظر لصدره، لاحظ وأشار لها عليه وهو يُخبرها أن به ندبة يعتز بها كثيرًا لأنها من أثر الرصاص في ثورة يناير ويوم جمعة الغضب بالتحديد، وأنه لا يُخبر عنها أحدًا لأنه يُفضّل أن يحتفظ بذكراها لنفسه ولا يُتاجر بجراحه في حب الوطن، لكنه حكى لها لأنها هي.. هي وفقط، هكذا قال، وهكذا لمست وأحبّت رومانسيته الثورية. قبل أن يُغادرها قال بصوته الكسول:

- كعكاتك جميلة.. مثلك.

ابتسمت وأسبلت عينيها بخجل فتاة لأول مره تسمع مجاملة من شاب، وأكمل:

- سأذهب الآن لكني أُريد أن أراكِ ثانية.

و بجُرأة وجدت نفسها تقول: وأنا أيضًا..

- رقم هاتفك؟

بمراوغة : في المرة القادمة.

رد بثقة رجل يعرف وكان دائمًا يعرف: في المرة القادمة سَتُرافقينني في مُظاهرة.

أمام سيارة الأجرة التي استوقفها لها حضن كفها الذي لم تسحبه بسرعة هذه المرة، ثم ضاع بين الزحام لكنها حفظت في مُخيلتها صورته وهو يمشي ببطء وخيلاء كأنه ذاهب لإنقاذ العالم بقُدُراته الفائقة، عند المساء كانت تَعِبة ومريضة، مازالت ترتعش وتفشل كل محاولات التدفئة بالبطاطين والمدفأة الكهربائية والأدوية في إعادة الحرارة الطبيعية إلى جسدها، لم تكن معتادة على المشي الطويل أو بذل مجهود أكثر من مجهود تنظيف المنزل، واليوم هي مشت وهرولت وقاومت ودافعت، اليوم هي صرخت وفزعت وشهقت من الألم وأدلت بشهادتها بضمير مستريح ودون حساب لشيء، نامت كالعصافير في حُضن صغيرها، واستمرت

عيناها في نزف الدموع حتى تاهت روحها في غياهب الأحلام التي استأثرت بها الفتاة المسحولة التي عرّاها من كان مفترض أن يُغطّيها.

لم تُصدّق نفسها في الأيام التالية مما قرأته وسمعته، كانت تظُن أن العالم والمجتمع سينقلب على مرتكبي الجريمة الشنعاء وستُصبح فضيحة وسُبّة في جبين المجلس العسكري، كانت تظن الرجال سيهبّون وينتفضون غيرة وغضبًا على فتيات ونساء مصر، كانت تظن أن الفصائل الإسلامية لن تسكت على ما حدث وستقوم مليونيات جديدة وستتقدم استقالات واعتذارات لا حصر لها، لكن ما حدث أن الكل كان ينهش في الفتاة، باتت هي العجل الذي سقط وكثُرت حوله السكاكين، وأحمى السكاكين على قمّة العُنُق مباشرة كانت من الإسلاميين، فبدلاً من أن يُهاجموا الفعلة هاجموا الضعيفة التي كانت تتلوى على الأرض بين ركلاتهم، راحت تُدافع كالمحمومة عبر مواقع التواصل وترد على اتهامات من عينة "ولماذا ذهبت إلى هناك؟" و"كيف ترتدي عباءة بكباسين؟"، وفجأة أصبح الجميع مُلِمًا بملابس السيدات وماذا ترتدي فوق وتحت وما الفرق بين هذه وتيك، حتى نوع مشدّ الصدر الذي ظهرت به الفتاة بعد أن مُزِقت عباءتها صنفوه على أنه من نوعية لا ترتديها إلا العاهرات، هكذا قضت ليالٍ لا تنام ولا تفارق ذهنها صورة الفتاة وهي تركض هربًا فتتعثر فتسقط فتُسحل فتتعرى، فيتهمها المجتمع بالعُهر والفجور، كانت تعرف أنه مجتمع ذكوري لا يضع المرأة إلا في قائمة المتع والمهمات، لكنها لم تتصور أبدًا أن تكون المرأة هيّنة إلى هذا الحد الذي تُتهم فيه في

شرفها وهي تدافع عن شرف الوطن، إن أسهل وأرخص طريقة لدرء المصائب هي بإكالتها للمرأة، وهي من تدفع دائمًا الثمن شاءت أم أبت.

كانت مشاعرها مُختلِطة ما بين رثاء لحال المرأة عامة وحالها هي بالأخص، وما بين لحظات من السعادة التي تعبر بها فتنتزع منها ابتسامة غصب لا يدري أحد كنهها، حتى إن الصغير كان يسألها عن سبب الابتسام المفاجئ، كانت تراه في حلم يقظة وتسمع صوته الكسول وهو يقول "جميلة مثلك"، عادت مع كلماته إلى الصِبا، إلى الفتاة الصامتة التي ترقب العالم من وراء الشبّاك وتُسافر في أحلامها إلى أبعد من الخيال، وتسمع كلمات تُطرِب قلبها "جميلة مثلك.. آه، هل أنا حقًا جميلة؟ متى يرى الرجل المرأة جميلة؟ عندما يُريد أن يُثير شغفها به، أم عندما يكون شغوفًا بها، أم عندما يكون مجرد معجب آخر؟ ولماذا لا يراني محمود جميلة؟ لم أسمعها منه منذ سنوات طويلة، هل لأنه اعتبرها أمرًا مفروغًا منه، أم لأنه وصل معي لمبتغاه واكتفى، أم لأني لم أعد أُثير شغفه؟ على كل حال لم يعد يعنيني أن يقولها محمود.. لم أعد أنتظر.. لكن هذا الشبح.. لماذا قالها لي؟ هل كان يُريد أن يشغلني به، أم أنه ممن يتفوهون بكلمات الغزل على سبيل الكلمات العادية اليومية، على غِرار يا قمر يا عسل يا جميل، أم لأنه رآني بعيون قلبه؟"

أصبح يقضي معظم وقته بالخارج، هي أيضًا لا تجد رغبة في نفسها أن تحتضنه كالسابق وتضع رأسه على فخذيها وتمشط شعره بأصابعها وهي تسأله"ماذا بك؟". لم تعد تلك الفتاة التي تحتوي نوبات غضبه بصبر،

وبصبر تُخفي عنه غضبها وترسم الحب في كل زاوية في البيت، كانت عندما تتدلل عليه كطفلة يُريدها أمًا، ولمًا تتفهمه وتدعو له كأم يُريدها عشيقة، وعندما تُبرز مخالبها، تموء بشوق، وتلعب دور القِطة المُثيرة يتململ؛ يُعاملها كطفلة، هل كانت لا تُجيد لعب الأدوار أم أن بينهما فارق توقيت تفشل في اجتيازه؟ ومع كل الأدوار التي لعبتها معه ولعبها معها، لم يكن لها أبدًا الصديق، كانت تفتقد معه حوار العقول وندّية وحميمية الصداقة، تفتقد أن يسألها عن رأيها في شؤونه وأن يُناقشها في أمور الحياة، تفتقد مزاح الأصدقاء معه، تفتقد هذا البراح الذي يجمع الأصدقاء على أرض محايدة بين فورة العِشق وعِناد الخلاف، والآن هو حتى لا يُحاول أن يجذبها لأي الشاطئين، فلا عشق ولا خلاف، إنّه الجمود الذي يتسلل لخلايا الحب ببطء ليسلبها الحياة.

جلست في الصفوف الأخيرة بين عُلا وغزل، حتى تختفي قدر الإمكان عن عيون الدكتور الذي يُلقي المحاضرة وهو يزرع الأرض يمينًا وشمالاً، وبين الحين والآخر يستدير ليكتب بخطه الصغير على السبّورة الكبيرة، كان هذا أنسب أوقاتها لممارسة هوايتها المُفضّلة، حيث تقلب كشكول المحاضرات الخالية صفحاته الأولى إلا من بعض محاولات تسجيل المعلومات، وتمتلئ صفحاته الأخيرة بالرسومات المتعددة لفساتين وبلوزات وتنانير، تُمسك بقلمها الرصاص وترسم خطوطًا تنتهي بها لقطعة جديدة مُتفرّدة، تُركّز جيدًا حتى إنها لا تسمع الدكتور ولا صديقاتها في الجوار، وهُنّ يعرفن أنها الآن في حالة لا ينبغي أن يقاطعنها

فيها إلا عندما تنتهي، بينما هُنّ يُدندن بصوت منخفض أو يكتُبن في كشاكيلهن الأغاني والأشعار التي تُعجبهن، وأحيانًا يقلدنها ويرسمن فتيات وعرائس بفساتين جميلة، لكن في هذه المحاضرة تحديدًا عُلا كانت ساهمة تكتُب أشعارًا حزينة وترسم قلوبًا منكسرة ودموعًا تسقط من أعلى الورقة حتى تنتهي ببركة متسعة عند ذيل الصفحة.

لم تسألها عالية عن سبب الحزن القابع جوارها، لا داعي للسؤال فقد شاهدن جميعًا عُمر حبيب عُلا وهو يمُر بها هذا الصباح وفي عينيه التجاهل، لم يحضر أيضًا بالأمس ولا أول أمس، تعذّر لها بأن الطقس سيء، يالها من حجّة أسوأ من أي طقس، كيف تأتي الفتيات للجامعة مهما كانت الأحوال والظروف، بل ويأتين أحيانًا بدون سبب فقط للتسكع ومقابلة الأصدقاء، بينما يتغيب الشباب لأهون سبب؟ يُضايقهم المطر وتُزعجهم الرياح المُحمّلة بالأتربة، يحتمون من قرصة الشتاء الباردة في منازلهم، بينما تنتظر كل فتاة حبيبها بشغف وهي تغزل شوقها وتكتب الأشعار تحت المطر، وتواجه البرد بدفء مشاعرها، حتى يأتي حبيبها بعد أن تتحسن الأحوال وهو يقول ببلاهة (لماذا كل هذا القلق والغضب.. لم آتِ فقط لأن الجو كان سيئًا!).

لكن ما يُحزن عُلا ليس فقط هذا الحبيب المُتجاهل، ما يُحزنها هو اضطرارها أن تتجنب الوقوف معه بالكُليّة، ذلك بعد أن عرفت أن البعض يلوك سُمعتها بل وشرفها ويُحيكوا الحواديت حولهما، شاهدوهما في محطة القطارات وهو يُقبلها في وجنتها قبلة خاطفة ذات صباح عندما

كان عائدًا إلى بلده وأتت لتودّعه، كان ابتعادها عنه برغبته، قال لها "أريد أن أحميكِ"، أي احتماء وهي تقف في مواجهته وهو برفقة أخريات، يضحكن ويتمايلن وهي وحيدة بعيدة، غير مسموح لها بالاقتراب، هل الحماية في موتها البطيء جواره، وأين من يحيكون القصص الآن، أم أنهم يحيكونها فقط للأبرياء؟ الأشياء الجميلة المميزة فقط هي ما تُغري للهدم والاختلاق والمحاربة، أمّا الأشياء العادية فهي لم تكن يومًا مُستهدفة، لكن ماذا تفعل في قلبها المستشيط غضبًا، أين تذهب بغيرتها وقهرها وهي تجلس منزوية في قاعة المحاضرات تُراقب همسهن له، وهو يتجنب حتى النظر إليها؟

كان هذا نذيرًا لنهاية قصتها الطويلة معه، ولم تنتبه، فكل النهايات تحمل النُذر ومع ذلك نُغمض أعيننا وعقولنا ولا نُصدق إلا أصوات القلوب الحمقى، التي تدفعنا لهذا التنازل الغريب عن كرامتنا بدعوى الحب، لو كُنا نُسلّم بالنهايات ما أوقعنا بأنفسنا في دائرة العذاب والأسئلة التي لا إجابات لها، لكُنّا انتهينا فحسب، ومضينا في طريقنا بقلوب مفتوحة تنتظر إشراق البدايات الجديدة، لكننا لا نُدرك أبدًا النهاية ولا نعترف أن القطار قد رحل وعلينا أن نتوقف عن اللهاث وراءه حتى لا يفوتنا قطار آخر. كانت النهاية عندما أخبرها أنه لا يستطيع الزواج بها قبل أن ينتهي من التحاقه بالجيش وتتزوج أخته، هذه الحجّة التي سمعتها آلاف المرات عند كل قصّة فراق ولم تتخيل أنها ستذوق مرارتها، عُلا ظلّت تجري وراء

القطار مُدّة طويلة وأضاعت من عمرها ووقتها الكثير، لم تنتبه أن بالمحطة قطارات أخرى تحمل لها أطنانًا من الفرح.

كانت غزل تنتظره، هذا الشاب الذي يمشي بين أروقة الكُليّة بثقة تُناسب بذلته الداكنة ونظّارته السوداء، كان يترك عمله ويأتي ليراها ويُجالسها في الكُليّة حسب رغبتها، فهي من تتباهى برجالها أمام الجميع، وهو أهل للتباهي، بأناقته ودماثته وكونه أكبر منهم سِنًّا، استأذنت عالية وانصرفت قبل أن تُصبح (عبد السلام النابلسي)، هذا اللقب الذي دعاها به والدها عندما عرف أنها تقف مع غزل وصديقها، "لا تقفي معهما.. وإلا أصبحتِ عبد السلام النابلسي"، قالها وهو يضحك، سألته ماذا يعني، فَردّ بأنه لا يُريدها أن تكون صديقة البطلة، يُجدر بها أن تتركهما في شأنهما وتنتظر حتى تكون هي البطلة.

ارتقت الدرج بسرعة وهي غاضبة وعابسة، في هذا اليوم كانت تُعاني من صُداع نفسي تعرفه جيدًا من طول صداقتهما، يزورها باستمرار ويأتي دائمًا مع هذا اليوم وكأنهما وجهان لعُملة واحدة لا تُجيد صرفها، عندما ظهر توقف الكون للحظة عن دورانه، فرد ذراعيه ليُغلِق عليها أي منفذ للمرور، ضحكت رغمًا عنها، قال لها: "أُريد أن أراكِ"، للحظة شعرت أنها تُريد أن تكون البطلة، ألم يئن الأوان بعد لقصتها أن تبدأ؟ صمتها شجّعه أن يُكرر طلبه، قالت: "أوكيه"، قال بسرعة: "غدًا سآتي لكِ في الكُليّة.. الساعة الثانية"، أومأت برأسها، تركها تمرّ وعيناه مُلتصقة بها، صعدت سُلّمتين ثم لفت بكل جسمها وقالت له: "لا.. لن تراني"، ثم بسرعة البرق

صعدت وهي تكتم ضحكتها على نظرته المذهولة.. وانتهت على الدرج موجة غضبها، كان لقاؤه العابر هو المُسكّن لآلامها، لن تبدأ القصّة، لا تُريد قصصًا قصيرة ببدايات مثيرة ونهايات مفاجئة، هي تنتظر رواية لا تنتهي، تنتظر هذا الغريب الذي تهبه كل البدايات التي كُتِبت ولم تُكتب بعد، العاطفة العابرة لا تُناسبها ولن تُرضيها، حبها أغلى من أن تُلقي به للتجربة وتُؤلم نفسها بالأعراض التي تراها على عُلا وغيرها، لن تحتار وتغار وتتعذب وتُفارق لمجرد أنها جازفت بمشاعرها، لتنتظر إذن هذا الغريب.

*****

صرخت مروة من الألم وهي تجلس قِبالة امرأة أربعينية وتمدّ لها ساقها لتنزع منها الشعر، كانت قد اعتادت على فاطمة، ثلاثة أعوام تأتي لها مرة كل شهر حتى تُساعدها على الحفاظ على نعومة أنوثتها، كانت فاطمة ماهرة رغم صِغر سنها، فهي لم تُكمل عامها التاسع عشر بعد، ولولا أن خطيبها الأحمق أصرّ أن تترك العمل ما كانت اضطرت لأن تُسلّم نفسها للأصابع الغليظة التي تسلخ جلدها الآن، تتعرق المرأة السمينة وتشدّ الشمع بقوة وهي تترقب آهات مروة بحذر خوفًا من أن توبّخها أو تتراجع عن إعطائها إكرامية عندما تنتهي، فاطمة لم تكن تنزع الشعرات فحسب، كانت تُدلل بشرتها وترشّ تحت الإبطين ببودرة التلك قبل أن تدعكهُما بحنان، وتفرُك جسدها برقّة، تُدغدغ باطن رُكبتيها بطريقة ساحرة كانت تنتظرها مروة من الشهر للشهر.

عندما اكتشفت مُتعتها من الدعك والفرك لثنايا جسدها، وكان اكتشافًا عظيمًا، لم تعد تنتظر هذه الجلسة الشهرية التي تُرافق فيها اللذّة الألم، بدأت تبحث عن طريقة أخرى تنتصر فيها اللذّة، ووجدتها عند مركز التجميل الذي يقع في الشارع الخلفي لمقر عملها، مما سهل عليها زيارته كل أسبوع، الزيارة المقدّسة، هكذا أسمتها، حيث تضع جسدها كله رهن

شادية، تتعرى وتلف نفسها بدِثار أبيض يُثير فيها الصفاء والهدوء النفسي، ثم تنام باطمئنان كبير على مائدة مُبطّنة مُريحة، تُغمض عينيها وتُسلّم نفسها لأروع شعور يمرّ بها في الحياة، تنزع شادية الدثار بتأنّي وهي تضغط ضغطات خفيفة برؤس أصابعها الندية بزيت له رائحة عُشبية فوّاحة على عُنق مروة مرورًا بسلسلة ظهرها، تُدلّك كل قطعة فيها برقّة تجعلها تشعر أنها تنزع الألم والحيرة من روحها وتهبها جنّة من اللذّة، كانت مروة في هذه اللحظات ترى نفسها صبية صغيرة تركُض مرحًا في بستان واسع أو فوق سفح جبل أخضر، وأحيانًا تكون ظبية أو أرنبًا بريًا صغيرًا، حورية أو جِنّية يطير وراءها ذيل فستانها الأبيض الخفيف، سعيدة بوحدتها، منتشية لا تملّ أبدًا من الركض.

تنتهي الجلسة التي لا تطول بها حتى تصل عنان السماء، فترتدي ثيابها بتململ وتنفح شادية إكراميتها وتُغادر دون أن ترى أو تحفظ ملامحها الزجاجية الباردة، فكل علاقتها بها أصابع تُرسِلها إلى الجنّة، تعود للمنزل وقد زال عنها تعب الجسد والروح، تُقبل على زوجها وابنتها بحب وتنغمس في حياتها، منذ واظبت على "الزيارة المُقدّسة" أصبحت أهدأ وألطف، وأصبح زوجها سعيدًا بهذه البهجة التي ملأت حياتهم ويمتدح باستمرار الصحوة التي طرأت على شخصيتها بعد أن كانت غارقة في عالم من الخيال وحالة من سوء المزاج، لكن بعد مرور شهور كانت قد بدأت تشعر بتغيير طرأ على قلبها المُلتاع، إنها تُريد المزيد، تُريد أكثر من تدليك حنون يُغلّف جسدها باللذّة، بدأت تُعاني وهي تتخيل اللذّة الكبيرة التي

من الممكن أن تحصل عليها وتحملها إلى قمة النشوة، وبدأت تخاف من الزيارة المُقدّسة، تخاف أن تشعر شادية بسيطرة أصابعها عليها ومدى تحكُّمها في حياتها، تخاف أن تُفلت منها حركة أو كلمة أو تصرف يُنبئ بأنها تُريد أكثر، تُحافظ على ثباتها تحت يديّ شادية بصعوبة وهي ترتعد من النشوة وتحلم بما هو أبعد.

من فرط الإرهاق الذي أصبح مسيطرًا عليها أصبحت لا تنام ولا تُنجِز شيئًا في عملها ولا تسمع ابنتها وهي تشكو لها من مُدرّسة الإنجليزي الفظّة، عندما زارت الطبيب النفسي بكت كثيرًا، ظنّت أنه سيُطالبها أن تقصّ عليه حياتها منذ الطفولة، ولكنه كان كصديق عادي يُبادلها الحديث بحميمية ومُحايدة، لم تحكِ له عن مُتعتها وزيارتها المقدّسة، لكنها وجدت نفسها تحكي عن حسام، وعن والدتها التي كانت تُرعِبها من فكرة التعرّي أو مُجرد النظر إلى الجسد والأعضاء الأنثوية، ولمّا خُطِبت لحسام بدأت تشعر بجسدها وتلهو به عندما تكون وحيدة، أيقنت أنها تستطيع أن تجد متعتها بنفسها، لم تعرف شيئًا عن الجنس إلا معلومات قليلة جمعتها من صديقاتها في الكليّة، كانت فكرة الزواج ورجل يعبث بها فِكرة مُرعِبة، حتى إنها مدّت في الخِطبة قدر المستطاع ومرة واحدة وجدت نفسها تحت رجل يُكسّر عِظامها كل ليلة عدة مرات، يعشقها وتعشقه لكنها لا تشعر بجسدها معه إلا وهو مُحطم وموجوع وجاف كقطعة لحم تمامًا قبل أن تحترق، هو لا يلمسها برقّة، يعتبره عارًا أن يكون رقيقًا معها، فالرِقّة صفة نسائية كما يُخبرها دائمًا عندما تُلمّح للأمر.

يفخر بفحولته دائمًا، يروي النكات الجنسية ويتباهى بِقُدرته على مُعاشرتها مرة بعد مرة، وهي تُحاول أن تُصدِّق أنه رجل خارق وأنها من المفترض أن تكون أسعد امرأة في الوجود، لكنها بدأت بعد أعوام قليلة تضيق به وبعشقه، تشعر أنه يفعل ذلك لحبه للجنس وليس لها، أصبحت تُريد أن تشعر أنها امرأة صاحبة شخصية ورؤية وليست فقط فَرسه الجميل كما يدعوها، كان صخبها يضيع مع إخضاعه التام لها، وكلماتها تضيع مع انشغاله بجسدها عنها، ونشوة النهاية تضيع عندما تجده ينتهي منها فيفتح الأنوار ويُتابع مباراة كرة قدم ويُطالبها ببعض المُسليات والمشروبات وكأن شيئًا لم يكن، وكأن من كان معها قبل دقائق شخص آخر، تذهب كل يوم للعمل وتعود مُحمّلة بطلبات البيت، تطهو الطعام، تُذاكر للصغيرة، تقوم بكل واجباتها بشكل آلي وهي غارقة في التفكير بلذّتها الخاصة دون استمتاع، حتى تصل للمساء فتُشاركه الحب بشكل آلي أيضًا، فهو لا يغير طقوسه العنيفة وهي لا تُغيّر طريقتها في مقاومته باستماتة تُصيبه ببعض الجروح أحيانًا وتُثيره للمزيد من العُنف، بدأت تنفصل عنه تدريجيًا، والقشور السعيدة بدأت تتقشر ليظهر ما تحتها من اضطراب ويأس، أصبحت ممزقة بين أمرين متعارضين، بحثها الدؤوب عن اللذّة ولوم نفسها عليها، كانت تُوهم نفسها بأن متعتها من المداعبات في مركز التجميل أو الكوافير أمر طبيعي يُعطيها طاقة لتسير في أيامها بشكل أفضل، لكن ما إن بدأت تشعر في نفسها رغبة في المزيد أدركت أن الأمر جد خطير وأنها على شفا حفرة من الآثام، ويجب أن تجد المخرج قبل أن تنزلق فيها للأبد.

بعد ثالث زيارة صارحها الطبيب أن لها ميولاً جنسية مِثلية بشكل عارض، لا تعني أنها بالضرورة ستعيش حياتها بهذه الرغبة، لكنها ظهرت كحل عارض للهروب من الواقع، وطريقة سهلة للحصول على لذّة مؤقتة تؤجج مشاعرها وتُشعل نيران اللوم والاحتياج عندها، كانت مناقشته والفضفضة إليه وحدها كافيه أن تحمل العبء عن كتفيها وتجعلها تشعر أنها أصبحت ترى الأمور بشكل أوضح وأكثر صراحة، ولكنها لم تفق إلا بعد أن مرضت ابنتها بالالتهاب الرئوي وحملتها نصف ميتة إلى المستشفى، بكت حينها وسقطت على الأرض خوفًا وهي تشعر أنها السبب وأنه عقاب السماء المنتظر على أفكارها الشاذة، توقفت بعدها تدريجيًا وبصعوبة عن زيارتها المُقدّسة، استبدلتها بالخروج مع الأصدقاء وزيارة الطبيب النفسي، لكن أعصابها عادت للخراب والألم الذي يعتريها، وبدأت تشرب السجائر والقهوة الداكنة على غير عادتها، تَعِبة لكن مُصرّة على ألا تعود للزيارات المُقدّسة.

*****

ديسمبر البارد لم يكن باردًا هذا العام، والشوارع لم تكن مغسولة ورطبة كعادتها في هذا الوقت من العام، كل شيء كان صامتًا ومُترقّبًا وحزينًا على من سالت دماؤهم على الأسفلت وهم ينادون بحُريّة، جنازة الشيخ عِفّت كانت مهيبة، جمعت القلوب المصرية الحزينة الصادقة، مسلمون وأقباط وقفوا ليصلّوا عليه ويدعوا له، لم تستطع أن تحضرها أو تتابعها إلا من المنزل، وكانت تبكي على رجال أمناء شرفاء يفقِدون حياتهم من

أجل ثلاثة أحرف "و ط ن"، بصعوبة هذه المرة استطاعت عالية أن تقنع محمود أنها ذاهبة إلى أهلها، وهي تعرف أنه لن يسألهم، فعلاقته بهم لا تتعدى المجاملات في الأعياد والمناسبات الرسمية. في الميدان قابلت صفا الطبيبة الصغيرة وبعض الفتيات والسيدات اللاتي تعرفت عليهن من الميدان، وقفت غريبة بينهن كعادتها بمظهرها الأنيق ونظرة الخجل والحذر التي تعلو وجهها، بينما هنّ كنّ بسيطات غير متزينات ويعلو وجوهَهُنّ الإصرار والأمل، صفا كانت تُعاني من بعض الكدمات التي تلقتها دون إنذار من أحد الجنود وهو يُحاول أن يُخرِجها هي وذويها من الميدان، لكن لم يُثنها هذا العنف عن النزول بشكل يومي بل والاعتصام عند مجلس الوزراء، وهاهي الآن مع الكثيرات يبدأن مسيرة كبيرة للتنديد باعتداءات القوات المسلّحة على المتظاهرات.

كانت صفا فتاة ريفية تعيش في سكن للطالبات، تتمتع بالكثير من الحماس والقليل من الصبر، حكت لعالية في ساعة هادئة عن الطبيب النائب الذي تُحِبّه في صمت وتصنع له الشطائر وتشتري له البيتزا والمثلجات حتى تكسب ودّه دون فائدة، فهو يُعاملها كأخته الصغيرة ويسخر من نزعتها الثورية ونزولها للميدان، نصحتها عالية بأن تتجاهله حتى لو تعذبت وتعبت، فهي تعلم أن الرجل يهرب من المرأة التي تُحاصره وتنصب له دون أن تقصد مصيدة الزواج، فهو لن يشعر بمشاعرها حينها بقدر ما سيشعر أنها تُريد أن تُقيّده وتسلبه حريّته الثمينة، الرجال يُميزون جيدًا الفتيات اللاتي يرفعن شعار الزواج أولاً وأخيرًا، ومنهم من

يستجيب، وأكثرهم يُعلّق الأمور ويصبغ العلاقة بشكل رمادي مبهم، حتى يُقرر هو، وتبقى الفتاة قيد الانتظار.

قبل أن تبدأ المسيرة في التحرُّك رأته، كادت تفرك عينيها حتى تتأكد من وجوده، كان يرتدي سترته الزرقاء التي رأته بها أول مرة، يقف مع بعض الرجال بالقرب منها ويتحدث بعصبية، ميّزت بعض الشتائم من العيار الثقيل بين أحاديثه، لا تعرف لماذا لم تجزع أو تلوي شفتيها امتعاضًا كما تفعل عندما تسمع محمود وهو يشتم، إنما ابتسمت ومنعت نفسها من الضحك بصعوبة، قادتها قدماها له فسمعته وهو يتحدّث عن تحفّظ حزب الحرية والعدالة على انتخابات رئاسية مبكّرة وإصرارهم على الاستفتاء على الدستور أولاً، نبرته كانت تقطر بالخذلان والخيبة، من خلفه نقرت كتفه بطرف إصبعها، استدار ليجدها تنظر له كطفلة تُنادي أباها ليترك ما في يده ويأتي ليلعب معها، ابتسم لها من بين غضبه، بدأت المسيرة وسار هو جوارها بطوله الفارع كغصن شجرة عتيقة بجوار عود ياسمين، تختلس النظرات الفرِحة له وهي ترسم ملامح وجهه في ذاكرتها برموش عينيها حتى لا تنساها أبدًا، مال عليها وهمس "ألم أقل لكِ أنك سترافقينني قريبًا في مظاهرة؟" ضحكت وهي تُبادله نظرات كأنها الحب.

*****

ملّت مروة من هرطقة كُتّاب التنمية البشرية ومحاولاتهم الفاشلة للتأثير في حياة البشر، كل تغيير مرهون برغبة وقوة، الكلمات لا تُغيّر إلا من أراد أن يتغير فعلاً وآمن بهذا التغيير، عشرات الكتب قرأتها لكُتّاب عرب وأجانب دون فائدة، لا تزداد بعد كل كِتاب إلا اكتئابًا لأنها لا تستطيع أن

تُنقّذ ما قرأت، فبرغم أنها عاشت عمرها كفتاة مرِحة محظوظة، إلا أنها أصبحت تمقُت هؤلاء السعداء الذين يبتسمون دائمًا ويتشدقون بأسباب السعادة والنصائح لليائسين مثلها، أصبحت تنظر للفتيات العازبات حولها بحقد وتتمنى لو عاد بها الزمن للتخلص من كل هذا العذاب، فكم كانت معاناتها ستهون لو كانت وحيدة وحُرّة، حاولت الاشتراك في عدة نشاطات دون جدوى، ألقت بنفسها في صخب المجتمع وشغلت نفسها بمشاكل الصديقات والأقارب، لكن هذا أيضًا لم يُنسها لذّتها المفقودة، حتى اتخذت قرارها أخيرًا، في اليوم الذي تقدمت فيه بأوراقها لدراسة الماجيستير في الأدب الغربي.

في مساء هذا اليوم سبقته إلى السرير وكانت تعرف أنه يتزين، فهو يُحب أن يأتيها وهو متعطر ونظيف الأسنان (أسنانه التي يستعملها كثيرًا معها) والبدن، كانت مضطربة وقلقة، استجمعت كل لحظات الخوف والضيق التي مرّت بها الفترة الماضية، استرجعت وجه شادية البارد وكلمات الطبيب الصادمة، تذكرت ابنتها وهي متعلّقة بِصدرها في المستشفى، وزوجها وهو يُدغدغها بمرح ويُفاجئها بالقطع المثيرة التي يجلبها لها في كل مناسبة، أغمضت عينيها لتُركّز أكثر، إنها ليست الطبيبة التي تجري بين المروج، وليست العاهرة التي تشعرها في أعماقها كلما قرأت أو شاهدت ما يمس العاهرات، إنها حبيبة وعشيقة هذا الرجل الذي يفعل المستحيل ليرى منها ابتسامة رضا، من الشبّاك ألقت القرص الصغير القاتل ونظرت له وهو يتدحرج على الأرض حتى استقر ليذوب في بركة ماء على جانب الطريق، تنهدت بارتياح ثم رشّت جسدها بالعطر وانتظرته في الفراش كنَمِرة تلمع مخالبها في انتظار المعركة القادمة.

*****

وقفت بتردد في شارع شامبليون بمنطقة وسط البلد. الشارع كان مزدحمًا بالمارة والباعة الجائلين لكن أفكارها كانت أشدّ ازدحامًا. فكّرت مرارًا في العودة إلى البيت الدافئ الطيب الآمن بعيدًا عن هذا الطريق الواعر الذي تقف فيه مترددة. خائفة كأنها طفل صغير لأول مرة يسير وحيدًا في الشارع يبحث بعينيه لعله يجد من يعرفه ويتظاهر بالقوة أمام الغرباء. عندما وجدت البناية العتيقة التي كانت تقصدها وقفت أمامها مصعوقة. لم تحملها قدماها على الصعود واتخذت قرارها بالعودة. لكن شيئًا ما بداخلها كان يريد أن يكسر حواجز الخوف والملل. وشعورها الذي لم تُحدده بعد كان يشتاق أن يراه ويسمع صوته ونبرته الكسولة. رمقت فُستانًا أحمر أُرجوانيًا في فاترينة قريبة. من طبقة واحدة ناعمة. بأكمام قصيرة وخصر ضيق يزيد اتساعه حتى ما فوق الرُكبة. يُشبه كثيرًا فُستان أحلامها. سرحت فيه وتخيلت نفسها وهي تسير به على الرصيف ووقع خطواتها مع الكعب العالي وشعرها البني يُسابق الريح على وجهها. واثقة فرِحة وجريئة. هل كان حسن معها في الحُلم؟

- القمر أيضًا يسرح.

ظهر لها فجأة كأنه خرج من أسطورتها التي تمّر أمام عينها طوال الوقت، تبادلا نظرة طويلة دون أن تُجاوبه ولم تفق من حلمها إلا عندما أغمض هو عينيه وفتحهما بنظرة جديده خالية من الوهج الأول.

في محاولة لضبط نبرتها على مؤشر الجِديّة:

- لا تقل قمرًا.. لا أُحب هذه الكلمات.

رد بغضب مكتوم: لا تُعامليني مثل الجميع.

كيف عرف أنه ليس كالجميع، كيف تكهّن بمكانته عندها، هل هي ثقته الزائدة في ذاته أم أنه صدر منها ما يدل على ذلك، لكنها في لقاءاتهما القليلة كانت حريصة على التحدث عن حياتها كزوجة وأم، وكانت حريصة على عدم إطالة النظر إليه وعلى معاندته ومعاملته بندّيّة وأحيانًا السخرية من نوبات هزله الكثيرة، عقدت ذراعيها ونظرت لحذائها بتردد عميق. سألها:

- ماذا بِكِ؟

- خائفة.

- إن أردتِ؛ نذهب إلى مكان آخر أو أستوقف لك سيارة أجرة.

- لكنك أردت أن أحضر هذه الندوة حتى أُثقف نفسي سياسيًا.

- أردت أن تحضر حتى نكون سويًا..

بمرح زائف: حسنًا، فلنصعد حتى لا تفوتنا الندوة.

أبواب المكان كانت مفتوحة وأعداد الشباب والفتيات كانت كبيرة، يملأون القاعة الصغيرة ويصطفون على جنباتها، في واجهتهم مائدة صغيرة مغطّاة بقماش رخيص مليء بالبقع، يجلس خلفها ثلاثة رجال أحدهم يتحدث في المايكروفون بصوت عالٍ لا يتناسب مع المكان الضيق، وخلفهم يافطة ورقية مُلوّنة، مكتوب عليها اسم الندوة "سياسة بالعربي"، وقفت مع حسن عند الباب وكانت غريبة بينهم مثلما تبدو غريبة في الميدان بملابسها الأنيقة وحقيبتها الكبيرة ذات القفل الفضي الخاص بالماركة الشهيرة، ووجهها الصافي كأنه وجه طفلة أو فتاة لم يترك بها الزمن علاماته، رائحة الفانيليا تفوح منها، من عِطرها ومن الكعكات المنزلية في حقيبتها، صافحه صديق بحرارة وآخر احتضنه وفتيات التففن حوله، كان يبدو حب الناس واهتمامهم الواضح بحضوره، وفي ثوانٍ كانا جالسين في الصفوف الأولى، بكل جُهدها كانت تحاول التركيز والمتابعة، غير أن جسدها كان يرتجف رجفات خفيفة مضطربة لم يلحظها إلا هو ولم يُعقّب في وقتها.

عندما نهض للحديث صمت الجميع بشكل مذهل لم تتوقعه من هذا الجمع في هذا المكان الضيق، كان يتحدث عن المواطنة وكيف أنها فكرة ساهمت في تطور المجتمع الإنساني بشكل كبير بجانب الرُقي بالدولة إلى

المساواة والعدل والإنصاف، وإلى الديمقراطية والشفافية، وإلى الشراكة وضمان الحقوق والواجبات، وأنها تعمل على رفع الخلافات والاختلافات الواقعة بين مكونات المجتمع، وتُساعد على تقوية المجتمع وتعلق المواطن بوطنه ودولته، وتدفعه إلى تطوير مجتمعه ووطنه والدفاع عنه أمام الملمات المختلفة، وأنه لا يكتمل مفهوم المواطنة على الصعيد الواقعي إلا بنشوء دولة الإنسان، تلك الدولة المدنية التي تُمارس الحياد الإيجابي تجاه قناعات ومعتقدات وأيديولوجيات مواطنيها، ولا تُمارس الإقصاء والتهميش والتمييز تجاه مواطن بسبب معتقداته أو أصوله القومية أو العِرقية، كما أنها لا تمنح الحظوة لمواطن بفضل معتقداته أو أصوله القومية أو العرقية، فهي مؤسسة جامعة لكل المواطنين. وهنا نظر لعالية في تلميح لخِلافهما الأول حول مشاركة أطفال الشوارع في المظاهرات، وأضاف أن متانة النسيج الوطني تتطلب التسليم بمفهوم المواطنة، وينال فيه الفرد موقعه الاجتماعي ووظيفته عن طريق كفاءته وقدراته ونزاهته، وأنه لا يُمكن أن تتحقق المواطنة بدون مواطن يشعر شعورًا حقيقيًا بحقوقه وواجباته في وطنه، فلا مواطنة بدون مواطن، ولا مواطن إلا بمشاركة حقيقية في شؤون الوطن. هكذا أنهى حديثه وانهالت عليه الأسئلة واحتدمت المناقشات، بينما هي تسمع مصطلحات تتناقلها وسائل الإعلام دون أن تُدرك هي معناها الحقيقي، حاولت أن تُتابع الحديث بصعوبة وضاع تركيزها بينما كانت مأخوذة بحسن وسحر حضوره الذي طغى على كل شيء.

ثقته في نفسه بها شيء غريب، فهو لم يدّعي الثقافة بل إنها أحيانًا تضبطه وهو يقف بعيدًا وحيدًا في خجل، وأحيانًا تجده جادًا وعصبيًا يخور كالثور لا أحد يقدر على الاقتراب منه، أحيانًا يكون حكيمًا عالمًا ببواطن الأمور، وأحيانًا أخرى يُلقي النكات التافهة ويضحك عليها أولاً، هو أكثر من رجل وكلهم لهم نفس البريق والألق، تجلس أمام سحره كالمبهورة، لا تعرف هل هي معجبة بحزمه وقوته، أم بثقافته ورويّته، أم بهمجيته وطفولته، ولكنها واثقه أنها أمام قصة مستحيلة انتهت قبل أن تبدأ، كسندريلا لملمت أناقتها وانبهارها وقررت العودة للمنزل قبل أن تدُق الساعة التاسعة وينتهي السحر وتضيع هي في عالم لا تنتمي له.

اصطحبها إلى أحد شوارع وسط المدينة وكان الجو منعشًا والشتاء في أعذب حالاته، الشوارع مغسولة والأرصفة هادئة من البشر على غير العادة، ربما كانت الأحداث المتداعية في ميدان التحرير هي سبب الهدوء الذي خيّم على وسط البلد، كان يحكي لها عن مفاهيم ومصطلحات غابت عنها في الندوة؛ الماسونية، الاشتراكية، الحكومة التكنوقراطية، وهي تتظاهر بالمتابعه و الإهتمام وكل تفكيرها منحصر في حياتها القادمة وماذا يحمل لها المستقبل، وكيف أن كل هذه المصطلحات السياسية منطبقة على حياتها بشكل ما، دعاها إلى مثلجات بالمستكة لا تتناسب مع البرد بقدر ما تتناسب مع جنون اللحظة، رائحة المستكة كانت قويّة وصريحة، جلسا على الرصيف، انكمشت وتذكرت محمود، ماذا سيقول إن رآها في هذه اللحظة، هل سينتظر حتى تشرح له أم سيركلها في

الشارع، عن قسوة وليس عن غيرة، ويتركها على الرصيف إلى الأبد؟ هي لا تثق في حبّه لها، ولا تثق في غَضبه، الشيء الوحيد الذي تثق به الآن هو إحساسها بالسعادة.

- تحرري.

هكذا قال لها الغريب الجالس جوارها.

- لا ترتعشي.. فإذا كان ارتعاشك عن برد فالبرد لا يسكن إلا قلوبنا، أمّا حرارة الأجساد فهي رهن انفعالاتها، وإذا كان ارتعاشك عن خوف، فلا تخافي لأنك فَراشة وحُرّة والأحرار لا يخافون.

- لكني لا أملك أجنحة الفَراشة.

- بل تملكين، ولكنك تُخبئينهما تحت مِعطفك.

ابتسمت وشعرت بقدر كبير من التحرُّر، جعلها تحكي له عن الفستان الأحمر الذي رأته في الفاترينة هناك وعن حلمها، حكت له عن عشقها للرسم وتصميم الثياب، وعن المسابقة التي فازت بها وتقاعسها عن المضي قُدُمًا في هذا الطريق، وحكى لها أنه بلا عمل ومع ذلك لا يكترث، وأنه يعشق الموسيقى والقراءة والتسكُّع، وأن لا شيء أو أحد بمقدوره أن يُثنيه عن إرادته، حكى لها أنه بلا أحلام لأنه يمضي في الحياة كغريب وأن أمنيته الوحيدة أن يرى هذا الوطن أعلى وأن يكون لكل فرد فيه إرادته الحُرّة وحقه في حياة كريمة، لم يكن يتحدث بِنُبل وسمو ووطنية ولكنه

كان يتحدث ببساطة وصِدق، كان حوارهما كعادته خالٍ من أي إشارة لحياتهما الخاصة أو آلامهما الخاصة، عند محطة المترو ودّعها بمشاعر حَذِرة مُتحفّظة، على عكس التحرُر الذي كان يُحدّثها عنه وقد رأى في عينيها أن القصة لم تنتهِ بعد.

في الأيام التالية كانت تُحاول أن تتمسك بأرضها وألا تكشف عن الأجنحة، كانت تطوف في البيت تُنظّمه وتُغدق عليه من وقتها وجهدها وتُجاهد نفسها حتى لا يخطُر ببالها الميدان ووسط المدينة وصوته وهو يخطب، ومشيته الواثقة، ونظرته الحُرّة، وكلماته المُلهِمة، ورائحة المِستكة، حاولت بقوة أكبر أن تتجاهل اتصاله بها وألا تُجيبه، فهي ليست على استعداد أن تملأ حياتها البائسة بالمزيد من الأحلام المُجهَضة، وعندما ضعفت أمام رائحة العبث وهوس الجنون اتصلت به فلم يُجبها بدوره، كانت في حيرة، تتمزق بين رغبتها في الاقتراب والبُعد، الآن هي تخون، لم تكن قصة ياسر صديق محمود إلا محاولة صِبيانية للتمرد، أمّا الآن فهي بصدد مشاعر لا تُقاوم، ذاكرتها تُراجع كل أفلام الخيانة، "نهر الحب"، "شيء في حياتي"، "لوعة الحب"، كلها انتهت بمأساة وجرح لا يندمل، كلها أشارت إلى المرأة المجرمة الحقيرة التي لبّت نداء القلب، كم هي حقيرة الخيانة، أحببناها في الفيلم فقط لأنها أتت من فاتن حمامة الرقيقة البريئة وليس عالية التي سيرجمها الناس والمجتمع لو لبّت نداء القلب، فالمجتمع قد يقبل بالمدمن والمحشش، والكاذب والفاسق، لكنه لا يقبل أبدًا الخائنة، يعتبرها نجسة وعاهرة وحشرة، الموت خير لها، حتى

مع تعاطفنا مع فاتن حمامة إلا أن في النهاية ككل الأفلام الأبيض والأسود لا يصح إلا الصحيح، والصحيح أن يموت عمر الشريف وتُحرم هي من ابنها فتنتحر، أو أن تعود لعدلي كاسب وتدفن مشاعرها في قلبها، ولكن محمود ليس عدلي كاسب ولا زكي رستم، هو شاب ووسيم و... غادر، ليت فيلمها ينتهي بأن تحضُن زوجها مثل حضن شادية لأحمد مظهر وهي تقول له (لو كنتَ عاملت القطة بِرقّة منذ البداية ما كانت فكرت في الهروب.. لكن الآن هي لن تتركك أبدًا).

كانت قلقة ومضطربة، قلبها فارغ إلا من التفكير فيه، وكرامتها التي كانت تُحافظ عليها على الأقل أمام الغرباء شامخة بدأت تنهار. كانت مستلقية على الفراش بعد أن نام الصغير، ومحمود في الخارج كعادته مساءات الخميس، فكّرت أن تُحدث حسن، ستُكلّمه كصديق، هكذا كانت تخدع نفسها دائمًا، اشتاقت لسماع نبرته الرنانة وصوته الكسول، الحجج كثيرة وهو لن يسأل، تخوفت من ألا يرد عليها فأرسلت له رسالة تُخبِره أنها تتمنى أن تحضر ندوة أخرى، انتظرت ساعة بالغة القسوة، حتى وصلتها رسالة منه يُخبرها أنه يريد أن يُحدثها لو الوقت مناسب، كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً، ولم تُفكر عالية بل أرسلت له على الفور رِسالة بالموافقة، أتاها صوته أكثر عذوبة مما اعتادته، وكان صوتها منخفضًا وهائمًا كأنه أتى مع النسيم من فوق بُحيرة هادئة، توشوشا في حديث قصير، وصفها بأنها غريبة اقتحمت حياته، وكان هذا شعورها به، أخبرها أنه مشغول بها ولا يدري ما السبب، وأنه يشعر أنها حزينة جدًا

رغم مهرجانات الضحك التي تُغلف حواراتها، ثم أخبرها أنه يتمنى في هذه اللحظة أمنية واحدة، أن يلمس براحته شعرها ويُمرر كفّه فيه، أغمضت عينيها وغابت عن الوجود في هذه اللحظة، أفاقت على نبرته التي تغيرت فجأة ليعتذر لها ويخبرها أنه يجب أن يُغلق الخط، سألته أن يكونا صديقين وألا يقطعا كل الخيوط، وأجابها أنهما بالفعل صديقين ثم أغلق الخط بِسرعة، احتضنت الهاتف كمراهقة، بكت ثم ابتسمت، ظلت عيناها مُعلّقة بسقف الغرفة وداخلها شعور غريب أنها تستطيع حتمًا أن تلمس النجوم في هذه الليلة، إنها تطير، لقد ظهرت الأجنحة وبرقت في السماء بألوانها الزاهية، لم تخف في هذه الليلة مثل ما ستُعانيه من خوف في الليالي القادمة، كانت تلمس شعرها وتمرر كفها فيه كأنّه كفّه وتتأوه بنشوة كأن هذا أقصى ما تتمناه في حياتها، أن يمسّ شعرها. في زُمرة مشاعرها تذكرت أن محمود لم يمس شعرها أبدًا إلا عن طريق الصدفة، هو لا يرى شعرها من الأساس، ثم طردت هذه الفكرة من رأسها حتى لا تُفسد عليها بهاء اللحظة.

خرجت مع محمود وكريم في اليوم التالي، كانت من الأيام القليلة المرِحة في حياتهم، كانت هي شعلة من السعادة وعادت إلى عطائها وأكثر، تُغدق عليهما من حبها وسعادتها، أخبرها محمود أن كعكها المنزلي بشع الطعم ولم تغضب، تحدث لمدة نصف ساعة في الهاتف وهي جواره صامتة ولم تغضب، شغّل الأسطوانة التي يُحبها بعد أن نزع الأسطوانة التي وضعتها ولم تغضب، كانت شارِدة، هنا وليست هنا، تريد أن تحتضن الكون

وتجري في أرجائه كمراهقة، الفرق الوحيد بينها وبين المراهقة أنها لم يعد يُهمها شيء، تُريد أن تعيش قصتها وسعادتها فحسب، تجري مع كريم وتُثرثر لمحمود دون أن يُبدي اهتمامًا، لقد عادت أصبى وأسعد من قبل، ختما الخروجة بسينما مسائية، الفيلم كانت به قصة خيانة، انكمشت، بدأت تشتم حقارة ما حدث، تنظر لهما بطرف عينها وتشعر أنها ليست جديرة بهما، كيف تبدلت مشاعرها في دقائق.. لا تدري، في الأيام التالية أصبحت أكثر عنفًا وحنقًا، كانت مشاعرها متأرجحه بين أقصى السعادة وأقصى الأسى، اتصل بها حسن ولم ترد، ثم عادت لتتصل به بعدها بأيام فلم يرد، تأكدت أن الحيرة والمشاعر المتأرجحة من نصيبه أيضًا، أصبحت شاردة وحزينة، تُمثل أنها بخير وتُبالغ في الاهتمام بالبيت، وقررت قرارًا مثل الكثير من قراراتها الفاشلة بأنها لن تعود للحديث مع حسن أو محاولة الاقتراب منه حتى لا ينفجر في حياتها، وحسبها اللحظات القليلة من الحياة التي وهبها لها.

ومرت أيام أخرى من عذاب المقاومة، حتى كان هذا النهار الذي سكنته الشياطين ولم تزره الشمس ولم تتجلّ فيه الرحمة، عندما كانت تُحمّر اللحم بالمطبخ ودخل محمود دون سلام كعادته في الأيام الأخيرة، كان وجهه يحمل تعبيرًا غريبًا كأنه صورة أو رسمة خالية من الحياة، سمعت ضوضاء في غرفة النوم فدخلت للتأكد من ظنونها، وبالفعل وجدته يُعدّ حقيبة سفر يضع فيها ثيابه وحاجياته هكذا دون ترتيب، لم يكن جواز السفر الذي لمحته في جيبه منذ أيام بِصُدفة أو تهيُّؤ صوره لها خيالها، سألته باستنكار عن جهة سفره ومُدة السفر، فلم يُجب، انتابها شعور

غريب أن ليس من حقها أن تسأله أو أنها فقدت قُدرتها على سؤاله عن أي شيء، هو نفس الشعور الذي لجمّها وجعلها تقف كتمثال تُشاهد مشهدًا في مسلسل لا يخُصّها، صوت داخلها يحثّها على الاقتراب منه ومسك يده بحنانها القديم وسؤاله، لكنها لم تعُد تشعر أنها زوجته، لقد أفقدتها الشهور الأخيرة الجافة هذا الإحساس وسلبتها هذا الحق، عندما انتهى حزم حقيبته ولم ينتظرعودة ابنه من المدرسة؛ اتجه صوب الباب وعند عتبته التي كُسِرت قبل أسابيع نظر لها بِكل الأسى الذي واجههما في الشهور الماضية، وأعطاها ورقة وهو يقول:

- هذا استدعاء من الشرطة وصل باسمك قبل أيام حتى تذهبي للإدلاء بشهادتك في قضية ضرب وسحل الفتيات.

أفاقت من دور المُشاهِدة وحاولت أن توضّح له الأمر وقد هربت كل دماء جسدها، ولكنه لم ينتظر التوضيح وأشار لها أن تصمت، واستكمل هو:

- لقد أمرتك بألا تنزلي الميدان وألا تخرجي إلى حيث لا أدري.. ولم تسمعي كلامي.. تزوجتك حتى تُطيعيني وتحفظيني ولم تفعلي.. أنا مُسافر وأنتِ طالق يا عالية.

صفق الباب خلفه، التصقت هي على جدار قريب في ذهول حتى انتبهت على رائحة اللحم المُحترق في المطبخ.

*****

لم تكن النهاية مؤلمة كنهاية قصتها مع هشام، ليس لأنها لم تُحِبّه أو لأنها أصبحت تُحب هيثم، لكن لأنها تعلمت الدرس جيدًا بعد أن تركها هشام، تعلمت أن تُحب كما تشاء ولا تتعلق بأحد، ليس لأحد على قلبها من سلطان، هي فقط من تأمُره بالحب والهجر والنسيان وعليه أن يرضخ، وقد درّبت قلبها على هذا بعد أن كادت تفقد عقلها بل وحياتها وهي تتداوى من جرح هشام النافذ، الآن هي قوية وبوسعها أن تُدير حياتها دون إرهاق التعلُّق، لهذا لم تتألم من وَضع نهاية لعلاقتها بمحمود، وقد هجرته بنفس الطريقة التي استخدمها معها هشام وبنفس الطريقة التي تعرفت عليه بها، رسالة على الفيس بوك، هي حتى لم تُكلف نفسها أن تُقابله أو تُهاتفه، رسالة مجانية على الفيس بوك تُخبره فيها أنها لا تشعر معه بالأمان وتُعدد بعض عيوبه ثم تُقرر أنها منسحبة فحسب، هكذا فعل معها هشام، وبرغم قوتها إلا أنها مرِضت في هذا اليوم وتقيأت حتى كادت تتقيأ روحها وتنسحب بدورها من الحياة، لم تعُد فرح العاطفية المِعطاءة بعد هذا اليوم ولفّت قلبها بِغلاف قاسٍ، أمّا مع محمود فقد أرسلت الرسالة وحظرته كصديق حتى لا يُحاول مراسلتها، كما وضعته على القائمة السوداء بهاتفها حتى تتجنب اتصالاته، فعلت كل هذا دون

دمعة واحدة ودون أن تُحيد عن مسار حياتها العادي، كأنها تدهس أحدهم بسيارتها دون أن تلتفت، حتى الرسائل الإلكترونية التي أرسلها لم تقرأها، إنما حذفتها كما هي حتى لا تُعطي نفسها فُرصة لمراجعة قرار البُعد.

هذه القسوة لم تكن وليدة قصة حبها الفاشلة فقط، هي قسوة ذات جذور قديمة من يوم أن نزلت مصر لتعيش وحدها دون أن يعبأ والداها، واقتصرت علاقتها بهما على اتصالات قصيرة لا تصل عبرها المشاعر ولا يرتاح معها القلب، حتى قبل نزولها مصر كانت تعيش معهما في الإمارات حياة باردة خالية من الأحضان، لذلك تشعر دائمًا بنقص في الأحضان، الضم يشغلها ويؤرقها، تحتاج لمن يضُمّها طوال الوقت، لا يملّ ولا يضيق بمرحها الزائد مع الغرباء وبقسوة غضبها، يضُمّها حتى رغمًا عنها، يضُمّها وهي ثائرة ومنفعلة فتخمد ثورتها فورًا، يضُمّها وهي تَعِبة فتُصبح مُهرة جامحة، يضُمّها وهي مختنقة فتعود لها أنفاسها، يضُمّها وهي قطعة ثلج ميّتة فتعود للحياة وتذوب بين ذِراعيه، لكنها لم تجد هذا الحبيب الحُضن أبدًا، كل من صادفتهم في حياتها من أحِبة كانوا أحِبّة قُبُلات، حبهم له مفعول القُبلة اللذيذة التي سريعًا ما تنتهي، القُبلة التي تُعطي النشوة ولا تُعطي الدفء فتتركها جوعانة للمشاعر بشكل كبير، وللأحضان بشكل أكبر.

كانت تتألم في المساء، في فراشها بالتحديد تتذكر علاقتهما وتفاصيلها الصغيرة والأشياء المُحببة التي ستفتقدها في محمود، كذراعه المفتولة

التي كان يجذبها بها، نظّارته التي يُعيد وضعها كل دقيقة ثم يخلعها ليدعك عينيه الصغيرتين فيبدو كطفل صغير، وقاره الذي يفقده بين يديها، تُزعجها فِكرة أنها لن تُقابله مُجددًا.. كحبيبة.. هي لم تعتد أن تقطع علاقتها بأحد، لكن محمود شرقي جدًا وضيّق الخُلق، لن يرضى بنصف علاقة أو دور ثانوي في حياتها، لذلك أدركت أن عليها أن تقطع معه كل الخيوط. ولسبب آخر لا تعترف به حتى بينها وبين نفسها، لأنها أرادت أن تُذيق أحدهم ما ذاقته من مرار عند فُراق حبيبها السابق هشام، فالبعض يمررون الجراح التي ألّمت بهم لغيرهم حتى تظل الدائرة مستمرة دون أدنى تأنيب ضمير، عند الفجر اشتد ألمها ونهضت باكية تخنقها الدموع، اتصلت بهيثم وكانت المرة الأولى التي تُحدثه في وقت شاذ، رد عليها بكسل لم يمنعه من أن يكون مستمعًا جيدًا لكل آلامها وبكائها، هدأت عندما ضاحكها وغازلها بِرقة فاتنة، واطمأنت قليلاً لكونه رجل متفهم ولا يميل للعصبية، على عكس الصفات التي عانت منها كثيرًا مع الأحبّة السابقين وأضاعت وقتها في محاولات للتغاضي والإقناع والتحايُل طوال الوقت، كأنها تُربي أطفالاً، الآن هي طِفلة هذا الطفل، الذي له ضحكة تُشبه ضحكتها وأسنان بيضاء جميلة متساوية تُغريها لتقبيله ومداعبة أسنانه بلسانها.

*****

عالية لم تبكِ عندما خرج محمود وصفق الباب خلفه، أغلقت الترباس بهدوء ثم ذهبت للمطبخ وأكملت إعداد الطعام بشكل أُتوماتيكي، وعندما

أحضر الباص كريم من مدرستة استقبلته مُهللة ككل يوم مشيرة إلى أن والده ذهب في رحلة سفر تابعة للعمل ولا تعرف ميعاد عودته بعد، كان هذا الخبر كفيلاً لاكتئاب كريم الطفل الحساس المُتعلق بوالديه بشكل كبير، وراح يسألها ألف سؤال عن والده مما دمّر أعصابها، فصرخت في وجهه وأمرته بالمكوث في غرفته، وراحت تفتح النوافذ وتُشغِّل الموسيقى بصوت مرتفع، ثم أعدّت لنفسها عصيرًا طازجًا احتفالاً بحُرِّيَتها وهي تُردد داخلها "الحمدُ لله"، شربته وهي تُغني ثم انتهت منه ورقصت، دارت دارت دارت، حتى أصابها الدوار، دخلت غرفتها وأغلقت الباب، على طرف السرير جلست، شدت أطراف الملاءة كعادتها حتى يرى محمود السرير مشدودًا مهندمًا فيرضى عنها، عاشت عمرها معه تُحاول أن تُرضيه ولا تُحاول أن تفهمه ثم تذكرت أنه لن يراه، شيء داخلها يرفض التصديق، هو بالتأكيد سيغضب لبعض الوقت ثم يعود، "أخيرًا.. أنا حُرّة.. سأخرُج للعمل وأقابل صديقاتي كما أشاء، سأخرج للمظاهرات والندوات دون أن أضطر للكذب.. أنا حُرّة.. لن يضربني رجل مرة أخرى.. لن يتحكم فيّ إنسان.. سأنام وقت أشاء، آكل ما أشاء وأسمع ما أشاء.. أنا حُرّة"، هكذا حدثت نفسها وظلت طوال اليوم في مرح مبالغ فيه إلى أن أتى المساء كاشف الهموم ومُعرِي العذابات، وظنت أنها ستنام في طول السرير وعرضه قبل أن يسقط جفناها رغمًا عنها، عندما تمددت على السرير تبينت رائحته في الوسادة، رائحة شعره ووجهه بعد أن يحلق ذقنه، ورائحة بيجامته التي تحمل عرقه وبقايا عِطره، نسي أن يضعها في

الحقيبة بعد أن خلعها عن نفسه، ضمت البيجامة لوجهها وسحبت بأنفها رائحته بعُمق لتملأ بها صدرها وقد بدأت دموعها في الانهمار.

أفاقت على صوت أمها وهي تتحدث مع كريم، الصُداع يكاد يفتك برأسها حتى إنها ظلّت مُمسكة برأسها مُدّة طويلة، ولم يُفارقها الصُداع من تلك اللحظة على مدى حياتها، كانت أُمها قلقة جدًا بعد أن اتصل بها كريم ليُخبرها أن أمه أغلقت باب الغرفة على نفسها ولا ترد عليه، كما أخبرها عن سفر أبيه المفاجئ، لكن عالية طمأنتها بأنها تَعِبة فقط قليلاً وبأن سفر محمود كان معلومًا عندها منذ مُدّة، لم تُخبرها عن الطلاق، لم تتحدث في الأمر حتى مع نفسها، هل كانت تحلُم؟ لكن عدم وجوده يؤكد أنها تحيا واقعها كما هو، رأسها يدور فترى الغرفة وأمها وابنها وأيامها، كلهم يدورون في دوامة لا تتوقف، أين محمود ليأخذها للطبيب، أين هو ليُحضر لها الدواء، أين هو ليقلق عليها ويهزّ كتفها وهو يؤكد لها أنها بخير؟ إنها تشعر بأنها بلا ظهر، بل بلا عمود فقري، مخلوقة هُلامية لا شيء يصلب طولها ويشد من جزعها، هل كان محمود مُهمًا في حياتها إلى هذه الدرجة، لكنها لم تطرده منها، تحملت قسوته، جفاءه وحتى خيانته، حاولت حتى آخر لحظة أن تُصلِح من حياتهما وأن تكون مخلصة، الإخلاص ليس بأن تُخلص مجبرًا لحبيبك أو شريكك طالما أن لا أحد يلوح في الأفُق، لكن الإخلاص أن تُقاوم الإغراءات حولك وتُصرّ على إخلاصك، وهي قاومت وحاولت.

اصطنعت الصحة الجيدة والضحكة المرِحة حتى تصرف أمها عن البيت وتُطمئنها، ورحلت وهي تعرف جيدًا أن ابنتها ليست بخير، فهي تعرف الفرق بين ضحكة القلب وضحكة الشفاه الجوفاء، وقد رأت الدموع المُختبئة في عينيّ عالية، ولكنها آثرت أن تتركها تحزن وحيدة حتى تنتهي شُحنة الحزن داخلها، وحينها سيكون المُناخ أكثر صفاءً لحثّها للحكي والحوار العاقل، أخذت كريم معها وتركتها وحيدة كما أرادت، ثلاثة أيام لا تتوقف عن البكاء، تنثر الصور هنا وهناك وتحتضن القطع المتبقية من ثياب محمود، تشُمّ رائحته طوال الوقت، هو لم يتركها، هو في كل ركن من المنزل بغضبه وعبوسه وصمته، مازال السرير يرتعد من قوّته وهو يطأها، ومازال الليل يحمل صوت أنفاسه وهو نائم بِعمق جوارها، حتى المرآة مازالت تحتفظ بصورته وهو يُمشّط شعره في الصباح ويضبط نظارته ويربط الجرافات، تنام كل ليلة على وسادته وتضم بيجامته لقلبها ووجهها، كيف لم تلحظ كل هذا الحب في قلبها، هل كان راكدًا أم كان نائمًا، ظنّته مات ولم يعد، وهاهو يُعلن عن نفسه بعد فوات الأوان، لماذا لم يُسامحها كما سامحته دائمًا، لماذا لم يُحاول أن يُقرّب المسافات بدلاً من أن يقطعها ويردم حبهما ويقتُله حيًا، من سيحتضنها ويحتويها؟ صحيح أنه لم يحتضنها أو يحتويها منذ أعوام طويلة، لكنها تشعر بحرمان أكبر في غيابه وخوف أكبر ألا يحتويها أحد أبدًا وألا تجد من بعده حُضنًا، رغم الخناجر العديدة التي ألقاها عليها ولم يُخطئ التصويب إلا أنها حزينة وضعيفة ومكسورة في غيابه.

غريبة الذاكرة في أدق أوقات حياتنا عندما نستعين بها لتُذكّرنا بما آلمنا من الحبيب وبعيوبه والعذابات الكثيرة التي تسبب لنا فيها، حتى نُصبح أقوى وأقدر على البُعد، تقوم بخياناتها العُظمى ولا تُذكرنا إلا بحلاوة معشره وكل نظرة، كلمة، أو لفتة كسب بها ودّنا، فنسقط في فخ الذاكرة ونتعذب أكثر وأكثر، اتخذت قرارها بألا تُخبر أهلها بما حدث، فهي لن تتحمل شعورهم الحزين بفشلها، كما أنها مازالت تظُن أن المسألة مسألة وقت وأن لابد لمحمود أن يعود آسفًا، نادمًا ليسكن حُضنها مرة أخرى، هكذا أقنعت نفسها حتى تستمر في حياتها العادية، عندما حضرت أُمها مع الصغير أعدّت لهما العشاء الذي يُحبه محمود، وبقيت لأيام تُعد الطعام الذي يُحبه وتنتظره كل مساء في أبهى مظهر، حتى يئست من عودته فذهبت لمقر عمله لتسأل عنه بمواربة، أخبروها وكانت صدمة كبيرة أنه سافر ليعمل بفرع الشركة بإنجلترا بناءً على سعيه الدؤوب منذ مُدّة، وسيبقى هناك لمدة عام على الأقل قبل أن يقوم بإجازته السنوية.

إذن كل شيء كان مُدبّرًا، لقد ظنّت أنها سفرية داخلية قصيرة، أو أنه يقيم ببيت أهله والسفر مجرد تهديد، لكن سعيه له وعدم إخبارها به يُنبئ بنيّة مُبيّتة للغدر، شعرت أن كسرها لأمره أو قضية الضرب والسحل كلها كانت حججًا حتى يتركها ثم يستقل بحياته ويتسنى له أن يبدأ حياة جديدة، ولولا أنها اتصلت بهيثم قريبًا وتأكدت أن خطتها تسير على ما يُرام، بل وأن هيثم بدأ يُحب فرح جِديًا، لكانت ظنّت أنها هي من وراء كل هذا العبث، لكن كيف نسيت أن من خان مرة بإمكانه أن يخون

ألف مرة؟ والآن هو لم يعُد متمسكًا بها كالسابق، مع كل حكاية خيانة تبعد مشاعره عنها أكثر حتى يُصبح الاستغناء عنها أمرًا سهلاً، كيف ركّزت كل تفكيرها لتنتقم لكرامتها ولم تُفكر أن تستعيده، كيف ظنّت كالجميع أن الزواج مشروع أبدي ومضمون؟ حاولت فقط أن تهتم به وتُرضيه حتى تأمن شرور غضبه، لكنها لم تُحاول أبدًا أن تفهمه، كانت تتجنب حوار العقل والنديّة معه حتى لا ينتهي باتهامه لها بالسطحية والفشل وقلة التجربة التي قد تصل للتصرُّف بحماقة، لذلك فضلّت في أعوامهما الأخيرة ترك مسافة بينهما وعدم الانصهار به كسابق عهدهما.. مسافة سمحت للآخرين بالدخول!

مرّ عليها شهر تعيس، كانت تعيش فيه كأن محمود هنا، تنام في ميعاده وتأكل في ميعاده الأصناف التي يُحبها، تذهب مع كريم لتدريباته الرياضية وتُشجّعه بحماس كما كان يفعل أبوه، ثم تُذاكر معه دروسه وهي تُقلد أسلوب أبيه التربوي الجاف، كأنها أصبحت نسخة مصغرة رقيقة منه، حسن كان يزور خيالها من بعيد كل حين، وكانت تبتسم لذكراه وتتمنى في أعماقها أن تراه مرة أخرى وتعود لعلاقتها به كصديق وفقط، فربما صداقتهما تُعيد لها نفسها الحائرة التي مسخها محمود بغيابه، كما أنها سئمت دور الأب والأم الجاف وتحتاج لأن تنزل للدنيا وتُنازلها حتى يشتد عودها مرة أخرى، مشاعرها المضطربة من فُراق محمود بدأت تهدأ والطفلة داخلها توقفت عن النحيب عندما بدأت تعي قسوة قراره في البُعد، وأنه لو كان أحبها بصدق ما كان استطاع أن ينطقها أو أن يبعد

عنها من الأساس، بدأت تبحث عن أحلامها الضائعة هنا وهناك وتتذكر ما كانت تُحب وتكره، فكّرت في العودة للنادي الصحي وتزجية وقتها في أشياء مُلهِمة وليس فقط في شراء مستلزمات البيت والأعمال المنزلية، في خضم أيامها الصعبة وحياتها الجديدة كامرأة وحيدة، جاءتها مكالمة من صفا الطبيبة الصغيرة تعرض عليها المشاركة في ندوة قريبة، وبدأت تشك في أمر صفا وأن المكالمة مُدبّرة عندما أخبرتها الطبيبة الصغيرة أن حسن سيخطُب في الندوة، حاولت عبثًا أن تُخرج أجنحتها وتطير هذه المرة لأبعد من خيالها، لأبعد مما يتصوّر الجميع.

أشارت له على البروز الذي ظهر في بطنها المُنتفخ، فضحك وهو يُقبله ويُثير غرائزها كامرأة تتوق لمن يُعاشرها فيصرع ضخامتها ويُعلن أنها الأم المُثيرة، هذا الصغير الذي مطّ جلدها وسكن تجويفها حتى تغيّر شكلها وأصبحت دبّة صغيرة ببطن ناعم منفوخ، وهي عاشقة الأناقة والخِفّة والمشاغبة، أصبحت تتنقل بثقل من غرفة لأخرى، وتُبدل ملابسها الفضفاضة بصعوبة، سُرتها الغامضة المضمومة أصبحت بارزة ومفضوحة، وثدياها البرتقاليين تهدلا من الكِبر، وبرغم كل شيء أصبحت أسعد وهي تترقب كل يوم حركة الصغير وتشعر به يسبح فيها ويتمطى ويركل ويُدغدغ جسدها، بيته الصغير.

كانت تعد الأيام لتراه، تشعر أنه ولد فهي لم تقم بعمل سونار خوفًا عليه، لكن قلبها يُحدثها أنه ذكر صغير، كانت تُحدثه وتُغني له فيتحرك ليُعلن عن سعادته، وعندما كانت تبكي كان يتحرك حركة مفاجئة مرحة ترسم

لها ابتسامة فوق الدموع، هو رجلها الذي سيُحبها ويحميها ويجعلها أقوى، هو امتداد روحها ومشاعرها تمشي على الأرض، سيُشبهها وتكون روحه حائرة مثلها، هكذا تخيلته قبل أن تراه، في هذا المساء ناكحها محمود بحب جعل من عنفه رقّة، أيقظتها الضربات أسفل بطنها عند منتصف الليل كأن الصغير يستأذن لنزوله، في المستشفى مضى الكثير من الوقت وهي تتألم وتصرخ حتى أتت اللحظة ونزلوا بها لغرفة الولادة، ثم توقف الطبيب فجأة ودخل عدة أطباء آخرين، لم تكن في وعيها الكامل لكنها رأت خيالاتهم وسمعت همهماتهم عن انخفاض ضغطها المفاجئ وانخفاض ضغط الصغير بالتبعية، شعرت بنفسها تتقيأ لا شيء، مجرد عصارة صفراء تُشبه مرارة خوفها.

رأت محمود وكان يرتدي البذلة الخضراء الخاصة بغرف العمليات، كان واجمًا وقد فقد وجهه كل دمائه وعيناه لأول مرة تراهما دامعتين، أحبّته في هذه اللحظة وتمنت أن تضُمّه رغم كل شيء، لكن شِدة الألم وشعورها بالانسحاب من الحياة جعلاها تصرخ صرخة أخيرة مُدوّية، قرر بعدها الطبيب إجراء عملية جراحية، لم يُخدروها تخديرًا كلّيًا بُناء على طلبها، حتى تكون يقِظة في اللحظة المنتظرة وتراه يخرج منها وهو مُلطّخ بالسوائل، فتنتفض وتهم بالنهوض لتكون أول من يُنبّئ محمود أنه ولد كما أخبرته دائمًا، ضحك عليها الطبيب وهي تستأذنه للخروج، ثم راحت في غيبوبة قصيرة أفاقت منها على قُبُلات محمود ونظراته الممتنة، كانت أصفى لحظات حياتهما.

أتى لها بالصغير لتراه لأول مرة، لم يكن غريبًا عنها، كانت ملامحه المنتفخة تمامًا كما توقعت، وعيناه الواسعتان الضاحكتان كانتا تُشبهان عينيها، انفصلت عن الدنيا في جِوار طويل صامت مع الصغير، لم يبكِ كما لم يبكِ لحظة ولادته، كان ينظر لها بتركيز يتأملها وتتأمله، يرسم ملامحها وتطبع صورته في قلبها، أدركت عندما رأته سرّ المعاني الكثيرة المبعثرة داخلها وعرفت أنه أتى ليحمل لها الأمان طوال العُمر، فمشاعرها التي أخبرتها أنه ذكر وأنه امتداد لها لم تكذب عليها قبلاً، ظل على ذراعها طوال الليل، أرضعته من صدرها حبًا مع اللبن وضمّته حتى شعرت أنهما أصبحا شخصًا واحدًا مرة أخرى، تعجب الجميع من التصاقهما رغم تعبها وتعبه من شقاء خروج روح من أخرى، لم يدركوا أنها لم ترتح في حياتها مثلما ارتاحت في هذه اللحظات.

*****

عندما ذهبت للندوة ولم تجده شعرت أنها أكثر الناس وِحدة على ظهر الأرض برغم الزحام حولها، وبرغم صفا التي تُرافقها وتُزعجها بحكاياتها الصغيرة شعرت أنها تحتاج بجانب وِحدتها إلى الصمت، كان يُضايقها هذا الشعور أن حياتها وسعادتها دائمًا متوقفة على رجل، لماذا تظهر كالطفلة التائهة في غيابه أين ثقتها بنفسها، صحيح أنها لم تأتِ إلى الندوة إلا لتراه ولكن هذا لا يمنع أن تستمتع بوقتها مثل كل الفتيات حولها، يتحدثن، يضحكن، يُثرثرن هنا وهناك، وهي كالزهرة الجلاديولاس الأنيقة بينهن ومع ذلك لا تقوى على التركيز أو الكلام، داخلها خرب وهش، ينظر لها الناس بإعجاب، ترى في عيونهم اللهفة على كل كلمة أو لفتة منها ومع ذلك تكتفي بتوزيع الابتسامات الباهتة، كل شيء في المكان يُذكّرها به، حين كان يجلس جوارها ويُلامس بكفه كفها عن دون قصد فيمدها بقوة ما، ورغبة في البقاء معه والتحليق بأرضه، تذكرت حضورة وهو على المنصة ونبرته الواثقة، ونظراته لها بين حين وآخر، كانت تشعر أنها مسؤولة منه وحُرّة في وجوده، هو الرجل الوحيد الذي أعطاها هذا الشعور، شعور الوطن الذي نلتجئ إليه كمصدر حنون ومكان آمن، وشعور الأجنحة التي كشف لها عنها، محمود كان بالنسبة لها وطن آمن

وبيت لكنه أبدًا لم يسمح لأجنحتها بأن تنمو، كان يقصّها أولاً بأول، وعندما اكتشفت خيانته وبعدت بمشاعرها عنه راحت أجنحتها تنمو في خفاء، ولم تظهر إلا عندما كشف حسن النقاب عنها بِجُرأة رجل وعفوية صديق.

بدأ الإنتظار ينهش صبرها فلم تعد تحتمل المكوث بين أناس لا تنتمي لهم مدة أطول، وقد سئمت الابتسامة المرسومة وتعبت عضلات وجهها من التقلص الإجباري، على درج البناية المُتهالكة سمعت خطوات صاعدة عرفت أنه هو، قال لها وهو ينهج، وبدون تفكير، قبل حتى أن يُسلّم عليها (لحقت بِكِ)، إذن كان يعرف أنها هنا، راحت تربط الأحداث في دقيقة وأدركت أنه على اتصال ما بصفا وأنه من طلب منها دعوتها لحضور الندوة حتى يراها بصدفة من صُنعه، أسعدها هذا الخاطر وجعلها تستعيد أنفاسها المضطربة.

لم تصعد معه، لكنه نزل معها، تمشيا قليلاً في شوارع وسط البلد الحيّة دون أن يتوقفا عن الحديث، نسيت معه محنة قلبها وكل أوجاعه، ونسيت أمومتها ومسؤوليتها، هي معه فتاة حُرّة مسؤولة منه، هي معه سعيدة مهما اشتدّت الآلام، وكانت قد اتخذت قرارًا مسبقًا بِعدم إعلامه بخبر طلاقها الذي لا تعترف به حتى بينها وبين نفسها، نزل مطر خفيف ليزيد من رومانسية اللحظة، كانت تطير جواره لا تسير، وهي تشعر أنها في حلم تكرر كثيرًا في خيالها لكنه أبدًا لم يكن بهذه الروعة، فكم تمنت وحلمت بتمشية طويلة مع حبيب يأسر قلبها، وكانت تخشى أن تموت قبل

أن تمرّ بهذا الشعور، فكل تمشية لها مع محمود كانت أشبه بتمشية فتاة مع أسرتها، محمود كان أسرتها التي تُحبها وتشعر معها بالأمان، لكنه أبدًا لم يستحوذ على عشقها، فالعشق حب مرتبط بلهفة وشوق ورغبة، ومحمود رغبة غير متأججة وحب يخلو من اللهفة، لم تسأل نفسها إن كانت أحبت حسن أم أنها مازالت تكذب كذبتها الكبيرة على نفسها وتعتبره صديقًا، لكن هذا ليس وقت أسئلة أو مصارحة، هذا وقت التحليق، لم يُمسِك حسن بجناحيها لكنها كانت تتبعه كفراشته، تدور حول وجهه وشعره وتختفي وراء ظهره ثم تلامس صدره الدافئ في مرح، فراشة خرجت توًا من ظلام الشرنقة ليُبهرها ضوؤه الأخّاذ.

دلفا إلى مقهى أرستقراطي يبدو أنه لاتيني مِن إضاءته الخافتة وموسيقاه الراقصة، طلب حساء البصل، تذوقته وكادت تتقيأ من مذاقة المُتعفّن، كانت محتارة من ذوقه المختلف، فأول مقهى يزورانه كان مقهى صباحي هادئ، نعته بعد ذلك بالبارد وفضّل أن يلتهما المثلجات على الرصيف، واليوم مزاجه لاتيني يميل للحُرّية والمجون، هكذا شعرت من نظراته الزائغة، إنه يقاوم رغبة أكيدة في أن ينظر لها باشتهاء، وكانت محتارة أيضًا في مشاعرها التي تُشع رغبة في وجوده، ماذا يُشعل بها كلما رآها، يجعلها تتلوى من الرغبة، رغم حواراتهما العادية كصديقين حميمين، لكن تحت الأرض الجامدة حمم تكاد تعصف بالقلبين، ملامحه كانت أوضح في الضوء الخافت وقد بدأت ذقنه تنمو وتطول فأعطته مظهر ثائر لا يلوي على شيء، وكانت هي قد غيرت في مظهرها أيضًا فأصبحت لا

ترتدي إلا البناطيل الجينز وتربط طرحتها للوراء فيظهر وجهها كاملاً صريحًا، وكان هو دائم التعليق على مظهرها، دائم الملاحظة لكل جديد فيها، وقد أخبرها أن البناطيل تجعلها أجمل والحذاء الرياضي يُضفي على مظهرها بساطة تُناسبه، ومن يومها لم ترتدِ سوى الأحذية الرياضية إلا في المناسبات الرسمية.

- أنتِ مُختلّة.

قالها لها وفي صوته نبرة عشق، سألته وعيناها تنطق بمشاغبة:

- كيف؟

- نظراتك، طريقة حديثك، طريقة سيرك، تهوّرك ثم خوفك المفاجئ، كل ما فيكِ يقول إنك مُختلّة.

ابتسمت وهي تُبادله نظرات الوله بدون خجل، لقد رأى فيها ما فشل محمود أن يراه على مدى ثماني سنوات، هل كانت نظرته ثاقبة أم أنه أحبها بشفافية جعلته يراها كما هي، هل أحبها؟ سيطر السؤال على رأسها فلم تستطع أن تطرده هذه المرة، وكبرياؤها كان أكبر من أن تُحاول أن تعرف ولو من بعيد، كما أنها استعذبت شعور المراهقة بالخوف من الاعتراف والالتفاف حوله، فلتبقى صديقته إذن حتى يتسنى لها أن تُحدّثه وتخرج معه بدون حسابات الأحِبّة، فهي متعبة من عبث الحب والغيرة والفراق، وتحلم بأن ترسى سفينتها على أرضٍ طيبة، آمنة، خالية

من الوجع، هل يكون حسن هذه الأرض، ويحتوي اختلالها كوطن سلام ويُدرّبها على التحليق أعلى وأعلى حتى تمس النجوم؟ حدثته عن رغبتها وأمنيتها في العمل كمصممة أزياء، وأن هذا يتطلب منها السفر إلى الإسكندرية لأن الفرع الرئيسي لشركة الملابس التي تود العمل بها هناك، فاجأها بقوله:

- إذن سنُسافر سويًا.

ردت بتعجب وحزم، وكانت تتعجب من كل ما يقول:

- طبعًا لا!

فباغتها بتأكيده ويقينه الذي يُرعبها:

- فليكن هذا في شهر مايو حتى يكون الجو أفضل.

غيّرت الحديث حتى لا يلحظ توترها، وكانت أحاديثهما متصلة بشكل رقيق وعذب يُشبه حبات اللؤلؤ المعقودة، ولم يذكرا شيئًا عن مكالمة منتصف الليل، كانا حريصين أن يبدوا صديقين في بلاد لا تعترف بصداقة الرجل والمرأة، خطر لها أن تسأله عن حياته الخاصة، عن علاقاته، عن إذا كان متزوجًا أو مطلقًا أو أعزب، إلى متى ستظل تتظاهر بأن حياته لا تشغلها؟ لكن لسانها كان معقودًا عن هذا السؤال الذي يحمل وراءه الكثير من الاعترافات والظنون، فحدثته قليلاً عن ابنها ثم سألته عن إذا كان أبًا، وفاجأها بأنه مطلّق وأب لطفلة في عُمر ابنها، لم تُفاجأ من كونه مطلّقًا،

فهي لم ترَ فيه يومًا الزوج الذي يتحدث بجدية عن الأسعار والمشاريع وتأمين المستقبل وحسابات الحاضر، لكن فاجأها كونه أبًا، بعد أن رأت فيه جموح الشباب وعنفوان الحُريّة. يبدو أن من حولها من رجال وأولهم محمود صدّروا لها فِكرة أن الأب يجب أن يكون جادًا ناضجًا، مُحمّلاً بالهموم ومُقيّدًا بالطلبات، وحسن ليس كذلك، هو مجرد صعلوك حُرّ رائع، تصارحا بأن كلاهما متشابهان في كونهما أبًا وأمًا مراهقين، غير ناضجين، لا يحملان همّ المستقبل ولا يحسبان الحسابات، كلاهما روحه شابة حُرّة ومُختلّة.

زوجته كانت هولاندية، تعرّف عليها في إحدى الحفلات العامة وبهره استقلالها واتقاد مشاعرها، لكنهما انفصلا عندما ضاق بقيد الزواج وإلحاحها عليه أن يعمل في مصر أو يسافر معها إلى هولاندا.

-كانت مُهرة.. لم تكن دجاجة.

هكذا قال ضاحكًا، اغتاظت عالية، خافت أن يكون هذا رأيه بها، فاستفسرت عن قصده، أجابها أنه لا تستهويه الفتيات المُذعنات، الخاضعات، وأنه يُحب المرأة صاحبة الشخصية المستقلة القوية، استشعرت عالية أنها ليست من هذا الصنف الذي يُعجبه، فهي بالكاد بدأت تُحلّق عن قريب، ومن قبل كانت دجاجة أخرى ترقد باستسلام على أحلامها، خائفة من الطيران، استطرد قائلاً:

- لكن برغم هذا أنا أسير ضعفك الرقيق وأعرف أن وراءه قوة، تلك العينان بهما طيبة ومشاغبة وتحدٍ.. أتعرفين؟ لك وصف عندي لا أستطيع أن أقوله الآن.

خطفتها كلمة "أسير"، كلماته تحوم حول الحب ولا تعترف به، لفت نظرها إعجابه بنقيض ما يُحب، وهذا ما حدث معها فقد انبهرت به رغم بُعده التام عمن تخيلت أن تُحب، فالمنطق يقول إنه رجل عاطل عن العمل، همجي، متواضع الذوق، مشاعره غير مستقرة، لا شيء فيه يُنبئ بحبيب مثالي، وهي أيضًا أم ساخطة على حياتها، مُكبّلة بألف قيد، لا شيء فيها يُغري بالحب، لكن هذا الأحمق لا يختار ويُصوّب سهامه العمياء دون أن يستعلم ويرفع التقارير، لا يُميّز ولا يتوقف عند شيء، لا يهمه سوى أن يتأكد أن السهم نفذ ولن يخرج إلا بجرح غائر.

- إنها المرة الأولى التي أراكِ فيها دون أن تنظري كل دقيقة إلى الساعة.

- أنا مقيمة هذه الأيام عند أمي.. زوجي مسافر.

تغيرت ملامحه في أقل من لحظة عندما ذكرت زوجها، وهمّ بالمغادرة وهو يسألها عن عنوان والدتها، كان يصطف سيارته قريبًا من المقهى، لأول مره تعرف أن لديه سيارة، فهو كان دائم التنقل معها بالمترو، ولكنها اعتادت خروجه عن المألوف وكسره لكل القواعد، وعلّل لها ذلك بأنه يُحب التنقل بحُرّية على قدمية التي تقوده إلى حيث لا يدري، فهو رجل قدري يترك قدميه للمسير، أما السيارة فلا يستخدمها إلا عندما يُرافق

أحد أفراد أسرته، ويبدو أنه على موعد مع أخته وأسرتها هذا المساء، ركبت جواره السيارة وكانت مترددة ومتوترة، خطر لها أنها قد تُقابل أحد الأقارب أو الأصدقاء وهي برفقته في السيارة، كانت مشغولة بالتعليل المناسب لو حدث ما تخشى، لاحظت رائحة السيارة العطِنة من دخان السجائر، والرماد المنتشر في كل مكان، كما لاحظت السِبح الكثيرة غير المتناسقة المُعلقة عند مرآة السيارة، أخبرها أنه يُحب السبح ويحتفظ بأفضلها عنده في السيارة، طلب منها أن تختار أسطوانة لتُشغلها، وكان يحاول بِرقّة أن يُخرجها من دائرة التوتر، وجدت أسطوانات عديدة ومتنوعة ما بين القرآن الكريم وموسيقى الروك وأم كلثوم، كان التنوع يناسب شخصيته الهمجيه تمامًا.

- لا أريد أن أسمع أي شيء.

هكذا قررت بعد حيرة قصيرة، فهي كانت مرتبكة لدرجة جعلتها لا تشعر برغبة في فعل شيء، شغّل هو أسطوانة لموسيقى جنائزية وكان منفعلاً معها بشكل غريب، يلوح بذراعه ويتوعد بإصبعه ويُغمض عينيه لثوانٍ محسوبة، شعرت بتمكّنه من الطُرُق، فقيادته كانت حذِرة عاقلة لا تُشبهه، أعطاها علكة في محاولة أخيرة لطرد التوتر، وقد نجح بالفعل عندما غنى بصوت عالٍ فجأة أغنية شعبية فضحكت هي حتى دمعت عيناها، عندما اقتربا من منزلها صمتا، كانا في انتظار لحظة الفراق الكريهة، فكل لقاء لهما كان يحمل احتمالية أن يكون الأخير، أخبرها أنه كان سعيدًا بهذه الليلة وطلبت منه بتحفُّظ ورغبة حقيقية أن يُعلّمها

القيادة، كانت حجة رائعة لكلاهما حتى يتقابلا بسبب، دون الحاجة لحضور الندوات الطويلة المزدحمة، عندما وقف بالسيارة كانت هي في شِدّة توترها، وهو في شِدّة نشوته من هذا التوتر الذي يُغريه لأن يكون مجنونًا جريئًا معها أكثر وأكثر، غطى كفها الصغير بكفه الأسمر الكبير ودعكه برفق، ثم رفعه في حركة مباغتة إلى شفتيه ليطبع عليه أرق قبلة في الوجود، كادت يُغشى عليها من نشوة وغرابة ما حدث، سحبت يدها وقد لفهما صمت عميق يحمل آيات عشق على شفا الانفجار، اعتذر لها وغادرت دون كلمة، ظلت صامتة لمدّة طويلة، ومسحت كفها بشفتيها كثيرًا عندما انفردت بنفسها في غرفتها.

ونسيت محمود.. والقسوة.. والخيانة.. والفراق.

الأيام تمرّ وهو كما هو صامت مثل هاتفها، الساعة تعدت منتصف الليل وهو لم يأتِ بعد، أرسلت له رسالة أخرى ثم راجعت الرسائل الثلاثين السابقة، منها القصير (لماذا لا نتحدث؟)، (أنا لا أفهم سبب صمتك)، (أنا تعيسه جدًا، أرجوك تكلم)، (آسفة إذا كنت أغضبتك في شيء لم أُدركه)، (تعال)، (الوقت تأخر أرجو أن تكون بخير)، (أوحشتني).. ومنها الرسائل الطويلة التي تحمل العتاب الرقيق أو التقريع اللاذع، رسائل تحمل الخوف والحزن والحب، ولا رد وصلها منه للثلاثين رسالة التي بدأت في إرسالهن من أسبوع مضى، ولم تكن تنتظر الرد، كانت تنتظر فقط أن يأتي ويُكلمها كأن شيئًا لم يكن، أو أن يؤنبها ويعاتبها ويتشاجر معها، فالعتاب والمشاجرة خير عندها من الخصام الذي لم تعرفه إلا معه،

فالعتاب للأحبة أمّا الإهمال فهو للغرباء، والخصام عقاب، وهي ليست طفلته حتى يعاقبها، هي نصف روحه كما كانت تتصور. يؤلمها بُعده، خاصة وأنه خصام بدون سبب، فجأة أصبح يتجنبها ولا يُلقي عليها حتى تحية الصباح، صارت هي كالمجنونة تبكي وتُحدّثه دون أن يرد عليها، تنهار وتشكي حالها لطفلها الصغير الذي لم يتعدَ عمره العامين، ولأثاث البيت وللشبّاك الذي تقف فيه حتى تلمح سيارته، دون جدوى.

بدأ خصامه عند مساء ذلك اليوم الذي أبلغته فيه وهي تُهلل أنها كسبت في مسابقة مجلة فاشون توداي التي أخبرتها عنها مروة صديقتها، وشجعتها للاشتراك بها لما تراه في عالية من موهبة تُميّزها في تصميم الثياب ورسمها المُتقن للموديلات، انتبهت لهذه الموهبة أول مرة عندما لجأت إليها لتُساعدها في انتقاء موديل فُستان سهرة، ففوجئت بها ترسم لها عدة موديلات بمهارة وخفة فنانة مُدرّبة، وبالفعل فصّلت إحدى التصاميم التي طرحتها عليها عالية وأبهرت الناس يومها من أناقتها والطلة المناسبة لها تمامًا التي ظهرت بها، فعالية لم تكن تُصمم ثوبًا فحسب، كانت تتواصل مع الروح التي سترتدي القماش وكيف سيكون مناسبًا لشخصيتها، كانت تأخذ في الحسبان ليس فقط مقاييس الجسد، لكن مواطن الجمال والقُبح، فكانت تعرف أن مروة لها لون خمري وملامح قاسية تُناسبها أكثر الأقمشة الداكنة اللون اللامعة، حتى تُظهر بريق بشرتها وتُخفي قساوتها، وتعرف أن خطوتها واسعة فكان لابد من فستان

بذيل واسع من عدة طبقات حتى تسير فيه كملكة ولا تترنح كأنها لأول مرة ترتدي فُستان سهرة.

وهكذا استخدمت موهبتها في المسابقة، فراحت تُصمم ثيابًا رياضية مريحة وجذابة، وملابس داخلية مثيرة حتى وهي ملقاه على الرف، وبذلة عمل أنيقة طعّمتها بوردة أورجوانية لتكسر حِدّة الوقار، وفساتين سهرة ملفتة للأنظار لفكرتها وتداخل الأقمشة فيها، ولا تعتمد على الأقمشة الغالية والمظاهر المُتكلّفة، كل تصاميمها تعتمد على أفكار جديدة، كانت أمتع أيام حياتها وهي ترسم وتُصمم كأنها تعزف لحنًا جميلاً أو تكتب سطور قِصة مشوّقة، وكان محمود سعيدًا لسعادتها ولو أنه لم يتدخل برأيه أو يُبدي إعجابه بما تصنع، كان فقط يُنعم عليها برضاه ومباركته وهذا كان كافيًا لها حتى تستمر في المسابقة، لم تتوقع أن يكون هذا ردّ فعله عندما أبلغته بنتيجة المسابقة وبأن شركة الملابس تطلب منها العمل معهم، كانت هذه فرصة عمرها والحلم الذي تحقق قبل أن تكتمل تفاصيله في خيالها، توقعت أنه سيطير بها فرحًا، فهي لم تُخيّب أمله هذه المرة ولم تفشل كما يتهمها دائمًا، توقعت أنه سيوافق على العمل خاصة وأنه لا يستدعي ذهابها للشركة إلا عند الضرورة، الحاجز الوحيد لهذا الحلم حتى يتحقق كان شرط الشركة بأن تتلقى دورة تدريبية مدتها شهرين في الفرع الرئيسي بالإسكندرية، كانت تنتظر أن تُخبره حتى يُشاركها التفكير ويقترح عليها الحلول.

لكن ما حدث هو أنه قال لها (مبروك) باردة وغادر الغُرفة، ثم.. ثم الصمت الطويل، لم تسمع صوته من وقتها إلا وهو يتحدث في الهاتف مع آخرين، لم تفهم ما أغضبه، هل غضب لأنها ستَضطر للسفر للإسكندرية ثلاث مرات في الأسبوع لِمُدّة شهرين، أم لأنها ستعمل؟ أخبرته كثيرًا خلال صمته أن العمل من البيت وأنها ستُرسله لهم عبر الإنترنت، أخبرته أنها حتى تحضر تدريب الإسكندرية بإمكانها أن تترك الصغير عند والدتها وتُسافر بالقطار وتعود في نفس اليوم، أخبرته الكثير من الأفكار حتى ملّت من صمته، من فرط حزنها ووحدتها تجنبت الحديث معه عن المسابقة والعمل، وراحت تُحدّثه في أمور البيت والصغير، وأيضًا لا يرد. كانت تعيسة، لا أحد يُشاركها التفكير ولا حتى الحزن، فهي إنسانة كتومة ليست من صنف النساء اللاتي يشكين حالهن للقريب والغريب، تحتفظ بهمومها في قلبها مؤمنة بأن أحدًا لن يفهمها، نسيت مع خصامه فرحتها بالفوز وطموحها للعمل، ولم تعد تفكّر إلا كيف تُرضيه وتُخرجه من صمته حتى تعود حياتهما لمجراها، حتى لو كان الثمن اعتبار ما حدث في الشهور الأخيرة وكأنه لم يكن.

عاد في الثانية صباحًا وكانت في انتظارة وقد محت آثار البكاء وحاولت أن تبدو عادية، قدمت له العشاء، ثم جلست بدلال على فخذيه وهي تُداعب شعره، وسألته مرة أخرى (ماذا بِك؟). هذه المرة لم يُبدِ اشمئزازه منها ويتململ حتى تنهض من فوقه كما فعلها كثيرًا من قبل، لكنه تكلم أخيرًا وأخبرها أنها ليست زوجة أو حتى امرأة، وأنه يائس منها ومما تضعه عليه

من أعباء دون أدنى مشاركة، أخبرها أنها سبب كل أموره السيئة في الحياة، وأنها مجرد دُمية من زجاج تُريد أن يهتم بها الجميع ويُعاملها هو برفق، دون أن تهتم هي بأحد، قال الكثير وكانت أعجز من أن ترد على اتهاماته، فقد كانت تَعبة من كثرة البكاء والتفكير وكانت مصدومة من اختلاقه لكل هذه الحجج وتوشيهه التام لها كامرأة وعدم شعوره بالشوق الذي كان يعتلج بصدرها إليه، وعدم رؤيته لها بعيون حبيب إنما بعيون رجل قاسٍ يُحاسب ولا يُقدّر، كان بإمكانه اختصار كل هذا الخصام وهذه الاتهامات بأن يُخبرها دون مواربة أنه لا يريدها أن تعمل ولا حتى من البيت، يُريدها كما هي دمية من زجاج في البيت يُحركها هو كيف يشاء، نهضت من فوقه وجلست على كرسي بعيد ودون أن تنظر إليه، قالت بوهن (سأحاول أن أكون كما تُريد)، استمر في ترديد أن لا أمل منها وأنها مجرد تافهة تبعث الرسائل المزعجة، دخلت غرفتها في هدوء ونامت كما لم تنم طوال الأسبوع.. نومًا عميقًا بدون أحلام.

*****

في شارع هادئ من شوارع الدقي خلف المدرسة الألمانية تحديدًا كانت تجلس أمام عجلة القيادة وكان جوارها، تقود بتهور لا يُناسب طبيعتها الهادئة، وهو كعادته لا يكترِث ولا ينفعل ويصرخ مع كل خطأ منها، كان مزاجه هزليًا، يضحك ويسخر من كل شيء، وكانت هي أكثر توترًا من أي وقت مضى خاصة عندما شعرت أنه لا يأخذ الموضوع مأخذ الجد، لم تمنعها جرأته الأخيرة عندما قبّل يدها من أن تعاود الخروج معه، كل ما فعلته أنها لم ترُد على اتصالاته لمدة يومين، ثم تناست وبادرت هي بالاتصال به وتحديد موعد معه ليُعلمها القيادة وكأن شيئًا لم يكن، هو أيضًا ردّ عليها بتململ صديق قديم وليس بلهفة حبيب، وهذا زادها اطمئنانًا فهي لا تُريده حبيبًا هائمًا، تريده صديقًا وفقط حتى تستطيع أن تظلّ جواره دائمًا بدون تحرُّج، عندما كانت تواجه نفسها بتلك الفرحة المرتبِطة بوجوده أو سماع صوته، وبِجرأته التي تتحملها دون إبداء أي اعتراض، بل على العكس تتقبلها بِمنتهى الرضا، كانت توقن أنه أكثر من مجرد صديق، لكنها مازالت تُنكر وتظُنّ أنها تستطيع أن تتحكم في صوت القلب وتُخضِع العلاقة لإرادتها، هو صديق إذن.. وليحترق هذا الضمير، فماذا أخذت منه إلا البؤس والتعاسة؟

تعجّبت أنه برغم تسميته لها بألقاب لم تعتد عليها، وبرغم تخطّيه لبعض الحدود، إلا أنه لم يقترب أو يمسّها بشكل غير لائق وهو يُعلِّمها القيادة، تكررت المرات في أماكن مختلفة كلها قريبة من وسط البلد، وهو كما هو لطيف ومتحفِّظ وصديق، كأنه ليس الذي عرفته في الشهور السابقة، حتى إنها قلقت وأرهقتها هواجس أنّه قرر لهما الصداقة فحسب، وأنها هي من اخترعت موضوع تعليم القيادة حتى تراه دون تأنيب ضمير، وأنها هي من تتصل به معظم الأوقات لتُحدد موعد الحصّة، فبدأت تفتعل المواقف لتلمسه بعفوية، أو تقترب منه كأنها لا تقصد، دون جدوى، وبدأت تَشُك في نفسها، هل كانت تتخيل ما كان بينهما من مشاعر، هل كانت قُبلته التي مازالت مطبوعة على ظهر كفّها مجرد تصرف حميمي يفعله مع كل صديقاته، وهل كلهن قبِلن مثلها؟ أرهقتها التساؤلات وعادت بها إلى زمن المراهقة التي ظنت أنها مرّت منها بسلام، كانت تُفكر فيه أكثر من نفسها حتى إنه لا تمر دقيقة دون أن تتذكر ماذا قال وماذا فعل وكيف كان سيتصرف، وكل طعام تطهوه تُفكر في إن كان سيُعجِبه، وكل ثياب ترتديها تُفكّر في رأيه فيها، كانت تنام وتصحو على التفكير فيه، حتى قررت أن تُبادر هي بخطوة أخرى.

في هذا اليوم كان قد قرر لها أن تقود السيارة في الشوارع المكتظّة بالسيارات حتى تبدأ في الاحتكاك وتتعلم قواعد القيادة البوهيمية، وبالفعل قادت سيارته في منطقة المهندسين واتجهت حسب أوامره إلى المحور ومن ثم إلى طريق مدينة السادس من أكتوبر، كانت حذرة وقادت

أفضل مما تخيلا، حتى وصلا إلى مطعم شامي دعاها فيه لتناول الغداء، هناك أخبرته لأول مرة أنها وزوجها منفصلان لكن بشكل غير رسمي، كانت حريصة على ألا يعرف أنها مطلّقة حتى لا يظنّها تسعى إلى الزواج منه، وحتى يتسنى لها أن تتأكد من طبيعة علاقتهما وما ستتطوّر إليه، لم يندهش وبدى كأنه كان يعرف، بل ويعرف عن الطلاق أيضًا، لم يسألها عن أي تفاصيل إلا ما كان يأخذهما إليه الحوار، وراح يقُصّ عليها بعض حكاياته مع حبيبات سابقات، وأنه شديد السأم وهذا سبب عدم قدرته على الاستمرار مع أي منهن، ولسبب آخر همس لها به، لأنه لم يُحب إحداهن حبًا حقيقيًا، حكى لها عن سقطاته ونجاحاته وإخفاقاته، كان معتزًا بنفسه لأقصى حد واثقًا فيما يملك ويعرف جيدًا نقاط قوته وضعفه، كانت كل مرة تسمعه تُسند ذقنها على يديها المتشابكتين وتسرح في وجهه وكلماته كأنها في عالم آخر لا يوجد به أرض.

كان يُغني بصوته المُميز الكسول بين حوارتهما، أغاني لم تسمعها من قبل، أحيانًا شعبية وكثيرًا مواويل غير معروفة، وفي مرات قليلة ضبطته يقول آية قرآنية بتجويد صحيح ونبرة مختلفة عن أي قراءة سمعتها، كانت تضحك من همجيته وتتعلم كل دقيقة وهي معه أشياء جديدة عن التعامل مع الناس وخباياهم وما وراء كلماتهم وتصرفاتهم، يُجيد تأويل أفعال الناس، وتعلمت منه أيضًا التواضع الجميل والبساطة، لم تكن متعجرفة لكن أرستقراطيتها أحيانًا كانت تغلب على بساطتها فتبدو متعالية عن غير قصد، يُعجبها أنه لم تكن له طقوس، كل مرة في مكان

مختلف ويطلب طعامًا مختلفًا، ومظهره نفسه يختلف، فتارة هو شاب جامعي يرتدي الجينز والتي شيرت، وتارة هو موظف حكومي يرتدي البنطال القماش والقميص الواسع ويحمل جريدة، وأحيانًا يكون عصري المظهر بغطاء رأس وكوفية، وأحيانًا ثائر جيفاري بشعره الطويل وذقنه الطويلة ومنظره غير المهندم، وكانت تعشق كل شخوصه، ما كان يُقلقها أن يأتي يوم ويسأم من صداقتهما المزعومة، وكانت تُعزي نفسها بأنه لو حدث ستُغير من نفسها مثله حتى تُرضي سأمه وستستمر في الاتصال به ولو على مسافات طويلة، لكنها أبدًا لن تكون خارج حياته، شاء أم أبى.

حديثه عندما يذهب إلى الوطن يُصبح ذا شجون، وتتغير ملامحه لتُصبح الغضب نفسه، تحمرّ عيناه ويعلو صدره ويهبط في حماس شديد، بدأت معه السياسة لعبتها منذ أن كان طالبًا بالجامعة، وكان زملاؤه من أرباب أسرة النور الإسلامية يشجعونه للانضمام إليهم، خاصة بعد أن خطب في إحدى الوقفات التضامنية مع فلسطين ضد العدو الصهيوني وكانت معلوماته غزيرة وحديثه جذابًا، كانت فكرته عن الأُسر الإسلامية أنها تُمارس دورًا خدميًا للطلاب، فانضم لهم للتعرف على المزيد من الأصدقاء ولاستغلال موهبته في الخطابة والإلقاء في اجتماعات الأُسرة مع الطلاب، وحتى تزداد ثقافته ومعرِفته، فكان هذا شغله الشاغل منذ صِغره، المعرفة وإلقاء نفسه في التجارب مهما كانت النتائج، وكانت نتيجة انضمامه لأسرة النور أسوأ مما توقع، فقد كشفت له عن أن الأمر أعمق من كونه دورًا خدميًا، كان مُلزمًا بحضور اجتماعات سِرية يحدثونهم فيها

كأنهم غير البشر، كانوا يُقدّسون أنفسهم ويُعدونها لشيء أخطر من خدمة الطلبة، طلبوا منه أن يُصلي فُروضه في جامع الكُلية مع جماعتهم، ولم يعترض رغم ضيقه من أن تكون الصلاة بأمر بشري وليس إلهي، وطلبوا منه أن يتحدث بعد الصلاة إلى زملائه ويدعوهم للانضمام إلى أسرتهم، ضاق بهذا الأمر فلم يكن يُجيد الإقناع أو التحريض، هو فقط يقول وجهة نظره أو يوضح الأمور دون تحيُّز، ثم طلبوا منه أن يُطيل ذقنه، فرفض رغم أنه يُطيلها أحيانًا، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير عندما أمروه أن يذهب معهم في رحلات بعيدة خارج القاهرة، وذهب ليستكشف الأمور فوجدهم يُمارسون الرياضات القتالية، ويسبّون بأقذع الشتائم من كانوا يبتسمون في وجههم طوال الوقت، وجدهم يُخططون لكسب انتخابات الكُلية بأي طريقة، ويتّفِقون على جذب الطلبة المغتربين والخاملين واستغلال حُسن النية عندهم ورغبتهم لخدمة المجتمع حتى يُسخِّروهم للسيطرة على الكيانات الصغيرة في المجتمع، ومن ثم يُعِدّوهم لأدوار أكبر.

في الرحلة قابل إحدى الشخصيات العامة المعروفة بكونه أحد أفراد جماعة إسلامية تعمل بالسياسة، وكان رجلاً فاضلاً دمث الخُلُق معروفًا بسخائه وكرمه، اجتمع بهم وحدّثهم عن أهمية كسب انتخابات الكُلية حتى إن اضطروا للتصالح والاتفاق مع أسرة الكرنك العلمانية كما سمّوها حتى يُكوّنوا قوة أمام أسرة الجوالة التي تجذب الطلبة بإقامة الحفلات والرحلات المختلطة سيئة الخُلق، كما طلب منهم تسريب الملازم

الخاصة بالدروس وتوزيعها أو بيعها حسبما اتفق على الطلبة، كانت غايتهم تُبرر أي وسيلة، عندما عاد إلى القاهرة قرر انسحابه وبلغ صديقًا له بالأمر ولم يُعلل ذلك لأنه اعتاد ألا يُبرر أفعاله لأحد أيًا كان، كانت النتيجة المزيد من الضغط عليه حتى جعلوه يكره الذهاب إلى الكُليّة أو دخول المسجد، ومن وقتها توقف عن الصلاة حتى لا يُصادفهم وحتى يُثبت لهم أنه ليس إلا تارك صلاة لا يصلح أن يكون فردًا في أسرتهم، وبصعوبة تركوه بعد العديد من الوسائط والحوارات معه، وكان انتهاء السنة بمثابة عيد له لأنه لن يرى وجوههم لمدة شهور، عند عودته في السنة التالية انتظرته مفاجأة أُخرى.

كان ذلك عندما أتاه اتصال على هاتف المنزل، من رجل يُعرّف نفسه بأنه من أمن الدولة، وطلب منه رؤيته في أحد الأماكن العامة، وحتى يُطمئنه أخبره أنه يعرف عنه الكثير وأنه سعيد أنه ترك أُسرة النور من نفسه وأنه مُعجب بخطاباته الحماسية والتفاف الطلبة حوله، كانت نبرته تُنبئ أنه عقيد شرس الطبع، رغم طريقته الحميمية، تأكد حسن من حدسه عندما ذهب لمقابلته واطّلع على بطاقته الشخصية، بعد حوارات عامة وترقُّب شديد من جهة حسن، تكلم الرجل أخيرًا وطلب منه أن يتحرّى عن زملائه ويا حبذا لو عاد لأسرة النور وبلّغه بكل ما يدور بينهم في اجتماعاتهم ورحلاتهم، ومن قابلوا وعلى ماذا اتفقوا إلى آخره، ونظير خدماته الجليلة للوطن سيكون عليهم حمايته ومساعدته على اجتياز سنوات دراسته بتفوق وربما مساعدته في التعيين أيضًا، كما حدّثه عن

الدور الوطني الذي سيلعبه وهو يجمع معلومات عمن يُخططون لإيذاء الوطن وهزّ استقراره ومن كان تاريخهم مُلطّخًا بالدم ويتوارون خلف وجوههم الطيبة السمحة البشوشة، طلب منه حسن مهلة للتفكير.

كان الأمر بديهيًا ومحسومًا بالنسبة له، ولم يطلب الوقت إلا ليُنقذ نفسه من المواجهة السريعة، فهو برغم عدم ارتياحه لأُسرة النور لكنه لم يرَ منهم مؤامرات تُحاك ضد الوطن، أو خطرًا على الأبرياء، كان لهم دور خدمي حقيقي غير أنهم يميلون للسيطرة الكاملة وفرض قناعاتهم، لكن كل هذا بالنسبة له لا يستدعي التجسس والوشاية، ثم إنه ليس هذا الرجل الذي يشي بزملائه مهما كان، ويعرف أن الضابط لن ينقل المعلومات فحسب بل إنه سيزيد عليها حتى يجد ما يُدين به الشباب ويُمكّنه من اعتقالهم، فلطالما سمع عن اعتقالات في الفريقين، فريق الإسلاميين وفريق الشيوعيين الثائرين، وهو غير محسوب على أيّ منهما، لذلك حزم أمره وعندما اتصل به الضابط أبلغه برفضه للقيام بهذا الدور، ولم يبحث على حجّة مناسبة يقولها، كما لم يسأله الضابط عنها، ما حدث أنه بعد عدة أيام وجد سيارة تنتظره عند بيته وبها أمين شرطة أمره بالركوب، عندما أصبح الطريق خاليًا عصبوا عينيه حتى وصلوا إلى حيث لا يعرف، وهناك لاقى من الضرب والإهانة ما لم يُلاقهِ في حياته، صحيح أن الأمر لم يتعدَ ساعات ثم عاد معصوب العينين كما أتى، لكنه مازال يذكر صوت الضابط الشرس وهو يعتذر له وأن إيذاءه تمّ عن

طريق الخطأ، ثم همس في أذنه وهو يُغادر: "لا تجعلني آتي بك هنا مرة أخرى"، وفهم أنه يجب أن يصمُت للأبد وينسى ما حدث.

- هذا ما جعلني أُشارك في حرق مقرّ الحزب الوطني بيديّ.

نظرته الثائرة كانت أكثر سحرًا من أي وقت مضى، تمنت أن تُقبل وجهه وكل مكان ضُرب فيه لعل قُبلاتها وحنانها يمحيا الألم من ذاكرته، قال لها وقد حاول أن يكون أكثر مرحًا:

- هذا الكلام جد خطير.. لا أعرف لماذا قُلتُه لطفلة.

ضحكا وهي مازالت مُشبكة يديها، فأكمل:

- من تجلس هكذا إلا طفلة.

- هذا كان يُضايق محمود.. الطفلة داخلي.

ظهر على وجهه العبوس مرة أخرى، تذكرت أنه يكره أن تأتي باسمه أمامه، استطردت:

- وهل يُحب الرجال أن تكون المرأة دائمة الطفولة كما قال نزار قباني؟

- صراحة أنا لا أُحب نزار قباني.. هو شاعر عظيم لكن لا يروقني، أشعر أنه يكتُب ليُرضي النساء.

- وهذا ما نُحبه فيه.

- حسنًا، لنعد للطفلة داخلك، أنا لم أصادف من قبل امرأة طفلتها مُتجلّية مثلك، وكنت أظن أن هذه الصفة ستجعل من المرأة حمقاء وسُكّر نبات.. لكن عندما رأيتها فيكِ أدركت أنها تجعلها مثيرة.

ضحكت بصوت عالٍ ووجه أحمر خجول وقد شعرت بصدرها ينتفض ويبرز وجسدها يئن، فلملمت نفسها وانكمشت حتى لا يصله شعورها، فعاد ليقول:

- أزعجتُك بحكاياتي؟

- أُحبّ كل ما تقول.

- وأنا أُحب نظرة عينيكِ وأنا أتحدث.

في طريق العودة كانا صامتين، مُتعبين، وفي أقل من ثانية كانت شفتيه فوق شفتيها، ولأنها دائمًا مُنفرجة الشفتين، فاستطاع أن يلتقط شفتها السُفلى الممتلئة ويضغط عليها بأسنانه، ثم يلتقط الشفاه الرقيقة العُلية ويمتصّها، كل هذا في ثوانٍ معدودة لم تسمح لها حتى بأن تفقد السيطرة على عجلة القيادة، قُبلتها الأولى معه التي كانت تحلم بها وتنتظرها وتتخيلها في أماكن وبطرق عدة، لكنها أبدًا لم تتخيل أنها ستكون في السيارة وعلى عجلة كأنهما يسرقان، كل ما بينهما كان مسروقًا وعلى عجلة، لم يطمئنا أو يهدآ أبدًا، ولم تتخيل أنها ستذوب بين شفتيه إلى هذه الدرجة حتى خُيّل إليها أن الكون توقف في جلال والليل اشتدّ

ظلامه حتى لا يراهما أحد، شعرت أنها لا تُريده أن ينتهي أبدًا، نظرت له بعتاب رقيق يقول (هل من مزيد؟)، ولم يقُل سوى كلمة واحدة وهو يتنفس بعُمق (عذبة)، ثم مسح شفتيه بلسانه وكأنه يستطعم بقايا كريمة على فمه، ثم أعلن بإيمان عميق (إنها أجمل قُبلة في حياتي). لا تذكر إلى متى ظلّت مبتسمة، ربما يومين أو ثلاثة، لكنها تذكر جيدًا أن صوته وعينيه في هذه اللحظة قالا الكثير مما يعجز أي إنسان عن قوله.

*****

عندما عادت في هذا اليوم لمنزل أبيها وهي زائغة البصر، صامتة ومُغيّبة، تبتسم للاشيء كأنها ثملة، انتاب أُمها القلق، والحقيقة أنها كانت قلقة منذ ذلك اليوم الذي اتصل بها حفيدها وأخبرها أن أمه تحبس نفسها في غرفتها ولا ترُد، وعندما وجدت عالية بهذا الشحوب والذهول فضّلت أن تتركها قليلاً حتى تُفرِغ كل أحزانها ثم صممت على أن يأتيا هي والصغير ليسكنا معها إلى أن يعود محمود من سفره، ولمّا رأت عالية تتحسن صحتها ويروق بالها حتى إنها عادت لتُغنّي عند الصباح وتُدندن طوال اليوم، وعادت لتلعب مع كريم وتنثُر حبها على الجميع، فرِحت، لكن عدم اتصال محمود كان يؤرّقها، فهي تعلم أنه حريص على ألا تتحرك عالية خطوة في الحياة بدون علمه، ثم بدأت تُراقب انفعالات ابنتها التي تتأرجح بين نوبات الضيق الشديد والفرح الشديد، كانت تدخل غرفتها باكية وتخرج منها بوجه مُزغرد، وأحيانًا العكس، حتى احتارت في أمرها، لكن اليوم هي تبدو في حالة من النشوة، نشوة حب جديد، لم تمنعها أعوامها الثمانية والخمسون مِن أن تُشخِّص أعراض هذا المرض جيدًا، خاصة وأن عالية لم تعُد تئن وتتألم كالسابق عندما تكون في مشكلة مع زوجها أو عندما يبعد عنها لأي سبب.

دخلت عليها غُرفتها فوجدتها قد خلعت بعض ملابسها ووقفت سارحة في الأرض تتأمل نقشة السجادة كأنها تُفكّر في رسمها، لم تكن هنا لدرجة أنها لم تشعر بدخول أُمها، التي سألتها بحزم عن هذا الذي بدّل حالها وسرق عقلها، ونفت عالية بكل الطرق، وضيّقت عليها أُمها بكل الطرق، حتى اضطرت أن تخبرها أنها تُفكّر في العمل وأنها بصدد مراسلة شركة الملابس التي كانت توّد العمل معها قبل أعوام، وكانت أمها تعرف أن هذا ضد رغبة محمود، ومع ذلك شجعتها بشدّة لأنها تعلم مدى رغبة ابنتها في هذا العمل، وكيف أنه يناسبها تمامًا، ولسبب آخر شجّعت عالية على العمل، لأنها هي من أحبطت محاولتها الأولى للخروج عن المسار المرسوم عندما أرادت عالية أن تلتحق بكُليّة الفنون الجميلة، ورفضت هي بل وأصّرت أنها يجب أن تلتحق بكُليّة التجارة قسم الإنجليزي، ورفضت أيضًا محاولات عالية المُستمرة أن تلتحق بدورات صيفية في كُليّة الفنون أو وكالات التصميم المختلفة، كانت تعتبر الرسم والتصميم عبثًا وهواية غير مجدية، كانت أول من حاول إطفاء جمرة الأحلام المُتقِدة في قلب عالية، ولذلك أرادت أن تُكفِّر عن ذنبها.

وبالفعل راسلت عالية الشركة وهي تتنفس السعادة والحُرّية بعمق، لولا بعض الذكريات التي تمُر بها فتُنغِّص سعادتها، مثل ساعة العصاري التي اعتادت أن تشرب فيها الشاي مع محمود، وملامحه التي تتغير وهو يقرأ الجريدة أمامها، صوت أنفاسه العالية وهو نائم جوارها، تتمزق ألمًا عندما يسألها كريم عن أبيه وموعد عودته، ويكتب له خطابات تقطر

شوقًا وحبًا يُزينها بمُلصاقات كارتونه المُفضّل، كانت تحتفظ بالرسائل وتُخبره أنها أرسلتهم، ثم ترد عليه برسائل تحاول أن تُقلد فيها روح أبيه، يؤلمها الوضع برُمّته، محمود هرب، لأول مرة تجده لا يواجه، تركها والصغير دون أدنى إحساس بالمسؤولية وهو رجل المسؤولية، رحيله وتخلّيه يُشعرانها أنها في كابوس، ووجود حسن يُشعرها أنها في حلم، وحياتها خليط من الأحلام والكوابيس، أحيانًا تتخيل أن الزمن عاد بها، من كانت ستختار لتمنحه حبها؟ كان الأمر سيبدو أشبه بقطف أوراق زهرة، م.. ح.. م.. ح، وربما ينتهي الأمر بألا تتزوج أيًا منهما، فهي قد كرهت الزواج وقيوده ومسؤولياته وذبحه للمشاعر الملتهبة وتقديسه للاعتياد والملل، لم يُقدِّم لها محمود إلا وطنًا من الاستقرار والأمان، شعرت بالغربة عندما تركها لكنها لم تمت، بل تركت جناحيها للريح ورست على شاطئ حسن تطير، تهبط، تنام، تُغنّي، تحيا بِمُنتهى الحُرّية، ولكن حسن لم يمنحها بطاقة الوطن بعد.. تلك التي أظهرها محمود بمجرد أن عرفها.

في تجمُّع عائلي جلست بين أقاربها كتمثال، كانوا جميعًا يتحدثون ويتندرون على مواقف قديمة ويُثرثرون على مواقف راهنة، وهي تبذل مجهودًا كبيرًا حتى تُتابع وتبتسم، حتى شعرت أن وجودهم يُطبق على صدرها ويمنعها من التنفس، ويُشعرها كم هي غبية لأنها لغت موعدها مع حسن، خطر لها خاطر مجنون، مثل كل تصرفاتها في هذه الأيام، فدخلت غرفتها، أغلقت الباب جيدًا واتصلت به، كانت توشوشه فراح يضحك عليها ويُقلد صوتها المنخفض كمراهِقة، طرقت أمها الباب

وطلبت منها أن تأتي لتُساعدها في شيء ما، شعرت أنها تتصنت عليها بسبب قلقها المُستمر وشكّها في انزلاقها لقصة حب، فنزلت تحت السرير وخفضت صوتها أكثر وهي تُحدّثه:

- المنزل ممتلئ عن آخره.. أشعر أني لا أستطيع التنفس.

- حسنًا، أنتِ بحاجه لتنفُس صناعي.

ضحكت بصوت مكتوم أثاره أكثر، ثم عادت لتقول:

- أردت فقط أن أُكلمك رغم الجمع.

- أردتِ أن تقولي أنكِ معي رغم كل من حولك.

صمتت برهة، وكان الصمت بينهما حارقًا ويُغني عن الكثير من الكلام، قال لها يومًا أن صمتهما له معنى عميق لكنه لم يُخبرها ما المعنى، كسرت الصمت بمحاولتها للهروب:

- أنا مُضطرة أن أُغلق الخط.. ماما تُناديني.

- أتعرفين أنّي أسمع صوت أنفاسك؟

- لم يُقل لي أحد من قبل أن أنفاسي لها صوت.

- لكني أسمعه من أول يوم تحدثنا فيه.. وأعشقه.

شعرت بدوار، تمنّت لو أذاقته أنفاسها التي يعشقها وتذوّقت أنفاسه، إنه الوحيد الذي سمع صوت هواء صدرها وهو يُناديه، لأنه الوحيد الذي يُثير فيها هذا النهجان عندما تُحدِّثه.

- أُحِبّكِ!

- ماذا قُلتَ؟

- قُلت أُحِبّكِ يا عالية.

أغلقت الخط دون أن ترُد على اعترافه الأول، رمت نفسها على السرير والهاتف ملتصق بيدها، إنها المرة الأولى، المرة الأولى التي تسمع فيها هذه الكلمة، كل هذه السنوات التي عاشتها والمرات التي سمعتها لم تكن هي، إنها تسمعها لأول مرة في حياتها، وكل شيء بينهما كان الأول.. كانت دائمًا تظنّها كلمة كاذبة، آمنت بالحب ولم تؤمن بالكلمة، أربعة أحرف لا تعني الكثير، المهم التصرفات التي تقول (أحبكِ)، كانت في شبابها المُبكّر لا تُصدقها ولا تدغدغ إحساسها أو تُصيبها بالخدر، لم تجعلها يومًا تُفكّر وتسهر وتذوب، فهي مجرد كلمة، هذه كانت قناعتها قبل أن تسمعها اليوم وتُدرك أنها باب آخر كبير من السعادة لم تكن تعرفه، هذا الغريب الذي احتلّ كل كيانها، لم تحاول أن تجعله يقولها، بل ولم تتق أو تشعر برغبة في أن تسمعها منه، كانت تتبع مشاعرها فحسب، لا تُريد منه ولا حتى اعترافًا، ولكنه عندما نطق بها ببساطة وبدون جُهد أو حسابات شعرت أنها أصبحت حبيبة لأول مرة، وأن العالم بأسره يقولها لها، كانت كلمة

كطلقة رصاص، اخترقت جدار القلب وبقيت داخله تمنحه البهجة والحنان وتُفجّر به المزيد من نوبات الجنون.

*****

صوته المرتعش وتردده وهو يُحدد موعد لقائهما هذه المرة أربكاها، رغم أن فرح لا يُربكها شيء لكنها شعرت من صوت هيثم أن الحدث جلل، وبنظرتها الداخلية المتشائمة التي تخفيها عن الجميع بِضحكة ومرح زائف وأحيانًا حقيقي؛ أدركت أن النهاية باتت وشيكة، ارتدت أبهى ثيابها وتعمدت أن تذهب متأخِّرة بكامل كبريائها، وجدته قلقًا يفرك أصابعه وقد رحلت عنه ابتسامته الطفولية، طلبت قهوتها ولم يطلب هو شيئًا، بدأت تَشُمّ في جُمله القصيرة وصوته الخفيض رائحة الفُراق، بنفاد صبر سألته أن يُلقي ما في جُعبته، فيبدأ يحكي لها كيف أنه فاتح والدته في موضوع زواجهما، وأنها أبدت تحفّظها. سألته باستهتار لِمَ؟ وأجابها بصوت بدأ يتلاشى من فرط الرهبة:

- لها بعض الاعتراضات.

- عُمري مثلاً.

- لا لا، هي لم تُعلق على فارق السن..

- إذن..

- الموضع.. الموضوع هو أنكِ تعيشين وحدكِ.

ابتسمت نصف ابتسامة على جانب واحد من شفتيها وهي ترمُقه بنظرة احتقار دون أن تنطق، فعاد ليُكمِل:

- لكن أنا لا يعنيني مثل هذه الأمور.. أنا أعرفكِ وأريدكِ أنتِ.

- ثُمّ...

- ثُمّ إني قررت ألا أذعن لرغبة أُمي.. فلنتزوج، لسنا صغارًا.

صمتت بُرهة وهي ترقب عينيه المترددتين وكفه البارد المُبتل عرقًا الذي حاول عبثًا أن يحاوط كفها، ثم استجمعت كل قسوتها وكل الأحجار المتراكِمة في قلبها وبدت كأنها ستقول خُطبة، أو هي بالفعل كانت خُطبة:

- اسمع يا هيثم.. أنا لست طالبة أو فتاة صغيرة حديثة التخرج.. وقد مرّ بي الكثير، الكثير من المِحن والكثير مِن الرجال، ليس كما سيصوره لك خيالك أنت وأهلك عن امرأة تعيش وحيدة، فكل رجل عرِفته كان مُحترمًا وسليم النيّة، وكلهم تقرّبوا مني بغرض الحب والزواج، وأغلبهم لم أسمح لهم بأكثر من شرف معرفتي من بعيد، أمّا من قبِلت أن أبحث فيهم عن حبيب حقيقي ولم أجد، وهم كُثُر أيضًا، علموني العديد من الأشياء، كان بينهم من هو مثلك، لن أقول ابن أُمه لأنها المرة الأولى التي تُحدثني فيها عنها، ولا أُخفيك سرًا فالعديد من الرجال المفتولي العضلات من هذا النوع، لكن أنتَ رجل متردد، تُريد أن تستمتع معي وبي، كمغامرة،

والحقيقة يا عزيزي أني لست على استعداد لمزيد من المجازفة بمشاعري الخضراء التي نبتت أخيرًا، لو طاوعتك وتزوجتك ستنتهي المغامرة سريعًا ويعود الولد المطيع نادمًا لأمه بعد أن وصله كل شيء زائد مصاريف الشحن، لذلك من الأفضل أن تبحث من الآن عن مباركة والدتك حتى توفِّر على نفسك وعليّ هذه التمثيلية السخيفة المكررة، والمرة الثانية عندما تُقرر أن تُحب فتاة عليك أن تتأكد أنها تُناسبك لتعيش معها العُمر كله.. أتفهم العُمر كله؟

ثم اقتربت منه وبدلال أكملت:

- بصراحة أنا كنت دائمًا أراك طفلاً وكنت مثيرًا لأمومتي أكثر من أنوثتي.. فعليك من الآن أن تبحث عن أُم.. أقصد حبيبة غيري.. أنا خلاص.. فينيتو.

ثم انتصبت وذهبت وسط نداءاته الكثيرة ودهشته الكبيرة، ضحكت كثيرًا عندما استقلّت سيارتها على منظره المُندهش وهو يلهث وراءها دون جدوى، ثم ما لبثت الضحكات أن تحوّلت لدموع، وقفت في شارع هادئ وبكت من خلف نظارتها الشمسية بِحُرقة، كانت قاسية حتى على نفسها، تمنعها من البكاء بصعوبة وتمسح دموعها من تحت النظّارة حتى لا يلحظها أحد في شارع يخلو من البشر، لم تكن تبكيه، كانت تبكي نفسها وقدرها الذي يأبى أن يمنحها السعادة، تبكي وِحدتها وضعفها والفراغ الكبير، تبكي ما عانته من الأحبّة السابقين كلهم، فكّرت في أن تُقابل أحد

الأصدقاء بدلاً من أن تعود لمنزلها وحيدة، وحيدة.. هل أصبحت الوحدة عار إلى هذه الدرجة، إلى الدرجة التي يتخلى فيها رجل عن حبيبته لأنها لا تملك إلا أن تكون وحيدة، وهل كان عليها أن تستأجر أهلاً حتى تبدو ابّنة منازل مُحافِظة طيبة، أمّا أن تكون وحيدة فهذا يعني أن الرجال يترددون عليها وثلاجاتها لا تخلو من البيرة وأعقاب السجائر في كل مكان، تنام طول النهار وتعود مساءً تتطوح من كثرة الكحول، ضحِكت وهي تبكي من هذا الخيال، ثم أمسكت هاتفها بعصبية تبحث عمن يمكنها الخروج معه حالاً دون أعذار النساء الكثيرة، إنه رامي صديقها المخلص، الوحيد الذي لا يتخلى عنها أبدًا ويستمع لها بحب أخ وصبر أب.

في لوبي أحد فنادق مصر الجديدة انتظرته، كانت تُدخن بهيستيريا رغم أنها لا تُدخن أكثر من سيجارة أو اثنتان في اليوم، رأى وجهها من بعيد فعرِف كل شيء، كانت تدُس النظارة الشمسية في شعرها، وقد ذاب الكُحل حول عينيها وتشقق أحمر شفاهها، ولم تحاول أن تُصلح ما أفسده البكاء، لأنها كانت تحتاج الجلوس الصامت لهذه المُدّة حتى يصل رامي، جلس قبالتها وهو يتحدث عن أحوال البلد وعمله والأسطوانة الجديدة التي اشتراها وآخر حفلة حضرها بساقية الصاوي، وكانت تستمع إليه بِصبر، حتى أتى دورها في الحديث، قصّت عليه ما حدث وهي تُحاول أن تبدو ضحية قدر المستطاع، لا لتكسب تعاطفه، لكن لأن هذا كان شعورها العميق الذي ما أرادت تحريفه بمثاليات واهية، كانت منهارة

دون أن تبكي، فقط تنفعل ويرتفع صوتها ثم تعود لتصمت قليلاً قبل أن تُكمِل.

- لماذا كل من أعرفهم في حياتي أنذال؟ أم هل أنا سليمة النية أكثر من اللازم؟

- لا هم أنذال ولا أنتِ سليمة النية.

لم تكن لديها الرغبة أن تضحك على دُعابته، أكملت كأنها لم تسمعه:

- كلهم رجال غير مكتملين.. يريدون الحب ولا يُعطون شيئًا.. حتى الأمان أبسط ما تحتاجه المرأة يضنون عليها به.. هل أنا امرأة مغامرات يا رامي؟ هل مشاعري تبدو لهم نزوة؟

- لا يا فرح.. لكنك تُسيئين الاختيار.

- هذه المرة لم تكن هناك تلك الحماقة التي نُسميها (ظروفًا) كُنا في مستويات اجتماعية وعُمرية وثقافية قريبة ومشاعرنا كانت متناسقة، كقطعتي بازل كُنّا مختلفين.. مُتّسقين.. مُنجذبين، أطرافه النافرة يحتضنها خواني، وأطرافي الحادة تذوب في حنانه.. عندما نلتقي نكوّن بضمتنا أجمل لوحات العشق.. هكذا كنت أشعر.

- تُريدين رأيي.. أنتِ السبب.

- مجتمع ذكوري غير سوي، ماذا أنتظر منه غير أن يلوم المرأة دائمًا.

وكان معتادًا على جِدّتها معه، كاعتياده على مصالحتها واعتذارها في النهاية، لكنه هذه المرة أراد مصارحتها بما كان يضمره لها طوال الوقت.

- أنا لا ألومك يا فرح بقدر ما أريدك أن تري التجربة بعينين غير عينيك.. حتى تعرفي ما لكِ وماعليك وتُفكّري في الأسباب الحقيقية.

- وما هي الأسباب الحقيقية من وجهة نظرك كرجل مُحايد؟

شعر أنها تريد أن تقول ككلب وليس كرجل، وكانت جِدتها تُضحِكه أكثر منها تُغضِبه.

- حسنًا، ذكّريني كيف انتهى الأمر مع هشام؟

- عندما تزوج.

- لا يا فرح، هو تزوج بعد أن تركتيه.

صمتت برهة لا لتتذكر، فهي أبدًا لم تنسَ، لكن لتُسيطر على غضبها من ذِكر هشام، ثم عادت لتقول:

- تركته لأنه كان أنانيًا ولم يأتِ معي للطبيب في مرضي.. شعرت أني لو عشت معه سأستجدي مشاعره على الدوام وهذا يجرحني.. ثم إني ظننته سيعود، فكانت هذه طريقتنا في الخصام؛ أن نتظاهر بأننا نُنهي الموضوع.

- وهل كان من الأحرى به أن يعيش معكِ وأنتِ تنفصلين عنه كل عدة أسابيع؟ هو أيضًا لم يشعر بالأمان معكِ.. نعم يا فرح نحن أيضًا نحتاج الأمان.

- لو كان أحبّني كان...

قاطعها رامي بسؤاله:

- هششش، أنا الطبيب هنا.. وكيف انتهى الأمر مع محمود؟

- لا تُثر غضبي يا رامي، أنت تعرف كل شيء.. محمود لم يكن لي، كان لزوجته وبيته.

- إذن لماذا ارتبطتِ به من البداية؟ هل تزوج خلال معرفتكما مثلاً؟

- كنت أُحبه، ثم اكتشفت أني لن أكون سعيدة معه وهو بنصف مشاعر واهتمام ونصف وقت وعقل.

- ثم تركتِيه يا فرح.

- لا تُحاول أن تجعلني أندم.. أنت تعرف أني لا أندم أبدًا على قراراتي.

- والآن يا سيدتي التي لا تندم.. كيف انتهى موضوع هيثم.. هذا الطفل الكبير الذي لم تتوقفي عن الحديث عنه منذ شهور؟

- ساعات من الحكي ولازلتَ لا تعرف؟! انتهى لأن سمو والدته لا تُريد فتاة ضالة ثملة بنت شوارع مثلي تسكن وحدها وسمعتها سيئة أن تكون زوجة لابنها الطاهر.

- من الذي ترك يا فرح.. لا تراوغيني؟

- أنا.. أنا من تركتُه يا رامي لأنه أبدًا ليس رجلاً ولن يستطيع أن يعيش معي عُمرًا بأكمله دون مُباركة أمه..

- ومن أدراكِ؟ كان يحتاج لدعمكِ.. لماذا لم تُفكّري أن تقابلي والدته؟ لماذا لم تُجرّبي أضعف الإيمان وتصمتي ثم تُفكّري في حلول؟ لماذا لم تسمعي منه على الأقل رؤيته؟ ألم تسألي نفسك يا كونتيسة فرح لماذا أنتِ دائمًا من تتركيهم ثم تأتين هنا لتبكي وتقولي أنكِ ضحية وأن كل الرجال كلاب ولاد كلب؟

- أنا لم أبكِ.. ثم إني لست مريضة يا طبيبي الجهبذ!

- ولهذا لن تُشفي أبدًا.. لأنكِ لا تعترفين بمرضك.

ارتشفت قهوتها وهي تبدو غير مبالية بكلماته، وأكمل هو:

- أنتِ يا فرح تخافين الزواج.. تعودتِ أن تكوني وحيدة وتُعجبك حياتكِ هكذا.. يُضجرك إحساس أن يكون هناك من يتحكم بحُريّتك.. تُرعبك فكرة أن تجدي من يشاركك أنفاسك في البيت.. وتخافين من تجارب

الزواج الكثيرة الفاشلة من حولكِ.. أنتِ تُحبين حياتك هكذا كفراشة تتنقل بين الزهور لا تعبأ بشيء.. عندما تتذكرين المستقبل تخافين وتفتحين قلبك للحب، وبمجرد أن تشعري بأن الطرف الآخر اقترب أكثر تبعدين أنتِ.. خطوة للأمام، خطوة للخلف.. تراقصينهم التانجو ثم تتركينهم ليسقطوا على أرض الحلبة وحدهم.. لكن يا عزيزتي الفراشات أعمارهن قصيرة والرقصة تنتهي مع انتهاء الموسيقى، وأنتِ تبقين وحيدة.. أنا أيضًا وحيد مثلك غير أني لا أخاف من الزواج، فقط أنتظر التوقيت المناسب.

نهضت وهي تضحك ضحكة قصيرة، ثم وضعت نظارتها الشمسية على عينيها وقالت له وهي تجُزّ على أسنانها:

- أتعرف؟ إنه الوقت المناسب تمامًا لهذا التشخيص الرائع.. رامي، امسح رقمي من هاتفك.. أنتَ خارج دائرة أصدقائي.

ومشت بامتشاق وثقة كبيرة قبل أن تسقط دموعها على الأرض، وهي تُردد داخلها (كلكم كلاب ولاد كلب)، وبقي رامي حزينًا عليها غاضبًا من نفسه أن قال ما قال دون أن يُدرك أنها لم تأتِ إلا لتُزيل همّها ولتستعيد نضارتها معه، كان من الممكن أن يؤجل حديثه حتى تمر الأيام الصعبة، لكنه آثر أن يضرب على الحديد وهو ملتهب لعلها تفيق من دور الضحية ومن عجرفتها الكاذبة، فإما أن تتغير وتفتح قلبها على مِصراعيه، وإمّا أن

تتقبل نفسها ولا تُعذبها بالمزيد من المحاولات الفاشلة، لم يُغادر المكان وظل ينظر لهاتفه في انتظار رسالتها التي ستعتذر له فيها.

عالية تمسك الورقة والقلم وتكتب لأول مرة من سنوات طويلة شيئًا غير طلبات المنزل.

في هذه الليلة أتمنى أن أكتب لك رسالة ورقية، ليست إلكترونية باردة بحروف جامدة متشابهة فلا تُدرك منها من المُرسِل، أريد أن أكتب لك رسالة بخط يدي الطفولي المرتبك لا تحتفظ بها بين أوراقك المبعثرة هنا وهناك، ولكن تحتفظ بها في خِزانة ملابسك بين ثيابك حتى تمتزج بعرقك ورائحة جسدك، رغم جلستي المستريحة الآن فوق الأريكة الوثيرة ورغم حلاوة الجو ولُطف النسائم المتسللة من ضلف الشيش، ورغم رغبتي الجامحة في الكتابة إليك إلا أني أشعر وكأني مكبّلة ومتوترة تمامًا كما أكون معك، تضيع دقائق من لقائنا الغالي ونحن نُحملق في بعضنا ونبتسم بخجل ولا خجل! أو وأنت تسمع ثرثرتي التي أُداري بها رغبتي في أن أبكي على صدرك، أو وأنت تسرد عليّ الحكايات الغريبة مستمتعًا بدهشتي، منتشيًا بِضحكتي، يعود بنا الزمان عندما نلتقي فنشعر كأننا مُحدثي حب.. ولكني الآن كاللحظات الأولى في لقائنا.. مرتبِكة وأشعر بأني لن أستطيع أن أكتب لك كلمة واحدة..

كيف أبدأ رسالتي؟ بحبيبي، حياتي، روحي؟ كلها كلمات معتادة حينما تُكتب تفقد جاذبيتها، أفضّل لو أهمس بها في أذنك، حتى يصل بها صوتي

لدمائك وتخترق بها مشاعري كل حصونك، أنا لا أحب الكلمات المنمّقة والجُمل الكبيرة المنسّقة، ولا أجيد فن الخطابة والأداء المسرحي، أنت أدرى بي مني فأنا أحب أن أحدّثك كطفلة تتدلل عليك دون أن تعرف شيئًا عن البلاغة، وأن أبثك شوقي كعشيقة تجهل أصول النحو وجماليات اللغة، هي فقط تسهر وتعشق وتذوب شوقًا، ولو أني لا أعرف كيف أشتاقك وطيفك معي كل ليلة ووجهك يُطالعني كلما فتحتُ كتابًا أو نظرت إلى جواري، وكلماتك تحاوطني وتحاصر أيامي، علّمني أنت كيف أشتاقك وكيف أكتُبك.

أنت تعرف أني لن أكتب إليك أني وشوشت الودع ومشّطت الدروب وقرأت الطالع، أنت تعرف أني لن أكتب لك عن قمر مرّ بليلي أو نجوم أشفقت على حالي أو عن بحر أبُثّه عذابي أو عن بيداء كانت مسرح لأشعار كتبتها لك، أنا لا أؤمن معك بالحب التقليدي الذي يكتُبه الشعراء ويتغنّى به أهل الطرب، حبك قدري، وأنا اعتدت أن أؤمن بالقدر خيره وشرّه، أريد أن أكتب لك الكثير وكأني أُحدّثك وأراك، أتعرف أني أعشق عينيك، ربما لم أقلها لك أبدًا من قبل، لكني أعشقها وأحفظها كأنها جُزء من ملامحي أنا! أحفظ كل نظراتك وأعشقها جميعًا، التعبة، الجادة، الضاحِكة، الصارِمة، المشتاقة، المداعبة حتى تلك الغاضِبة التي تُخيفني.

هل أكتُب لك عن مكانتك عندي؟ وهل لازلتَ لا تعرفها؟ ألا تعرف أنك أهم ما في حياتي، ألا تُدرِك أني أصحو وأنام على التفكير فيك، وأنك فرضت نفسك على واقعي وخيالي، وأن سعادتك تشغلني، كيف يمكن أن

أسعدك؟ سؤال يؤرقني، حتى لو على حساب راحتي لا يهم، فنجاحك وسعادتك نجاح لي. تبدو كلمات مستهلكة لكني لم أشعرها سوى معك ربما لأنك انتزعت مني حبي لذاتي. فكن سعيدًا حتى وإن بعدت عني ولا تقلق فأنت تحت جلدي، صحيح أني لا أسألك أبدًا السؤال المُعتاد "أتحبّني؟" خوفًا من أن يكون استجداءً لمشاعرك. إلا أني كم تمنيت لو أعرف مكانتي عندك، وأين أقف من حياتك. لعلك الآن تقول في بالك بغضب.. لأنكِ لا تفهمين.. ولكنك أنت من لا تفهم كيف أحتاج أن تُثبت لي تلك المكانة كل يوم وكل دقيقة، وبكل طريقة. فكل وقت يمر دون وجودك تقتلني الظنون وتفتك بي الغيرة.

أنتَ دائمًا هنا ولست هنا.. أنتَ منتهى أملي وحلم شبابي، أنتَ براءتي وذنبي، أنتَ الرِقّة الكامنة فيّ وأنتَ جموحي، أنتَ اللص الذي سرقني والنصّاب الذي أعشقه والمستعمر الذي أشتاقه والقاتل الذي يستبيح دمي وأنا راضية.. لا زلتُ لا أجدني قد عبّرت لك عما بداخلي، ربما لأنه أكبر من أن أعبّر عنه بالكلمات، هل أصِفك؟ لكن وصفك لن يكون كطبيعتك المُتناقِضة. فأنت الطبيعة ذاتها، إعصار ونسيم، بحر هائج ونهر رائق، شمس حارقة وقمر وناس، أنت التضاد والهمجية والجنون.. وأنا المفتونة بك. لن أصف مشيتك وصوتك وملامحك. سأحتفظ بوصفهم لنفسي حتى تظلّ بعفويتك معي وأظلّ أعشق أشياءك الصغيرة أكثر. أتعرف أن جسدي يغار من يدي لأنها لمستك ونامت بين كفيك ومرّت على وجهك الحبيب؟ آه من يدي، أحسدها أنا أيضًا!

تتملكني وحشة غريبة وحنين أغرب، أكاد أشعر بأنفاسك عند عُنُقي وأنا أكتب، وبيدك تُداعب شعري، لا أعرف لماذا الناس قُساة؟ يا ليتك معي حتى تجاوبني وتناقشني، لماذا يقيسون الحب بمقاييسهم، لماذا لا يحترمونه ويقدّسونه، لماذا يعتبرونه حماقة وشغل عيال، أو نوعًا من التحفُّظ والعورة التي يجب أن نُخفيها، أنا أحب أن أحبك بصوتٍ عالٍ وأغنّي لك وأرقص معك، وأتهور وأجنّ معك، ولا أحب ما دون ذلك.. هكذا وجدتني أحِبّك بنضارة قلب عذراء وبتدفق قلب أم، وكأني أول امرأة في الوجود لا تخشى شيئًا، لا يهمها الزمان والمكان ولا تقيس مشاعرها.

أتعرف أنّي أتحدث معك بأريحية وأعلم أني لو جالستك أيامًا لن نتوقف عن الكلام.. لكني الآن مرهقة منك وكتبت عدة أوراق، وأشعر وكأني لم أكتب شيئًا بعد..

*****

عندما تصحو على رسالة من الحبيب يكون الصباح مُختلفًا، لا الشمس التي لفّتك اليوم برفق هي شمس الأمس الحارقة، ولا الأغنية الناعمة التي تسربت لك من الشبّاك كانت موجودة بالأمس، حتى النسمات ترقص حولك بعد أن كانت خاملة بالأمس، كريستال الثُريّات يُفاجئك ببريقه بعد أن كان جافلاً، والستائر تطير بمرح كأن هناك من يُدغدغها، الضوء يُفاجئك أن مصدره قلبك والسماء تُفاجئك أنها تبتسم لك أنت، كل من حولك لطيف وهادئ ويُقبّلك بين عينيك، طالعت الرسالة مرات عديدة وهي تقوم بطقوسها الصباحية، من يوم أن قالها لها يوم أن كانت توشوشه من تحت السرير، أصبحت هذه الكلمة هي أكثر ما يُقال بينهما، تُهاتفه فيرد (أُحِبك) تُقابله فيُسلّم بقوله (أحِبك)، ملأ الكون بالكلمة، يقولها لها فكأنها من روحه وليس من حنجرته، وتقولها له بحروف واضحة وصوت يُسميه هو صوت العشق، وكانت من قبل تظن أنها كلمة كثرة قولها يُضيع معناها، لكن معه كانت الكلمة تُلهب المشاعر وتجعل الرابط أعمق، والقلب أسعد والعالم آمن، لوّنت أظافرها وأعدّت أجمل ثيابها لندوة الليلة، هذه المرة هي لن تكون فقط أحد الحضور، هي حبيبة

المحاضر، هذا الرجل الفوضوي المجنون الذي يتوقف العالم عن دورانه عندما يتحدث.

الندوة كانت عن الألتراس السياسي، وكان التركيز في الندوات على الألتراس بدافع تعريف الناس بدورهم وتاريخهم خاصة بعد أحداث بورسعيد الدامية وقتل أكثر من خمسة وثمانين مُشجّعًا مُعظمهم ينتمون لألتراس أهلاوي، كانت قد تحدثت مع حسن في هذا الأمر قبل الندوة وعرفت عنهم الكثير، وكان حديثه كالعادة محايدًا، فهو لم يُظهر أي توجه سياسي منذ أن عرفته أو سمعت خطاباته إلا توجهه للثورة، ما دون ذلك كان دوره يقتصر على تعريف وتثقيف الناس بما يمتلكه من معلومات وثقافة هائلة، وبطريقته الخطابية الجذابة، هكذا كان حسن دائمًا، مصدر الأضواء أينما ذهب رغم عفويته الشديدة، ومصدر لحب الناس لأنه أبدًا لا ينتمي لتيّار ولا يتخذ جانب فريق دون الآخر، فأجمعت عليه كل الطوائف السياسية، دخلت القاعة معه وهي تشعر بزهو وفخر شديد وأنها ليست إلا قمر صغير بجوار الشمس، شعرت بسعادته أيضًا رغم أنه تعمّد ألا يبدو بينهما أي نوع من الارتباط، كغريبين التقيا صدفة عند مدخل القاعة، عرّفها بصديق من قادة الألتراس واندهشت عندما وجدته شادي حسين زميلها القديم بالمدرسة، هو أيضًا تذكّرها رغم ما تركته آثار السنوات، لم تكن صديقة مقربة منه آنذاك، لأنها كانت خجولة ومنطوية، وهو كان أفضل لاعبي الكرة في المدرسة، لذلك شُهرته سبقته وجعلتها تتذكره فورًا، وهو تذكرها لأنها كانت معروفة في المدرسة،

كونها الطالبة الوحيدة التي تعزف على آلة الإكسليفون، وكانوا يقيمون لها فقرة خاصة في الحفلات لكونها مثالاً للفتاة الجميلة الهادئة. يتطاير شعرها البُنّي وهي تعزف فيزيدها ملائكية. ولولا أنها هربت ذات يوم من فوق السور وتم إيقافها لكانت ضمن الطالبات المثاليات في تاريخ المدرسة. تحدثا بود واستعادا بعض ذكريات المدرسة ومصير الأصدقاء، مما أثار حسن الذي بدا متحفزًا دون أن يلحظه أحد، ولا حتى عالية التي كانت تُحلّق بوجودها معه هناك.

بدأ حسن الندوة وكان متوترًا بشكل لا يُرى، لكنه شعر في نفسه بالقليل من عدم اتزان المعاني، وسرعان ما أشاح بنظرة عن عالية وشادي واستعاد خيوط تركيزه. تحدّث عن تاريخ الألتراس منذ عام ٢٠٠٧، شرح كيف أنهم نموذج يُمثّل مجموعة من الشباب المُحبط من ظروفه الاجتماعية والسياسية، وكيف أنهم استبدلوا الانتماء للوطن بالانتماء لنادي، والهويّة استبدلوها بشارة أو فانلة أو شعار يُلهب حماستهم، وأن اختيارهم كان للنادي الأهلي الذي كانت انتصاراته مصدرًا لجذب المهزومين المنكسرين المحبطين، حكى عن تخوّف الناس منهم لأنهم قوة منظّمة لا يُستهان بها ولم يأبهوا يومًا بالمحظورات الأمنية، وأن لهم سوابق عديدة في خرق الأنظمة واستخدام العنف مع الجمهور المنافس، ثم أضاف أن دورهم الحقيقي بدأ مع الثورة وأنهم ملأوا فراغاتهم بالسياسة، وكان لهم دور بارز في ثورة يناير إضافة إلى الأحداث التابعة، وبدأت هتافاتهم تتحول نحو السياسة وضد الأمن الذي هو عدوهم

الأول، حيث كانوا يُطلقون عليه (ACAB) أي All Cops Are Bastards، وهي جملة تعني أن كل رجال الأمن أوغاد، وأشار إلى أن لا أحد يعلم مصدر التنظيم وكيفية الإدارة في الألتراس، وأن توجهاتهم السياسية غير معلنة، لكنها تسير في طريق مدعوم بشكل كبير، ثم تطرق للحادثه المروّعة الأخيرة واستبعد أن يكون الأمن وحده المُدان أو أن شعب بورسعيد وحده المُدان، مشيرًا إلى أنها مؤامرة يشترك فيها النظام السابق بغرض البلبلة وإثارة الأوضاع، وهكذا كان حسن دائمًا؛ يُرجع كل المصائب للنظام السابق، فكان في نظرة أشدّ جُرمًا من الشيطان الرجيم.

أنهى حديثه الطويل وصفق جميع الحاضرين بشدّة، وقد تعجبت عالية من أن حديثه كان أكثر حدّة وتجنٍّ على الألتراس، بعكس ما حكى لها من أنهم فريق مُخلص وقوي ودوره لا يُستهان به خاصة في الأحداث الأخيرة، لكنها آثارت أن تصمت وتتجنب الحديث معه في الأمر، ثم كان دور شادي للحديث باعتبارة أحد قيادات الألتراس، أتى حديثه على وتيرة أهدأ من حسن وأكثر حماسًا، بدأ واصفًا الألتراس بأنهم جزء من النسيج الوطني وأنه ليس لهم أي اتجاهات سياسية بعينها، بل وإن كل المحاولات التي أرادت استقطابهم باءت بالفشل، لأن غرضهم الأساسي وانتماءهم الأول لمصر وللثورة، وأنهم أول من وعدوا باسترداد حق الشهداء وحماية أهالهم واعتبروا نفسهم حُماة للثورة، ثم عاد ليبدأ الحكاية من عام ٢٠٠٧، وكيف أنهم نظّموا أنفسهم بأنفسهم، ليس عن إحباط لكن عن محاولة للتحالف على شيء مُهم آنذاك، والتخوف الذي اعترى الأجهزة

الرياضية والإعلام الرياضي من أن تكون هذه المجموعات مشاغبة ومتعصّبة، مما أدّى إلى حبس قادتهم ليالي المباريات الكبرى، والتشديد أمنيًا عليهم عند دخول الإستاد مما يصل لتفتيشهم ذاتيًا، وكثيرًا منعوهم من الدخول، مرورًا بصدام الأمن معهم عام ٢٠٠٩ رغم عدم وجود أي بوادر عنف منهم، لكنه كان النظام الأمني الصارم الوائد لأحلام الشباب آنذاك، والذي لم يتغير كثيرًا بعد الثورة، ثم تحدث بمنتهى التأثر عن الدماء البريئة التي أُريقت في مدينة بورسعيد، وعن شهداء الألتراس من يوم جمعة الغضب حتى أحداث مجلس الوزراء، وأهمية القصاص وتطبيق العدالة، ثم أنهى حديثه بأنه يجب على القوى الاجتماعية والسياسية السماع للألتراس، لأحلامهم وآلامهم، واحتواء طاقتهم الشبابية الهائلة والاستفادة منها وتوجيهها لما فيه مصلحة الوطن، لأنهم يتمتعون بإخلاص وتنظيم نادرٌ وجودهما بين عبث الأوضاع الراهنة.

صفقت عالية بشدّة بعد أن وجدت أن كلام شادي مؤثر ويميل للمنطق أكثر من حديث حسن الذي كان يُهاجمهم بشكل خفي، حتى إنه لم يصمت، لكنه ناقش شادي وحاوره أمام الجميع عن ضرورة عدم اعتبار الألتراس أسطورة لأن روح الأساطير تجعلهم يندفعون ويقعون في المزيد من المشاكل، وأنهم يُمثلون باندفاعهم صورة رديئة من الفاشية والنازية، لكن شادي استمر على دفاعه عنهم باستماتة، في النهاية اتفق الاثنان على بعض النقاط حتى يُنهيا الحوار بأدب ومظهر حضاري ديموقراطي لا يحمل في جعبته أي اقتناع، لكنه فقط توافق الندوات والمظاهر.

تعلّمت عالية الكثير من الدروس في التعامل مع الرجال من قصتها الطويلة مع محمود، حسن ليس محمود؛ لكن المرأة تختلف عن الرجل في أنها دائمة المقارنة بين سلوك حبيبها ومن سبقه، أمّا الرجل فهو لا يستطيع أن يُفرّق بين سلوك حبيبته والسابقات، لأنه ببساطة ينسى التفاصيل ولا يشغله إلا واقعه، لذلك تعاملت معه بطريقه مختلفة، كانت صديقته وليست فقط حبيبته، فلم تُعلّق على حديثه أو حواره تعليقًا سلبيًا، إنما آثارت مدحه والوقوف إلى جواره ببساطة دون أن تجعله يشعر أنها تفعل هذا لأنها تُحبّه. كانت المرة الثانية التي تُقابل فيها هذه الفتاه المُسترجلة، حجابها قصير يُظهر نصف شعرها المصبوغ، عيناها حادتان، قوامها نحيف، ثدياها صغيران كأنهما بالكاد نبتا، وردفاها ردفا طفلة، لكن وجهها الخالي من المساحيق يبدو أكبر سنًا من جسدها الصبياني، اسمها نهى البحيري، تتحدث مع حسن بشكل حميمي وإن كان لمدّة دقائق لا غير، وهو مُتحفّظ معها على عكس الباقين، لم تكن تعرف بأن هذه النهى تحمل لها مفاجأة في الأيام القادمة.

كان هذا بعد الندوة بعدة أيام، حين كانت مع حسن في إحدى مقاهي وسط المدينة، مقهى شعبي على الأرصفة ومُعبّأ برائحة النراجيل ودخان السجائر، كانت تتطلع حولها كل حين في انتظار أن يُفاجئها أحد الأقارب أو الأصدقاء، لم تهنأ معه بوقت بدون أن تكون عينها زائغتين وقلبها محاط بالخوف، هذا الشعور المُسيطر عليها منذ بدأت تُقابله في أماكن مفتوحة غريبة عليها، ومنذ أصبحت نظراتهما وحوارتهما أنشودة عذبة

من المشاعر، لكنها فشلت في إقناعه بارتياد الأماكن الهادئة البعيدة، فهو مخلوق من صخب، استأذن منها حينها بسبب اتصال أتاه من أحد الأصدقاء وتركها في المقهى وحدها، بمجرد اختفائه عن نظرها ظهرت نهى البحيري، جلست قبالتها بعد أن تبادلا التحية، أخبرتها أنها تود الحديث معها عن مشكلة شخصية، كانت عالية قد تغيرت بعد معرفتها بحسن، أصبحت أكثر ودًّا مع الغرباء وذابت طبقة التحفظ التي كانت تلف نفسها بها، فرحبّت بشدّة أن تستمع لمشكلة نهى.

- مشكلتي بسبب حسن.

لم تُظهر عالية هذا التقلّص الذي داهمها في معدتها عندما سمعت باسمه وظلّت على ابتسامتها المرحّبة.

- أنا وحسن كُنّا مرتبطين قبل مُدّة، ثُم اكتشفت علاقته بأخرى، فأنهينا علاقتنا بهدوء وآثرنا أن نظل أصدقاء، وبعدما بفترة ترك الأخرى أيضًا لأنها كانت دجاجة على حد قوله..

صمتت قليلاً، كانت عالية هادئة تمامًا كأن الموضوع كله لا يخُصّها، وكان عليها أن تتحدث، فسألتها بصعوبة أين المشكلة؟

- المشكلة أني منذ عرفت بأنه تركها وأنا أفكّر في العودة له، خاصة أنه لمّح أكثر من مرة أن هذا سيسُرّه، ولكني خائفة أن يُعيد الكرّة ويجرحني مرة أخرى بخيانته، لكن قلبي مازال مُعلّقًا به، فهو من علّمني ألف باء ثورة،

وهو من شجعني على أن أعمل في مجال الصحافة، وكُنّا معًا في كل الندوات، كنت دائمًا قطته الحُلوة كما كان يناديني، كُنّا نحلم بأن نتزوج في الإسكندرية وأن تكبر بطني على جزء منه، صدمتي فيه كانت كبيرة، لكن ما يُهوّن عليّ هو أنه أصرّ على أن يظل بقُربي وتستمر صداقتنا لعلنا يومًا نعود كما كنا.

صمتت وقد ترقرقت دمعة في عينيها الحادتين، أمّا عالية فكانت قد جنّبت مشاعرها تمامًا واستجمعت قوتها التي واجهت بها كل عذاباتها السابقة، وقالت بصوت خالٍ من أي إشارة:

- كيف بوسعي أن أساعدك؟

- فقط أعطيني رأيك.. هل أعود له أم أستمر في علاقتي به كصديق؟

- الأمر لا يحتاج رأيي.. إن كنتِ تُحبيه وهو أيضًا فلا مانع من العودة.

- وخيانته لي؟!

- لقد تجاوزتِها بالفعل بدليل أنكِ قبلتِ أن تكوني في حياته حتى لو كصديقة.

- ليس بهذه السهولة..

صمتتا، ولم يكن لمزيد من الحوار معنى، أتى حسن واعتذرت نهى لعالية عن إزعاجها وانصرفت، بقيت عالية مُتسمّرة في كرسيها الخشبي الصغير،

كانت تعرف أن حديث نهى لم يكن أكثر من وشاية حقيرة من فتاة لها نفس مريضة، لكن الحياة علّمتها أن لا دخان يأتي بدون وجود نار، عندما شعر حسن بدمائها الهاربة أيقن أن هناك خطبًا ما خاص بنهى، لكنه لم يُبادر بفتح الموضوع وفضّل أن ينتظر ردة فعل عالية، لكنها ظلّت على جمودها حتى وجدها فجأة تتلوى من الألم، عيناها حمراوان تعتصرهما الدموع ووجهها شاحب كأن الموت يدق على بابها، لم تُفلح محاولاته في أن يبقى معها ويُحضر لها دواء أو أن يطلب لها مشروبًا دافئًا يُهدئ من ألمها، فأوصلها للبيت في سيارة أجرة ورمقها بخوف وقلق حقيقي وهي تتركه شبه راكضة في الشارع حتى اختفت عِند مدخل العمارة، دخلت منزلها بسرعة حتى لا يراها أحد، وظلّت في غرفتها حتى الصباح، التقلصات تؤلمها لكن ألم قلبها أعظم، لم يكن يؤلمها أنه أحبّ قبلها فهذا شيء متوقّع من رجل أعزب جذّاب مثله، ولم يكن يؤلمها أنه كان خائنًا آخر، فالخيانة أصبحت كلمة خالية من المعنى بعد كل ما مرّت به، ثم إنها لم تكن من نصيبها هذه المرة، ما آلمها وغرس أظافره في قلبها هو هذا الشعور أن كلمات الحب التي كانت تظنّها خاصتها كانت مجرد كلمات تُقال للجميع، فهو كان يدعوها أيضًا بقطته الحُلوة، وكان يتمنى أن يُسافر معها إلى الإسكندرية معشوقته، كما أنه أخبرها من قبل أنه يتمنى أن تحمل منه طفلاً حتى تكبر بطنها على جُزء منه.

*****

لم تعد تشعر بهذه القرقعات في روحها، بهذا التوهان والضياع والألم الذي كان يحرق أوصالها، فقدت شعورها بالاحتياج للذة، وتأنيب الضمير الممتزج بالرغبة، فقدت أخيرًا كل هذه المشاعر الملتهبة المتناقضة التي كانت تُنغّص عليها واقعها وتُغرقها في بحور من المرارة متناهية الأطراف، أصبح داخلها هادئًا وخاملاً كبُستان واسع لا يُعكّر صفوه إلا صوت صفافير الهواء العليل، كانت تشعر بهذه الفقاقيع التي تسبح داخلها، فتُحدث نغزة هنا وهناك، نبتة صغيرة تترنح بفعل الريح لكن جذورها ثابتة تُداعب كيانها بفعل هزّاتها الصغيرة، أيقنت الأمر بقلبها ومشاعرها التي أصبحت فيّاضة، تضحك بشدّة على لا شيء وتبكي بحُرقة على أتفه الأمور، لكنها لم تشأ أن تُعلن الأمر حتى تتأكد، أتاها الخط الأحمر الصريح على الشريط البلاستيكي الصغير ليؤكد لها شعورها، النُطفة علقت برحمها لتشفيها من أعراضها المُرهقة والتُرهات التي كانت تسكنها، شعور الحبل شعور غريب يجعل المرأة تشعر بتميز رغم أنها تجربة عادية ومتكررة، تشعر كأن فوق رأسها تاج ما أو هالة مثل هالات القديسين، أنوثتها تتألق وجسدها يُصبح أنعم وأشهى، كل ما فيها ينضح بالأنوثة من شعرها حتى أخمص قدميها، وقلبها يصبح في توق لهذه النبضات الصغيرة التي تؤنس وحدته، ومشيتها تُصبح كقطة تمشي فوق الماء برفق وتلذّذ حتى يتأرجح الصغير بمرح ولا يفزع، لا إراديًا تجد كفها دائمًا فوق بطنها يُهدهد الصغير ويُطمئنه.. أنا هنا يا صغيري.

لم يتمالك زوجها نفسه من الفرحة حتى إنه كاد يهصرها بين ذراعيه عندما عرف، كانت هذه أُمنيته منذ وقت طويل عارضته فيه، فهو رجل يُقدّر الجنس والأطفال والحياة العائلية، لا يهمه ما سواهم، طالما أن رجولته عفيّة ورغبته مُتقدة وله أطفال يملأون البيت ضجيجًا وزوجته تلفهم بحبها واهتمامها فهو أسعد رجل في الوجود. عندما أخبرته بنتيجة اختبار الحمل أصرّ أن يُكافئها على طريقته الذكورية، أكلة كباب وكُفتة وسهرة طويلة من العشق، وكانت سعيدة في حُضنه، لم يُفزعها إلا قطرات الدم القليلة التي وجدتها في ملابسها الداخلية عند الصباح، وباستشارة الطبيب قرر أن تقضي شهورها الأولى نائمة على ظهرها، مروة الشُعلة المتقدة التي تعمل وتخرج وتسهر، عاشقة الزحام والهرج، تقضي يومها كله على سرير في انتظار أن يدخل عليها أحدهم ليُسليها قليلاً وهو مُضطر، هل عندما نوت أن تُسعد زوجها وتُساعد نفسها على الشفاء يكون هذا جزاءها؟ المزيد من الوحدة والسكون، لكن فرحتها بالصغير خففت عنها أعراضها المُرهِقة، فكل تعب يهون جوار تعب النفس وشرودها، فقررت أن تكون فترة السكون بداية جديدة لها.

راحت تقضي يومها كله تقرأ الكتب، وتتصفح الإنترنت، دخلت عوالم جديدة دفعت بها للاشتراك في إحدى دورات علم النفس عبر جامعة أمريكية للدراسة من خلال الإنترنت، قضت أسعد أيامها وهي تقرأ في هذا العلم الثمين وفُتحت لها أبواب عديدة من الشغف بالحياة، فأقبلت على زوجها وابنتها وأسرتها التي كانت تُعاملهم من عالمها البعيد، وأصبحت

رغم قلة حركتها لها الكثير من الأسفار والتجارب بين بحور القراءة والدراسة، بدأت تُصنّف الأمراض الكامنة في كل من تعرفهم وراحت تُشخّص وتبحث عن الأسباب والدوافع وطُرق العلاج، وهذا في حد ذاته كان سبيلاً لعلاجها هي مما كانت غارقة فيه، أحيانًا تبتئس وتكتئب من اكتشافات عظيمة تُظهر كمّ الأمراض النفسية التي تتعامل معها، لكن هذا كان دافعًا أكبر لها حتى تُتِم دراستها وتستمتع بقراءاتها الكثيرة، ومرّت الشهور وسمح الطبيب لها بالحركة ولزوجها بأن يقترب، عندما اقترب منها هذه المرة لم يكن على عُنفه وشراسته، كان لطيفًا، لم يلتهمها لكنه دلّك شفتيها بشفتيه حتى ذابا تمامًا، فرك جسدها برقّة وقبّل بطنها الصغير كثيرًا، لأول مرة تجده بهذا الوجه العذب، وبدأت قصتهما من جديد، نستطيع أن نبدأ دائمًا ما دمنا لم نصل للنهاية بعد، لم يتجدد العشق وإنما هي من تجددت فأصبحت ترى الوجوه العديدة التي يُمكن أن تعيد الحب بينهما ليبدأ من نقطة الخجل حتى يصل للوهج، عندما أغرقته بخمرها ووصلت معه لقمة لذّتها حتى صرخت نشوة لأول مرة وليس ألمًا، أيقنت أنها تحررت من كل هواجسها.

كان صراعًا وليس مجرد خلاف، أمّها تريدها أن تتعلم عزف البيانو مثل كل الفتيات الراقيات بنات الذوات، وهي تبكي وترفض وتُصرّ على تعلُّم الإكسليفون، أبوها يُساندها بتعليقات قصيرة (دعها براحتها)، (لا فرق)، (ستُبدع فيما تُحب)، ولكنه لا يقف في وجه زوجته لأنه يعرف عِندها وتسلطها خاصة مع الصغار، فقرر أن يوفّر جُهد الصراع معها إلى ما هو

أهم. عالية كانت أيضًا عنيدة فلم تستسلم ببساطة وأعلنت أنها لو ذهبت لدروس البيانو فإنها ستجلس كقطعة ديكور ولن تتعلم شيئًا، ولو اشتروا لها البيانو حتى يُجبروها على تعلّمه فلن تستخدمه إلا كمائدة تضع عليها براويز الصور وفازات الزهور. كانت بغلة حرون وهي في سن المراهقه. كسرت الحياة ومحمود شكيمتها فيما بعد. رضخت أمها في النهاية على شرط عدم تعلم أي آلة موسيقية، فهي لن تدفع المال وتُنظّم المواعيد من أجل دروس لآلة طفولية تافهة مثل الإكسليفون.

بدأ عشقها للإكسليفون عندما كانت في غرفة الموسيقى، تُتابع صديقاتها اللاتي وقع عليهن الاختيار للغناء في حفلة المدرسة. ولم تُحاول مُجرد المحاولة أن تُشاركهن، فهي تخجل من الحديث فما بالك بالغناء. هناك وجدت الإكسليفون الكبير الذي كانت تعزف عليه تلك الفتاة الشقراء من قبل. عندما انتهت الحصّة وغادرت الفتيات، أمسكت هي بالعصاتين الصغيرتين ودقت على الأصابع، فوجدت صوتًا صارخًا مُتحررًا يُشبه صوت روحها حين تتململ من الوجود. عاودت الدق وأطالت. حرّكت يديها من هنا لهناك وهي تُتابع الصوت وتغيرات النغمة. تيقّنت أين يكون الصوت أُنثويًا، أرفع وأعلى، وأين يكون صارمًا وذكوريًا. فعاودت المحاولة عدّة مرات وهي تشعر بدفقة من السعادة تجتاحها، وابتسامة كبيرة تنبت على شفتيها، حتى سمعت صوت التصفيق.

انتبهت على معلمة الموسيقى الرقيقة ميس راندا وهي تنظر لها بإعجاب وسعادة. ربتت على كتفها وهي تُردد "برافو". ومن يومها أصبحت تنتهز

الفُرص لتأتي لغرفة الموسيقى وتتعلم العزف على الإكسليفون، ولم تتطوّع ميس راندا لتعليمها وحسب، ولكنها كانت تُشجّعها وتشتري لها كتبًا صغيرة عن آلة الإكسليفون، وتُحدثها كثيرًا عن الموسيقى وعن أيامها الجميلة بالمعهد وأحلامها العريضة قبل أن تعرف أنها ستكون معلمة لمادة غير معترف بها، لا يحتاجونها إلا قبل الحفلات لتُنظم أي شيء يجعل الحفلة مبهجة، لكنها لم تكتفِ بدورها في الحفلات، وأضافت أو أعادت الفقرة الموسيقية لطوابير الصباح التي كانت تقتصر على أغانٍ دون موسيقى وفقرات رياضية وثقافية، ثم بدأت تُعدّ عالية لتُصبح هي الفقرة الموسيقية بعد أن رحلت الفتاة الشقراء، وجدت عالية في الإكسليفون سلوتها وضالتها بعد أن كانت حياتها مجموعة من الأوامر والنواهي، وراحت تعزف بيديها وشعرها وقلبها، تحررت ورقصت في خيالها، العزف يعني لها الرقص، كما تعني كل هواية لصاحبها شعور مُعيّن من التحرر والخروج من دائرة المألوف البغيضة.

في هذا النهار كانت مُحبطة، بعد أن قضت ليلتها باكية من والدها الذي رفض أن ترتدي فُستانها الجديد في حفلة عيد ميلاد ابنة خالتها وأصرّ أن تُبدّله لأنه قصير وعاري الأكتاف، وفي الحفلة كانت منطفئة، حزينة لأنها ارتدت ملابس قديمة ومحتشمة، بينما كانت الفتيات زاهيات يرقصن ويتقافزن كالفراشات، وانزوت هي في شرنقتها، عند نهاية الحفلة أبدى أبوها إعجابه بالفتيات ونشاطهن وأناقتهن، لم تكن تعرف أن هكذا هُم الأباء، تُعجبهم الفتيات وثيابهن ودلالهن طالما أنهن لا يخصّونهن، دخلت

المدرسة ففكت ضفائرها وعزفت على الإكسليفون بقوة وغضب في الطابور الصباحي، تاركة العنان لشعرها أن يُشاركها الرقص، لم تفهم شيئًا طوال الحصص، كانت غيمة سوداء تقف بينها وبين كل ما حولها، حتى سمعت فتاتين تتهامسان أنهما بصدد الهروب من المدرسة.

نزلت معهما في وقت ما بين الحصص، ووعدتهما بألا تُطلع أحدًا على سرهما، عرفت أنهما على موعد مع ولدين في صالة بولينج قريبة، أمّا هي فقررت أن تذهب لتمشية طويلة تُنفث فيها عن اشتعالها، مكتب قديم كان في زاوية الفناء، وضعن عليه كرسي خاص بالدادات وصعدن بخفة واحدة تلو الأخرى، تصلن لقمة السور ثم تلقين بأنفسهن بدون أدنى صوت، صعدت مثلهن فوق الكُرسي، لكنها فجأة شعرت أنها تترنح، نظرت للأرض فأتاها دوار أطاح بها ونثرها ككومة من الأوراق، كان صوت الكرسي وهو يقع وينكسر مُدوٍ، وصوت صراخها كان مُفزعًا، لكن ردة فعل المديرة كانت أكثر دويًا وفزعًا.

*****

بدأ الشتاء ينزوي وتتساقط أوراق الشجر الصفراء لتملأ الشوارع وحواف النوافذ، عادة كانت تخشى هذه الفترة من السنة حين تكثر العواصف وتزيح الرياح أتربة العام لتنثرها فوق رؤوس الناس، ربما بسبب حزنها على مفارقة الشتاء الحبيب الذي يحمل الدفء في برده، هذا الدفء الجميل الحقيقي الذي يكون نتيجة مشاعر حقيقية وليس نتيجة اللفحات الصيفية الساخنة، هذا الدفء الذي يغمر القلوب المُتدثّرة بالحب، لطالما ظنّت أن حب عُمرها ستُقابله في الشتاء عندما تنزل في تمشية طويلة تُمشط الدروب الرطبة باحثة عنه، فحب الشتاء صادق وممتد ليس كحب الصيف السريع الذي يُشبه مكعبات الثلج في عصير صيفي، لم تكن تعرف أن الحياة تُخبئ لها هذه القصّة المُرهِقة التي بدأت مع بزوغ الشتاء، كانت تُشغل نفسها منذ عدة أيام بالتريكو، يرن هاتفها برقمه فلا ترُد، مازالت غاضِبة منه تُزجي وقتها في أشياء غير مفيدة حتى تمُر الأيام بدونه، ولا تمُرّ، كان بؤسها يُزعجها لأنها مازالت المرأة التي ترتبط سعادتها برجل، وكانت مشتاقة لصوته ومُداعبته وصخبه وحكاياته التي لا تنتهي، وقلبها كان يبذل كل طاقته حتى يُقنعها أن تتراجع وتعود له، فلا وقت تُضيعه في المزيد من الحُزن.. ويكفي ما فات بدونه.

مع الوقت وبالحب تصغر الأشياء، وتُصبح أسباب الغضب هي نفسها أسباب اتخاذ الأعذار، جرحها كان غائرًا، وكان هو الدواء الوحيد، ولولا هذه الكرامة المُتألِّمة لكانت رمت نفسها في حضن وجوده عند أقرب فُرصة، عقلها أيضًا كان يُذكّرها عند كل نوبة ضعف بكلمات تلك النُهى، الكلمات التي حفرتها في قلبها عندما سمعتها منه وظنّت أنها خاصتها، لذلك استمرت على عصيان قلبها والبُعد عنه، في خضم الصراع اليومي الذي أصبحت تعانيه منذ عرفت حسن أتاها اتصال غزل صديقتها ليُعيدها لواقعها، كانت تدعوها لتجمع مع الصديقات في بيتها كالعادة، استجمعت سعادتها وعزمت على الذهاب، هذه المرة لم تتأنق وتتزوق كالمرة السابقة، لكنها ارتدت ما اعتادت أن ترتديه مع حسن، الملابس الكاجول التي يُحبها وحذاء رياضي خفيف، ولم تلوّن وجهها، تمامًا كما يُحِب، فبدت بينهن طفلة شاحبة، أو ثائرة مُنهكة من الهتاف والتظاهر، كانت مثار حديثهن بالتغيير الذي طرأ عليها فأصبحت همجيّة على حد قولهن بعد أن كانت سيدة صالون، ولم تُزعِجها تعليقاتهن بل كانت تضحك وتسخر من نفسها، كأنما لتؤكّد لهم أنها فعلاً تغيّرت.

بعد مهرجانات الفرحة التي كانت تؤديها، انزوت في ركن ترقبهن من بعيد، شعرت فجأة أنها غريبة، ليست عالية صديقتهن، شعرت بالدناءة واحتقرت نفسها، كلهن زوجات محترمات أو عازبات مُتحفّظات ووحدها هي الأم المراهقة، ماذا لو عرفن بمغامراتها، ماذا لو رأينه وهو يلتهم شفتها في سيارته، ماذا لو علمن أنها ترتاد المقاهي وتجلس بجوار غريب

يُأرجل ويُدخّن الحشيش أحيانًا ويُصاحب الصعاليك دائمًا؟ شعرت بدوار وصُداع أصبح مُلازمًا لها من يوم أن رحل محمود وأخذ معه ثباتها، فباتت تعيش بلا أرض، تُحلّق وفقط، قارنت بينها وبينهن فوجدت أنها أصبحت قطة شوارع تسلك كل الطرقات التي تؤدّي إلى امتلائها ونشوتها، حُزنها وغضبها من حسن جعلاها تعجز عن وصف علاقتهما أو تخيل ما بعد تلك العلاقة، والضاحكات المرحات حولها جعلنها تشعر بتعاستها أكثر، غزل كانت مُتفنِنة في التعرّي كعادتها وقناعتها بأن العُري هو الأناقة، وكانت تملأ المكان بحواديتها ومزاحها المعتاد، حتى اقتربت من عالية المُتراكمة على الكرسي وطلبت منها أن تُشاركهن الحديث، تحدثت مثل حسن، كأنها مِثال مُصغّر منه، وجدت أن معلوماتهن السياسية ضحلة مُقارنة بها، كانت معظمهن من تلك الطبقة المعروفة بالـ(فُلول) التي تبكي وتتحسر دائمًا على النظام السابق والاستقرار، فلم تُجادِلهن وتركتهن في عجرفتهن الكاذبة ومقاوحتهن الدائمة، حتى معلوماتهن الثقافية كانت ضعيفة وهشّة، شعرت حينها فقط بأنها استعادت ثقتها بنفسها، ثقة نابعة من امتلاء حقيقي وليس فقط من ثياب آخر موضة وزواق فاتن.

هناك قابلت عُلا، كانت مُرتبكة وهي تدعوهن على خِطبتها، سعدن بها ولها سعادة حقيقية، شعرت عالية كأن عبئًا كان على قلبها وذهب بخطوبة عُلا، صديقتها الطيبة الرومانسية التي عاشت سنوات على أطلال قصّة سرمدية قديمة، ترفض كل من يتقدم لها حتى أصبح لا أحد

يُبادر بالتقدُّم، وأصبح المصدر الوحيد للعِرسان هو الصالون الذي لا يتناسب مع شخصيتها الحالمة، تمر السنوات عليها وتتماسك عُلا رغم اليأس، لكنها لم تفعل مثل الكثيرات ممن تأخرن في ركوب قطار الزواج، وأصبحن أكثر تحرُزًا وسُخطًا، يلجأن أحيانًا لغطاء الاجتماعية الشديدة التي تبتلع الوقت والتفكير، وأحيانًا يُفضّلن الانزواء، بقيت كما هي تمضي في حياتها بقلب مفتوح مُنتظرًا للأمطار لتهطل عليه، صحيح أن ما ظهر من بين حديثها عن العريس والخطوبة أنه ليس الحب الكبير، ولم يكن في عينيها هذا الألق الذي يُزيّن عيون العُشّاق، لكنها كانت سعيدة وراضية ومُقبِلة، وهذا يكفي مبدئيًا، هكذا أقنعن أنفسهن وأقنعنها، فكانت قد وصلت لمرحلة من الحزن من أثر قلق أهلها وثرثرة الناس عليها، وكانت الوحدة قد أنهكتها، فأهلاً برجل مُحِب حتى لو لم يكن حبيبًا، لكن عالية بعد كل ما مرّت به كانت قد كرهت فِعل الزواج كله بحلوه ومُرّه، وأيقنت أن نصف حب ونصف عاطفة لا تزيدنا إلا عذابًا وتيبُّسًا، أدركت هذا بقوة بعد أن غرقت في العشق وجنونه واللاقواعد فيه مع هذا الغريب.

و هي تهمّ بالعودة طلبتْ منها نورا أن تُرافقها، صديقتهن المُطلّقة التي شكت لها في آخر لقاء من حبيبها، الزوج الخائن، عالية كانت ساخطة عليها ولم تتهاون في تقريعها لأن حديثها أتى وقت أن كان جرح محمود مازال ينزف، لذلك حاولت في هذا اللقاء أن تكون لطيفة معها قدر المستطاع لتعوّض غضبها السابق عليها، كانت نورا بالفعل قد خطرت

على بالها كثيرًا في الشهور الماضية وهي في خِضم أحداثها الشائكة، وكانت قد بدأت تتعاطف معها، فالخيانة سواء، مؤلمة ومُرّة، كخنجر يُمزّق الأوصال ويخترق القلب تاركًا فيه ندبه أبدية، لا يفرق كونها زوجة أو حبيبة أو عشيقة مادام قد وعدها بالإخلاص وعلّق قلبها بالحب الآمن، كانت نورا أهدأ من ذي قبل وأقبلت على تبادل الأحاديث الحميمية مع عالية، حتى إنهما دلفتا لإحدى محلات الحلوى ليستكملا حديثهما، تجرأت عالية وسألتها عن حبيبها الخائن، وردّت نورا بأنها بصدد إتمام زواجها منه وأن كل الأمور على ما يُرام، سألتها عالية كأنها تُحدّث نفسها:

- وكيف غفرتِ له؟

- بإمكاني أن أكذب عليكِ الآن وأقول إنّي تأكدت أنه لم يفعل، أو أنه توسل وترجى حتى أُسامحه وأعود.. لكن أيًا من هذا لم يحدث..

صمتت بُرهة وعادت تقول بنبرة صادقة باكية دون دموع:

- الحقيقة أنّي أنا من عُدت للاتصال به وأعدت العلاقة، واشترط هو عليّ حتى يعود ألا أستمر في عِتابه ولا أُفاتحه في موضوع خلافنا تمامًا.. وقبِلت.

- لهذه الدرجة كُنتِ تحتاجينه؟

- أُحبه وأحتاج إليه يا عالية.. الحب والاحتياج واحد.

- لا يا نورا.. فرق بين أن نُحب لأننا نحتاج وأن نحتاج لأننا نُحب.. فالاحتياج عندما يتحقق لا يُغنينا عن الحب.. لكن الحب عندما يتحقق يُغنينا عن الاحتياج.

- ما كل هذه الفصاحة يا عالية.. تغيرت.. الحق أقول كنتُ أتهرّب من الحديث معك.. كنتُ أشعر أنك مُتحفّظة للدرجة التي تُنكر لامعقولية الحب.

ردت عالية بضحك: اطمئني الآن يا نورا، فقد هجرني المنطق منذ زمن..

- نحن لا نفقد المنطق إلا عندما نعشق..

صمتت عالية ثم غيّرت الحديث لآخر حتى لا تنكشف مشاعرها التي ملأتها وفاضت، وهي في طريق العودة كانت ساهمة تسأل نفسها كيف سامحت نورا حبيبها وتخطت خيانته؟ لكن ألم تتخطَ هي أيضًا خيانة محمود وحاولت بكل الطُرق أن تعود لحياتها معه، قبل أن يرحل عنها؟ ربما لو كانت تخطتها بصدق لكانت حياتها معه عادت، أمّا أن تقنع نفسها بالحياة معه من أجل الصغير والمظهر الاجتماعي واعتبارات أخرى، فقد حكمت على حياتهما بالفشل، نعم هي أبدًا لم تُسامحه لذلك كانت نهايتهما وشيكة، والآن هي مُصِرّة على عِنادها وعلى عدم مسامحة حسن، لقد سئمت من التسامح، تلك الصفة البائسة، صفة الحمقى، لكن ألم يكن عدم التسامح هو أول طريق النهاية؟ تؤلمها هذه الفكرة المُتقافزة في

رأسها دائمًا، أن سعادتها مرهونة برجُل، مثل نورا ومروة وعُلا وكل صديقاتها، الفرق أن نورا تعيش وحيدة وتحتاج لأنيس وأب لابنها، لذلك الاحتياج عندها سبق الحب، أمّا هي فقد وقعت في شرك الحب وهي امرأة كاملة، زوجة وأم، صحيح أن مشاعرها كانت مُتيبّسة، لكن قياسًا بأمور الحياة لم تكن في حالة احتياج عندما غزا مشاعرها.. غريب عاطل عن العمل محبوب الفتيات وأصدقاؤه من الصعاليك، لم تشعر بحاجة لأن تتزوجه، أو أن تتزوج من الأساس، فهي تُحبّه وفقط، دون فروض أو شروط أو أسباب.

عندما وصلت للمنزل كان الوقت مازال أمامها، لعبت قليلاً مع كريم ثم تركته للنوم المُبكّر وذهبت تُزجي وقتها على الإنترنت، فتحت البريد الإلكتروني لتجد رسالة طويلة من ياسر صديق محمود، هذا الرجل الذي حاولت خيانة محمود معه وفشلت، كانت رسالة غرامية بديعة بلُغة راقية جذّابة، أخبرها أنه لا ينفك يُفكّر بها كل يوم وساعة، وأنه قلق بشأنها، وأنه رغم كل الحوائل بينهما إلا أنه يتمنى أن يعود قريبًا منها كما كان في أيام سابقة قليلة يعيش على أثرها، كان يعلم بسفر محمود وتوقّع أن تكون هي في فترة معاناة واستشفاء وقدّر أنها تحتاج إليه، ياه للرجال! يعرفون جيدًا أن المرأة تحتاج إليهم وأن حياتها مرهونة بهم فيظهرون في توقيت الاحتياج ليحصلوا على الحب المضمون، كان رقيقًا مهذبًا، حاول أن يبعث لها بين ثنايا خطابه رسائل الاحتواء ويستميلها بكل ما أوتي الرجل من قوة وتأثير، ثم أنهى خطابه بأنه ينتظر ردّها وظهورها مرة

أخرى لترُد له الحياة، أو أن تسمح له على الأقل بمراسلتها كل حين، كانت تقرأ الرسالة وهي مُبتسمة ابتسامة كبيرة، فهي امرأة.. وأكثر امرأة إخلاصًا على وجه الأرض يُطربها الإطراء، ويُسعدها أن تتلقى رسالة بهذا الرُقي وهذه المشاعر التي لا يكتُبها إلا أديب عاشق، وكانت تعرف اهتمامه بالأدب والشعر لكنها لم تُدرِك أنه جزء من هذا العالم الرحيب، أنساها هذا الخطاب الغُصّة في قلبها من بُعدها عن حسن، وأنساها الزخم من الأسئلة التي كانت تُلاحقها إثر اجتماعها مع صديقات الألم والهمّ، تمددت في السرير ساعة كاملة وهي في استرخاء تام، ثم بدأت تُفكّر إن كانت سترُد عليه برسالة شكر أم اعتذار، أم ستبعث له رسالة قصيرة جافة تقهر فيها مشاعره، ثم استقرت على ألا تَرُد على رسالته.

أتى قرارها ليؤكد لها حقيقة أنها لم تُحب حسن نتيجة احتياج ما، فإذا كانت تحتاج إلى مشاعر جياشة واحتواء فكان أولى بها أن تنصاع لرومانسية ياسر فضلاً عن حسن الضجر الذي يُكرر كلمات العشق لحبيباته هنا وهناك، لكنها أحبته بكل ما فيه من تناقضات وعِلل، رنّ هاتفها وكان الليل قد انتصف، ردّت فإذا بصوت طفل صغير مُتردد يسألها إن كانت عالية، ثم يقول لها بصوته الرفيع (حسن يُحِبّك.. ويقول لك ثقي بي)، ثم أغلق الخط. ضحكت عالية وارتجف قلبها هذه الرجفة التي تخُصّ حسن فإذا به يتصل بها، ردّت هذه المرة دون تفكير في غضبها أو في التوقيت المُتأخر، وأتاها صوته رقراقًا كوشوشة عصفور في جوف الليل، أخبرها أنه يشتاقها وردّت على شوقه بشوق أكبر، سمعت خطوات

أُمها التي أتت على إثر رنين الهاتف، فخفضت صوتها وهي تختبئ تحت الوسائد والأغطية كمُراهِقة، أثارها هذا الشعور أكثر فأباحت له أنها تُفكّر فيه ليل نهار وأنها كانت تتمنى أن تكون معه في هذه اللحظة، خفض صوته أيضًا وهو يُثير شغفها بكلماته الشاذة المجنونة، وأنهيا الاتصال وهما في نشوة عارمة ورغبة حارقة كادت تفتك بقلبيهما. وهكذا كانت عادتهما، يغضبان، يبعدان، ثم يعودا بالتصاق أكبر وبدون عتاب أو تبرير، كلاهما أرهقه العتاب في حياتهما السابقة فحرِصا أن يُصبحا طائرين ينتهزان لحظات الفرح ويسرقان لحظات السعادة رغمًا عن الحياة.

كان حريصًا أن يُخبرها فيما بعد أن نهى تغار من علاقتهما، وأنها كانت تُحاول بكل الطُرق أن تجمعها به علاقة، حتى إنها عرضت عليه أن تتزوجه في شقة تدفع إيجارها وتفرشها من حسابها الخاص، ثم لمّحت أنها لا تُمانع أن تُرافقه في شقّته دون زواج، ولما بلغها منه اليأس ترجته أن تظّل صديقته، هكذا صدّقته عالية رغم أنه لم يُبرر معرفتها بمصطلحات العشق التي ظنّت أنه خصّها بها، صدّقته برغبة مُلحّة من قلبها أن يغُضّ الطرف عن هواجسه، فالقرب منه يُعيد لها الأنفاس بعد أن كان صدرها خواء بدونه، ويُغني عن أي خصام وبُعد بسبب وشايات حقيرة وقلوب حاقدة.. ويُغني عن عقلها القلق وضميرها المُتعب.. فما أعذبه الرجوع إليه.

المُرسل: حسن المُنذِر

المُرسل إليه: عالية

التوقيت: الواحِدة بعد مُنتصف الليل

قِطتي الحُلوة ونمِرتي المُشاغِبة..

بعد أن قرأت رسالتك الأخيرة تعجبت من قولك، أتزعمين أنّي أُربِكك، آه يا مُراوغة لو تعلمين أنكِ أنتِ الغريبة التي تترك بروحي إعصارًا كلما مرّت، أتُسمينني الشمس، فهل ضيائي كائن لو لم يكن ضياكِ، لو تعرفين كم يؤلمني غيابك، أتغارين يا امرأة القلب، أتغارُ النيّرات بأفقها؟ كيف وعيوني تائهات لا ترى إلاكِ، كيف والنساء قوافِلٌ يطلبنني، وقلبي لا يُريد سواكِ، أتعرفين ما الفرق بينهن وبينكِ؟ الفرق هو أنني بعِدت عنهن جميعًا وأنتِ الوحيدة التي لم أستطع البُعد عنها، أتقولين إن فُرصتك ضعيفة معي؟ لا يا صغيرتي، أنتِ صاحِبة الفُرصة الأكبر في قلبي، ليس لأنكِ فقط مُختلِفة، لكن لأنك حقيقية وأنتِ عشيقتي الأبدية، حتى لو لم أمسّك عُمري.

يا زُليختي البتول، تظنين أني خلقت لكِ الأجنحة لتُحلّقي بها، ولا تُدركين أنّي أنا من حلّقت معك من يوم أن لقّني عطرِك، حلّقت معكِ بعيدًا عن العالم وقسوته وفقره وجوعه وظُلمه، في دنيا شفافة مثل قلبك، ناعمة، واسعة، صاخبة، دنيا لا تحدّها الأسوار والعواميد، ولا توجد بها الأقنِعة وأحجار القلوب، دنيا منحتنا سِرّ الحياة والوجد، دنيا تُصلِح ما أفسده الماضي وتصبغ الحاضر بالرضا والسكينة، وحدك أنتِ من احتضرت

عندها آلامي وعرفتُ معها كيف تجتاحني النشوة وأسكر من مجرد النظر لعينيها، أنا أسير نظرتك البريئة الجائعة، ومجنون سذاجتك التي لن تخلعيها عنكِ إلا في سريري، فحتى وإن بَعُدتِ اعلمي أن بيننا رباط من مطاط يجعلنا كلما بَعُدنا نعود أشدّ التصاقًا. فأنا آدمك يا حبيبتي وأنتِ كل النساء.

*****

رنّ الهاتف ليوقظه فأغلقة بسأم وعاد لسريره المريح البارد، كل شيء في هذه المدينة بارد ليس فقط السرير، الجو، الشوارع، وجوه البشر، التعاملات الإنسانية، العمل، الطعام، حتى الشمس باردة هنا في هذا البلد المُنظَّم كخلية نحل، البلد الدقيق في مواعيده وأنظمته، لدرجة جعلته هو نفسه عاشق النظام والدِقّة يكرههما ويُقرر في نوبة تمرُّد وسأم ألا يذهب للعمل اليوم، الشهور تمُرّ به والأيام تتشابه حتى إنه أصبح يُحصي وقته بالشهور وليس بالأيام، وبمرور الوقت سيُحصيه بالسنوات كما أخبره صديقه الدكتور أيمن المقيم هنا منذ عشرة أعوام، كان سعيدًا في أيامه الأولى، شعر أن حياته أخيرًا سارت في مسارها الطبيعي في بلد مُتحضر، نظيف، يُقدّر قيمة العمل وقيمة العُطلة والاستمتاع، بلد يعترف بالإنسانية وبحقوق البشر في حياة آدمية، بلد يحرس الأحلام ويُوفّر له الفرصة أن يحيا بدون توتر القيود المادية وإرهاق العمل الذي كان يُمارسه ليل نهار في مصر، وبدون حمل همّ المستقبل، والاضطرار للتعامل مع مديرين متسلطيّن نازيين، أو مع جيران أنانيين، أو أقارب لا يدرون شيئًا عن بعضهم البعض، أو بشر انتهازيين ومتسلقين، هنا الحياة هادئة، كل إنسان في حاله وعطلة نهاية الأسبوع تجمع الأصدقاء في خروجات

مُمتعة ليست كلّها حانات ورقص وخمور كما يُصوّرها الإعلام، والعمل مواعيده مُنظّمة وثابتة، لذلك عشق حياته الجديدة وقرر ألا يُغيرها أبدًا، إنما يُغير كل شيء آخر من أجلها.

ولكن هذا السأم الزاحف إلى قلبه، المُستبد بوجدانه يكاد يفتك به، نهض مُتكاسلاً، قام بكل طقوسه الصباحية بِبُطء شديد، تناول فطور عبارة عن شطيرة بيض باردة من الأمس يمنعه كسله من تسخينها في الفرن الآلي الصغير، ثم جلس في شُرفته الصغيرة يرتشف الشاي على مهل، لم يكن هذا الكسل يُداهمه وهو في مصر، لكنه يشعر في هذه الأيام أنه يريد أن يرتاح ويرمي بعبء قلبه الذي لم يشعر به أحد قط، فهذه عالية الطفلة المُدللة التي تزوجها آملاً أن تُصبح امرأة مسؤولة وقوية مثل أمه أو أمها أو أي من النساء حوله، وفوجئ بأنها ليست أهلاً لأي مسؤولية، وهذا كان سبب إصراره على ألا تعمل، فالعمل لشخصية غير ناضجة مثل عالية يُصبح عبئًا إضافيًا عليه هو، فهو من سيكون مسؤولاً عن توصيلها والاطمئنان عليها وسماع حكايات إضافية لثرثرتها الدائمة عن العمل وما يتعلّق به، ناهيك عن المشاكل العديدة التي ستواجهها وتُحبطها، وتكون النتيجة امرأة مشغولة تعيسة في البيت، أراد أن يُجنبها ونفسه كل هذه الربكة، لكنه أرادها أيضًا امرأة واعية تستطيع أن تتصرف في غيابه، وعلى الأقل تُنظِّم وقته وتتحمل غضبه وتوفّر له الحياة المستقرة الهادئة، عندما يُراجع تاريخهما سويًا، وكان يُراجعه كثيرًا لأن الإنسان عادة يستطيع ترتيب أفكاره ورؤيته للأمور بشكل أوضح عندما يهدأ الصخب

حوله وينتهي زخم الأفراح، ليجد نفسه وحده في قاعة الحياة بعد انطفاء الأنوار، في طريق طويل بذهن صافٍ وفكر مُضيء؛ وجد أنه كان يُعاملها بنوع من الشيزوفرينيا، يُريدها امرأة مثيرة ويستفزّه اهتمامها الزائد بنفسها، يُريدها امرأة ناجحة ولا يترك لها مجالاً للخروج ومواجهة المجتمع، يُريدها أنثى عذبة وامرأة قوية بمائة رجل، يُريدها ذكية مُثقفة ويخشى أن يهديها اطلاعها إلى ما يضُرّ بحياتهما، هل كان يُطالبها بما يفوق طاقتها، أم بما يتناقض مع شخصها، ولماذا لم تُجد لعب كل الأدوار معه حتى تجعله يشعر بالامتلاء بدلاً من هذا الفراغ الكبير والتعاسة التي خلّفتها؟

كانت دائمة العتاب له، وأكثر عتابها كان عن تغيّره، فكيف بعد أن كان يعشق كل تفاصيلها أصبح يضيق بكل ما فيها.. لم تفهم أبدًا أنه أصبح يريدها زوجة وأمًا وليس فقط حبيبة كما كان في الأيام الخالية، دائمًا تُطالبه بالحب مما جعله يشعر بالاستنزاف العاطفي وهو الرجل الذي يكره أن يُشعره أحدهم بنقص ما، فيكفيه ما هو فيه طوال اليوم من حروب ومُهاترات من أجل توفير حياة كريمة، ماذا لو تنازلت هي قليلاً عن مطالبها وكانت له وسادة يرتاح عليها تحتوي أنفاسه المتعبة، بدلاً من أن تستقبله بعتابها وتودّعه ببكائها، هذا البكاء الذي لا يزيده إلا رغبة في إغلاق كل النوافذ بينهما، فأعصابه المشدودة دائمًا تُلهبها الدموع وتُمزّقها الشكوى، لكن لماذا يُفكّر الآن بطريقتها، يُفكر بما يُريده منها ولا يُشغله ما تُريده هي، ربما الأمور كانت لتُصبح أفضل إن كان ترك لها بعض المجال

للطيران، فأنينها في الشرنقة هو ما كان يُنغّص حياتهما، وطريقته العصبية الخشنة في إدارة الأمور هي ما جعلتها تنفر أكثر ويكبر ألمها عن حجم الشرنقة، فتحلم بالطيران بعيدًا عنه، هذا الهدوء الذي يعيشه في هذه الأيام جعله يُفكّر في عالية باستمرار، كان يتذكر نظرتها المذهولة المُنكمشة وهو يبطش بها، ويتذكر نظرتها المُتوسّلة وهو يُخاصمها ويفرض عليها العقاب، ونظراتها الأخيرة التي كانت تتجنبه، ترفضه وتقول له (لم أعد أُحبك).

كان يخشى في قرارة نفسه أن تُصبح عالية هِمّت أخرى، هِمّت أمه المرأة القوية التي كانت تتحكم في كل أمور حياتهم، ولم يكُن في البيت صوت أعلى من صوتها ولا كلمة أهّم من كلمتها، لذلك فضّل أن يُمسك هو بزمام الأمور ويُقلّص من دور عالية حتى لا تصل لقوة هِمّت، مع ذلك لا يملّ عندما يستعيد ما ينقصه من أن يُقرّعها ويُطالبها دائمًا بأن تكون امرأة مسؤولة قويّة، لم ينسَ وجه أبيه المضطرب وهو يُحاول مرارًا أن يجعلها تخضع له دون فائدة، خجله المكتوم عندما تُصدر هي القرارات، وهروبه للجلوس على القهوة تحاشيًا لغضبها الدائم، حتى إنه كان يتذلل لها أيام شبابه لتُرافقه للنوم قبل أن تجعله ينام في غرفة أخرى في سنواتهما الأخيرة، ولم تمرّ هذه المشاهد أمامه مرور الكرام، إنما كان يتمنى دائمًا ألا يُصبح يومًا ما في مكان أبيه، والحل الوحيد كان في أن يتحكم في رغباته ويجعلها آخر ما يُمكن أن تُلوى منه ذراعه، هكذا كان ينتظر دائمًا مهما طال الانتظار حتى تطلب عالية أو تُلمّح أنها تريده،

وأصبحت عادته أن يُفرّق بين حبهما وعلاقتهما، فالعلاقة من وجهة نظرة في آخر قائمة الاحتياجات ولا تعني بالضرورة أن حياتهما بخير، ولا تدُل على مِقدار الحب بينهما، ولن تكون يومًا سببًا لذُلّه مثل هذا الرجل الطيب أبيه.

ارتدى ملابس كاجول، ونزل يتمشّى في المضمار الكبير الذي يُحيط الحي ويستخدمه الجميع للمشي والبعض للجري، وكل هؤلاء، الجميع والبعض، لا يتعدون سكّان عمارة قديمة من عمائر القاهرة، أكثر ما يُعجبه في سُكّان تلك الضاحية هي أن كل منهم في حاله، لا أحد يتدخل في شؤون غيرة أو ينظر له مجرد نظرة مُقتحِمة لخصوصيته، الخصوصية هناك لا تعني ما تفعله في منزلك، إنما تعني أن كل ما تفعله في الداخل والخارج هو خاصتك ولا أحد عليه أن يستنكر أي شيء، وكانت تروقه هذه العادات التي تُعطي الحياة بريقًا آخر للحُريّة، كانت عالية تُحب التمشية أيضًا، لماذا يذكرها في كل تصرف يقوم به، حتى إنه يتذكر طريقة أكلها المُميزة التي تجعله لا يشعر أنها تأكل، فالطعام ينتهي من أمامها وهي تمارس حركات بسيطة رقيقة لا تدل على أنها تأكل، خطواتها السريعة التي تجعلها دائمًا تسبقه فينهرها حتى تكون جواره ولا بأس لو خلفه، وطريقتها الطفولية في مشاغبته حتى تقتنص منه ضحكة عزيزة، كيف تركها وذهب لقارة أخرى وهي مازالت تُطارده؟ بل إنها لم تكن تطارده بهذه القسوة وهي جواره وملتصقة به في السرير وهو يدفعها عنه بسُخف، كان ناقمًا عليها في الشهور الأخيرة بالذات لأنها هي من دفعته

لهذه القصة برمّتها، قصة فرح، هي من جعلته يبحث عن الاستقلالية والعقل المتحرر في امرأة غيرها، كان هذا يوم أن خرج مع صديقه وكان مُكفهرًا وغاضبًا من حياته مع طفلة لا تكترث إلا بنفسها وبمشاعرها، فأشار عليه صديقه بأن يُروّح عن نفسه باستخدامه لذلك الاختراع الواسع الذي جعل من العالم حارة ضيّقة وليس فقط قرية صغيرة، الإنترنت، وكانت هذه بداية معرفته بالعديد من النساء، كان يُعاملهن برقّة وبداخله احتقار شديد لهن وشعور بأنهن فارغات أكثر من عالية، ومُنحرِفات أكثر من المومسات، لأن المومسات على الأقل واضحات أمّا هؤلاء فهُنّ بوجوه منضبطة متديّنة أمام الجميع وفي الغرف المغلقه عاريات في انتظار الحب.

فرح لم تكن مثل هؤلاء ممن صادفهن في بحثه على الإنترنت، كانت واضحة صريحة، كوجه مُضيء بدون ذرة زينة، نوره حيوية، جذبته جرأتها التي لم تصل لوقاحة الأخريات، فكانت جُرأتها صادمة لكن لم تُثر اشمئزازه، عندما طلب مقابلتها وافقت على الفور وعندما رآها كانت مثلما تخيلها، ومثل الصور التي تملأ بها صفحاتها دون خجل أو تصنّع، جسد قوي يلسع مثل الكُرباج، خطوات واثقة وعينان لهما نظرة مثيرة دون أن تقصد الإثارة، صدمته الثانية كانت عندما طلبت منه أن يُشعل لها سيجارتها، وجلست قبالته تُدخّن وتُثيره أكثر بطبيعيتها، كانت حياة تمشي على الأرض، ضحكتها العالية، البهجة التي تنثرها أينما ذهبت، صرامتها وقدرتها على التعامل مع الغرباء والسيطرة على إدارة مشروعها

الخاص دون الحاجة لأحد، افتُتن بجرأتها ثم أسرته استقلاليتها وتحمُّلها التام للمسؤولية، كانت النقيض لشخصية عالية السطحية، الهزيلة، العنيدة مثل البغلة، شعر معها بصداقة، فكان على عكس عادته يحكي لها ويستعين برأيها في عمله ومعاملاته، وكانت ذكية سريعة البديهة، جعلته يعترف لها بحبّه ببساطة ودعته لبيتها ببساطة أيضًا، ليسمعا معًا الموسيقى ويتناولان طعامها، لم يسحره الطعام يومها بقدر ما سحره ما فعلته في المطبخ.

كان يتعمّد التحفُّظ معها حتى لا يُغضِبها فتتكرر الزيارات ويستطيع أن يستمتع بوصلها دون أن يكون بينهما سيف العادات الشرقية، ظهر في مظهر رجل غربي معتاد على زيارة صديقاته، دخل معها المطبخ بحجّة مساعدتها وما كان يريد إلا أن يكون معها في مكان ضيّق وحدهما، هكذا هو الرجل الشرقي مهما حاول أن يتمدين.. الشرق فيه ينضح رغمًا عنه، لاحظ (و هو مُلاحِظ من الدرجة الأولى) أن مطبخها وحياتها فوضى عارِمة مما أثار طبعه المُنظّم، لكنه تغاضى الطرف عن أن يوجّه لها أي لوم، فهي ليست ملك يمينه بأي حال من الأحوال، ولا يتوقع أن تكون كزهرته المنزلية عالية، تركت الطعام على النار وأشعلت ناره هو عندما أحضرت قِطعًا صغيرة من الشوكولاتة ووضعت بأناملها قطعة في فمه وهي تضحك بإثارة، ذابت شفتيه من مسّها قبل أن تذوب الشوكولاتة، سألها كطفل أن تُكرر ما فعلته ثانية، فأجابته أن هذه الشوكولاتة لا تُأكل هكذا، إنما تُأكل هكذا، ووضعت قِطعة أخرى بين شفتيها ثم اقتربت من

شفتيه لتضع بينهما ما تبقّى من الشوكولاتة الممتزجة بسُكر شفتيها، انهارت صرامته في هذه اللحظة وبادر بالتهام شفتيها لكنها منعته بدفعة من يدها، لم تكن تُريد أكثر من أن تُشعِله وتجعله يخرج عن تحفّظه، كانت وقود مشاعره، لم يشعر معها أبدًا برغبته الدائمة في أن يكون الممسك بمقاليد الأمور والمُتحكم في كل شيء، كما لم يُفكّر معها في أن يُجنِّب رغباته ويتركها هي لتقترب، أخذ هو هذه المبادرة وكانت هي تُطاوعه حينًا وتتمنع عنه كثيرًا، حتى طلب منها الزواج ليُبطل حجّتها في التمنّع.

في حقيقة الأمر كان ينتوي أن يتزوجها زواجًا عُرفيًا في شقتها وأن تُساعده في المصاريف، فهو لا يقدر على المزيد من المسؤوليات وهي امرأة ناضجة تخطت الثلاثين، حمولة وقوية، سيوفّر لها الحب والأمان وتُصبح حياتهما مرفأ للراحة والسعادة، ثم إنه لا يريد أطفالاً ولا إشهارًا، كما أنه لسبب لا يعلمه غير واثق من أن يدوم زواجهما، الأمر كلّه أشبه بمغامرة، وهو رغم كل شيء لم يكن ينوي أن يترُك عالية، فقد أصبحت جزءًا منه لا يُترك إلا بالدم، ولم يُرِد أن يجرحها فيظل جدار من الغضب بينهما دائمًا، ولا غنى له عن الحياة التي وُلدت في قلبه بوجود فرح، انشغل بحياته وهو سعيد بوجود عالية المخلصة الطيبة وفرح وقود القلب، لكن عالية فاجأته بتململها من حياتها معه ومحاولتها للخروج عن قوانينه، فرح أيضًا فاجأته بملاحقتها له وابتزازها لمشاعره، وبضيقها من انشغاله ومسؤولياته التي كانت تُدركها جيدًا منذ عرفته، فأصبح بين امرأتين غاضبتين، مُعاتِبتين، عرف حينها أن كل النساء تتشابهن في رغبتهن المُلحّة

للعتاب، لكن كل واحِدة لها طريقتها، منهن من تُعاتب بعينها، ومنهن من تُعاتب مباشرة بكلامها ليل نهار، ومنهن من تُعاتب بهجر وخصام، وأكثرهن عندما يُعاتبن تنتفي عنهن صفات الحب والأنوثة ويتجلى النكد، هكذا عاش شهوره الأخيرة في سأم وضجر بين امرأتين تكيلان له النكد، ومع أنه رجل مُحصّن يصعب جرحه، لكن فرح التي أدخلت الفرح على قلبه المهموم كانت هي أيضًا سبب جرحه الكبير.

عندما بدأت تقوم معه بالدور الذي اعتاد هو القيام به مع عالية، التقريع الدائم، العتاب واللوم الدائمين، الغضب غير المبرر والخصام الفاجر، ثم بعدت بمشاعرها عنه، أصبحت لا تستقبله في منزلها وتُقابله في المقاهي ببرود، لا ترُد على اتصالاته بحبيبي، لا تبثّه الشوق وتتدلل عليه، لم تعد تُعطيه فرصة أن يُفضفض همّه إليها أو يطلب رأيها في أمر يخُصّه، حتى كانت القشّة التي قصمت ظهر علاقتهما عندما سمعها وهي ترُد على اتصال أحدهم بحميمية، ولم يُعر الأمر انتباهًا لأن الحميمية كانت عادتها في الحديث مع أصدقائها، وهو يعرف أن لها أصدقاء من الجنسين وعلاقتها بهم خط أحمر، وسكت ليس إراقة لسعادتهما لكن لأنه لم يشعر بغيرة حقيقية عليها، لم تكن علاقته بها مثل عالية التي يُجنّ لو رآها تُحدث أحدهم بودّ، لم يكن يُثيره أن تضع فرح صورها على الإنترنت وتُحدِّث الجميع وتُعلن عن مركز التجميل خاصتها بمرح، لكنه لم يسمح لعالية أبدًا أن تضع صورة لها على الإنترنت أو أن يكون ضمن قائمة أصدقائها رجل غير أقاربها، لاحظ هذا الأمر عندما سافر وبدأ يرى

الأمور من زاوية أوضح، حدسه أخبره أولاً أن هناك رائحة آخر تنبعث من ضجر فرح الدائم معه، ثم بدأ يتقصّى أخبارها وراقبها ذات يوم وهي ذاهبة لمقابلته، عندما وجد على وجهها الوهج القديم أدرك حينها أنها لم تعُد له وأن كل ما بينهما يحتضر.

لكنه لم يُسلّم بسهولة، حاول أن يستعيدها بكل الطرق، جذبها لحضنه بقوة وكادت تستسلم لولا هاتفها الذي اتفق مع القدر على علاقتهما ورنّ باسم الآخر، خياله وقتها صوّر له أنه لا يستطيع أن يحيا بدونها، شعر أن بساطه السحري ينزلق من تحت قدميه، إنها تهجره بطريقة قاسية، بالإهمال والبرود، وهو رغم كرامته الأبيّة لم يستطع أن يبعد، بل راح يُرسل لها الرسائل، يشتري الهدايا، يُقدّم الورود ويحاوطها باهتمامه محاولاً أن يُسرع بخطوة الزواج، لكنها قطعت بفأس قسوتها الذي ما كان يعلم بوجوده كل الروابط بينهما، بأرخص شكل ممكن، وجد نفسه يسقُط في بئر عميق مُظلم من الخيبة، فبعد أن ساءت حياته مع عالية وباع وِدّها ليشتري رضا فرح، الآن أصبح صِفر اليدين، فلا فرح هنا لتُسعد أيامه ولا مشاعره تُريد أن تعود لعالية، ذلك الإحباط هو ما دفعه للبحث عن سفر، وقد أعدّ نفسه لأن يكون وحيدًا في الأيام المقبلة حتى يتمكّن من أن يستعيد حياته القديمة، ثم أتت عالية بحماقتها وسوء تقديرها لتعبث بآخر رُقاقات صبره عندما حطّمت آخر دليل له على أنه مازال بينهما حياة، وأطاحت بكلامه ونزلت لميدان الصعاليك، ماذا كان ينقصها تبحث عنه بين الطُرُقات، أن تُصبح صُعلوكة أخرى؟ ضاقت

بحياتها الهانئة وطلباتها المجابة والقصر الذي تسكنه فأصبحت تبحث كالمجذوبة عن حياة أخرى بين صناديق القمامة؟ لكن ليس هذا وحده ما جعله يُطلّقها.

في الحقيقة هو حتى الآن لا يعلم لماذا تلفّظ بلفظة الطلاق، حاول أن يُعدد الأسباب منذ أتى إلى إنجلترا وقد وجد الكثير من السلبيات بينهما، لكنه لم يجد السبب القوي الذي يستطيع أن يواجه نفسه أو يواجهها في يوم من الأيام به، شعر أنه فعل هذا لينتقم من نفسه ومن غضبه ومنها لأنها كانت سببًا غير مباشر في خوضه لعلاقة حب أخرى، ومع ذلك هو لا يشعر أنهما انفصلا بالفعل، فهي مازالت عالية أم ابنه وبإمكانه أن يُعيدها لعصمته وقتما يشاء، بعد أن تكون قد تغيّرت في هذه الفترة، تحمّلت المسؤولية ونضجت، عرفت ما معنى زوج وكيف تُقدّر وجود رجل في حياتها، ضبط نفسه مرة أخرى رغم البُعد يُكيل لها الاتهامات واللوم، لا أحد يستطيع أن يُغير عادته بسهولة.. هل يجب علينا أن نقبل عيوبهم ليقبلوا بعيوبنا؟ أفاق من أحاديث ذاته على هاتفه الذي كان يتراقص في جيبه دون رنين، كان الدكتور أيمن صديقه الوحيد في الغربة، كان قلِقًا عليه بعد أن مرّ بالشركة ولم يجده، وكان يشعر بالوحدة والبرودة هو الآخر خاصة بعد سفر زوجته وبنتيه إلى مصر، فعرض عليه أن يصطحبه لمكان جديد ينزع السأم من روحهما.

لم تمر سوى دقائق في هذه الضاحية الخالية إلا وكان أيمن أمامه بسيارته، ركب معه فوجده يُشغّل أسطوانة بها أغنية لأم كلثوم، بعثت

فيه روحًا أخرى، ابتسم ابتسامة كبيرة وهو يتذكر مصر، شوارعها الضجرة، نهارها المُزدحِم، وجه أمه، عالية وهي تتمسح فيه كقطة، كريم وهو يُلقي بنفسه في حُضنه عندما يعود من العمل، سهرة مُريحة أمام التلفاز وهما حوله يتبادلان الحديث واللعب، أغمض عينيه وتمنى لو ينام ليصحو ويجد نفسه في بيته في مصر مُستلقٍ على الأريكة في غرفة المعيشة في انتظار أن تنتهي عالية من إعداد الطعام بينما كريم يلهو بين يديه، وجد نفسه يسأل صديقه:

- كيف استطعت أن تُقاوم حنينك كل هذه السنوات؟

- أُسافر كل عام رغم صعوبة الإجازات وارتفاع النفقات.. لكن هذه الأيام التي أقضيها هناك بين أهلي تُطفئ لهب الحنين الذي يعود ليشتعل عند عودتي.. وهكذا تمرّ السنوات.

- هذا حلّ جيد.. لكن أنا لا أنوي العودة أبدًا.

- كنت مثلك يا محمود.. مُكابرًا في حنيني.. أُعاند الطبيعة البشريّة.. ستعود يومًا وسأُذكّرك.

أشاح محمود بيده وظل يُراقب الطريق الذي بدأ يضيق وحوله الأشجار العملاقة والخُضرة الكثيفة كأنهما في طريقهما لغابة، لكن حتى السؤال لم يستطع أن يطرحه، يسمع أم كلثوم ويمضغ حنينه وألمه في صمت، إلى أن سمع صوت انسياب مياة يرتفع كلما اقتربا ولم يرَ شيئًا من كثافة الأشجار، بدأت الشلالات تظهر على جانب الطريق، وقفا في مكان

مخصص للسيارت ظهر فجأة بعد الطريق الضيق الطويل ولم يكن به سوى سيارات قليلة، هناك وجد محمود نفسه في الجنّة، لم تكن الأرض الخضراء المتبسطة والتل الكبير والشلالات العظيمة المتدرجة حتى تصل لنهر صغير إلا مظهرًا من مظاهر الجنّة، هذا الهدوء الذي لا يُعكر صفوه إلا هدير المياه وزقزقات العصافير المُتنقّلين بين الأشجار، والسماء التي تعكس صفاءها على الأرض، هذا الغزال الذي يركض هناك دون خوف، والأرنب البرّي الذي يتقافز بين الشتلات القصيرة، كل هذا الجمال يجب أن يجعله أسعد إنسان على الأرض، بقيا هناك فترة طويلة دون حديث، فقط يتأملان الطبيعة الصارخة حولهما، سأله محمود:

-هل تأتي هنا كثيرًا؟

- عندما أشعر بأني مُزدحِم بشعور ما.. آتي هنا حتى أتخلّص من أفكاري وأملأ نفسي بهذه الروعة ثم أعود للدنيا مرة أخرى.

تعجب محمود من حديثه الأدبي الذي يُقطّر مشاعر.. سأل نفسه كيف لرجل أربعيني يعمل بالطب مع المرضى والألم والدم أن يمتلك مثل هذا الحِس الراقي والأحاسيس المُرهفة التي كان يظنّها حِكرًا على النساء؟ ثم تذكر أن كثيرًا من الأدباء كانوا أطباء في الأصل، يبدو أن الدراسة العلميّة والتعامل المباشر مع الألم يُكسِبهم هذه الروح الأدبية، سأله صديقه الطبيب:

- اعذرني إذا كُنت أتطفل عليك.. لكن لماذا لا تُرسل لأسرتك حتى يأتوا للعيش معك هنا؟ سيُحدث هذا فارقًا عظيم.

جاوبه محمود دون تردد، وكان قد ملّ من إخفاء هذا الأمر وعدم الخوض فيه حتى مع نفسه:

- لأني قد انفصلت عن زوجتي قبل أن آتي إلى إنجلترا.

لم يُبدِ الدكتور أيمن أي إندهاش أو تأثُّر، كأنه أمر يسمع عنه كل يوم، ثم عاد ليسأله:

- وماذا تُخطط لحياتك القادمة؟

- لا خطط.. فقد سئمت الخطط والتنظيم والعمل على المستقبل.. أنا هنا كي لا أُخطِط.

- لكن إذا كنتَ اتخذت قرار الانفصال فعليك ألا تُضيّع الباقي من حياتك على أطلال ماضٍ، إمّا أن تعود لماضيك وتبعث فيه الحياة من جديد، وإمّا أن تخوض في حاضرك ومستقبلك دون ذرة خوف أو حزن..

- ماذا تقترح عليّ أن أفعل في جنّة كهذه وأنا وحدي؟

ربت على كتفه كأنما يُذكّره بوجوده جواره:

- أقترح عليك أن تُحاول مرة أخرى مع ماضيك.. بروح جديدة.

- لا، لا.. أنا لن أعود لحياتي مرة أخرى.. ليس لعيب في زوجتي لكنه أنا من لم يعُد يطيق كل هذا النكد.

- المرأة بطبيعتها تميل للنكد.. صعب أن تجد امرأة مثيرة للبهجة.. إلا هؤلاء من كُنّ لسن زوجاتنا.

ضحك محمود بمرارة..

- المرأة لغز والرجل الذي يريد أن يعرفه يتعذب.. فالعذاب هو ثمن حب المعرفة.. لكن الذي يفتح أقفال اللغز يجد الكثير من الكنوز في انتظاره.. يجد نفسه في عيون المرأة المُحبّة التي تراه من عيون تُصغّر الأشياء الكبيرة وتُكبّر الأشياء الصغيرة، ويرى سرّ العلاقات الإنسانية ولُبّ السعادة والعطاء.

- كلما حاولت الاقتراب من عقلها صدمتني سطحيته.

- ذلك لأنك اقتربت فقط ولم تخترق.. المرأة تُحب الرجل المِقدام، الصقر أو الذئب، لأنها تعشق أن تكون فريسته، فألذّ أدوارها دور الضحية، لذلك يجب أن يكون الرجل صيادًا ماهرًا.

- أنا كل وقتي للصيد.. لكن لصيد لُقمة العيش حتى تستمر الحياة ولا تُطيح بنا الأعباء.

- وهذا أول طريق فشل العلاقة بين الرجل والمرأة.. فهي تكره أن تكون منشغلاً عنها.. لذلك ينجح العاطلون في الحب بينما يفشل العلماء

والعظماء.. يجب أن تُعطي المرأة من وقتك واهتمامك وإلا ردّت لك الانشغال بانشغال أكبر.

- لذلك وفّرت عليها أن تنشغل عني وتركت كل شيء وراء ظهري وبعدت.

- هذا أيضًا لم يكن اقتراحًا سيئًا، فعندما تبعد عن حبيبك لبعض الوقت سوف يكون استعداده للعطاء أكبر ومشاعره ستكون أعمق.. أنا واثق مَن أن هذا البُعد فيه دواء لحياتك.

لم يقتنع محمود وراح يقُصّ على صديقه بعضًا من تفاصيل النهاية مع بعض التحامل على عالية، كان بحاجه لمن يُخبره أنه على صواب وأن هذه هي النهاية الحتمية، لكنه لم يجد من صديقه إلا التبرير،

- هي فتاة مُدللة لا تستطيع أن تتحمل مسؤولية بيت أو زوج مثل غيرها من الزوجات.. وقد نفدت محاولاتي معها دون فائدة..

- من كان يُعدّ طعامك ويُدفئ فراشك ويهتم بنظافتك ونظافة بيتك ويسأل عنك ويهتم بأمرك إذن؟

- أظن أن هذا واجبها وأقل ما يمكن أن تفعله.

- لا يا عزيزي أنت مُخطئ.. مثلما أن هناك زوجات متحمّلات لمسؤوليات كبيرة نظرًا لانشغال الزوج أو غيابه.. فهناك أيضًا زوجات لا يقمن بالواجب القليل الذي تستهين به.. لكن نحن من لا نرى لأننا نعتاد هذه الأشياء ونظل نطمح في المزيد ونُريد كل ما لا تملكه يدانا..

- أنا لا أريد نصائح أرجوك.. الموضوع لم يكن فقط تقصيرها، الأدهى أنها خرجت عن سُنني وقوانيني فلم أعد أطيق أن أعيش مع كاذِبة تتمنى الفرصة التي أُدير ظهري فيها حتى تعبث بحياتنا مثل الأطفال.

- هذا تصرُّف متوقع.. إذا كنتَ تريد أن تحبس أي مخلوق فهو سيعيش عمره كله في محاولات الهروب من سجنك وقوانينك.. يا صديقي خُلقنا لنتفاهم ونتفق وليس لنأمر وننهي.. الأمر لله فقط.. أمّا الحب فهو لقاء والتقاء، تعايش واستمرار.. تجديد وتعديل، لا يهم أن تختلفا أو تتفقا، المهم أن يكون كل منكما لديه الاستعداد للتضحية من أجل الآخر..

- وماذا لو رأيت امرأتك تهوي إلى قاع أو ترمي بنفسها للتهلكة.. الرجل مسؤول عن رعيته والحفاظ عليها.

- للحب أيضًا مسؤولية.. مسؤولية الاهتمام به والحفاظ عليه.. ثم كونك مسؤول عنها وعن الحفاظ عليها لا يعني بالضرورة أن تفرض عليها القوانين.. خاصة في هذا الزمن.. زمن الثورة!

- آه، لا تُذكّرني بهذه النكسة أرجوك.. أصبحت مصر بعدها عزبة كبيرة لكل من يريد أن يسرق وينهب.. أضاعوا البلد وأضعفوا الحدود وجعلوا من البهائم آدميين.. وعلا صوت من كان لا صوت لهم..

- الحديث في السياسة يُشجيني.. لا يمكن أن نتحدث هنا، لكن لو قابلتني مساء عند المقهى العربي يمكننا أن نجد مُتسعًا للأحاديث السياسية.

سبقه الدكتور أيمن للسيارة ليستمع للمزيد من الأسطوانات العربية، وذهب هو لأعلى التل، وقف بتَردُد في البداية ليجد أن المنظر تحته أشدّ روعة مما حوله، مروج واسعة يتخللها النهر الصغير وبعض العُشاق المتناثرون هنا وهناك، بدأت نسمات الهواء الباردة تُزيل تردده، فوقف على القِمّة وأسفل منه صورة طبيعية للجنّة، فرد ذراعيه وتنفس بعمق وكأن صدره لأول مرة يعرف الأكسجين، ثم صرخ بصوت عالٍ ليُشهد الكون (أنا لن أعود)، (طز فيكِ يا عالية)، (طُز فيكِ يا فرح)، (طُزّ فيك يا محمود)!

*****

اقتربت من ميدان رمسيس لتجده في انتظارها عند محطة المترو كما اتفقا، كان أكثر وسامة من أي يوم، على غير عادته كان يرتدي بنطالاً من القماش وقميصًا أزرق يُظهر صلابة جسده وامتشاقه، وقد هذّب شعره الطويل وذقنه، عيناه كانتا تبرقان باللهفة ويزيد بريقهما كلما اقتربت منه، حتى إنها كادت تضعف تمامًا وتطلب منه أن يقضيا اليوم بأكمله في الإسكندرية بعد أن كانت قد اشترطت عليه أن يذهبا ويعودا بعد المقابلة فورًا. برغم أن الشتاء قد ولّى أهدته الكوفية التي كانت تحيكها في الأيام الماضية، بدأتها وهي لا تدري إلى من ستكون، صنعتها وهي تبكي، وهي حزينة، وهي عاشقة تشتاق وتئن، وضعت بها كل مشاعرها، وما كانت تصلح إلا أن تكون كوفية لحبيب يتلفح بها وتُلامس جسده الحبيب، فرح بها وكأنها أول هدية في حياته، وأهداها قُبلة سريعة مُمتنة على وجنتها.

جلسا مُتقاربين في القطار، حدّثها عن ذكرياته العديدة في الإسكندرية وكيف أنه يعشق كل شِبر فيها، حدّثها عن تفوّقه في السباحة وإحرازه بطولة الجمهورية في زمنٍ مضى، وعن مكتبة الإسكندرية التي كان يتحدث في ندوات كثيرة بها، والساعات الطويلة التي قضاها هناك للقراءة والاطّلاع، كانت حكاياته مُتصلة وجذابة مثل محاضراته حتى إنها

لم تشعر بالساعات التي مرّت إلى أن وصلا، كان إصغاؤها إليه متعة في حد ذاتها، وهي المعتادة على الحديث دون أن يُصغي إليها أحد. رغمًا عنها كانت تُقارن بينه وبين محمود، محمود كان يكره الإسكندرية ولا يهوى السباحة، كان لا يهتم بالقراءة إلا الجرائد والمجلات الإنجليزية، وكان يكره القطارات ولا يُقنعه إلا أن يقود سيارته حتى لو لآخر الدنيا.

وصلت للشركة وكانت متوترة ومشدودة، فتلك هي أول مقابلة عمل لها وهي التي لم تعرف أن تكون إلا ربّة منزل، ولم تنجح في هذه المهمة أيضًا بشهادة محمود، في يدها كانت تصاميمها الفائزة وتصاميم أخرى متنوّعة، وكانت ترتدي ثوبًا من تصميمها، وأمسكت بحقيبة كبيرة من القش أيضًا من تصميمها، حسن كان يُشجعها بكلماته الحلوة ومداعباته الرقيقة، قارنت مرة أخرى بينه وبين محمود، لو لم يرفض الفكرة لكان رافقها متضررًا وجلس صامتًا، وقبل المقابلة تمامًا كان سيعطيها بعض التعليمات والتنبيهات المفيدة. دخلت على مدير الشركة الذي رحبّ بها وأبدى إعجابه بثيابها، تبادل معها حديثًا تعريفيًا علمت من خلاله أنه قضى سنوات شبابه بأوروبا والنمسا تحديدًا، حيث كان يقوم بعمل ديفليهات وعروض أزياء للملابس العربية، لكنها كانت عارية ومثيرة على حد قوله، لأن هذا كان شرطًا للنجاح والشهرة، ثم تغيرت قناعاته عندما قام بفريضة الحج، عاد بعدها وقد قرر أن يُغيّر من أسلوب عمله حتى لو هبط نجمه وتدهور نجاحه، وبالفعل استقر في الإسكندرية وقرر أن يكون حلمه المُقبل أن يصل للعالمية من خلال ثياب محتشمة تعتمد بالأساس

على روعة التصميم وتفرّده، كان حديثه يدعو للحماس وكلامه عن حلمه المُقبل رغم أعوامه الستين جعلها تشعر أن عليها مسؤولية كبيرة حتى تُساعد هذا الرجل الطموح الملهم على تحقيق حلمه وحلمها.

غادرت المكتب وهي شعلة من الحماس، تُريد أن تعود بسرعة لتبدأ العمل فورًا، وجدت حسن يتصفّح هاتفه فهجمت عليه بفرحة، كادت أن تحتضنه، حمل فرحتها بين ذراعيه ولم يعنه المكان والزمان فقبّلها على وجنتها المتورّدة من الفرحة وضمّها لصدره ضمّة صغيرة، محمود كان سيقول لها مبروك وعلى وجهه ابتسامة كاذبة، ركضا كمراهقين من الشركة حتى الشارع وهما يضحكان وفراشات الفرحة تُحلّق وراءهما، قال لها (اتركي لي نفسك اليوم)، وأخذها للبحر الذي كان كأنه ينتظرهما، جلسا مُتقاربين على الشاطئ دون أي تحفُظات، لم تبحث عن الظِلّ خوفًا من قسوة الشمس ولم تتحرَ مكان الجلوس خوفًا من أن تتسخ ملابسها كعادتها، لم تنتبه للبشر من حولهما ولم ترَ غيره هو وأزرق البحر ونور الشمس في لوحة بديعة من العِشق رسمها حسن بجموحه، كان سعيدًا لسعادتها وسمع منها الحكاية عِدة مرات دون ملل، بل ووعدها أن يُحاول قدر المستطاع أن يُصاحبها كل مرة تأتي فيها للتدريب، واقترح عليها أن يذهبا بالسيارة، لكنها رفضت دون تشدُّد حتى لا يفقدا روعة اللحظة في نزاع آخر، وكانت تتحاشى معه كل ما كان يُنغّص حياتها مع محمود، لمست فرحته الجليّة بها حتى إنها تعجبت وأخبرته:

- لم أكن أتخيّل أن يسعد رجل بنجاح حبيبته لهذه الدرجة.. أنت غيّرت فكرتي عن الرجال.

- الحب مسؤولية يا عالية والحبيب مسؤول نفسيًا عن محبوبته، إذا سألته أجابها وإذا طلبت منه أعطاها فورًا، وللعطاء سعادة مثل سعادة الأخذ وأكثر، يقول ماركس خذ الإنسان كإنسان والحب بالحب والثقة بالثقة.. فإذا أردت أن تكون مؤثرًا في إنسان يجب أن تتأثّر به أيضًا.

- هل هذا يعني أنك تأثرت بي؟

- لا طبعًا، أنا لا أتأثر بأحد.. أنا أجامِلك فقط بالتأكيد.

ضحكت عالية وهي توخزه في ذراعه، ثم عادت لتحاوره:

- لكن مسؤولية الحب ممكن أن تتحول لسيطرة وتحكُّم..

عرف أنها كانت تُشير لحياتها قبله، وقد اعتاد طريقتها في التلميح لهذا الأمر دون الحديث المباشر عنه.

- المثل الفرنسي الذي أؤمن به كثيرًا يقول إن الحب ابن الحُريّة، والحُريّة لا تدعو للاستغلال والتحكُّم، الفرق يا عالية هو أن مسؤولية الحب يُرافقها اهتمام واحترام، بدون هاذين العاملين الحب يتحوّل لأداة للسيطرة.

صمتا قليلاً وكان صمتهما يُغني عن ألف حكاية.. الصمت بينهما كان حياة، فتح هو أزرارًا من قميصه وهو ينفُخ بضجر من الحرّ، مغصوبة نظرت إلى صدره الأسمر الذي وقعت عليه أشعة الشمس فجعلته بلون الشوكولاتة، وكأنها لأول مرة ترى صدر رجل عارٍ، كان مُتوهّجًا يُشعّ حرارته في وجهها الذي اصطبغ بالخجل، ارتبكت وصمتت وهي لا تستطيع أن تُبعد عينها عن الشوكولاتة، تخيلت أنها تلتهمها وأن آثارها تملأ وجهها وشفتها، دافئة ولذيذة بطعمه، خيالها أربكها أكثر، إلى أن سمِعت ضحكته الصغيرة وهو يقول:

- أعرف ما يدور برأسك..

نظرت له باستنكار وهي تسأله ما هو؟ فأجابها وهو ينظر لها بشهوة (نفس ما يدور في رأسي)، أنكرت بشدّة وظل يضحك حتى ضحكت هي الأخرى وسألته من بين الضحكات:

- وكيف تعرف ما يدور في رأسي؟

- وهل يجب أن أكسر رأسك حتى أعرف ما يدور به؟ هل عليّ أن أكسر قلبك حتى أسمع دقاته؟ أنا أشعر بدقات قلبك وأعرف بما تُفكّرين.. ليس لأني عرّاف، لكن لأن بين المُحبّين لا توجد قشور أو أغلفة تحتاج لتكسير، كل ما بين المحبّين أشياء ملموسة ومرئية، كل ما بينهما قُرب وأعماق.

- أنا لم أسمع في حياتي أجمل من كلماتك.

- لكن أجمل الكلمات أنا لم أقلها لكِ بعد..

- ليتك لا تنتهي أبدًا حتى تظل تتحدث وأسمعك..

- اقتربت منه وهو يقترب فأصبحا مُتلاصقين دون أي شعور بكل ما حولهما، سألها بنبرة ضعيفة لا تَخُصّه:

- هل كُنتِ أسعد قبل أن تعرفيني؟

- بصراحة.. نعم.

ضحكا ثم استرسلت هي:

- أنا لم أكن قبلك سوى سحابة تسبح في فضاء الخيال، سعيدة لكنها ليست حيّة، وبعدك أصبحت قِطعة من الجنون تمشي على الأرض، أنا من ضِعت فيك حتى المُنتهى ومن غيّرتني عيناك إلى كائن ينبض، وأنت من أمطر حبه بمواسم من الفرح على جفاف أيامي.

قال وهو يُمسّد رأسها: أصبحتِ شاعرة؟

- أحاول..

- لكن هذا ليس بكلام شُعراء، هذا كلام عاشقة.

مالت برأسها على كتفه وهي سكرانة من رائحة ومذاق الشوكولاتة في خيالها، همس لها:

- تغيرتِ كثيرًا، لم تعدي تحدثينني بالمنطق والعقل.. أصبحتِ تُشبهينني لكننا مُستقلان.

- لأننا إذا عشقنا ترحل عنا عقولنا ويُغادرنا المنطق.

ظلّا يتهامسان وقتًا طويلاً حتى اقتربت الشمس من المغيب، ففزعت هي، لدغها عقرب الوقت وسألته أن يعودا للقاهرة، ثم عادت كالمهووسة في قرارها وطلبت منه أن يُشاهدا الغروب معًا.

- هل أنتِ متأكدة من رغبتك في مشاهدة الغروب معي؟

- أريد أن أُجرّب كل الأمور الرومانسية معك.

- لكن أنا لا أؤمن بحب الأفلام والأغاني، إنه حب وُجِد ليشاهده الناس لا ليُمارسونه، ليتفرجوا على الحب لا ليُحبّوا، لذلك لا تهمّني خرافات الحب من الغروب والسهر والنجوم، الحب لا يُعذبنا يا عالية مثلما تقول الأفلام بل يرتقي بأرواحنا، يُحررنا ويجعلنا نُحلّق.

- وأنا أُحلّق معك.

- معي وبدوني يا عالية.. أنتِ خُلقتِ لتُحلّقي.

انقبض قلبها من كلمة (بدوني) لكنها لم تسأله عن قصده، لكنها سألته عن وجهتهما التالية للتحليق، ذهبا لمطعم يطلّ على البحر مُباشرةً، لم يكن في نفس أناقة المطاعم التي اعتادت أن ترتادها مع محمود، لكنه

كان دافئًا ويُثير الشهيّة للطعام والحب، كان هناك رجل يغنّي على عود، طلب منه حسن أن يقترب وهمس في أذنه، فلعِب لحن تعرفه جيدًا ثم غنّى "كامِل الأوصاف". كانت مفاجأة جميلة لعالية التي تعشق عبد الحليم وتذوب في حسن، كانت خجِلة لكن خجلها لم يمنعها أن تُبادر هي وتمسك كفّه وتضغط عليه برقّة وكأنها تُعانقه هو، بعدها ذهبا لمحل يبيع المُثلّجات في منطقة شعبية مزدحمة، الموسيقى داخلها لا تنقطع، اللحن مُسترسل وبهيج ترقص عليه الروح دون توقف، المُثلّجات رفعت هرمونات السعادة ومُعدلات النشوة وجعلت لحظاتها معه ألذ، هل سينتهي مثل هذا اليوم؟ هذه الأيام لا تنتهي أبدًا، تظل محفورة في القلب، تظل خضراء لا تبلى ولا يعبث بها الزمن، عندما وصلا إلى القاهرة أصرّ على أن يوصّلها لبيتها، وهناك افترقا بصعوبة، قال لها وهو ينظر أمامه في حنق وأسى (كان يجب أن تعودي معي إلى البيت).

كانت هذه الفترة هي أكثر فترات حياتها حماسًا وإقبالاً على كل شيء، كانت ترسم أكثر من تصميم في اليوم وتنزل لشراء الأدوات اللازمة من محلات وسط البلد، تأكل الطعام بنهم وتنام بعمق، تلعب مع كريم وتشتري له كل ما هو جديد من ألعاب الفيديو وتذهب معه إلى النادي بإنتظام، تحسّنت علاقتها بصديقاتها وأهلها، وتوطّدت علاقتها بحسن حتى أصبحت تعتبر أنها لا تحيا إلا في وجوده، وسخِرت كثيرًا من كل الحقائق العلمية التي تؤكد أننا نتنفس طول الوقت، فهي لا تشعر بأن صدرها يُداعبه الهواء إلا معه، أيقنت أن كلامه صحيح، الحب لا يعني العذاب، حتى نوبات الخوف

التي تُداهمها تتخلص منها بمجرد أن تسمع صوته، كانت تُفكّر به دائمًا رغم انشغالها بالتدريب والعمل، كيف تجعله يشعر بتميّزه معها، شخصيته المُعتدّة بنفسها صعب أن تعرف ما ينقصها أو يُحفّزها، كانت تحاول أن تتخلص من الرواسب التي تركها محمود في روحها، تُحاول أن تتخلص من عادة المُقارنة بينهما في كل شيء، ذلك لأنها ببساطه تُحب حسن؛ فماذا يعنيها إن تفوق عليه محمود في كل شيء مادام هو الفائز في النهاية؟ وبالفعل بدأت حياتها السابقة تهدأ وتسكُن وذكرياتها المؤلمة تتلاشى، لدرجة أنه عندما اتصل بها هيثم ابن خالتها ليُخبرها أنه خرج عن مسار خِطتها وأحبّ فرح بالفعل، بل وأراد أن يتزوجها لولا اعتراض والدته، لثوانٍ نسيت من هي فرح، وعندما تذكرتها كانت لا تشعر تجاهها بشيء، لا يهمها إن تزوجها هيثم أو تركها.

الحب يجعلنا شعراء وأدباء لأنه يسمو بمشاعرنا، كتبت له كلمات لا تعرف من أين أتت وأي موهبة كانت داخلها وظهرت، لم تُدرك أن لا موهبة أفضل من موهبة الحب الذي يجعل لكل ما نفعل حسّ ومذاق أجمل، دخلت عليها أمها وهي تكتُب، كانت تبدو شاحبة، ليست المرأة القوية التي تعرفها، ظهرها محني وعيناها ذابلتان كأنها بكت الليل بطوله، نظرت لها بعتاب وسألتها:

- ألا تُريدين أن تُخبريني بشيء؟

تنبهت عالية أن الأمر يخُصّها هي فأغلقت الحاسوب وجلست كطفلة مُذنبة أمام أمها، تتجنب النظر لعينيها التي تسبر أغوار نفسها، ولمّا لم تنطق استكملت أمها ما بدأته بتأثر بالغ:

- أنا لم يؤلمني أنك انفصلتي عنه مثلما آلمني أني عرفت من حماتك ولم أعرف منك.. البُعد بيننا يؤلمني.

اخترقت الكلمة صدرها، إنها رصاصة الحقيقة التي آن الأوان أن يعترفا بها، لم تكونا أبدًا قريبتين، لقد اعتادت عالية منذ طفولتها أن تحجب أمورها الخاصة عن أمها وأن تستعيض بالصديقات عنها، كانت تعرف أنها لن تفهمها ولن تستوعب مشاكلها، فهي ترفض كل ما يحيد عن أفكارها ومبادئها المثالية، تُملي عليها الأوامر، تحرمها من أشيائها الحبيبات، وتعُاقبها بالحبس في البيت إن استلزم الأمر، كانت تخاف عليها كأنها عصفور صغير تعيش حياتها في خوف أن يخرج دون عودة، لم تكتفِ بهذا بل أعطت أخاها كل الصلاحيات للخروج والدخول والخطأ، عاملته كإنسان واعتبرتها ملاكًا، هكذا بُني الجدار بينهما، بصرامة أمها معها وطبيعتها المُتحفّظه ورغبتها الدائمة في أن تُقيّدها. حتى بعد زواجها، فضّلت أن تُواجِه المشاكل والهموم وحدها على أن تُشرك أمها، التي ستعطيها نصائح مثالية غير قابله للتنفيذ، أو تُعلن غضبها على محمود وتنبذه، ثم ينتهي الأمر بأن تُقاطع أهلها أو تنقطع عنهم، لذلك بقيت وحيدة تحبس ألمها من محمود في قلبها وتشكو إليه منه، لا تعرف كيف حرصت عن دون قصد ألا تُشبه أمها في أي شيء، فهي هادئة ومنزوية،

ليست اجتماعية ونجمة التجمعات الأسرية مثل أمها، كما أنها لا تعمل ولا تتحمل المسؤوليات الكبيرة مثل أمها، أمها تقود وتختار وتفرض رأيها، أمّا هي فكانت مُستسلمة ومُنصاعة تمامًا لزوجها، كأنها كانت تُراقب مسار حياة أمها لتسير عكسه.

لكن في هذه اللحظة وأمها المرأة العظيمة التي لا تبكي إلا من فُراق الأحبّة الأخير، وتعمل منذ خمسة وعشرين عامًا دون أن ينحني ظهرها، تجلس أمامها الآن مُنكسرة وحزينة، شعرت عالية أنها أخطأت بعدم الإفصاح لها هذه المرة.

- لماذا نحن بعيدتان؟ أنا ليس لي ابنة غيرك.. أنجبتك لتكوني صديقتي وأختي قبل أن تكوني ابنتي، وأنتِ من صِغر سنّك بعيدة وصامتة.. هل كان ذنبي أني أردتك أحسن فتاة في الكون؟ هل كان ذنبي أني أعمل وأضطر للتغيب عن البيت؟ أخبريني أين خطئي يا عالية؟

- أنا المخطئة يا ماما.. فقط خفت عليكِ، صدقيني.

- ولم تخافي عليّ أن أعرف عن حياتك من غيرك وأدرك حقيقة علاقتنا؟

اشتد نحيبها، فلم تستطع عالية أن تُبقي على هدوئها ونهضت لتحتضنها وتبكي هي الأخرى على صدرها، ثم مسّدت ظهرها المنحني حتى يعود ليشتد ومسحت على رأسها ثم قبّلته وقبّلت يد أمها لأول مرة في حياتها، بدأت أمها تتوقف عن البكاء ويذوب حزنها وتستسلم كأنها هي الصغيرة وهي

المحتاجة لابنتها. أما عالية فلم تُحاول أن تشرح لها لماذا فعلت هذا، لكنها حكت لها عن يوم الطلاق والتفاصيل قبله دون إشارة لحكاية فرح، وحاولت أن تُقنعها بأنها الآن سعيدة وأفضل مما كانت عليه، وأن محمود هو الآخر يبدو أنه ارتاح منها هي والصغير بدليل عدم ظهوره منذ شهور واكتفائه بإرسال المصاريف للمدرسة. كانت بحديثها الطويل لا تبغي فضفضة أو رأيًا أو مشورة، هي فقط كانت تُحاول أن تُعوّض أمها عن صمتها الطويل في الشهور الماضية وتضعها في الصورة الكاملة كما ينبغي، ومن الغريب أن أمها لم تُلقِ عليها المواعظ ولم تلمها أو توجهها كالعادة، كانت تستمع وفقط بعينين متأثرتين، بدأت تشعر بقلب أمها الذي يكاد ينفطر رغم لهجتها المرِحة في الحكي ومُحاولتها لطمأنتها. إن للأمهات قلوبًا مختلفة عن قلوب البشر، مُتخمة بالحب، تفيض بالمشاعر، يُولد من أرحامهن الحنان والعطف وليس فقط الصغار. كانتا أمّان تتحدثان وليستا فقط أمًا قوية وابنتها العنيدة، تدفق الحديث بينهما من هذه اللحظة وكأنهما لم تتحدثا من قبل، وتوالت الخروجات وحدهما للنادي والسينما والتسوّق وتعرّفتا أخيرًا على أذواقهما المختلفة ومناطق الفرح والألم والشغف في حياتهما. كان لقلب عالية العاشق أثر في أن تفتح كل الأبواب لأحبّتها دون ذرّة تحفّظ، حسن كان على حق، الحب يجعل منّا أناسًا أفضل.

ومع توطد العلاقة بينهما بدأت أمها تستشعر ما طرأ على قلب ابنتها من تغيير، وكانت تعي تمامًا أنها تحمل مشاعر كبيرة لإنسان ما، لكنها لم

تُفسد الأمور هذه المرة بنزعة الأمومة ورغبتها في أن تعرف وتُصلح وتُوجّه، وانتظرت حتى تحكي لها عالية، لكنها إلى أن يأتي هذا اليوم ألقت على ابنتها نصيحة أخيرة لعلها تُفيد:

- الرجال يا ابنتي مجموعة من العيوب والمميزات، عندما تقبلين بأحدهم وتُحبّينه وتعيشين معه، فذلك لأنك تعرفتِ على مميزاته وتعايشتِ مع عيوبه، أمّا أن تتركيه لعيوبه وتبحثين عن مميزات آخر، فاعلمي أنك ستضطرين لمعايشة عيوب أخرى قد تكون أصعب في تحمّلها، فعليكِ أن تقبلي باختيارك بعيوبه قبل ميزاته، لأن لا رجل يخلو منها.

- لكن الحب يا ماما يجعلنا نتغاضى عن العيوب.. يجعلنا نفيض ونتحرك في الحياة بشغف.. واللاحب يجعلنا تُعساء كالبركة الساكنة لا نرى إلا العيوب.

- وكثرة التغاضي تُمرض القلب وتُذهب الحب!

*****

كان قد مرّ أسبوعان على أحداث العباسية، عندما هاجم مُسلّحين المعتصمين أمام وزارة الدفاع المُطالبين بتسليم السُلطة لمدنيين، هاجموهم ليفضّوا اعتصامهم بالقوة وقتلوا منهم من قتلوا وأصابوا من أصابوا، دون محاولة من الجيش لوقف الاشتباك، وقد اعتُقل عدد كبير من المناضلين والمصلين بمسجد النور القائم هناك، مما زاد الأمر سوءًا، عالية رغم انشغالها في التدريب وقضاء معظم وقتها في الرسم والتصميم، إلا أنها كانت مازالت تُتابع الأحداث دون أن تُشارك فيها، ويحاول حسن الذي يُشارك في الاعتصام أن يحكي لها ما يحدث بالتفصيل حتى تنقله بسرعة ودقّة إلى الشبكة العنكبوتيّة، وهذا كان دورها في هذه الأحداث، حكى لها عن البلطجية الذين لا ينتمون بأي شكل من الأشكال لأهالي المنطقة، كما يزعم المجلس العسكري، وكيف أنهم كانوا مُتربّصين لهم، وبعد الصلاة اقتحموا صفوف المعتصمين بعنف وضربوهم وسحلوهم دون هوادة، وأن أفراد من الشرطة العسكرية اقتحموا المسجد بأحذيتهم ليقبضوا على المصلّين ويعتقلوا عددًا كبيرًا منهم، كان غاضبًا وثائرًا وحزينًا.

أغضبه أيضًا هؤلاء (الحازمون) الذين يتبعون شيخًا كبيرًا معروفًا بلهثه وراء السُلطة وسيطرته على عدد من الشباب المُتدين، خاصة بعد أن تمّ استبعاده من الترشّح للانتخابات الرئاسية نتيجة اللغط حول جنسية والدته الأمريكية، وكان يزعم أن القتلى من صفوفه، رغم أنهم كانوا من عامة المعتصمين، الثوار الحقيقيين الذين يقفون بصدور عارية أمام الموت، صحيح أن الحازمين هم أول من بدأوا الاعتصام لكن تبعتهم بعد قليل كل القوى السياسية، وهي من قامت بكل المعارك الليلية مع البلطجية. هتف مع الجميع بسقوط حكم العسكر وكان مُدركًا تمامًا أن الجنود ليسوا أعداءً بقدر ما هم ضحايا لقادة حمقى ونُظم سيئة يتبعها العسكريون في التعامل مع الأزمات، كان لسان حاله يقول كلنا ضحايا، كلنا قتلى الغباء.

"عن الحكم العسكري وماله وما عليه"، كانت هذه الندوة التي ذهبت عالية لحضورها بالاتفاق مع حسن، وصلت قبله هذه المرة ولم تجد ممن تعرفهم سوى هذه النهى صاحبة الوشاية الحقيرة وبعض الفتيات التي أومأت لهن برأسها فقط، وشادي زميلها القديم الذي ينتمي للألتراس الأهلاوي، أقبل عليها وتبادل معها حوارًا عاديًا عن الأحداث الراهنة ورؤيته لما سيحدث في الأيام المقبلة، كان مثل الجميع مُتحاملاً على الحُكم العسكري وغاضبًا، ثم تطرق الحوار لحياتهما الشخصية وعرفت أنه لم يتزوج بعد واكتفت بأن أخبرته أنها أم لطفل في السادسة من عمره، تخلل حوارهما بعض الضحكات حين وصل حسن الذي

رمقهما بغضب وذهب للمنصّة دون أن ينبس، تركت عالية شادي بدون استئذان وحاولت أن تتحدث مع حسن قبل أن يعتلي المنصّة لكنه أبى وتظاهر بالانشغال مع الأصدقاء، شعرت عالية بغصّة في حلقها، جلست في كرسي بعيد وقد عاودها شعورها القديم أنها دائمًا المخطئة، لم يكن حديثها مع شادي سوى حديث عادي بين صديقين، فكيف لحسن أن يظن غير ذلك، كيف له أن يغار بالأساس وهو يعلم أنه أنفاسها وجناحاها ومُستعمِرها، كيف يغار وهو لها النخلة السامقة وكلهم عشب الأرض، ألم تتخلَ عن حياتها وتهبه وحده قلبها دون شريك، كيف له أن يغار بعد كل ما بينهما؟ كانت تحسب أن محمود يغار عليها في سنواتهما الأولى، حتى أيقنت أن غيرته لم تكن إلا رغبة في التحكم بها فسرتها هي بسذاجة زوجة أنها حب، وعاشت في عذاب هذا التحكُّم مُنتبهة لكل كلمة وتصرف وقطعة ثياب ترتديها حتى لا تُثير غضبه، والآن بعد أن تحررت من تحكّمه، يعود لها شعورها بأنها يجب أن تظل تنتبه لكل كلمة وتصرف، جلست بإحباط مرير تُتابع الندوة التي بدأها حسن وعيناه تصرخان بالغضب.

تحدّث عن جرائم الحُكم العسكري كما سمّاها منذ أيام عبد الناصر، بدءًا بالغدر باللواء محمد نجيب، فصل مصر والسودان، نشر الكذب وتضليل الشعب، انهيار الاقتصاد بعد أن كان في أزهى عصوره، ظهور الشللية والمحسوبية في المؤسسات وانتشار الفساد، التأميم الذي فرّق بين طبقات الشعب وأشاع العداوات بين الفقراء والأغنياء من منطق

فرّق تسُد، ملاحقة وإبادة المعارضين بكل الأساليب غير الإنسانية، بما في ذلك الشنق والحبس والتعذيب، تأسيس الديكتاتورية بأن ألغى كل الأحزاب وأنشأ الاتحاد الاشتراكي وحده، وعمل على إقصاء وتصفية معارضيه، ثم أنهى عهده بالنكسة التي ضحّى فيها بأرواح الجنود وبسُمعة جيش مصر بسبب غروره وعنجهيته، ثم راح يتحدث عن تبعية حُكم العسكر قبل أن يوقفه أحد الحضور الذي كان ينتمي للتيار الاشتراكي، وراح يوبّخه على الزجّ بقامة مثل عبد الناصر زعيم الأمّة في مثل هذه الجرائم التي لم يكن له يد فيها، وإنما كانت بسبب حاشيته الفاسدة وما كانت تمُرّ به البلاد من لخبطة وتوتر وغليان إثر التغيير الكامل والمناوشات الخارجية، وأضاف أن ناصر هو من جعل لمصر هيبة وثُقلاً بين البلاد العربية وأنه هو من أنشأ بذرة الجيش الذي قام بحرب أكتوبر، كان مُنفعلاً والجو كله كان مشحونًا فأوقفه حسن بإشارة من يده، ولما لم يتوقف صرخ فيه وفلتت كل أعصابه فوجد نفسه فجأة يسبّه بأقذع الشتائم، انتفض الرجل غضبًا وفي حركة بهلوانية خلع حذاءه وألقاه على حسن الذي تفاداه، ثم نزل من فوق المنصّة ووجه قبضة قوية غاضبة لوجه الرجل، سالت دماؤه قبل أن يُمسك بتلابيب حسن ويحاول أن يَرُد له الضربة، لكن الحضور تدخلوا لفضّ الاشتباك وإبعاد الطرفين، عالية كانت في ظهر حسن تُحاول عبثًا أن تُثنيه عن عصبيته وغضبه الذي خرج من قفصه كأسد شرس جائع.

كانت من أصعب الليالي عليها، تجوب البيت في قلق وغضب، قلبها تُمزّق فيه سكاكين الخوف، عشر مرات تُحاول الاتصال به وخمسة رسائل ترسلها إليه دون فائدة، لماذا كل من تُحبهم غضبهم مُرّ، لماذا لم يُجرب أحدهم عند غضبه أن يُفرغ مشاعره فوق صدرها بدلاً من هذا البُعد المؤلم، لماذا لم يُجرب أحدهم الصراحة والمواجهة بدلاً من الغياب الذي ينهش والإهمال الذي يقتُل، لماذا يختارون دائمًا الطريق الأطول والأصعب في حين أن لمسة واحده صادقة من حبيب تُداوي وتحلّ وتُذهب الألم من الجسد والقلب؟! أغلق هاتفه عند الفجر واستمرت هي على توهانها وتوترها إلى أن وصلتها منه رسالة عند الصباح تقول (آسف، أنا لن أستطيع أن أستمر في هذه العلاقة..). ابتسمت ابتسامة باهتة وهي تُردد آيات الحمد، تسمّرت وهي تنظر للهاتف وتشعر أن الحروف تداخلت وتشابكت ورسمت خنجرًا مغروسًا في صدرها، سقطت على الأرض تبكي وتتألم بصمت حتى لا يصحو الصغير، لا تدري كيف بدّلت ثيابها ثم خرجت للشارع تهيم على وجهها، تهرب منهم حتى لا يروا دموعها التي لم يروها عند فُراق محمود، وجدت نفسها عند بيت مروة التي كانت تهمّ بالذهاب للعمل قبل أن ترى صديقتها المُنهارة فتُقرر المكوث معها في البيت، هناك بكت عالية بصوت عالٍ وتأوهت وصرخت كما لم تصرخ من قبل، لم تُفلح كل محاولات مروة أن تجعلها تتكلم أو حتى تتوقف عن البكاء، حتى إنها فقدت عقلها تمامًا وراحت تصدم رأسها بالحائط عدة مرات.

كانت هجمة حادة من الجنون لم تمرّ بها من قبل، هدأت بعدها وجلست كطفلة تعبة بعد نوبة من الغضب تنظر أمامها للاشيء، مسحت مروة على رأسها وسقتها شراب التوت الذي تُحبّه ولم تُحاول أن تستدرجها للحديث، فقط كانتا تتبادلان الصمت، وهذا كل ما كانت تحتاجه عالية، صمت في حضور شخص تُحبه وتثق به، غفلت قليلاً على الأريكة وصحت على مروة التي كانت تُحدّق بها.

- ماذا حدث لكل هذا؟ لم أركِ بهذه الحالة حتى في خلافاتك الكبيرة مع محمود.

لم تجد عالية ما ترُد به، فحسن هو سرّها الذي قررت ألا تُطلع عليه أحدًا مهما كان، حتى في هذه اللحظة التي تتوق فيها إلى الفضفضة لن تذكر عنه شيئًا، وهذا الخنجر المغروس لن يراه أحد، هي فقط من ستشعر به مُستقرًا في صدرها مُخترقًا قلب قلبها، كانت خلافاتها مع محمود تُؤلمها، لكنها لم تصل بها لهذه المرحلة من التطرُف في الحزن، فكل شيء في محمود ومعه كان يخضع للحدود والمنطق، أمّا حسن فعشقه تطرّف وفراقه تطرّف، والنجاة منه لن تكون سهلة، سيتبعها الكثير من الإيذاء النفسي والبدني، ما كان يؤلمها أكثر من فراقه هو شعورها الغريب بالأمان معه، كيف وثقت به إلى هذه الدرجة؟ حتى ليلة الأمس كانت تُفكّر ماذا ستُعد له في عيد ميلاده القريب، وكانت تحلم بلحظات كثيرة من السعادة معه لم يئن أوانها بعد، ما يؤلمها أنه كان يحمل في قلبه نيّة البُعد في حين أنها لم تحمل في قلبها إلا الرغبة في المزيد

من القُرب، ثم إنها لم تجرِ عليه وتستميله، هو من اقترب منذ البداية وهو من أمسك بيدها ليصعدا للسماء ويسيرا فوق السحاب في أمان أكبر من السير على الأرض، ما آلمها أن الموت كان بخنجر وهي نائمة على صدر القاتل، ولم يكن موتًا إيكلينيكيًا باردًا مثل ما أصاب علاقتها بمحمود.

عندما عادت للمنزل وجدتهم جالسين في وجوم، فتذكرت أن اليوم كان حفل تكريم المتفوقين في مدرسة كريم وأنها لم تذهب، بل ونسيت الأمر كله، سألتهم بخجل عن الحفلة وحاولت أن تضُمَّ كريم وهي تعتذر له، لكنه كان لأول مرة مشحونًا وغاضبًا، لم يبكِ لكنه عاتبها بصراحة على كل شيء، وليس فقط نسيانها للحفلة، عاتبها على عدم ذهابها معه لإحضار النتيجة قبل أسبوع، وعلى سفرها الكثير وتغيبها الدائم عن المنزل، عاتبها على قلة لعبها معه وعلى توقفها عن حكي الحواديت قبل النوم وعدم مشاركتهم الفُسح والخروج، عاتبها على عدم مشاهدتها له في التدريبات وقضاء الوقت في التمشية أو القراءة، عاتبها على غياب أبيه وأخبرها أنه يفتقده بشدّة هو والبيت وحُجرته وألعابه، حمّلها مسؤولية كل شيء وهو الصغير الذي لم يُكمل أعوامه السبعة بعد، كانت المطارق مازالت تضرب رأسها من كل اتجاه، لكن دائمًا تأتي الآلام متعاقبة وتتراكم الأحزان لتدخل دفعة واحدة وتملأ القلب، لا تترك له مساحة للتنفُّس.

جلست في القطار وحيدة، ترتدي نظارتها الشمسية الكبيرة لتُداري دموعها التي تتساقط كلما تذكرت عتاب الصغير لها وغدر حسن بها، هذا

الكبير الذي تصرف مثل الصغار ولم يواجهها بحقيقة مشاعره ونفسه وفضّل أن يُرسِل لها رسالة من أحرف باردة تقتُلها بقسوة أكبر، وهذا الصغير الذي تصرّف مثل الكبار وعاتب بحب وطالب بحقوقه التي ضاعت منها في زخم الرسم والتصميم والتحليق، الفارق كبير بينهما، غير أنها انشغلت بالطفل الكبير على حساب رجلها الصغير، الطفل كسر دُميته بلا عناء ودون أدنى تأنيب ضمير، والرجل سألها حنانها وحبها المسلوب منه دون دمعة واحدة، كانت عندما يطعنها محمود في أمومتها لا تغضب أو تتأثر لأنها كانت واثقة أنها لم تُقصِّر وأن زوجها هو الذي يحترف إلقاء الإتهامات، أمّا الآن فهي لم تعد واثقة، بل وأصابتها هذه الدائرة اللعينة من تأنيب الضمير التي كانت تُعاني منها مروة وظنّت هي أنها في مأمن منها، فهي اعتادت أن تكون الأم المتاحة دائمًا لابنها ولا يشغلها غيره، ذلك كان قبل أن تبزغ أجنحتها، كم تكرهها الآن تلك الأجنحة التي جعلتها تعلو حتى لم تعُد ترى الصغير ثم أهدتها السقوط المُريع، سقوطًا من أعلى نقطة، ورغم ذلك فإن القلب عندما يتمرد لا يعود كما كان ويظل يُحلق طول الوقت بفرح أو بدون، فها هي الآن في طريقها للإسكندرية لاستكمال التدريب.

لماذا لمسها؟ لماذا لمس كل أشيائها وجعلها برائحته، فهذه نظارتها الشمسية التي قبّلها يومًا ما، وهذه حقيبتها التي ضمّها لجسده يومًا ما ليستعيض بها عن ضمّتها، حتى حذاءها لمسه بيده وهو يُخبرها أنه يُحب كل ما يلمسها، القطار موحش بدونه، كل شيء بدونه له طعم الواقع المُرّ

ونوره الباهت ووقته البطيء، كيف كان يُضيف هذا الضوء والصخب لكل شيء، والآن الطريق لا ينتهي والدموع لا تتوقف، تتذكر كلماته العادية وغير العادية وصوت ضحكته التي ترتسم على شفتيه ولا تمتد لعينيه فيظل مُحتفظًا بصرامة نظرته، ورائحة دُخانه التي احتفظت بها دائمًا في ملابسها، وصل القطار ولم تصل هي بعد لتفسير واضح لبُعده وقراره الأُحادي، حنينها إليه كان أكبر من غضبها منه وحيرتها في تفسير ما وراء رسالته، حضرت التدريب دون ذرة تركيز وكان الجميع يسألونها الأسئلة نفسها (ماذا بِك؟)، (هل أنتِ مريضة؟)، (لماذا أتيتِ وأنتِ في هذه الحالة؟).. وكانت إجابتها ابتسامة باهتة وتمتمة ببعض كلمات الطمأنة، بعدها وجدت نفسها تتجه للشاطئ الذي جمعهما ذات يوم، كان نفس المكان لكن ليس نفس الشاطئ، مُزدحِم ومُتسِخ، النساء تثرثرن وأمامهن طنجرات الطعام وحولهن يتقافز أطفال في ملابس مُهلهلة، والرجال لا يتركون بقعة ترى منها لون البحر، أما الشباب فانتشروا في كل مكان للتسكع والمُعاكسة لكل ما هو مؤنّث.

كيف أصبح الشاطئ بهذه الصورة؟ أم إنه كان كذلك ولم تره هي من جراء السِحر الذي يُسيطر عليها عندما تكون معه؟ كانت عندما تذكر الساعات التي قضياها على هذا الشاطئ تشعر أنه الجنة وتتمنى لو تكررت زيارتهما له، والآن لا تتحمل أن تقضي فيه أكثر من عشر دقائق تحت الشمس الحارقة وبين الزحام والضوضاء، ضعفت وهبطت مقاومتها للأرض وهي تُجرجر قدميها للعودة للمحطة، حتى إنها تاهت عدة

مرات قبل أن تصل، وجدت نفسها وهي في المحطة وكل ما فيها حزين ووحيد تتصل به، لا يرُدّ، أرسلت له رسالة قصيرة (لا تتركني)، ولم يرُدّ، احتقرت نفسها وأنّبتها كثيرًا على هذا الهزل والهوان، كيف تسأله ألا يتركها بعد أن أغلق أبوابه في وجهها وبعث لها بخنجره في رسالة؟ إن الخنجر مازال ينهش في صدرها، وهي بكل غباء الحبيبة تُطارده وتبثّه ضعفها واحتياجها، هل كان يُسعدها أن يعود شفقة باحتياجها أو رغبة في الإبقاء على علاقة قديمة في حياته، مثل كل حكاياته العاطفية التي قصّها عليها والتي انتهت إلى فتور وقِشرة غبية من الصداقة؟

لكن هي ليست مثلهن (ما هذه الحماقة.. كلهن يُرددن نفس الجُملة.. أنا لست مثلهن، وهو يُؤكدها.. أنتِ لستِ مِثلهن.. إنها الحدوتة المعروفة والجُمل المأثورة في كل حكايات الحب)، لكن الحقيقة تقول إن الأصدق هو الأبقى، وليس المختلف هو الأبقى، وهو لم يُبقِ عليها رغم كل ما كان بينهما، الرجال تمُر بهم المواقف الحميمية فتصيبهم بالحنين كل حين، أمّا المرأة فهي تعيش بهذه المواقف العاطفية، هي زادها في الحياة تجترها كل لحظة وتُعذب نفسها بها، كل لمسة أو كلمة منه كانت تصعقها كالبرق، ويظل السؤال الذي تردده داخلها دون توقف (لماذا اقترب؟)، قد لا يعنيها لماذا ابتعد فالمُبررات الواهيه كثيرة، لكن ما يشغلها حقًا هو سبب اقترابه إلى هذا الحد إذا كان ينوي الرحيل، ثم بدأت الهواجس السوداء تُقنعها أنه ابتعد لأنها لم تكن قريبة منه بما فيه الكفاية، فالرجل إن لم يكن له خيط يربط بينه وبين حبيبته فأسهل ما عليه أن يرحل عنها ليبحث عن

صيد جديد، وهذا الخيط يعني العلاقة، هو لا تربطه بها سوى مشاعر غير ملموسة، كلام في الهواء ووعود عظيمة كاذبة، أمّا إذا كانت ملك يمينه فهو لن يُفكّر أبدًا في الرحيل عنها، كم لمّح لها أنه يشتاقها وكم صدته لأنها لا تعرف كيف يمكن أن تتطور العلاقة، لم تُفكّر في هذا الأمر أو ربما لا تريد أن تُفكّر فيه لأنه علّمها أن تعيش بلا خطط، ولأنها لا تُريد أن تفقد حميمية علاقتهما بعقود وشروط ومسؤوليات، لا تريد أن تتزوجه حتى لا تخسره.

عادت في المساء وهي تحمل لكريم الحلوى التي يُحبها وتُردد عليه أنهما سيذهبان غدًا لمحل الألعاب حتى يختارهدية نجاحه بنفسه، كان يُمثّل السعادة وهو يشكرها ويُقبّلها، حتى سألته بدون مواربة: "لماذ أشعر أنك مازلتَ غاضبًا حتى وأنتَ تضحك؟"، فأجابها بِصراحة طفل: "أنا أضحك يا ماما لكن بداخلي أنا حزين".. يااااه، يا بني، في هذه السن الصغيره بدأت تعي هذا الشعور؟ بدأت تظهر عكس ما في قلبك، بدأت ترتدي قناع الابتسامة أمام الناس، بدأت مبكرًا يا بني فكم من المرات ستدفعك الحياة لهذا الشعور، ربما طول الوقت، همست لها أمها (ليس بالحلوى ولا بالهدايا تستطيعين أن تكوني أمّا حقيقية)، لم تبذل مجهودًا كبيرًا في هذا اليوم لتكون أمّا حقيقية، بل على العكس تشاجرت مع الجميع وصبّت غضبها عليه بالأخص ثم ذهبت لتنام على سريرها غير المريح والخنجر مازال ينهش في قلبها والدموع مازالت تتساقط بجنون على وسادتها.

في الأيام التالية حاولت أن تتغير، وضعت على قلبها ضمادات من الثلج ورتبت أفكارها كما كانت وهي طالبة في الجامعة، في الشهر الأخير تضع الجداول وتُنظِّم المواعيد، تسهر وتصحى مبكرًا وتتنازل عن أوقات الراحة والسرحان، تُريد الآن أن تنجح أيضًا، تنجح مع كريم وتنجح في عملها، وبالفعل بدأت تحرص على أن تكون معه في النزهات والتدريبات، كانت معه بجسدها، لم تستطع أن تُحرر روحها بعد من عبثية التحليق وأوتار الشوق المشدودة، ثم اشتركت له في دورة لتعليم الرسم بعد أن لمست شغفه به، كانت دورة مُتخصصة يُديرها فنانون محترفون وليست مجرد مدرسة أخرى للنشاطات الصيفية، أكملت هي بصعوبة فترة تدريبها في الإسكندرية واستلمت عملها بمكتب القاهرة، مرّت ببعض الصعوبات وتعاملت مع أشباه البشر الذين يستقبلون الجُدد في العمل بالغمز واللمز والجفاء، لكنها رغم كل شيء أقبلت على العمل بعزم كبير، حتى عندما أتاها اتصال وحيد من حسن لم تَرُد عليه، كانت تُريد أن تُثبِت للجميع أنها ستُصبح يومًا ما تُريد، حتى إن كانت بلا وطن ولا أجنحة.

ثم قررت أن تتصل بصفا الطبيبة الصغيرة وزميلة الميدان، كان الاتصال في ظاهره للسؤال والاطمئنان على الأحوال في التظاهرات والاعتصامات في الميدان، لكن في باطِنه كانت تريد أن تسمع أي خبر عن حسن بعد أن مرّت ستة أسابيع دون أن تعرف عنه شيئًا، وعندما لم تجد من صفا أي تعاون، سألتها عنه مباشرة، فأجابتها أنه توقف عن حضور الندوات بعد حادثة الحذاء الأخيرة، وأنه يُفكّر في الانضمام لحزب جديد يُسمّي نفسه

(الإرادة الشعبية)، وأضافت أن للحزب مؤسسين من أصدقائهم المشتركين منهم نهى... هنا صرخ قلب عالية حتى إنها خافت أن تسمعه صفا، وتيقّنت أن حسن لابد أنه عاد لتلك النهى، أغلقت الخط قبل أن تخرج آهاتها المكتومة، وانتكست، عادت لتصرخ وتبكي وتتشاجر مع الجميع، وفكّرت جديًا في أخذ أجازة من العمل أو تركه نهائيًا لأنها لا تقوى على الذهاب كل يوم لمكان محفوف بأشباه البشر تُخفي عنهم دموعها بصعوبة، كما أنها لم تعد صافية الذهن حتى تستطيع أن ترسم وتبتكر، تُريد هذه الأيام أن تكون مجرد ترس، تدور دون تفكير فتُنجز المطلوب منها، لكن قُدرتها على التفكير في غير حسن وخنجره المغروس في صدرها لم تعد تسعفها، عندما رأتها أمها في هذه الحالة أدركت أن كل هذا التشتت والنوبات الحادة من السعادة والحزن لا تعني إلا أنها بصدد علاقة عاطفية، فهي تعلم أن عالية لا يؤثّر عليها العمل والمشاكل اليومية بقدر ما يؤثّر عليها اضطراب المشاعر وعدم استقرارها.

انتهزت فُرصة لحظة هادئة وحاولت أن تصل لعتبات مشاعرها، حكت لها عن خالتها التي طلّقت من زوجها منذ سنوات طويلة وكان الطلاق شيئًا جديدًا ومُستبعدًا في عائلتهم، فآثروا ألا يخبروا أحدًا وكانوا يعاملوها بنوع من الشفقة والتكلّف كأنها مصابة بمرض، لكنها لم تعبأ بمعاملتهم الغريبة وتضييقهم عليها وأصرّت أن تعمل وتخرج للمجتمع وتواجهه بوضعها الاجتماعي الجديد، وتحمّلت الكثير من الجهل الاجتماعي وطمع الرجال وثرثرات النساء، حتى تعرّفت على زوجها الحالي وعاشت

معه قصة حب كبيرة مازال الجميع يتحاكون بها حتى الآن، فهما ليسا فقط زوجًا وزوجة، إنما صديقان وعاشقان، حمّستها الحكاية على الإفصاح عما بصدرها، وراحت تحكي لأمها عن حسن، لكنها لم تدخل في تفاصيل، فقط حكت مقاطِع من النهاية، كأنها تقول نتيجة مباراة، ولم تتفاجأ أمها أو تُظهِر أي انطباع سلبي، ولم تكتفِ كذلك بالنتيجة، بل حاولت أن تعرف البداية والعُمق للحكاية، أدركت من حكي عالية ودموعها أنها تعيش قصة حقيقية صدقت فيها وأخلصت لرجل لا يصلح لها ولا يُقدّر مشاعرها، شعرت أن عالية عادت لسن المراهقه لتعيش ما لم تعشه وتُجرب ما لم تُجربه، وصلها هذا الإحساس من انبهار عالية وسعادتها وهي تحكي عن مواقف بسيطة صغيرة لا تَدُل على الحب بقدر ما تَدُل على الهوس والجنون، لكنها لم تواجهها بهذا الشعور حتى لا تظُنه استخفافًا بمشاعرها، وقررت أن تخوض معها دور الأم الصديقة التي غفلت عن أدائه في سنوات صباها.

- سيعود ليُحدثك يا عالية.. لكن يجب ألا تردّي عليه نهائيًا.

- أنا لا يعنيني الآن أن يُحدثني أو أرد عليه، ما يعنيني ألا يكون قد ارتبط بأخرى.. حتى لا أشعر أن ما كان بيننا كان وهمًا وهُراءً.. لم يكن حقيقيًا.

- اسمعيني يا عالية، أنا أدرى منكِ بالرجال.. هو سيعود حتى لو كان ما بينكما غير حقيقي.. فهو لا يُريد أن يخسر أحدًا.. ولا أعتقد أنه ارتبط

بفتاة كانت ضمن دائرته من البداية، لكن عندما يُحدّثك لا تجاوبيه يا ابنتي.

- فعلتها.. لكني أخشى أني لن أستطيع أن أفعلها مرة أخرى.

- يجب أن يعرف أن الأمور ليست بهذه السهولة.. فأنتِ لستِ رهن إشارته حتى يترك ويعود.. لا تُكرري أخطاءك مع محمود.. فالرجال عندما يُدركون أن المرأة مضمونة لا يكترثون بمشاعرها.. وعندما يجدون منها التسامح الكبير.. يُكررون أخطاءهم ويتمادون فيها.

ردّت عالية بِسُخرية: الآن لا تُريدينني أن أكون متسامحة.. وأنتِ من علمتيني ألا أُخاصم أحدًا وأن أبدأ بالمصالحة وأتغاضى دائمًا.

- كنتُ أُعلمك أن تتسامحي معنا أنا وأخاكِ لأني كنت أخاصم أباكِ ولا أسامحه بسهولة، مما جعلنا غُرباء وصنع في حياتنا شرخًا كبيرًا.. فأردتك أن تكوني غيري حتى لا تُصبح حياتك مع محمود جحيمًا ويحدث نفس الشرخ في علاقتكما.

- الجحيم كان في تحمُّلي ما لا أطيق..

- لذلك طلبت منك ألا تعودي لرجل آخر يُكلفك ما لا تطيقين.. لا تكرري خطأك يا ابنتي.

- لكن حسن ليس محمودًا!

- وكلهم رجال.. لا يتجرأون أن يُغضِبوا إلا المرأة الفياضة.. لا تكوني فيّاضه طول الوقت.. أحيانًا نحتاج لسد حتى يُجنبنا الفيضان الذي يجور على كل شيء.

أصبحت تتحدث عنه كل يوم مع أمها، أخيرًا حررته من أسر نفسها التي ضاقت بالاحتفاظ به وقد أصبح أكبر من أن يملأ فراغات الروح، نما حتى أصبح قادرًا على أن يصبغ حياتها كلها دون أن يترك فراغات، كان يُمزقها صراع بين كرامتها التي تؤنبها على مجرد التفكير فيه، وعِنادها الذي يُخبرها أن لا حياة لها بدونه وأن لا كرامة في الحب، وقد زاد من عِندها حواراتها مع أمها ومحاولاتها أن تُقنعها بدون مباشرة أنه لا يصلح لها، كيف لا يصلح لها وحبها له هو ما جعل منها امرأة كاملة، لكنه أيضًا أصبح مِعولاً يهدم كل ما فيها، حتى إنها أهملت عملها وابنها وكل حياتها وقضت أيامها تُفكّر فيه، هل كان يُحبها؟ هل كان حقيقيًا ما بينهما؟ هل نسيها؟ هل أحب أخرى؟ هل هو سعيد مع الأخرى؟ هل يقول لها نفس الكلام؟ هل يُقبّلها بنفس الشبق؟ هل تقتل نفسها لترتاح؟

رسالة كتبتها عالية في غياب حسن ولم تُرسِلها..

هل جرّبت يومًا أن تنام على غياب مُذهِل وتصحو على شوق مؤلم؟

هل جرّبت يومًا أن تبحث كل دقيقة عن إشارة عِشق.. في كل وسائل تواصلك بالحياة؟

هل جرّبت أن تفتح رسائلك وحِساباتك بأمل يتحول في لحظة لأقصى درجات اليأس؟

هل جرّبت أن ينخلع قلبك لهفة مع كل رنّة هاتف؟

هل جرّبت أن تبحث بين رِمال الواقع الكثيفة عن لآلئ شفافة تُسافِر بِك لدُنياه؟

هل جرّبت أن تجوب صحاري الأمل ويُداعِبك السراب فتركُض حتى تُدمي قدميك من أجل شربة ماء من عينيه؟

هل جرّبت أن تكون ملِكًا مُتوّجًا وتترك مملكتك لتتسكع في الطُرُقات الباردة بحثًا عن سيّد قلبك؟

هل جرّبت أن تبكي مثلي على أتفه الأشياء حتى تجِفّ كل منابِعك؟

هل جرّبت أن تركل غطاءك وتضرِب سريرك غضبًا لأنه خالٍ من أنفاسه؟

هل جرّبت أن تكون قِشرة من السعادة.. وداخِلك هش مُتهشم من ضرباته؟

هل جرّبت أن تُسامح لدرجة أن تنسى غدره وقسوته وطعناته كأنها لم تكُن؟

هل جرّبت أن تقِف على حافة الموت وتفتح قميصك وصدرك له بمنتهى الرضا؟

هل جرّبت يومًا أن تنتظر.. وتنتظر وتنتظر؟

ربما يشعُر هذا الأحمق كم تُعاني؟

ربما يفهم أن كل لا: لا تعني إلا نعم.. وأن كل بُعد لا يعني إلا اقترب..

ربما يلفحه عِشقك فيحترِق بما أصابك..

ربما يمنحك إياه الوجود ويحتضِر عِند عينيه الوجع..

هل جرّبت الوجع؟

*****

كان يقف في الشرفة الصغيرة بمنزله يُدخّن السجائر وينظر للاشيء، هكذا تعوّد أن يقطع الأوقات التي يقضيها في البيت وحيدًا، يُمضي نهاره نومًا وليله سهرًا والباقي قراءة ومطالعة سريعة لمواقع الإنترنت، شبّ على القراءة فأصبحت الكُتُب أعزّ الأصدقاء رغم زخم البشر حوله، لا يشعر بالسلام إلا عندما يكون بصُحبة كتاب، والكتب أيضًا لا تُفارقه، معه على السرير، في المطبخ والحمام، ومعه أيضًا خارج البيت أينما ذهب، دائمًا هو مُغترِب، جاء من مدينة (البحيرة) واستقر في القاهرة للدراسة وعندما تخرّج كان قد اعتاد زخم الحياة بالقاهرة فلم يعد إلى بلدته إلا في زيارات بعيدة، كانت أيامه منذ التخرج هذرًا وصخبًا مع أصدقائه، مزاجه كان وثنيًا فجرّب كل شيء، من سهر وتدخين للحشيش ولعب للبوكر وشرب للخمور، كما قضى كثيرًا من الليالي يرتاد الحانات ويلهو مع المحترِفات، لم يُخرِجه من عبثه إلا قصة حب غيّرت تاريخه، أصبح بعدها ملاكًا ورجلاً صالحًا حتى إنه توقف عن استخدام الألفاظ النابية البذيئة، وتوقف عن السهر مع أصدقائه وسفك أيامه قربانًا للصخب، لكن سرعان ما ضاقت روحه بزنزانة الحب ولم يحتمل أن يكون بكل قدراته التي يؤمن بها رهن امرأة واحدة تُحاسبه على أنفاسه في البُعد عنها،

وتُرغِمه على الإخلاص والالتزام وهو المخلوق من الجموح، فكيف لها أن تحبِسه ولو في جنة عشقها؟ فراح يعيش حياته دون قيودها ولم يحترِم وعوده لها، شعرت هي كم هو أناني وكم فرّط فيما كان بينهما وغدر بها، فرحلت عنه بألم وجرح كبير وهي تَسُب وتلعن في نذالته وحقارته، ظن أنه ارتاح وأصبح حُرًا، ثم عاد ليتألم كالطفل الذي يكسر دُميته ثم يبكي عليها، ومع ذلك لم يعُد، لا عاد لها ولا عاد كما كان.

بعدما ألقى بنفسه في براثن الزواج من امرأة هولاندية تعرّف بها في إحدى الندوات السياسية، جذبه اختلافها واستقلاليتها، والحُريّة الكاملة التي منحته إياها، وكان يُقنع نفسه بأن هذه الزيجة ستُثبت أنه مازال له قلب ولديه رغبة في الاستقرار، لكنها في الحقيقة كانت عقابًا أراد أن يُعاقب به نفسه على غدره بحبيبته، وعلى كل قصص الحب الفاشلة التي ألقى فيها على الفتيات الوعود العظيمة دون أن يُنفِّذ أيًا منها، وكان يُعزّي نفسه بأن هُنّ من اقترين ورغبن في قصة ووعد، وهو كان يبحث عن السعادة بين رغباتهن فيه، فهو دائمًا مُحاط بهنّ، ليس فقط لأن ملامحه وسيمة وقوية؛ ولكن لأن هناك شيئًا في روحه المرِحة التي تبدو أحيانًا كروح درويش هائم في ملكوته، وأحيانًا كروح ثائر مُثقف، وأحيانًا أخرى كروح صعلوك، هذا الشيء كان يجذبك إليه ويكشف عن قلبه الطيب وجُرأته المُحببة.

أقنع نفسه بالحب وتزوج من فتاته، كانت جميلة وجريئة، لكنها كانت تُقدّس العمل، وهذه كانت مشكلته الرئيسية معها، بدأت المشاكل بعد

شهور قليلة من الزواج، عندما وجدته يستمتع بحياته وبها دون أن يبحث عن عمل، أو حتى يُفكّر أن يشغل وقته في غير القراءة وحضور الندوات والتسكُّع، وكان يعتمد على إيراد من أرض ورثها بقريته، لم يتوقع وهو الذي عشق دراسة القانون أن يكره العمل في مجاله إلى هذه الدرجة، فهو كان يظن أنه سيعمل وفق ما درس، لكنه وجد أن العمل هو سلسلة من الحيل والتحايل وعدم المباشرة، عمِل تحت التمرين بعض الوقت حتى أصبح يختنق من مجرد فكرة الالتزام اليومي وارتداء الحُلّة الرسمية والتحدّث بشكل رسمي والكتابة بطريقة رسمية طول الوقت، وفجأة بدون مقدمات وهو في المكتب نهض وعلى وجهه ابتسامة واسعة، وقال لزملائه إنه على موعد مع السعادة في المقهى القريب، وغادر وفي يده كتاب جديد ولم يُعد بعدها للمكتب أبدًا.

كثُرت الخلافات بعد ولادة ابنته ولم تصبر زوجته على فراغه وتسكّعه، كانت تؤنبه وتزجره ليل نهار، وعندما قرر أن يُهملها حتى تتغير ردت على إهماله ببرود أكبر، وأصبحت حياته معها مستحيلة، حتى إنه لجأ لأصدقاء الشباب الصاخب وعاد لسهراته الحمراء مرة أخرى، وعندما انكشف أمره لزوجته كانت هذه هي القشّة التي قصمت ظهر علاقتهما، سافرت مع الصغيرة وطلبت منه الطلاق، أصابه العِند وملأته العنجهية ولم يُطلقها إلا بعد سفرها بِعام، أصبحا بعدها صديقين تزوره مرة كل عام من أجل الصغيرة، لم يسأل بعدها عن طفلته إلا في المناسبات، وقد

أدرك أن حياتها مع والدتها التي تُقدّس الالتزام والعمل ستكون أفضل لمستقبلها من حياتها مع رجل لا يملك إلا أهواءه ويعيش بلا خِطط مثله.

حدث بعدها الحدث الذي غير مجرى أيامه وحياته، عندما انتفض الوطن ونزل الشباب والأهالي ليثوروا أخيرًا على فساد وظلم السنوات الطويلة، وكان قبل ثورة يناير له نشاطات سياسية قليلة واهتمام سياسي كبير وحزن وألم على وطنه يدفنه في قلبه ويتناوله مع بعض الأصدقاء المُقرّبين، الذين يُغيّر كل فترة درجة قُربهم حسب مزاجه الوثني وهواه المُتقلّب، أخرجت الأيام الثمانية عشرة أجمل ما فيه وتغيّر من متمرد عابث لثوري حالم، ألهمته تلك الأيام ونضحت بالنقاء فيه الذي لم يكن يتخيل أن له وجودًا، كان يسهر ليله يحرس المتحف ويُشارك في السمر والخُطب، وبالنهار كان يحمل على عاتقه تعريف رواد الميدان بأهداف التظاهر قبل أن يُسمّى ثورة، وتوضيح التضليل وتفنيد الاتهامات والشائعات التي كان يبثها الإعلام العاهر، احترف الخطابة بداية من هذه الأيام لأسلوبه الجذاب وإلمامه بالتاريخ وبثقافات مُتعددة، ولعلمه الغزير في شتّى المجالات والتي كان يصبها جميعًا في صالح السياسة، فأصبح المرجِع للعديد من مرتادي الميدان، كما كان يُدافع ويُهاجم في المعارك الصغيرة ومعركة الجمل التي أُصيب فيها بجرح قطعي في الرأس وجرح آخر ترك ندبة في صدره، لم يمنعه الجرحان من الاستمرار في المقاومة والإصرار على رحيل رأس النظام الفاسد الغبي، كان يشعر بأن الثورة أصبحت دينه وأنه يدعو لها ما استطاع ويُحاول أن يجعل غيره

يعتنق نفس الدين ويؤمن به، وكانت المرة الأولى التي يُحمّل نفسه فيها المسؤولية، مسؤولية وطنه وحماية دينه الجديد.

بعدها قطع عاداته السيئة ولم يقطع أصدقاءه، أصبحت له شعبية كبيرة زادها عدم انتمائه لأي تيّار سياسي واستمراره في الشرح والتحليل والتفنيد للبُسطاء ولجديدي العهد في السياسة، كما زادت أعداد المعجبات به خاصة ذلك النوع الثوري من الفتيات اللاتي لا يُمانعن من قضاء حياتهن كلها على الأرصفة حتى تُدافعن عن آرائهن، وكان يتعامل معهن بحياد، لا يريد أن يخسر أحدًا وفي الوقت ذاته لا يهب مشاعره لأحد ولا يسمح لامرأة بأن تتحكم في هواه مرة أخرى، إلى أن لمح نورها في ذلك اليوم وهي تستمع إليه وتمنّى أن تُناقشه أو تسأله كمعظم الوافدات الجُدد على السياسة والميادين، حتى يسمع صوتها ويتمعّن في وجهها الهادئ البريء، لكنها فاجأته بعكس البراءة عندما نقدته نقدًا لاذعًا بين أصدقائه ومُريديه، وبالرغم من أنه أخذ بثأره منها إلا أن رفيف جمالها ظلّ يراوده طوال الليل، صغيرة القد، أرستقراطية الملامح، كل شيء فيها كان كأنه يتنهّد برقّة، وهو الذي اعتاد الفتيات القاسيات القويّات، مُتحمِلات المسؤولية، لم يُصادف يومًا جمالاً له صوت كرفيف أجنحة الملائكة، يُثير خياله ويطير به لعالم بعيد لا يمتّ بصِلة لعالمه.

ولم يسكت، ولم يتجاهل الأمر وينغمس في حياته كعادته، لكنه عمد إلى معرِفة هويتها ووجهها في الميدان، ولم يصل لشيء، حتى كانت أقداره أن يُصاب أثناء التظاهر عند شارع محمد محمود ويدخل المستشفى الميداني

بالكنيسة ليجدها تمامًا كما تخيّلها، ملاك بوجه مُضيء وعينين واسعتين وشفتين مكتنزتين كأنهما على ميعاد مع قُبله لم تأتِ بعد، راقبها بحاسته الخفيّة ورصد توترها وترددها ما بين الظهور والاختباء، كانت صفا الطبيبة الصغيرة إحدى صديقاته من أيام الثورة وجعلها العين التي ترقب له عالية، وهكذا أتى في اليوم التالي ليُقابلها ويستكشف علاقة الملائكة بالأرض، ويتحقق من كونها إنسية من الجِن أم جنيّة من الإنس، لا يعرف متى أحبّها، لكنه كان مُنجذبًا لها من أول لقاء، كأنها سرقت جزءًا من روحه فبات ملعونًا بِمطاردتها والتقرّب إليها، وهو الذي تنتفي عنده صفة المطاردة، ويغلب عليه طابع الاستغناء وليذهب كل من يُثير مشاعره السلبي منها والإيجابي إلى الجحيم، كانت تجذبه هذه الدهشة في عينيها كلما سمِعت حديثه، وهذا الانبهار عندما يُلقي كلمة أو خُطبة، صوت الهس الذي يصدر من أنفها عِندما يقول شيئًا يُسعِدها، وهذا الاحمرار الذي يكسو وجهها عندما يتلفّظ بكلمة أو تلميح خارج، كما لمس بِخبرة رجل شارد عن السرب هذا الاختلال في شخصيتها ما بين ميول للتحفّظ والسير على قضبان المنطق، وميول أخرى للتحليق وكسر كل القيود، ورأى أجنحتها التي لم ترها هي، وهذه الدعوة في عينيها التي كانت تُطالبه بألا يجرحها، كأنها لا تحمل المزيد من المساحات في قلبها للألم.

لم يُفاجئه كونها مُتزوّجة، فهو لم يُفكّر في خطبتها بل ولم يُفكر في المدى الذي يُريد أن يصل به في علاقتهما، فقط أراد أن يكون قريبًا وأن تظل هي في حياته، شعر بتمزُّقها ولكنه لم يُعاني مثلها من التردُد والانقسام، كان يسير في طريقه إليها فحسب، ما كان يؤرّقه أن تسقط هي منه في

منتصف الطريق، لن يُحزنه حينها أنها لم تعد في حياته بقدر ما سيحزنه أنه تسبب لها في أذى، وعندما غابت عنه مُدّة أحس بأن حياته ينقصها الكثير وكل من حوله لا يعوضونه عن تواجدها الضعيف في حياته، ظل يمُر معها بمراحل من الجذب والشدّ والقُرب والبُعد، إلى أن عادت باستسلام لقُربه، كانت مختلفة، لم تعد هي التي عرفها، أدرك أن حياتها ارتبكت، وعندما أخبرته عن سفر زوجها وانفصالهما النفسي كان يعلم أنها تكذب وأنه طلاق، جزء منها كان مُغلقًا ولم يشأ هو أن يفتحه غصبًا، تركها حتى تفتحه وتُطلعه على ما به بنفسها، لكن الحُريّة التي كانت تُعامله بها وخروجها الكامل عن الشرنقة أكدا له أنها أصبحت وحيدة، وشعر أنه مسؤول عن هذا التغيير الذي طرأ على حياتها، فاستمر على أن يكون صديقًا لها وليس حبيبًا فحسب، وأن يكون مرفأها الآمن عندما تهيج سفنها وبحرها الواسع عندما تبغي الترحال، فعلّمها القيادة وشجعها على العمل بل ورافقها في سفرها للتدريب بالإسكندرية، كما حرص على أن ينقل لها علمه وثقافته دون انحياز لفكر مُعين، وكانت تستجيب له وتعلّقت به وفاض حبهما مع القُبلة الأولى التي كانت أعذب وأشهى ما في حياته، فبرغم أنه ارتشف شفاهًا كثيرة قبلها بحب وبدون، لكن قُبلتها كانت كالطُهر الذي أتى ليمحو دناسة الماضي.

كان كمُحدث حب، اكتفى بحبه عن الدنيا كلها، وأصبح يقضي يومه في انتظار لقائها أو سماع صوتها، ويسهر لياليه يُفكر بها ويعض وسادته ويركل غطاءه الخالي منها، هي لم تُطالبه بأي شيء مثل الباقيات اللاتي كانت في أعينهن دعوة زواج، ولم تُحمّله مسؤولياتها، كما أنها لم تتأثر به

أو تُقلده مثل الباقيات اللاتي حاولن أن يجدن طريقهن إلى قلبه بالتشبّه به، فكُنّ يُقلّدن ألفاظه وطريقته حتى نبرة صوته ويستخدمن مفرداته، ويُدخّن معه، والأهم أنها الوحيدة التي لم تُحاول أن تُغيّره، أو تثنيه عن التدخين والسباب وكل عاداته السيئة، ولا كانت تُشجعه بطُرق مباشرة ومُكثّفه بدعوة أن قلبها عليه، كانت تُحبه وكفى، لا تُريد منه إلا أن يسقيها الحب بقدر ما تسقيه ويحتوي قلبها بكل تقلباته واختلالها بكل جنونه، وهكذا أصبحت هي ابنة قلبه المدللة، فما تخيل يومًا أن يبعد عنها، حتى بدأ يشعر أن حبه لها وصل لمرحلة لم تصل لها مشاعره من قبل، كان ذلك عندما رآها تتحدث مع شادي بانطلاق وحيوية لم يعهدهما فيها عندما عرفها، ولمس تحررها مع الغرباء بالحديث معهم والمناقشات الطويلة، وكان هذا تغيُّرًا عاديًا يُلائم ما جدّ على حياتها، لكنه كان يضايقه ويُثير أعصابه، أخرجت منه الشرقي فيه بعد أن ظنّ أنه متحرِر النزعة، وما ضايقه أكثر كان غضبه من نفسه لأنه لم يعُد هذا الرجل الذي لا يعبأ بشيء ولا تهمه امرأة ولا يغار مهما حدث، فثقته بنفسه أعلى من فعل الغيرة الأحمق.

كانت غيرته عليها وغضبه من شادي لها رواسب، فقد سمع من أصدقاء كُثر عن كُرهه المُستتر له وحقده وغيرته من انتزاعه لقلوب الناس، وشعر بقلب الرجل أن شادي معجب بعالية بل ويصبو للاقتراب منها بأي شكل، حتى إنه أصبح يحرِص على حضور كل الندوات حتى يتعثّر بها، وحاول أن يكون صديقًا له حتى ينعم بقربها كصديقة مشتركة، لذلك فاض به الكيل عندما وجدهما يضحكان وشعر أنها أصبحت تُحلق معه ومع غيره،

فجنّ جنونه وأخرج ثورته في هجومه على خصومه السياسين على غير عادته، وانتهت الندوة بِمشاجرة وضرب وإهانة لكل الموجودين، لا تعنيه المشاجرات والإهانات، لكن هذه المرة شعر أنه غاضب غضب أحمق أسود وبداخله زوبعة تكاد تفتك بأعصابه. اتصالات عالية ومحاولتها للاقتراب استفزّت رغبته في البُعد أكثر، فقرر أن يُخلِّف وراءه كل هذا العبث ويعود كما كان مستقلاً. همجيًا صعلوكًا بِرداء مَلِك، وملك بزيّ صعلوك. ما كان يشغله هو كيف يُبلغ عالية بقراره، هل يصمت ويتركها لتفهم وحدها، أم يُقابلها ليُنهي صفحة من حياتهما؟ واستقر على أن يُرسل لها رسالة. فلا هي تستحق أن يُهملها كأن شيئًا لم يكن، ولا هو يتحمّل أن ينظر في عينها ويودِّعها للأبد.

ومضى في حياته كما كان، يضحك ويسهر ويتعرف على أُناس جُدد ويقرأ كل ما يقع تحت يده بشغف، ويخُط خواطره الفلسفية والسياسية باجتهاد، لولا هذه الغُصّة في قلبه، كان يذكرها دائمًا رغمًا عنه، يتحدث فيبحث عن الانبهار في عينها، يمكث في البيت فيفتقد صوتها العاشق ويُمسك نفسه عن مُهاتفتها، يخرج فيذكر خطواتها السريعة جواره وهي تسبقه وتضحك له كطفلة، ينام فتُطارده عيناها الباكيتان وتؤنبانه كثيرًا بنظرتهما، شفتاها المكتنزتان كانتا تؤلمانه، يتخيل أنه يلثمهما ثم يقضمهما وينتزعهما من على وجهها، ليحتفظ بهما تحت وسادته ويروي ظمأه أنّى شاء، طيفها الرقيق كان يزوره ويُعاتبه بِرقّة، ولأول مرة بدأ يتمزق ويشعر بحنين غريب لها يُقابله صمود غريب يأبى العودة، وأغرق نفسه في القراءة وهو يهرب من حقيقة أنه ضحّى بأجمل ما في حياته من

أجل أن يحتفظ بحياة باردة لم تعرف معنى الدفء إلا معها، ولكنه لم يكن ممن يُعذّبون أنفسهم باسم الحب، خاصة أنه ذاق مرارة العذاب في فُراق حبيبته الأولى، واستكفى منه، فأبقى على عالية في حياته كمصدر الخيال والإلهام، وأقنع نفسه حتى يُهدئ من حنينه أنه سيستدرجها لندوة ليراها ويطمئن عليها ويعتذر لها، لكن ذلك بعد أن تنقشع عاصفة الفُراق، واستجاب لرغبة نهى في أن يُفكّر في الانضمام للحزب الجديد، لا سيما أن انتخابات الرئاسة على الأبواب وهو يُريد أن يُحدد اتجاهاته، وإن كان الانتماء الوحيد الذي أبقى عليه وحافظ عليه في حياته هو انتماؤه لثورة الخامس والعشرين من يناير، وسمح لفتيات جُدد أن يدخُلن حياته بشرط أن يقفن على أعتاب مشاعره، فتلك أصبحت منطقة مُحرّمة، من يدخلها هالك لا محالة، فكل من كانت تخطو بها بثقة امرأة في قلب رجل يُجامل وأحيانًا يُغازل الجميع، كانت تُطرد خارج مجرّته بأكملها.

لم تطِل وقفته بالشُرفة، وكان يُفكّر بعالية كما اعتاد كلما اختلى بنفسه، فذهب ليلتقط هاتفه المحمول الذي أنهكه الرنّ، كان الرقم غريبًا، رد فكان الصوت ليس بالغريب أبدًا.. كان الصوت المتوتر العذب.. صوت عالية.

*****

انتهت من يوم عمل آخر، لم تعمل فيه بعد أن فقدت اهتمامها بكل شيء، كانت تبدو للجميع شاحبة ومريضة، ونصحوها بأخذ إجازة، لم

يعلموا أنها كانت بصدد ترك العمل، استقلّت سيارتها ولم تُحكِم غلق النوافذ ولا ارتدت نظارتها ولا القفاز الذي يقيها من الشمس، أدارت الراديو الذي تآمر على أعصابها وأذاع أغنية لأم كلثوم، راحت تسمعها بشجن حتى قالت الست (يا حياتي أنا كلي حيرة ونار وشوق إليك.. نفسي أهرب من عذابي نفسي أرتاح بين إيديك)، فنزلت الدموع منها كالشلالات حتى ما عادت ترى من الطريق إلا صورته، صورة حسن، (والخِصام والغدر وليالي الأسيّة.. كل دول مايهونوش حبك عليّا) كيف مازالت تُحبّه بعد أن ركلها من طريقه وعاش حياته كأن شيئًا لم يتغير، كأنها كانت سحابة مرّت بسمائه ولم تترك أثرًا؟ مازال يحضر الندوات ويُلقي الكلمات بل ويريد أن ينضم لحزب نهى، كيف تخلى عنها وعن مبدئه في عدم الانضمام لحزب وعدم الإذعان لأي شيء يُسيطير عليه، كيف نسى؟ كانت تتعذب بهذه النوبات التي تُداهمها كل حين كوخزات الإبر، فتجعل قلبها أرق من ورقة شجر بالية على الأرض، لا تكاد أغنية أو ذِكرى تلمسها حتى تتفتت وتضيع في الهواء، لماذا لم تتغير مثله وتعيش حياتها كأنه طيف مرّ وانتهى، ليتها تفقد الذاكرة، ليتها تعود بالزمن عامًا للوراء عندما كانت ربة منزل راضية بحياتها ولا يشغلها إلا متابعة المسلسلات ومحاولة إرضاء رجل لا يرضى، لكن كل ما مضى لا يعني شيئًا بدونه، فهي لم تولد إلا من عينيه، حبه هو مولدها الحقيقي، ومشاعرها تأبى أن تتغير، تزيد وتقل، تخمل وتهيج، لكنها لا تتغير (واللي جوه القلب كان في القلب جوه.. روحنا واتغيرنا إحنا إلا هوه.. هو نفس الحب وأكتر.. هو نفس الشوق وأكتر)..

صفّت سيارتها وذهبت لمحل قريب، اشترت خط هاتف محمول جديد وغيّرت شريحة هاتفها، جلست في السيارة وأحكمت غلق النوافذ ثم اتصلت به وقلبها من فرط الاضطراب يكاد يشُق صدرها ويخرج ليجري في الشوارع، عندما سمعت صوته الكسول شعرت أن حنينها فاض وغطّى العالم من حولها، ترددت قليلاً وهي تُلقي عليه السلام، رد عليها بنفس عاطفته قبل الفُراق، فشعرت كأنها كانت في حلم مزعج الأسابيع الستة الماضية والآن فقط هي يقِظة، الآن فقط تتنفس، لم تُعاتبه، وأسعده هذا جدًا فكم كان يُريد أن يتصل بها ويوقفه ضيقه من العِتاب وموقفه وهو جالس كتلميذ مُذنِب أمام مُعلّمته، لكنها خالفت ظنونه ولم تُعاتبه سوى بنبرتها الحزينة القلقه التي أصابت موضع الضعف فيه، وشعر أنه يذوب بين حنايا صوتها العاشق، ثم سألته فجأة كأنها تذكرت الحجّة التي اخترعتها لتُحدّثه:

- كنت أود أن أسألك عمن تنوي انتخابه غدًا في انتخابات الرئاسة؟

- تقصدين أن أختار ما بين مُرشح الفُلول ومُرشح الإخوان! ما رأيك أنتِ؟

- لا أدري.. أرى أن الإخوان كانوا أحد فصائل الثورة.. أخنق صوتي قبل أن أعطيه للنظام القديم..

- والإخوان أيضًا كذبوا من قبل وليس لهم عهد ولا لديهم رؤية.. دعكِ من مشروعهم الوهمي، فهذه هي عادتهم، اختلاق الأمور المُهمة الكبيرة.

- أراك تميل للنظام القديم.. (قالتها بنبرة ذات معنى)

- أنتِ تعرفين يا عالية أني لا أنتمي إلا لثورتنا المجيدة.. وأنا رجل لا يُفكّر في الماضي، ما فات قد مات.

- كل ما فات.. مات؟!

- ليس كله.. الصدق لا يموت.

سألته بحذر: هل كان حقيقيًا؟ ما فات..

فهِم قصدها فردّ بصوت غاضِب: وحياة أمي كان حقيقيًا.

ضحِكت وغردت عصافير فَرِحة في صدرها، لأول مرة منذ ستة أسابيع تضحك، ثم سألته مرة أخرى:

- ما علينا.. لا تهرب من السؤال، من ستختار؟

- مُصِرّة أن تعرفي.

- أكيد.

- حسنًا، سأذهب للجنة وأكتب في الورقة.. أين الثوّار يا أولاد القحاب.

بصوت مصعوق ضاحك: عندما تُحدث فتاة مثلي حافظ على لسانك..

ردّ بعدم اكتراث: أنتِ من كنتِ مُصِرّة على أن أجاوبك.

وضحكا، ثم سادت لحظات من الصمت.. كان الكلام داخلهما أكبر من شبكات المحمول وسماعات الهواتف، سمع صوت نحيبها مُختلطًا بالصمت، وانحشرت الكلمات في حلقه، لم تخرج سوى كلمة واحدة همس لها بها: "أنا آسف"، وكانت قد اتخذت قرارًا مسبقًا منذ عرفته أنها ستُسامحه دائمًا، فردَت بصوت مذبوح:

- لو فعلتها مرة أخرى.. سأموت.

- لا أحد يموت من الحب.

- أنا ممن يموتون من الحب يا حسن!

*****

ما عاد الحنين يُراوده، حادثتان بعدهما لم تخطُر بباله فكرة العودة ولو من بعيد، أولاهما تولي الإخوان المسلمين مقاليد الحكم، وثانيهما ريبيكا، هذه الفتاة الإنجليزية ممشوقة القد التي تُشع ببريق الذكاء والحيوية، كانت نادلة بالمطعم الذي يرتاده يوميًا وتدرس الكتابة المسرحية، لم يكُن مُنتبهًا إليها حتى نادت عليه يومًا وهو يُغادر المطعم، كانت في غير ثوب العمل فبدت أكثر حيوية، رافقته مشيًا حتى منزله وهي تُحدثه عن اهتمامها بالشرق ورغبتها في التعرُّف على ثقافته التي حرِصت على القراءة عنها منذ صباها، وأصبحت تحُلم بكتابة نص مسرحي عن الشرق وعن مصر تحديدًا، وكانت تظن أن مصر بعد الفراعنة لم تغُد سوى أطلالاً من الماضي وبعض الإرهابين والشغوفين بالسياسة، حتى ثورة يناير لم تعرف عنها الكثير، كان مستمتعًا بحديثها وشعر بغبطة من تعلّق عينيها به وهو يُصحح لها معلوماتها كخبير، وشعرها الأرجواني يتطاير على وجهها وكتفيها العاريتين كأنها أميرة خرجت من الأساطير، تكررت بعدها التمشية وامتدت لتشمل الضاحية كلها، لم يكن هو مُنجذبًا لها انجذاب الحب وقد حصّن نفسه ضده واعتبره عدوه الأول، لكنه كان مُرتاحًا

ونشيطًا، عاد ليهتم بمظهره وكلامه والتفاصيل الصغيرة، دبّت فيه الحياة واستعاد مرحه القديم قبل أن يتزوّج عالية.

كانت حياته قبل أن تظهر ريبيكا روتينًا مُملاً من جراء النظام والدقة التي لا يخترقهما شيء، عمل، طعام، فراغ، نوم، حتى خروجه مع المصري الوحيد الطبيب أيمن أصبح نادرًا لأن الكسل ملأه وبات لا يريد مفارقة المنزل إلا بصعوبة، فقط ليُجدد الهواء الذي يسكن صدره، حتى أتت ريبيكا لتحل مُشكِلته مع الزمان والمكان، أضافت الشغف لحياته ولم تكن عبئًا عليه، فلم تكن تُطالبه بأن يتصل بها ولا أحاطته بالجُمل المأثورة (خلّي بالك من نفسك)، (طمّني عليك)، (اتصل بي عِندما تصِل).. كانت بسيطة وعفوية تأخذ وتُعطي كأنها الطبيعة، ولم تُعذبه بصدام وخصام وهجر ولا كانت تتعمد إثارته وإغراءه، كانت عالمًا غريبًا عنه وجديدًا عليه، يستقي منها الثقافة الغربية بقدر ما كانت تستقي منه عبق الشرق، فشعر بمعرفتها أنه أصبح آخر يجمع ميزات الشرق والغرب، وهي ساحرته الصغيرة التي تضع تعاويذها على أيامه فتمنحه البهجة والإثارة، بعض الغرابة في تصرفاتها هي ما كانت تُحيّره، لكنه كان يُعزّي هذا إلى اختلاف الثقافات.

إحدى تصرفاتها الغريبة كانت عندما انتهى من طعامه وذهب للحمام ليغسل يديه، فإذا بها تلحق به وتدخل إحدى الوحدات الخاصة بالرجال لتقضي حاجتها ويسمع هو ماءها، ثم تنتهي وتقف جواره تغسل يديها ببساطة، لم يمنع نفسه من أن يشعر بالامتعاض والتقزز منها واخترع أي

سبب حتى لا يرافقها في هذا اليوم، لكن الفراغ الذي أحاط به عندما عاد مُبكرًا لمنزله الصغير البارد جعله يشتاق لمرافقتها حتى لو لم تغسل يديها بعد الخروج من الحمّام!

تبادلا حديثًا عن المسرح الذي كانت شغوفة به، كان يُدرك أنه من أصعب الفنون، ليس فقط لأن الكاتب يجب أن يُخضِع الممثلين والمسرح والجمهور لأفكاره؛ لكن لأنه يحتاج إلى دراسة الفلسفة وسِعة التجربة والإلمام بمشاكل الحياة والإنسان لأنه أحد الفنون التي تتعمّق لتصل لجذور المشاكل الإنسانية، ليس بالضرورة أن تحلّ المشاكل لكن يكفي أن تُسلّط الضوء عليها وتجعلها حيّة أمام البشر، وكانت ريبيكا تُحاول قدر الإمكان توسعة تجربتها في الحياة، لذلك تقرأ عن الفلسفة ومُختلف الثقافات، وذهبت للعمل في سن مُبكّرة وسافرت وخاضت الكثير من المغامرات إيمانًا منها بأن التجرُبة هي خير مُعلِم.

يجوبان كل يوم الشوارع والحدائق العامة، وكانت كل مرة تُقنعه أن يأتي معها للمسرح، كانت مُغرمة بروح المسرح ومؤثراته وخشبته والممثلين والجمهور وكل شيء، حدثته عن الطاقة الإبداعية في المسرح التي تظهر في شكل أفعال مُثيرة مُركّزة توحي بالمغزى الكبير المليء بالمعاني، وعن واقعية المسرح الحديث المُتمثلة في المُحاكاة وخلط الواقع بالخيال وليس خلق أحداث من العدم، على العكس من مسرح شيكسبير والمسارح اليونانية التي تتسم بالتجريد والرمز، كان يعرف أن .أغلب الإنجليز مُهتمين بالمسرح، إن لم يكن بدراسته والمشاركة فيه فعلى الأقل

بالحضور والمُشاهدة، وهو رغم الشهور الطويلة التي قضاها في إنجلترا والإعلانات اليومية التي تصل بيته عن العروض الجديدة للمسارح القريبة منه، إلا أنه لم يُفكّر أبدًا أن يزور مسرحًا، ولم يكن يومًا مُهتمًا بالفنون، حتى إن عالية كانت كثيرًا ما تُلِحّ عليه أن يحضرا أيًا من نشاطات ساقية الصاوي أو حتى يذهبان للمسارح الحكومية أو الخاصة، وكان دائمًا يرفض ويعتبر هذه الدعوات شيئًا من التفاهة وروقان عالية الطفلة المُدللة الفارغة، أمّا الآن فتُسعده هذه الأحاديث مع ربيكا الساحرة وإن كان يتمنى أن تنتهي منها ويتحدثا في أمور أخرى.

زار معها المسرح على سبيل التجربة والتجديد الذي لم يكن من طبعه، لكنه مُحتاج إليه بين كل هذا الفراغ والسأم، المسرحية كانت "بيت الدُمية" للكاتب النيرويجي "هينريك إيبسن"، أعجبته أجواء ما قبل المسرح وهما جالسان متجاوران في إضاءة خافتة تلفهما موسيقى كلاسيكية ناعمة، كل البناء في إنجلترا وحتى في مُقاطعته الريفية كان قديمًا وأثريًا وبداخِله أحدث أساليب الراحة، فجمع بين عراقة الماضي وحضارة المستقبل، خاصة المسارح كانت تنتمي لعصور كلاسيكية قديمة ولم تمتد الأيادي لتشوّه جمالها الأرستقراطي، بقت كما هي كجزء من الماضي العريق المُزدهِر، وكان شعوره بالمكان أقرب لشعوره بمتحف أنيق استأثر على كل إعجابه، أكثر من هذه المرأة التي تُرافِقه.

كانت هي ترتدي ثوبًا رخيصًا لم يرقه، وكانت صامتة في جلال كأنها في حضرة شيء رهيب، وظلّت على صمتها طوال العرض، تتعبّد لا تُشاهد،

حتى إنّه شعر بالإحباط لعدم مشاركتها له هذا الحدث الجديد، في البداية كان متململاً وفكّر جديًا أن ينام حتى ينتهي العرض، لكن سُرعان ما خطفته الأحداث وهذه الممثلة الصغيرة التي تنساب على أرض المسرح وتزرع أرضه جيئة وذهابًا في ثقة وصوتها المُنغّم يسحر المُشاهدين، كانت تقوم بدور "نورا" البطلة الساذجة العادية التي لا تعمل شيئًا في حياتها سوى مراعاة زوجها وأبنائها والتقافز بينهما مُهللة عند عودته، نورا التي عاملها زوجها كأنها دُميته الأثيرة سماها "عصفورتي الجميلة"، ودللها كثيرًا وهي محبوسة في قفصه، حافظ عليها في بيته الزجاجي حتى لا تخرج للعالم وتنجرح، لمس في أدائها الشفيف روح عالية، وشعر أنه هو "هيلمر" البطل الذي عاش مع زوجته في برود وعُزلة حتى يُجنبها جحيم العالم الخارجي، وعند أول مشكلة حقيقية بينهما لم يقبل هيلمر بأن تتصرف زوجته من نفسها حتى وإن كانت نواياها سليمة وتصرفاتها نابعة من فرط حبها له، وكانت تظن أنها ستكسب حظوتها عنده عندما زوّرت واقترضت حتى تُساعده في أزمته الصحّية والمالية، لكنه بدلاً من أن يقف بجانبها ثار عليها واستمر يُعنفّها ويؤنبها لأنها خرجت عن المسار الذي رسمه لها.

يا إلهي، كيف اختارت ريبيكا هذه المسرحية بالذات، أم إن القدر هو من اختار؟ وكيف تكون البطلة لها روح عالية وكيف يُشبهه البطل إلى هذا الحد؟ حتى النهاية كانت قريبة من نهايتهما، فالبطل لم يُركز على حبها له وتضحيتها من أجله واهتمامها به، إنما ركّز على خروجها عن قوانينه وعن

بيت الدُمى الذي حبسها فيه حتى لا تخرج للعالم الواسع الذي لا تعرف شيئًا عنه، صدمتها ردة فعله وأخيرًا تمردت وكان قرارها الأخير بهجره للبحث عن ذاتها والتخلّص من دور الدُمية، وكلِمتها الأخيرة كانت "وداعًا"، ثم صفقت الباب بقوّة اهتزت لها خشبة المسرح وقلوب المُشاهدين، قالت له ربيكيا وهما عائدان أن صفق نورا لباب الخروج دلالة لم تُسمع دويّها على المسرح فقط وإنما سُمِعت أصداؤها في جميع أرجاء مسارح العالم، لينتقل هذا الدوي بعدها إلى مُرتكزات اجتماعية كبرى تتعلق بالأفكار التقليدية لأوروبا القرن التاسع عشر، والخاصة بعلاقة المرأة بالرجل، كانت ثورة اجتماعية حقيقة وليست مُجرد مسرحية، سألها إن كانت المرأة الآن بعد كل ما وصلت إليه من تحرُر ونالت من حقوق مازالت بحاجة لمثل هذه الرواية، وأجابته أن يسأل نفسه هذا السؤال إن كانت المرأة في الشرق مازالت تُعاني من هذا الفِكر وتلك القيود الحريرية التي تجرح أكثر من القيود الحديدية، وزادت أن المسرح لا يتبنى الأفكار القديمة فحسب إنما يطرحها من وجهات نظر عديدة وأن أهم عناصره الإبهار والأداء الساحر الذي يُقدمه المُمثلين، ظل يُفكِّر بالرواية والمسرحية عدة أيام حتى إنه حضرها مرة أخرى وحده ليلمس تجربة اكتشاف الذات التي مرّت بها البطلة وليتأكد من شعوره بالشبه بين أبطال القصة وأبطال الحياة.

كان على موعد مع ربيكا لأول مرة في منزله، وكانت هي من دعت نفسها دون مُبررات أو حجج، لم يعترض أو يتردد فقد أصبح جزء منه غريبًا ينزح

للتجديد من مُفرداته وعاداته، لم يجد مشكلة في زيارة غريبة من امرأة غريبة في بلاد غريبة، قد تمنحه هذه الزيارة بعض الدفء الذي يفتقده منذ أتى من جحيم مصر، دق الباب ليُعلن وصول الساحرة، دخلت وفي يدها رُزمة كتب صغيرة، هي بعض مسرحيات لشكسبير، راتجان وجوته الكاتب الألماني الذي اهتم مثلها بالشرق والإسلام، كانت ككل امرأة عربية أو غربية توَد أن يُشاركها رفيقها أشياءها الحبيبة وأحلامها الصغيرة والكبيرة، تظاهر بسعادته من الهدية لكن في الحقيقة هو لا يهتم بالقراءة أبدًا، إلا الجرائد التي أهملها منذ أتى إنجلترا وقرر أن يرمي الماضي كله خلف ظهره، رحبَ بها وقدم لها مشروبًا استوائيًا من البيناكولادا يُناسب لُطف الجو، تحدثا لأول مرة عن هذا الشبح الذي يُطارد أي رجل وامرأة حين يكونان وحيدين، عن الحب، لم يبدُ أنها أحبّت هذا الحب الكبير الذي تتحدث عنه النساء العاشقات وفي عيونهن بريق ودمعة، هو أيضًا لم يشعر برغبة أن يُحدثها عن عالية، لكنه حكى لها عن فرح وعن بعض القصص القديمة التي مرّت بحياته، ولم يكن ينوي أن يتعمق معها في هذا الأمر فهو يُريدها صديقة فحسب تؤنسه دون أن تطرق أبواب العذاب داخله، فبدى حديث الحب مبتورًا بينهما.

بعد أن تناولا البيتزا التي أحضرها جاهزة من الخارج وشربا الصودا، طلبت منه مشروبًا كُحوليًا، فاستحى أن يخبرها أن دينه يُحرمه واكتفى بأن قال لها إنه لا يستسيغ طعمه، وكانت هذه بداية حيائه معها، كانا يجلسان على أريكة واحدة في غرفة المعيشة المفتوحة على المطبخ،

فاقتربت منه وهي تستكمل حديثها معه كأنها تعتدل في جلستها ليس أكثر، ثم سكت الكلام بينهما، وحاول هو أن يسترجعه لكن الأوان قد فات، فقد تعلّقت عينا كل منهما بالآخر وكأن الوقت قد حان لأن يتوقفا عن الصداقة المزعومة ويتصرفا كناضجين وحدهما في المنزل، طال الصمت الخافق ولم يكُن ينوي أن تتطور علاقتهما لكن يبدو أنها هي من نوت وليس للرجوع من سبيل، اقتربت منه بأنفاس مُنتشية ودون مقدمات قبّلته، انتشى من دفء أنفاسها ومسّ شفتيها المحترفتين كأنهما فتاتان عاريتان، فقبلها بدوره قُبلة عنيفة التهم فيها الفتاتين، أراد أن يقول لها بها أنه حتى وإن كان للغرب سبق البداية لكن الإقدام والقوة من نصيب الشرق، ثم اقتربت أكثر وراحت تفُكّ أزرار قميصه وهي مُستمِرّة في العزف على شفتيه ألحان القُبل، كان مُنتشيًا لكنه لم يفقد عقله، كان بكامل تركيزه، يترقب ولا يُريد أن يُفسد اللحظة بهذه اليقظة الشديدة التي داهمته، قالت كلمات قليلة بصوت متهدج من أنفاسها اللاهثة، قالت إنها كانت تحلُم بأن تفعل هذا مع رجل شرقي، وأنه جذبها من أول لحظة رآته فيها في المطعم، قالت شيئًا لم يُفسّره عن بشرته الخمرية الخشنة، وهو لايزال على حيائه وترقّبه.

نهضت فجأة وخلعت فستانها الخفيف بحركة واحدة، كأنه صُنع مخصوصًا ليُخلع ببساطة، ثم عادت لترقد فوقه وهو مذهول ومُمتقِع، كان لها جسد مشدود نحيف، وصدر رشيق يخطف بياضه الأبصار، شعرها الأحمر تساقط على صدره العاري فشعر أنه يحلُم أو أنه داخل

إحدى مسرحياتها الهزلية وليس في الواقع، لم يستطع إلا أن يُطوّقها بذراعه، لكنه لم يستجب لفورانها فلازال عقله تتجاذبه اليقظة والنشوة، حاول أن يحتوي جنونها فنهض بجزعه وتركها تلثم صدره وعُنقه وقد تصلب جسده تمامًا، أيقظته رائحة جسدها التي تُشبه رائحة العرق المكتوم، فسألها وكأنه يُحدث نفسه بصوت عالٍ (كم مرة فعلتِ هذا؟)، ولم تُجبه، كانت مجذوبة جسده تغزوه كالمهاويس، فعاد ليسألها بصوت أعلى وكأنه يُحاول أن يقب برأسه من موجها العالي (كم مرة خُضتِ علاقة؟) تركت صدره واقتربت بوجهها من وجهه وهي تُجاوبه بأنفاس مُتعبة:

- كم مرة.. لا أستطيع أن أقول، أم تقصد مع كم شخص؟

- حسنًا، مع كم شخص؟!

وكانت تهوى الحكايات التاريخية حتى في أحاديثها العادية، فأجابته وكأنها تقُصّ عليه تاريخها مع الحب:

- أول مرة وأنا في المدرسة كان على سبيل التجربة، ثم مرتان وأنا في الكُلية، ومنذ أتيت هنا منذ ثلاث سنوات، لم أخض سوى علاقتين فقط آخرهما انتهت من ستة أشهر.

- إذن أنا الرقم ستة؟!

- هل يروقك الرقم؟

وضحكت، كانت تظنّها دُعابة، لكنه لم يضحك، كان جادًا، فاجأه العدد وكان يظنّ أن الأفلام الأجنبية تكذب بهذا الصدد، ربيكا لم تكن تشعر بشيء غريب، طالما أن كل علاقة كانت مُستقلّة بذاتها تنتهي لتبدأ أخرى، أما هو كرجل دقيق يُعاني بعض الوسوسة فكانت تؤرّقه فكرة الأمراض التناسُلية التي تنتشر في الغرب بسبب الممارسات الجنسية غير السويّة، وكان يشغله هذا الأمر منذ حضر لإنجلترا، لذلك لم يُفكّر قط أن يخوض علاقة شرعية أو غير شرعية هناك، ولأنه أيضًا مازال في قلبه بعض إيمان يمنعه عن هذه الممارسات، لكن حياءه العجيب كان مازال مُسيطرًا عليه، أمّا ربيكا فلم تلحظ شروده واعتبرته خجلاً شرقيًا، نزعت قميصه وهو مُستغرق في تفكيره وبمجرد أن رآها عارية والزغب الأشقر يكسو جسدها شعر بتقزز كبير، أكبر من هذا التقزز الذي شعر به وهي تقضي حاجتها جواره في حمام الرجال، وأخيرًا استطاع أن يتخلّص من حياته وحاول أن يُبعدها عنه وينهض، لكنها فاجأته بتشبثها به، دفعها فلم تبعد إنما اقتربت أكثر وبدأت في مُداعبته بشكل فجّ ومُثير، لكنه كان قد اتخذ قراره.

نهض بقوة، فالتصقت به بقوة أكبر، كانت كنمرة شرسة مُصِرّة على التهام فريستها، لكن إصرارها لم يزده إلا تصميمًا وعصبية، فوجد نفسه بكل توتر الرجل الذي يتحكم في رغباته وبكل ضيق الرجل الذي يكره أن يخضع لامرأة وبكل حنينه وحزنه وغضبه ينزعها عنه ويُلقي بها على الأرض، نظرت له بغضب وألقت جواره طاولة قريبة من يدها، فهاج وثار

واقترب منها ليبطش بها، تعلقت بعُنقه تُجدد المُحاولة فلطمها على خدّها بكفه ثم بظهر كفّه، سقطت من قوة اللطمة على الأرض ثم نهضت وهي تنتحب وقد أفاقت على حقيقة عُريها، سبّته ببعض الألفاظ المحلّية التي لا يعرفها ثم لملمت نفسها وارتدت ثوبها وقد بدأ وجهها في التورّم وشفتها في النزيف، جلس هو تعِبًا مصعوقًا مما حدث، لا يعرف هل عليه أن يعتذر لها أم يكتفي بصمته، وقبل أن يُقرر ما يفعله أتاه صوتها جهوريًا وهي تُخبره أنها ستتوجه فورًا للمستشفى وتحصل على تقرير ومن ثم تُحرر له محضرًا في قسم الشرطة وآخر في مركز لحقوق المرأة، ليُعاقب على عُنفه معها، نظر لها كالمعتوه فتركته ورحلت وهي تتوعد وتسُبّ.

*

ظل جالسًا في مكانه، عيناه مُنكستان في الأرض وأنفاسه لاتزال تلهث، خامرته كل الخواطر وهو في جلسته، هل ستُنفّذ تهديدها حقًا؟ وما خطورة هذا على عمله ومكوثه في هذه البلدة؟ كان يُفكّر في كل الاحتمالات لكنه كان سعيدًا أنه انتصر ولم يخضع لها، رغم كل الإغراءات، ورغم وحدته التي آنستها واحتياجه لها، لكنه تغلب على ضعفه الإنساني وكسب احترام نفسه وتقديرها، ولأول مرة منذ سافر تنزل دموعه، دموع عزيزة، دموع رجل يحتقر البكاء، تذكّر عالية وهي تحتضنه بيديها الصغيرتين وتتوسد صدره في حنان، تذكّر دموعها على صدره، كانت تقول له الكثير ولم يسمع ولم يُبادلها المودّة ولا الرحمة، كان يظن أن المودّة هي اهتمامه بمتطلباتها وإحضار كل شيء للبيت والرحمة هي عدم معاملتها بقسوة وحِدّة بدون داعٍ، تذكّر رائحة جسدها

الشهيّة، رائحة الحب والطُهر، وتذكّر إعراضه عنها وتأففه من ملامستها له، ونهره لها إن صدمت ساقها ساقه وهو نائم، تذكّرها وهي تودّعه عند باب البيت بحزن وسخريته منها (أنا لست بمسافر!) واستقبالها له بالشوق والقُبل التي يبادلها إياها حينًا ببرود وحينًا آخر يغلق شفتيه ويرفض بلا سبب، كان يرفض شفتيها عندما يكون غاضبًا من أي شيء، ويُلقي في نهر حبها العذب كل قاذورات غضبه، تذكّر ضعفها وهو يضربها ونظرتها الخائفة المصدومة، حتى اعتراضاتها وثورات غضبها الخائبة كانت سريعًا ما تنتهي وسريعًا ما تأتي هي لمصالحته أيضًا، وكان غالبًا لا يقبل بالمصالحة!

لكن لماذا كان يُعاملها بهذا السُخف؟ ولماذا كان دائمًا يشعر أنها مُخطئة؟ هل كان يُحبها؟

لم يسأل نفسه هذا السؤال من قبل، هل كان حقًا يُحبها؟ هو حتى لم يُحاول أن يتأكد من مشاعره طوال سنوات الزواج الثمانية، كان يعيش معها في انتظار أن يمر الوقت فحسب، ولم يُحاول أن يبحث في جذور مشاعره حتى يعرف ماذا يُكِنّ لها، قد لا تكون إنسانة كاملة أو زوجة مثالية، ولم يشعر بالإعجاب تجاه أي من تصرفاتها، الشيء الوحيد الذي كان يُعجبه بها هو حبها له، وعندما شعر أنه في طريقة للزوال، انتفت ميزتها فتركها قبل أن تتركه، لكن كيف تزوجها إذا كان حقًا لا يُحبّها؟ ثم تذكّر..

تذكّر عندما رآها لأول مرة وظل يُفكّر بها عدة أيام وشعر أنها خطفت من روحه شيئًا، تذكّر أنه لم يُفكّر في طريقة يتقرب لها بها أو شكل تسير به العلاقة. هي الوحيدة التي لم تُرهقه في التفكير إنما اتخذ قراره فورًا بأن يخطبها وأنها له لا محالة، وتذكّر رقّتها في أيام الخطوبة ورسائلها التي تقطر حبًا وأول قُبلة ارتجفت لها شفاهما وبكت هي بعدها من التأثّر، وأول ضمّة عندما أخبرها أنها على مقاس ذراعه بالضبط، وتذكر فرحتهما بالبيت الجديد وفرشه وكيف أنها لم تُرهقه بطلب أو تُكلّفه بأمر مثلما يحدث في كل الزيجات حوله، كانت راضية سعيدة بكل ما يُقدمه لها، وتذكّر يوم الفرح وهي تُغنّي له ولا تشعر بوجود شخص غيره رغم الزحام، وتذكّر أول ليلة لهما وهي تضُج وتغلي وتعرق وتذوب عشقًا بين ذراعيه، وتذكّر ليالي النشوة بينهما عندما كان يُقبل على إقبالها بعاصفة من العِشق، وتذكّر بطنها المنفوخ بصغيرهما وهي تسير بخجل جواره تتوراى فيه عن عيون البشر، وتذكّرها يوم الولادة وهي تعِبة ومُتألمة تُنادي عليه بعينها، وتذكّرها وهي مُصِرّة على العودة لبيتها في فترة النفاس حتى تظل قريبة منه وتُلبّي طلباته، تذكّرها وهي تنهض في الصباح المُبكّر حتى تصنع له طعام الإفطار وتكوي له ثيابه، وتذكّرها وهي تُقدم له الطعام الذي مكثت من أجله في المطبخ ساعات حتى يقول لها (ليس أسوء من هذا الطعام)، وتذكّر لهفته على العودة للمنزل، وراحته لوجودها حتى إن كانت نائمة أو مشغولة بالرسم والتطريز، وتذكّر إعجاب الناس بها عندما يصطحبها لأي حفل أو فرح ورغبته الشديدة أن يُخفيها عنهم في صدره حتى لا يراها غيره، وتذكّر غضبه كلمّا خرجت مع صديقاتها وحدها

وانتظاره الشغوف لعودتها كأن الدنيا أصبحت فراغًا بدونها، وتذكّر وتذكّر وتذكّر.

حتى وصل لحقيقة أن حبه لعالية كان يجري منه مجرى الدم، لم يسأل نفسه لأنه اعتبره أمرًا لا يقبل المناقشة ولا السؤال، ربما طريقة تعبيره مختلفة عنها وربما أخطأ بتهرها ومحاسبتها الدائمة وملأ نفسه بالشعور بتقصيرها في حين كان هو الآخر مُقصِّرًا وبعيدًا عن مشاعرها، شعوره أنها مِلك يديه جعله لا يُفكّر بها، ومُعاكسة الحياة له وقصر اليد عن كثير من الأمنيات جعلاه يشعر أنها هي السبب، وأنه لو كان وحده لكان بإمكانه أن يركُل الحياة ويُخضِعها لرغباته لا أن يخضع لها هو، وهاهو الآن وحده لا يفعل شيئًا ولا يركُل الحياة لكنه يخضع لرتابتها وقوانينها، يعصف به حنينه لزوجته التي تغيرت، تغيرت لأنه هو أيضًا تغيّر، فاض بها الكيل لأنه لم ينتبه أن لكل شيء طاقة ونهاية، ولم يُدرك أن نجاحه في الحياة مُرتبط بنجاحه في البيت، هذا لا يُغني عن ذاك ولا يحدث بدونه، لو كان أعطاها بعض الحُرِيّة، لو كان احتواها وعاملها برقّة معاملته مع الغرباء وبحميمية العُشّاق، ما كانت ظهرت فرح في حياته ولا كانت يئست هي منه اليأس الذي دفع بها للفرار من قبضته، لجأ معها للعنف في حين أنها كانت حمامة بيضاء تحمل السلام لقلبه، ثم أنكر عليها طيرانها بعيدًا عنه، بدأت مسام قلبه تتفتح ويدخل إليه الهواء، مُحمّلاً بعبير عالية، خرج أخيرًا من وهمه أنه سعيد بحياته وحده، إنه يُحبها ويُريدها هنا معه هي وصغيره الذي يعتصره الحنين إليه كل يوم وساعة، لكنه لن يهاتفها

أو يضع بينهما وسيطًا، سيُباغتها ويُهاجمها وينتصر كما فعل أول مرة، لن يدع لها فرصة للتفكير والمعاتبة واستحضار الماضي، سيأتي لها بالحاضر الوردي هنا في الجنّة، بعيدًا عن البشر وعن كل المنغصات، يجب أن يلِمّ شمل أسرته وأشلاء قلبه في أقرب وقت ممكن، هكذا عزم بأمل جديد بدأ ينمو في قلبه.. هكذا قضى باقي أيامه قبل الإجازة.. في إنتظار ورجاء.

لم يجرؤ أن يدخل المطعم ثانية أو أن يمر بشارعه حتى لا يصطدم بريبيكا، وتبدد خوفه عندما مرّت الأيام دون أن يجِد جديد، حتى وصلته رسالة إلكترونية منها، بدأتها باعتذار لأنها تعاملت معه بطبيعتها ولم تُراعِ كونه له خلفية اجتماعية وثقافية وجنسية مختلِفة، ثم أخبرته أن أسوأ تصرُّف مُمكِن أن يصدر منه هو ضرب امرأة، وأنها لولا رقة قلبها وإبقائها على أيام لطيفة من الصداقة بينهما لكانت حررت له محضرًا وانتهت به في السجن حتى لا يُكررها مرة أخرى، كتبت له أن المرأة مخلوق رقيق يحتاج لأيادي خشِنة لتُعامله برفق، وليس بعنف، وتساءلت إن كان هذا العنف طبعه وحده أم طبع الشرقيين عمومًا، واستاءت لحال المرأة العربية وأخبرته أنها ستتعمق في القراءة عنها وستبحث عن صديقات عربيات تُساعدنها حتى تكتب عن مأساة المرأة في الشرق مما لا يُدركه العالم، ثم أنهت رسالتها بطلب أن يعود للمطعم متى أراد وألا يخجل من الاتصال بها ثانية إذا رغب، شعر بالراحة بعد أن أنهى رسالتها لأنها لم تتقدم بشيء ضده، لكنه استمر على تجنُّب المطعم وكل الشوارع المؤدية إليه، وعاش على أمله الذي غلب ألمه.

كانت تُفكّر، هل أنا حيّة أم ميّتة. تشعر بخيالات غريبة تُداعبها، تتلقفها أيادي وهمية تشعر بها لكن لا تراها، كأنها تدفعها لرقصة دراويش صوفية، ورقصت دون أن ترقص، حتى تهاوت من الألم ومن الدوار، لماذا عليها أن تُذعِن لكل شيء، الطاعة العمياء، تلك الكلمة التي سمعتها منه في أول أيام الزواج، وأطاعت، وأذعنت، ولم يرضَ، لا تعرف أين المشكلة لكنها مُدرِكة تمامًا أنها ليست سعيدة، امرأة في الخامسة والعشرين من عُمرها، في الظاهر زوجة فاضلة وأم حنون، لكنها بائسة تعيش أتعس أيام حياتها، تمُرّ بها الأيام وهي تُنفّذ وتؤدي أدوارها الكثيرة دون أي امتنان منه، لا تجد عنده إلا القسوة والإهمال، ليالٍ طويلة تنام جواره كأنها نائمة على الجمر، لا عاطفة، لا إقبال، لا عشق، لا لهفة. تتساءل لماذا هي ليست من هؤلاء النساء اللاتي لا يُفكّرن سوى ببيوتهن ولا ينشغلن سوى بأبنائهن، لماذا تُريد أن تعيش الحب وتخرج عن مسار الحياة التقليدي، إنها تملك كل شيء في الحياة إلا الشغف، لم تكن تعرف أن الشغف هو الطريق الوحيد لمواصلة الحياة، وبدونه نحيا الموت ببطء.

دخلت المطبخ تُحاول أن تتخلص من حالة التوهان والرقص الروحي التي داهمتها وهي على السرير، اقترب ميعاد عودته ويجب أن تصنع أي شيء تضعه على المائدة ويُتقرّعها عليه كالعادة. وقفت أمام الموقد وهي ساهِمة، شعرت بأصابعه تُمسّد ظهرها حتى تصِل لخصرها وتقرصه بعُنف، ثم اقترب أكثر حتى التصق بها، أنفاسه عند عُنُقها تُدوّخها، لفحتها حرارة جسده على ظهرها، حتى انهارت مُقاومتها وتركت الملعقة الخشبية الكبيرة

في يدها تقع على الأرض، ثم عادت للوراء لتكتشف حقيقة وِحدتها، إنها وحيدة، حتى وهو جوارها، إنها أقسى درجات الوحدة التي تشعرها وأنت جوار من هو كل الناس لك، ومحرومة، ليس الحرمان النابع من شيء لم تحصل عليه أو مشاعر لم تُجربها بعد، لكنه هذا الحرمان القاسي الذي تُحرم فيه من شيء حبيب كان له وجود في حياتك، تنطفئ روحها كل يوم أكثر وزهرة قلبها تذبل دون أن ينتبه أحد، تمنّت لو كانت أنضج مثلما يُريدها دائمًا حتى لا تُحِب ولا تتألم ولا تنتظر ولا تشعر بهذا الحرمان، تمضي في حياتها بقدرة حقيقية على التحكُّم بمشاعرها وتعيش كأم وزوجة وليس كمراهقة تتوق لعشق يهز كيانها ويضيف الشغف لحياتها البليدة.

- زوجتك امرأة سطحية في طور الطفولة.. تحمّلها يا بني وأمرك لله، غدًا تنضج وتعرف كيف تكون امرأة عاقلة وزوجة تهتم بزوجها.. أتعرف أن نهال ابنة خالك تُساعد زوجها في مصاريف البيت وتقوم هي بشراء كل أغراض المنزل؟ امرأة بمائة رجل مع زوجها كتفًا بكتف، ودينا ابنة عمّتك سعاد تسأل عنّي كل يوم ودعتني لتناول الغداء عندها الأسبوع الماضي، طعامها حكاية، ما شاء الله عليها ماهرة في كل الأصناف، حتى نانو بنت الجيران الدلوعة أُقابلها في النادي وهي تُرافق ابنها في التدريبات وأراها وهي تتحدث مع المدربين وتُقيم معهم علاقات جيدة ليهتمّوا بابنها، أم ممتازة، دائمًا ابنها نظيف ونبيه، أما أنت يا حبيبي فلك الله.. لكن لا عليك، غدًا تنضج..

كان يُفكّر في كلام والدته وهو في طريق العودة، شعر بامتعاض من حياته مع عالية، كيف له أن يتحمّل مسؤولية عمله ودراسته للماجيستير في إدارة الأعمال وبيته وابنه ومسؤوليتها هي أيضًا وحده، كان يتحسّر على حاله وعلى كل هذا الهمّ الذي وقع على عاتقه من دون ميعاد، حتى خطر له أن يمُرّ بالمقهى القريب يُأرجِل قليلاً قبل عودته لكل هذه المسؤوليات والتعاسة والبكاء الذي ينتظره، ويا ليته ما ذهب للمقهى، فهناك وجد صديقه الذي يرى الحياة من نظارة قاتِمة السواد، أكمل عليه عندما حدّثه عن أحوال البلد المتدهورة وعن سياسة تقليل العمالة التي تتّبعها الشركات وتُقيل أقدم وأكفأ الموظفين وتكتفي بالصغار منهم لتُقلل الرواتب والنفقات، كما تطرّق في حواره للزوجات ونكدهن، وأنه سعيد وملِك لأنه لم يتزوج بعد، وعندما لمس التغير البائس الذي طرأ على وجه محمود زاد وعاد أن الزواج مشروع فاشِل إذا لم يكن الطرف الآخر على قدر كبير من المسؤولية المادية والمعنوية، لأن الحياة لا تحتمل المزيد من الأعباء والنكد.

الرجال يتأثّرون، حتى وإن أنكروا هذه الصفة، لكنها حقيقة ثابتة، عندما يُغازل رجل امرأة أمام أصدقائه فبداخلهم جميعًا يرونها جميلة ويتمنون لو كانت لهم، وعندما يحُط رجل من قدر أحدهم أمام صديقه تنتقل له عدوى نفس الشعور، وأكثر الناس تأثيرًا على الرجل هم أقربهم إلى قلبه، الأمهات عامة والأصدقاء خاصة، فكم من رجل تزوج فقط لأن زوجته أعجبت أصدقاءه وكم من رجل طلّق فقط لأن زوجته لم تُعجِب أمه، عاد

للمنزل وهو ساخط على الدنيا وما فيها، بمجرد أن فتح الباب صدمته رائحة شياط تُعبِّئ المكان، هذا ما كان ينقصه من زوجته الطفلة، لعلها كانت تُتابع مسلسلاً أو تتصفح مواقع التواصل ونسيت الطعام على النار.

بحث عنها فوجدها في المطبخ تجلس على الأرض بجوار الفُرن، رائحة الشياط ودخان الحريق يلفّ المكان، شعر بغُصّة في قلبه. لم يوبّخها كعادته على إهمالها وعدم تركيزها، ولم يتهمها كعادته بأنها تعيش بنصف عقل وأنها في نظره كبالونة الهيليوم إذا تركها طارت في السماء دون رجعة، شعر أن هناك أمرًا غير عادي، جلس جوارها على الأرض، نظر لعينيها المنتفختين من أثر البكاء.. سألها لماذا؟ لم ترد.. متى كانت آخر مرة مشطَتِ فيها شعرك؟ يبدو أنها منذ عدة أيام.. على غير عادته الجافة حملها برفق، مشطّ شعرها الكستنائي الناعم بحنان أب وأخبرها أنه هنا من أجلها وأنها حياته.. هل كان ينتظر أن تحترق حتى يعود لحنانه القديم؟ عندما لا تأتي الأشياء في موعدها الذي احتجناها فيه لا نستطيع أن نشعر بها.. ولكنها أجهشت بالبكاء بين يديه ثم نامت كطفلة لم تنم منذ عصور.

*****

في الصيف تُصبح القلوب أرق وأخف وتزداد قُدرتها على الطيران بعكس الشتاء الذي يُشعل النيران في القلوب فتتألم في صمت، العشق في الصيف له صخب وصوته عالٍ ودرجات جنونه مُرتفِعة، لكن ليس له ألق وبهاء وسحر عشق الشتاء، قصص الحب الرقيقة تبدأ في الصيف وتظل تحمل حرارته وصفاءه لكنها تنتهي سريعًا كالآيس كريم، تذوب ويبقى الكوب فارغًا إلا من بقايا عِشق، أمّا قصص الحب العميقة فهي التي تبدأ في الشتاء، وتحمل الألم قبل اللذّة والخوف والارتباك قبل الأمان، تحمل برودة الأطراف ودفء القلوب، وتحيا طول العُمر حتى وإن انتهت بالظروف والمنطق والواقع، تظل رائحتها تحُفّ العاشقين، تُلِح بذكرياتها كل شتاء، وتزور العاشقين كل ليلة كطيف عزيز لا يُفارق إلا بمُفارقة الروح.

كانت عجلة حبها تسير بأقصى سرعة ولم تخشَ التصادُم لأن الطريق كان خالٍ لكنه لم يكن ممهدًا، ولم تعبأ بالمطبات، كل ما كانت تفعله أن تفتح صدرها للنسمات المتسارعة وتملأ جسدها بالفرحة وتُضرم نار الصخب في كل ما حولها، لم يُعكِّر صفو سعادتها إلا هلول شهر رمضان ليحمل لها ذكرياتها الأخيرة كزوجة في بيت تصورت أنه سعيد وهانئ، تذكرت كيف

كانت تقضي نهارها في المطبخ تعمل بقلق وتوتر خوفًا من تعقيبه القاسي على طعامها، وعندما تحين ساعة الإفطار تقف كالتلميذ الخائب الذي ينتظر التقريع، ولم يُخيّب ظنّها يومًا ويقول (تسلم إيديكي)، أو يأتي ليُساعدها أو يشاركها لحظات الإعداد النهائي للطعام، مثلما كان يفعل أبوها مع أمها، كانت تتناول الإفطار وحدها في الأيام التي كان يُفطِر فيها مع أصدقائه ويرفض ذهابها وحدها لأهلها، كان يسهر ليله أمام التلفاز دون أن ينطق بكلمة أو حتى يرُد على ثرثرتها حول المسلسلات والبرامج المعروضة، كانت تتجنب مناقشته أو مراجعته خوفًا من المزيد من الضيق والبُعد بينهما، كيف بعد كل هذا كانت تظُنّ أنها زوجة سعيدة؟

أحضر أبوها فانوسًا كبيرًا وعلّقه عند باب البيت وأشعلت أمها حماسة البيت بإعدادها للطعام والعصائر على الأغاني الرمضانية المعتادة المنبعثة من الراديو الذي لا تستغني عنه في مطبخها، وأحضرت هي فانوسًا وزينة لكريم مُحاولة أن تُدخل البهجة على قلبه الصغير، وقد توطدت علاقتهما كثيرًا في الأيام السابقة بعد أن أعطته من وقتها وحنانها أكثر من المعتاد، فالحب جعلها شغوفة بجعل الكل سعداء، فما بالك بابن القلب الذي يُحزنه افتقاده لأبيه، نزلوا جميعًا لصلاة التراويح وشعرت هي أنها أصبحت ترى كل شيء بألوان أزهى من ألوانه وتتذوق الحياة بطعم السعادة، يبدو أن الدنيا أخيرًا بدأت تبتسم لها، واكتملت سعادتها عندما دعاها حسن لتناول الإفطار معه، وعندما شعر بترددها هذه المرة أصرّ أن تُحضِر معها كريم، وكانت هذه أول مرة يتقابلان، لم

يبذل حسن مجهودًا كبيرًا في جذب اهتمامه ومشاعره ولم يفرط في تدليله لأن كريم أحبّه بالفعل من بداية اللقاء، كان مُرهف الحس مُتحفظًا مثل أمه، وشعر بالغبطة من وجود حسن وحضوره الطاغي، مثل أمه أيضًا، بل وإن تحفُّظه تبدد وبدأ يحكي له عن ألعابه وأصدقائه ويسأله عن ابنته واهتماماته، كانت ليلة دافئة لم تشعر عالية بالأمان والهدوء النفسي مثلما شعرت في تلك الليلة.

سهرت معه، تناولت السحور في حي السيدة زينب، مشطت معه الشوارع وجلست معه على الأرصفة، أصبحت صعلوكة سعيدة، ولم تعُد أميرة غريبة تزور الأماكن كسائحة تتوق للحظة العودة وتخشى التوهان، أصبحت مواطِنة في مدينته الصاخبة لها كل الحقوق وعليها كل الواجبات، كان البعض ينهشها ويؤذيها وتصلها وشايات ورسائل واتصالات تُفيد بأنه يخونها، وأحيانًا تتهمها بالعُهر أو الضلال، كانت تغضب، تنكمش مشاعرها وتتلوى، روحها تغلي مسجونة بين جسدها، غضبها غضب مشاعر وليس غضب كرامة، تبكي فيه كأتعس امرأة في الوجود وتحزن وكأنه عيد الحزن المُقدّس، تشعر بالانهزام المرير، تئن كهرة محبوسة، ترمي بكلمات هنا وهناك عن كل ما يدور بداخلها دون ترتيب، كلمات حادة لم تجد الوقت أو الجهد لصقلها، ترمي بها جميعًا مع بعض من مرارتها وكثير من هواجسها بين يديه، وهي مُدرِكة من مشوارها القصير في الحياة أن الرجال قساة ولا يعرفون إلا احتواء الرغبة أو احتواء الصداقة الاضطراري، هي لا تحتاج إلا أن يتسع صدره

لغضبها، يسمعها، يشعرها، يقول لها "أنا أفهم"، يُطفئ لهيب غضبها كما أشعله، ولكن خبرتها علّمتها أن الرجال هم الخذلان في أبدع صوره، فكانت تبعد عنه وتُحاول أن تنتهي من كل شيء قبل أن تموت من هواء المجتمع الملوّث الذي يدخُل صدرها عُنوة، لكن سرعان ما يتبدل ألمها ورغبتها في الهروب ومغادرة مدينته بالمزيد من الإقبال والغوص في عالمه، احتواها، ولم تكن تعرف لهذه الكلمة معنى سوى عندما عرفته، هذا الرجل الذي فتح كل أبوابه لهمومها..

هذا الرجل الذي يئن صدره مع أنّاتها..

هذا الرجل الوحيد الذي يأبه لدموعها..

هذا الرجل الذي ترتاح لمجرد سماع صمته..

هذا الرجل الذي تمتد ذراعه عبرالأثيرلتمسح على رأسها بحنان..

هذا الرجل الذي يُمشّط شعرها بأصابع عشقه..

هذا الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يستخلص ضحكتها من بين الدموع..

هذا الرجل الوحيد الذي يرى ضعفها قوة..

هذا الرجل الذي لا يمنعه اعتزازه بنفسه أن يعترف بخطئه..

هذا الرجل الذي يتسع صدره لغضب امرأة كما يتسع لعشقها..

هذا الرجل الذي لا يتضرر من امرأة شاكية باكية تُعكر صفو أنانيته..

هذا الرجل الذي يُشعرها أنه دائمًا.. هنا.. من أجلها..

هذا الرجل الذي يستحق أن يُعشق ألف مرة..

عملها أيضًا كانت قد بدأت تُعطيه المزيد من شغفها واهتمامها ولم تعبأ بالمضايقات حولها، ركّزت في الاستمتاع به وفرحة الإنجاز وفقط، تسرح فتتذكره فتُبدِع من أجله، كأنه هو وحده الذي سيرى ما تصنعه ويُقيّمه، مرّت ليلة العيد بالمزيد من الذكريات، ذكريات هذه المرأة التي خرجت دون تخطيط ودون معرفة زوجها لتجده يلهو مع أخرى مطمئنًا أنها قابعة في البيت تنتظره لتمنحه الحب والإخلاص، وكان يخطُر ببالها محمود فتُفكِّر في حاله، هل هو سعيد؟ هل تزوج؟ لماذا لا يظهر فهي تُريد الاطمئنان عليه، جعلها الحب بقلب مفتوح للجميع حتى من عذّبها وخانها وهجر، تُريده أن يتصل بكريم على الأقل أو يزوره، كانت كلما فكّرت به تألمت وتمنت أن يكون بخير وأن تكون حياته سعيدة، أسعد من هذا الجحيم الذي كانا يعيشانه في الشهور الأخيرة، ومع ذلك لم تجرؤ أن تطمئن عليه من أهله الذين لعبوا دورًا كبيرًا في التفرقة بينهما وإخفاء أمره طوال هذه المُدّة، كرامتها كانت أكبر من سؤالها عنه، وخوفها من ظنّهم أن اطمئنانها ذريعة للعودة.

كانت تكذب على أمها التي كان يؤرّقها خروجها الكثير وعودة العلاقة مع حسن، فكانت تُخبِرها أنها تخرج مع مجموعة من الأصدقاء وهو أحيانًا يكون ضمنهم، وكانت تُخبرها عندما تسألها عما تنوي من وراء هذه العلاقة أنها مازالت بصدد التعرُّف عليه أكثر حتى لا تتخذ قرارات خاطئة مرة أخرى، أو أنها لم تعُد تُفكّر به كحبيب، كانت تكذب، لأنها في الحقيقة لم تُفكّر في الزواج منه، لم تكُن تُريد أن تخسره، ولا فكّرت في مستقبل علاقتهما، فقد علّمها أن تكون بلا خِطط، أو أنها ارتاحت لهذا التسليم بالواقع دون الانشغال بالمستقبل، المهم أن تكون سعيدة وتُسعِده، هذا كان قبل لقائهما في العيد الذي غيّر كل حساباتها.

في هذا المساء الصيفي كانت على موعد معه لحضور حفل غنائي بالأوبرا، تنتظره في سيارتها وكعادته يأتيها مُتأخِّرًا مُتبخترًا، أول مرة تراه في حلّة رسمية، كان وسيمًا وأنيقًا كنجم سينمائي عالمي يتسلّم جائزته عن أحد أفلامه الجامحة في الصحاري وجبال التبت، وكانت هي أيضًا لأول مرة بفُستان حريري أسود وشال أحمر مُطرّز تلفّه على كتفها وتربطه عِند الصدر، طلب منها أن يترُكا السيارة ويذهبا للأوبرا مشيًا، المسافة كانت بضع أميال، لو كان طلب منها هذا الطلب منذ عِدة شهور كانت تململت ورفضت حرجًا من أن تسير في شوارع وسط البلد المُزدحِمة بفُستان، وخوفًا مِن أن يراها أحد معارفها، لكنها الآن نزلت من السيارة بدون حسابات وتفكير، وسارت جواره كفراشة ليلية تُحلّق بجوار زهرتها الرائعة، أمطرها بمُغازلاته الرقيقة وغازلته أيضًا بسعادة وبدون خجل،

كانت تسير بثقة لا تخشى شيئًا، تشعُر أنها أسعد إنسانة في الوجود ولا يهمّها لو رآها كل من تعرفهم في هذه اللحظة، حتى مرّا بفندق سوفوتيل القاهرة، نظرت له بتمنّي وشفتاها تتحركان كأنها تقول شيئًا، سألها حسن عن توقفها أمام هذا الفندق بالذات، أجابته:

- خالتي وزوجها رغم بلوغهما سن المعاش إلا أنهما يحرصان على قضاء مناسباتهما الخاصة هنا كل عام.. تُعجبني هذه الطقوس.

قال ضاحِكًا: لأنه فندق فاخر.. أعرفك يا طبقية.

- لا يا حسن.. لأنهما مازالا في حالة عشق بعد كل هذه السنوات.. يسرقان الأيام وحدهما هنا.

- حسنًا، هو يُعجبني.. لأنه جوار الأوبرا وخان الخاليلي ووسط البلد..

مالت عليه برقّة ومازالت في عينيها الأمنية، وقالت برفق:

- هل سنقضي مُناسباتنا هنا؟

- بشرط أن نكون كهلين.

ضحكت وهي تقول: جيد.. عامة أنا من أسرة لا يظهر فيها العجز.. بل يزيدنا العُمر جمالاً.

ردّ عليها وهو يضُمّها بعينيه: وأنا مِن أُسرة تُعجّز مُبكرًا.. هل ستُحبينني عجوزًا؟

لم ترُد عليه، اكتفت بأن احتضنت كفّه وشبّكت أصابعها بأصابعه وضغطت كأنها تقول له.. سأحبّك إلى الأبد.

تركها أمام الأوبرا وذهب ليشتري سجائر، تأخّر ووقفت وحدها في الشارع تنتظره، فصادفت شادي الذي أتاها مُهلِلاً مُرحبًا، حاولت أن تقتصر المقابلة لسلام وختام، لكنه لم يتوقف عن الحديث عن الرئيس الجديد وتفاؤله به ومشروع النهضة وإيمانه بأن البلاد ستتقدم في وقت قصير، يكفي ما وعد بتنفيذه في المائة يوم الأولى، كان منفعلاً وسعيدًا حتى إنه نسي أن يسألها عن سبب انتظارها، وأتى حسن مُحتقِنًا بالغضب، حاول شادي إشراكه في الحديث كأن لا شيء جدّ بوصوله، وما إن سمع حسن حديثه عن الرئيس الجديد حتى أدلى بدلوه وأعلن عن تنظيره وتوقّعه أن هذا الرئيس إذا استمرّ على موالاته للجماعة التي ينتسب إليها فلن يُقدِم أي شيء للوطن، وأنه لن يكون سوى مجرد واجهة مُحبِطة لجماعته لأنهم يبايعون على السمع والطاعة وليس على الكفاءة، وهذا سيضع الوطن رهن إرادة الجماعة وليس الإرادة الوطنية، وستحدث حينها موجة من أخونة الدولة مما يُقلل من الكفاءات ويُثير الشعب ويضع نهوض الدولة على المحك، كما أنه إذا لم يهتم بالسير في تحقيق أهداف الثورة وظل يُهدد تغيير الهويّة المصرية فلن يصمت عليه الشعب، وكما تسبب نظام مبارك الفاسد بوصول الجماعة الإسلامية للحكم، فإن فشلها أو

سقوطها سيتسبب بعودة العسكرية للحُكم، وستظل الخلافات السياسية مُستمرة إذا لم يحدث توافق وحوار سياسي حقيقي، وهذا ما يُقلقه من الإخوان الذين باعوا الثورة واشتروا العسكر في أحداث محمد محمود ومجلس الوزراء، لأن الحُكم والتعجيل به كان هدفهم الأساسي وليس تحقيق أهداف الثورة، واللهجة الثورية التي طفقوا يتحدثون بها الآن ما هي إلا غطاء آخر لتحقيق أهدافهم.

عالية كانت مؤمنة برأيه وموافقة عليه باقتناع شديد، أما صديقهما فكالعادة اختلف معه واتهم حسن بالتشاؤم ومُزايدته عليه بالثورة وأهدافها، وإصراره على روح الثورة وقول (لا) حتى وإن كان الأمر يستحق الانتظار وإعطاء الفُرص، تصادما وأنهى حسن الصدام بأن اعتذر لعالية وتركهما وانصرف بحجة أنه تعِب، حاولت أن تلحق به لكنه سبقها واختفى في الشوارع كأن الأرض ابتلعته، لم يكتفِ بهذا لكنه أغلق هاتفه وأغلق كل أبواب الرحمة في وجهها، ظلت تسير في الشوارع كالمهووسة لا تدري ماذا تفعل وأين تذهب، تُريد أن تغضب منه ويمنعها عشقها المرير، تتمنى لو تصُب لعناتها عليه لكن قلبها لا يُطاوعها، لا تدري لماذا رحل هكذا فجأة وماذا فعلت حتى يتركها بهذا الشكل المُهين، لم يُغضبها الحرج الذي شعرت به أمام شادي إنما أغضبها أنه لم يبقَ معها ويُصارحها بما أغضبه أو بخطئها إن كانت أخطأت، أغضبها شعورها أنها معه كمن يُمسك بالسحاب، يتخيل أنه وصل لقمة السعادة بينما هو لا يملك بين يديه إلا رذاذ الهواء، كانت تشعر أن كل مخاوفها من السقوط من سمائه

تتجلى أمامها، فهاهو يتحيّن الفُرص حتى يُفلت يدها، وتعود من لقائها به وحيدة تسير بدون هُدى، تلوم نفسها أنها تعلّقت به إلى هذا الحد الذي سمح له بأن يتخطى كل حدود كرامتها دون اكتراث، عادت للمنزل بقلب جريح، وتبدّلت أحوالها في الأيام التالية فجأة كأنها أخرى، أهملت تدريبات ابنها واهتماماته والحديث معه، قصّرت في عملها، انطوت وقضت أغلب الأوقات حبيسة فراشها لا تُريد أن ترى الدنيا حولها، تنظر كل دقيقة إلى الهاتف علّها تجد جُرعة المخدر الذي غادر دمّها وتركها تعيش بفُتات عقل مثل المدمنين.

تمنت في هذه الأيام أن تُشفى منه وأن تمُرّ الأيام بسلام وتمُرّ أعراض الانسحاب من الدم دون أن تُؤذي قلبها وجسدها المُنهك أكثر، ودون أن تُسبب المزيد من الألم لمن حولها، ولعبت أمها دورًا مهمًا في خروجها من غياهب البُعد وألمه، فكانت تعرف أن ابنتها تمُرّ بقصة ليست عادية وأنها سمحت لكل بحور الرومانسية الرقيقة والمشاعر الجياشة التي احتفظت بها منذ أصبحت أنثى كاملة في الفيضان، كانت تُدرك الألم الذي يعتري ابنتها منذ أحبّت هذا الغريب، وهو ألم كبير شديد بنفس قدر الحب الذي ملأ قلبها، فكانت تطمئنها دائمًا بأنه سيعود، حاولت أن تُشركها في مشاكل الصغير وأموره وحاولت أن تخرج معها خارج أسوار الحُزن وتشتري معها الثياب وتبتاع لها القليل من الفرحة حتى تعود نضارتها، حاولت وحاولت ولكن كل محاولاتها لم تكن تصمد أمام نوبات الحزن الكبيرة التي تجعل من عالية شبح إنسانة لا تتوقف عن البكاء.

وفي يوم آخر في البُعد وجدت الهاتف يُزغرِد برقمه وهي في اجتماع عمل، وكانت تشعر قبل أن تقترب من الشاشة أنه هو، نهضت كالممسوسة وركضت للخارج وسط ذهول الجميع، ثم ردّت عليه وقد خرج قلبها من صدرها وظل يدور كطفل فرح في أنحاء المكان، أتاها صوته الحبيب الرنان بنبرته الكسولة، وكان أول ما قاله: "وحشتيني" كأنه عرف أن هذا كل ما كانت تود سماعه، سألته: "أنت حقيقة؟" فرد ضاحكًا: "لا، أنا إشاعة"، كانت دموعها تنزل دون أن تشعر، تتمنى أن تنزل على صدره لتُبلله بشوقها، وعادت المياه تجري بقوة وهوس في كل مجاريها التي كانت تحجرت وتشققت في البُعد، هكذا دون تبرير كان يذهب ويعود، وهكذا دون مقاومة كانت تقبل بعودته، فمن يمتلك أن يرفض ترياق الحياة، طلب منها أن يراها وفهمت منه أن هذه المرة ليست ككل مرة، كانت لهجته آمِرة حاسِمة، وكان الجو مشحونًا بالإثارة التي تجلت في كل لفتة وكل صمت بينهما، حتى إنها شعرت أن ذراعه امتدت لتلفّ جسدها المُلتاع من الرغبة والشوق وأن أنفاسه تنفث النار في لهفتها المُتأجِجة، لم تستطع إلا أن تقول (حاضر)، هذه المرة لا مزيد من الحجج والتردد وتغيير دفة المواضيع وقلب الحقائق، هذه المرة هي لن تُضيعه من قلبها ولن تسمح له بالخروج الآمن، سيبقى بجيوشه وسلاحه مُستعمرًا لقلبها وهي المُحتلة السعيدة التي رفعت رايتها البيضاء برضا وانتصار، هذه المرة لن تُحيّره بـ "لا" تقصد من ورائها نعم، ولن تضحك كطفلة بلهاء لتشوّه اللحظة الحاسِمة، ولن تردم الأرض لتُخفي ما دفنته في قلبها والحقيقة ساطعة في السماء، (حاضر سآتي لبيتك).

هكذا دون شروط قبلت أن تذهب له، بعد أن سألها مرات عديدة من قبل وكانت تطرد الفكرة من رأسها وهي ترفض بحسم مائع، والآن لم تنطق إلا بـ (حاضر)، هو لم يكن ساحرًا أو مشعوذًا حتى تجد نفسها موافقة بدافع روحاني قوي، ولا هو نبي حتى تؤمن برسالته دون مناقشة، وليس بسيدها حتى يأمُر فيُطاع، لكن لحبه على قلبها سُلطان أكبر من أي قوة، لم تحسبها فقد سئمت الحسابات التي عاشت عُمرها بين جدرانها، ولم تُحكّم عقلها فقد حكّمته كثيرًا ولم يجلب لها إلا الحزن والخذلان، لكن لماذا لا تُجرّب أن تُحكّم قلبها الذي كاد يذوب وينتهي من قسوة الشوق، إن للمُغامرات الكبيرة عليها حق، وهذا الغريب الذي أحبته وغرقت في حبه من قمة رأسها لأخمص قدمها يستحق أن تُغامر من أجله ولو بروحها، فلحظات العشق معه تُساوي عُمرًا، والبُعد عنه قاتل فقد ذاقته وعرفته ولن يكون بوسعها أن تواجه أيامًا كتلك التي مضت قبل اتصاله العزيز وعودته الغالية، لأنها عرفت كل تفاصيل غيابه، عرفت معنى القلق والتوتر والضيق الذي يسحب كل الهواء من صدرها، عانت من المرض الزائف والانتظار والشرود، مزقتها الذكريات والآمال الحائرة، والآن بعد أن اجتازت هذه النازلة ونجت أخيرًا من جحيم غيابه كيف لها أن ترفض الفرح الذي يُقدمه إليها من بين أصابعه وشفتيه، لن ترفض حتى لو طلب منها عُمرها.

مرّت بها ليلة طويلة من التفكير، كانت مُضطربة تذرع الأرض ذهابًا وإيابًا حتى تقلّصت عضلة قدمها من كثرة السير في مسافة لا تتعدى الأمتار

الثلاثة، كان داخلها حوار بين اثنتين، إحداهما كانت ترتدي طرحة بيضاء كبيرة تُغطي صدرها ولها وجه ملائكي تُحدثها بصوت ونبض وطريقة أمها وتحاول أن تُثنيها عن فكرة الذهاب وتُذكرها بمبادئها وتربيتها التي تُحتم عليها أن تظل مُحترمة ومُلتزِمة حتى وإن تمردت وضاقت بحياتها، والأخرى كانت تُدخِن في وجهها برائحة دخان حسن وتُحدثها بصوت مُتحمس وعنيد عن ضرورة الخروج من الغُرفات الضيقة والتعرُّف على سماء جديدة تمنحها السعادة الأبدية، أخبرتها أيضًا أن هذه المُحجّبة تكذب وتُبالغ لأن زيارتها لحبيبها لا تعني أنها أصبحت غير مُحترمة ومُنحلّة، وإذا كانت أخلاقها متينة فهي لن تقع في الخطأ الكبير، ستمنعها تربيتها في الوقت المناسب، ثم إنه عليها أن تثق في حسن ورغبته في الحفاظ عليها وتثق في قوتها وإيمانها، ولتكن هذه الزيارة مقياسًا لإيمانها، لكن إيمانها بماذا؟ بالله والدين، أم بحبها؟ ولماذا لا يتفق الإيمان الديني مع الإيمان بالعشق؟ هكذا حاول عقلها التدخل بين الفتاتين، وعادت المحجبة تُخبرها أنها ليست بالقوة التي تتوقعها من نفسها، بل وأنها منذ فترة طويلة قد انصرفت عن الروحانيات الدينية التي قد تمنعها من الخطأ، كما أخبرتها أن حسن أيضًا ليس قويًا وتفكيره الشاذ وحياته الهمجية من دواعي إقباله على الخطأ ببساطة وتسميته مغامرة، وهي وإن كانت مُغامِرة فلن تُغامر بشرفها، تدخلت الأخرى لتقول إن كلمة شرف كلمة أكبر من الموقف وأنهما بالكاد سيتحدثان ويمنحها بعض القُبُلات العذبات حتى تعود للحياة ببهجة في قلبها ورغبة كبيرة للنجاح والتحقق.. ظلّا على حوارهما المُنهك حتى أدركهما الصباح وذهبت عالية كمُغيّبة لعملها.

قبل الموعد بساعة اتصلت به، كانت قد استجمعت بعض شذرات عقلها الغائب التعِب وسألته وهي تدّعي عدم الإدراك:

- لماذا البيت؟ ما الفارق بين وجودنا هناك ووجودنا بمكان عام؟

- الفارق كبير!

- وضِّح حتى أكون على نور.

- في البيت يمكننا أن نتناول طعامنا ونتحدث دون وجود عيون تُراقبنا وتعُدّ حركاتنا.. في البيت يُمكنني أن أسمع أنفاسك بوضوح.. وأن أمسح بيدي على رأسك..

وكانت تُريد هذا وتحلُم به، استطردت:

- هذا فقط يا حسن.. لا يُمكنني فعل أكثر.

- أعرف.

- ولا تقل دجاجة وحمامة وقطة منازل.. أنا كل هذه المخلوقات إن شئت..

- أنتِ لك صفة أخرى كما قلتُ لك.. لكن لا تسأليني عنها الآن.

- حسنًا.. عِدني ألا يحدُث شيء!

- أنتِ قديمة جدًا.. لا ينقصك إلا أن تقولي (شرف البنت زي عود الكبريت)، و(اللي انكسر ما يتصلحش).. والأمطار تُغرق الشوارع والطعام يغلي على النار وذئب بعيد يعوي.. أرجوكِ اخرجي من جو أفلام حسن الإمام وصلاح أبو سيف.. ومع ذلك فلا تخافي.. أنتِ مثل أختي وسأُحافظ عليكِ.

ضحكت بتوتر ثم أغلقت الخط، كانت تستعد لهذا اللقاء كأنها عروس تستعد لليلة فرحها، جسدها يبرق، وتفوح منه عطور النظافة والشوق، شعرها مُهندم لفّته داخل طرحة حريرية بيضاء، كحّلت عينيها ووضعت الزواق الذي كانت أهملته منذ شهور طويلة، ووضعت قِرطًا لامعًا على شكل فراشة تعرف أنه لن يظهر لكنها أحبّته، ترددت كثيرًا قبل أن تنتقي ثيابها، وحرصت على أن تكون قطعًا جديدة مثل أيامها، سوداء رقيقة من الداخل، وبسيطه فَرِحة من الخارج، وصلت منزله وفي يدها هدية بسيطة انتقتها له بعناية حتى يظل يذكر هذا اليوم، كانت رواية مترجمة (مرتفعات ويذرينج)، ذكر كثيرًا رغبته أن يقرأها ويحتفظ بها، وضعت داخلها ورقة صغيرة مطوية كتبت عليها بأحمر شفاهها "أُحِبك".

وقفت أمام الباب وهي تشعر أن حياة جديدة تُشرع أمامها، هل يكون هذا بابًا للجنّة أم بابًا للنار، حاولت بكل ما فيها أن تطرد الفتاتين من داخلها وأن تجعل صوت عقلها على الوضع الصامت وضميرها تضعه على الانتظار، ثم تترك الأمر لقلبها المُنهك الذي فقد الحب والشغف في مشوار الحياة حتى تعثر بحسن الذي أعاد له نبضه وتدفُّق الدماء فيه،

إنها مُقبِله على مغامرة كبيرة كأنها تتسلق جبلاً تُريد أن تصل إلى قِمته، فعليها أن تستمتع بغامرتها لأقصى حد وتتجنب النظر للأسفل وتتغاضى عن النسمات القوية التي تُحاول أن تطيح بها، عليها أن تتخلص من خوفها فالحياة مجازفة وإما أن تُلقي بنفسها بين سهولها وقممها بحماس وتستمتع بدور البطولة، وإما أن تدور في مركباتها الثابتة وترضى بدور عادي قانع وذليل، ينظر للمُتحمس وهو يُمصمص شفتيه حسرة على نفسه، دون أن يُحاول الاقتراب، وهاهي الآن تقترب من مجازفتها وحياتها والجنّة.

فتح لها الباب وكان أطول من المُعتاد، أو ربما السقف الضئيل أظهر طوله الحقيقي، كل ما يُقارن به كان يبدو متواضِعًا مُعتمًا، دخلت وقبل أن تنتبه لما حولها، وقبل أن ترى منزله أو حتى تلحظ ثيابه ونظرة عينيه، ضمّها لصدره ضمّة قضت على كل ما تبقى من عقلها، كان رأسها يوازي صدره تمامًا كأن هذا الصدر خُلِق ليضُم هذا الرأس، أحاطها بذراعين كأنهما الأجنحة التي تحتوي الفراخ الصغار، كانت مضغوطة به تشُم رائحة صدره، رائحة لم تشُمّها من قبل، ليست رائحة عطر أو عرق ولا رائحة جسده الحبيبة التي تعودت أن تشتمها كلما اقترب أو مرّ بها، لكنها رائحة أخرى لا تُشبه شيئًا، رائحة عشق مُسكِر، دافئ، عاصف وطيب، كان يُسند ذقنه تمامًا فوق رأسها ولا يُحاول أن يُحرك أصابعه عن موضع الضمّة، أغمضت عينيها ومرت بأصابعها على صدره حتى وصلت لعُنقه فتشبّثت به أكثر، وتمنت ألا تنتهي هذه اللحظة أبدًا، إنها المرة الأولى التي

تشعر أنها تحضُن وتُحضن، لم تعُد تُقارِن كعادتها بين ما تعيشه الآن وبين ما عاشته من قبل، لأنها نسيت ما عاشته كأنه لم يكن، وهنا وُلدت من جديد، لماذا لا تعيش بحضنه طول العُمر فمن هنا وُلدت وهنا ستموت.

- يا بابا أرجوك.. أحتاج هذه الرحلة.

- لن أغيّر كلامي يا عالية.. الموضوع مُنتهي ولا تُرهقي نفسك بمزيد من الإلحاح.

تركته بعصبية ودخلت غرفتها وهي تستشيط غضبًا، بعد أن قضت إجازة الصيف كلها بين البيوت، ولم ترَ أكثر من الشوارع المُحيطة بهم، بعد أن أمضت ثمانية عشر عامًا هي عمرها كله دون أن تخرج إلى مكان إلا النادي وبرفقتهم، ولم تطأ قدمها سينما، إذ إن أباها يعتبره أمرًا سخيفًا وغير أخلاقي أن تذهب للسينما برفقة صديقاتها، ويُصوّر لها أن السينما مكان مُظلم موحِش ومسكون بالذئاب البشرية، حتى الكُليّة غير مسموح لها أن تتأخر بها، لقد ملّت كل هذه المحافظة عليها، تتوق لمغامرة حقيقية، لحجر تقذف به بُحيرة حياتها الراكِدة فتُحييها الذبذبات المُتسِعة، الرحلة في حد ذاتها لم تكُن هدفًا، فهي بين صديقاتها كل يوم، ولا يعنيها أن تزور مدينة رأس سِدر، لكن ما يعنيها حقًا أن تتزود ببعض الطاقة للمواصلة، أن تكسر قواعد حياتها الرتيبة، أن تعيش ولو ليوم قصة من تلك القصص الكثيرة التي يحكيها أخوها وعلى وجهه علامات السعادة، لماذا لا تذوق هي أيضًا بعضًا من تلك السعادة.

انتابها الحزن والرثاء على حالها وهي فتاة مُعلّبة في البيت، فخرجت من غرفتها بعصبية وتوجهت لوالدها الذي كان مازال يُشاهِد نشرة الأخبار وقالت بصوت مُرتفِع:

- تحرِمني من الرحلة وتسمح بها لأخي؟!

رد بذهول وكانت تنتظر ردّه: لأنه رجل!

استكملت: ثم تقول أن ديننا ومُجتمعنا لا يُفرّق بين ولد وبنت.. وتتحدث دائمًا كأنك تُؤمن بالمساواة والتحرُر..

قال وقد اتسعت عيناه: ماذا تقصدين؟

ثم استدرك الموقف من الشرر الذي كان يتطاير من عينيها، فنهض وطلب منها أن تدخل غرفتها حتى الصباح، مشت وقد فقدت عقلها تمامًا وهي تُهمهم بصوت مسموع وتقول: "ليتني ما وُلدت في هذا البيت"، "ليتني ما كُنت ابنتكما"، "تقولون ما لا تفعلون"، لم يصمُد أباها أكثر فإذا به يهجم عليها ويدفعها في غرفتها بعصبية ويصفق الباب بقوّة وهو يصرُخ: "اصمُتي يا حمقاء وإلا كسرت رأسِك.. أنتِ لا تُدركين ما تقولين"، جُرِح ذراعها من دفعته لها وسقوطها على الأرض، فارتمت على السرير وبكت بحُرقة، كانت تدعو الله أن تتخلّص من هذا البيت في أقرب فُرصة، كانت روحها تتألم وتندب حظها لأنها فتاة، ضعيفة، حمقاء، تحيا وتموت بين الجُدران، لا تُحسب على المجتمع كامرأة لها حقوق إلا إذا كانت وحيدة بدون رجل

يتحكّم في كل خطوة لها، أخذتها الأفكار السوداء وسافرت بها لأبعد من الرحلة، وتذكّرت كل يوم ذاقت فيه مرارة التحكُّم والقيود.

بعد ساعات من النحيب، صمتت عن البكاء ونعست كطِفلة، لكنها لم تنم، شعرت بخطوات والدها الذي دخل الغرفة في هدوء، ثم لفحتها أنفاسه عندما قبّلها وهو يجلس عند رأسها، ثم مال على أذنها وقال بصوته الأبوي الحنون كأنه يعرِف أنها ستسمعه:

- يا عالية يا ابنتي الجميلة الطيبة، الصغيرة، نعم يا عالية أنتِ صغيرة جدًا، وأطيب وأبرأ من هذا العالم حولك، أنا لا أمنعك عن الخروج والرحلات لرغبة في التحكُّم بكِ كما تظُنين، فأنا أترك لك كامل الحُرية في ميولك ودراستك، واختياراتك وذوقك وشخصيتك التي تنمو كل يوم، لكني أخاف عليكِ من الالتحام بالمجتمع وأنتِ في هذه السن، أنتِ لا تعرفين الناس كما أعرفهم أنا، ولا تعرفين نفسك كما أحفظك أنا، فأنتِ ابنتي وقطعة من قلبي ودمي، أنتِ الصغيرة التي كبرتِ في حُضني وتحت عيني، لذلك أعرف أنك حين تُحبّين ستهبين روحكِ وكل مشاعركِ الرقيقة لحبيبكِ، لذلك أخاف عليكِ مِن الحب، لا أريد أن تصدمكِ الحياة، لا أريد لمشاعركِ أن تُستنزف، أُريدك أن تنضجي حتى تُعطي لمن يستحق، الكلاب حولك في كل مكان دون أن تشعري، ولن أسمح لأحد أن ينهشك حتى لو كلفني ذلك أن أسمع منك هذا الكلام الذي قُلتيه الليلة، لأكثر رجل يخاف عليكِ، أكثر رجل أحبّك وسيُحِبّك على وجه الأرض!

ونزلت دمعة منه على كتفها، لسعتها بحرارتها وصدقها، فبكت هي الأخرى حتى انتفضت، ونهضت وهي تحتضنه وتُقبّل وجهه ويده، كانت تعرف أن له طبيعة رومانتيكية لا تُشبه طبيعة والدتها الجادة، لكنها ما توقعت أنه يحمل لها كل هذا الحب في قلبه، قبل أن يُغادِرها قال لها أصدق كلمات سمعتها في حياتها لكنها لم تستطع أن تعمل بها:

- أثق بكِ ولا أثق بالناس حولكِ، فحافظي على نفسكِ يا ابنتي، أخاف عليكِ لأنك جميلة في زمن قبيح، والحقيقة يا ابنتي ليست كما سيقول لكِ الجميع إن الجمال جمال الروح والخُلُق، فكم من جميلات روح لم يجدن من ينظر لأرواحهن، وجميلات خُلق لم يلفتن النظر أصلاً، أن تكوني جميلة يا عالية هو أن تكوني نفسك، تُحبي نفسك وتثقي بها، أن تكوني جميلة أن تُعطي وتُحبّي وتملأي الدنيا بابتسامتك، الحاقدات لسن جميلات حتى لو بلغن أعلى مواصفات الجمال والرقة، والدجاجات لسن جميلات حتى لو قدّمن ريشهن كله للديوك، لا تكوني دجاجة أخرى مثل الجميع، ولا تنتفي ريشك من أجل أحد، فقط كوني نفسكِ، وطيري ما سمحت لكِ به أجنحتكِ، أنا لن أكون لكِ قيدًا يا ابنة عُمري.

عندما تُحبّين يا عالية اثبتي مكانك ولا تندفعي وراء مشاعرك، فالحب لا يأتي بالاندفاع، واقتناصك لبعض السعادة لن يجعلك سعيدة طول العُمر، أغلب الرجال يتلذذون بالعاشقة المُندفِعة، يُحبون من تُجنّ بهم لكنهم لا يتمسّكون بها لأنهم يعتبرونها صيدًا مضمونًا، فرُدّي بابك دائمًا، لا تفتحيه على مصراعيه، كوني مُتسامحة مُتفهّمة لكن لا تعودي أبدًا

لمن يُفلت يدكِ، فالأمان عندما يذهب لا يعود أبدًا، لا تغرّنك كلمات العشق ووعوده، فكل هذا هباء بدون صدق، تلمّسي الصدق بقلبك، ولا تكتفِ إلا بحبيب تكونين له الحياة، وليس من الضروري أن يكون هو لكِ الحياة فتخسرين نفسكِ بغيابه، واعلمي أن الرجال يُحبون ويبقون على أرواحهم حُرة أما الفتيات حين يُحببن يهبن أرواحهن أولاً، فلا تهبي روحك إلا لمن يستحق، وكوني قوية، أوصيك بأن تظلي قريبة من ربّك وتحرصي على تدعيم إيمانك، وأن تعيشي الحياة ببساطة وحب لكل ما ومن حولك، كوني راضية طموحة يا ابنتي، لا تتمني أقل من النجوم.. ولا تنسي ربّك يا عالية.. لا تنسي الله.. ضعيه صوب عينيك حتى تُكتب لكِ النجاة.

*****

دخلت بخطوات مُتحررة إلى غرفة صغيرة تبدو غرفة المعيشة، كانت مُنظّمة بصعوبة، كأنه قضى اليومين الماضيين يطمس طابعه البوهيمي ويشوّه همجيته ببعض التنظيم السيء، لم يضع شيئًا في مكانه الصحيح إنما أخفى الأغراض بدون ترتيب، كالطفل الذي أجبرته أمه على جمع ألعابه وتنظيمها، اختارت كرسيًا وحيدًا لتجلس عليه لكنه سحبها من يدها وجعلها تجلس على أريكة واسعة، وجلس هو على أريكة قريبة صغيرة بالكاد تكفي شخصين، كان يُحاول أن يبدو طبيعيًا وكأنه شيء عادي أن تكون معه في شقّته، لكنها لاحظت أن أمرًا ما يشغله، تحدثت في أمور عادية ولم تُعلّق على شقّته التي بدت لها بسيطة تكاد تكون خالية من القطع المُفيدة الأكثر استعمالاً وبها قطع من الأثاث لا معنى لها، مثل عِدة كومديونات ومكتبة صغيرة خالية إضافة لمكتبة الكتب الكبيرة، ووسائد أرضية مُتناثرة بدون ترتيب، شغّل أسطوانة لموسيقى التكنو وحدّثها عنها قليلاً وشرح لها أنها تُهدّئ الأعصاب، كان يتحدّث ببراعة مُحاولاً أن يُبدّد توتره الذي بدا جليًا، ثم أمسك بكتاب عرفت أنه لجُبران خليل جُبران وقرأ عليها نصًا:

هل اتخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور..

فتتبعت السواقي وتسلقت الصخور..

هل تحممت بعطر وتنشقت بنور..

وشربت الفجر خمرًا من كؤوس من أثير..

كانت أول مرة تسمعه، وكان مناسبًا لمشاعرها التي تنبض بالسرور، شعرت أن الأبيات تُشبِهه إلى حد كبير، فهو الغريب الذي يسكن الغاب والذي جعلها تهجر مُدتها وتلهث وراءه في شغف، قالت دون وعي كأن روحها هي من تكلّمت "أحِبُك.."، التقط قلمًا من منضدة قريبة وأمسك بكفّها وكتب ببطنه "أُحِبُكِ وأشتهيكِ"، خارت قواها وشعرت أنها أمام عاصفة هوجاء، حدجته بنظرة حازمة وهي تُحاول أن تمسح ما كتب، فضحك وقال لها إنها لو مسحته سيكتبه على منطقة أخرى بجسدها أشد خطورة، شعرت أن الأرض تميد بها، لا يُمكِنها أن تتحمل كل هذا الإغواء من رجل هو أول من فضّ بكارة مشاعرها، لكنها أصرّت على أن تُمسِك بزمام الأمور، فحدثته بلهجة جادة عن الأحداث السياسية الراهنة، وعن عملها ومُضايقات زميلاتها لها، تطرقت لعدة مواضيع رتيبة، غير أنه لم يكن يرُد عليها أو يسمعها وطفق يُغنّي ويُلقي عليها النكات الغريبة ويحكي لها الحكايات التي تحبس الأنفاس والجُمل الحميمية، وكانت تعشق هرطقته.

ثم أحضر حاسوبه المحمول وجلس جوارها بطريقة تلقائية وفتحه على موقع لجريدة جديدة بدأت في الانتشار بعد الثورة وسُمعتها جيدة غير

مُنحازة لطائفة ما، كان قد أرسل لها عِدة مقالات أعجبته بها، ثم أخبرها بين حديثهما وتعقيبه على المقال أمامهما أنه تعاقد مع الجريدة وسينزل أول مقال له بها مع بداية الشهر، كانت فرحتها أكبر من فرحتها عندما استلمت عملها في شركة الملابس، لا تذكُر أو تعرف كيف اقتربت منه في حميمية وبكل شوق امرأة تُحِب أمسكت برأسه بين يديها وقبّلته بنهم وهوس ليس له مُقدمات، أفرغت بين شفتيه شوق الأسابيع الماضية في غيابه. "صاخِبة"، هكذا همس بأذنها بعد القُبلة، لم يكن يتخيل ردة فعلها ولو كان يعلم ربما كان سعى إلى العمل منذ عرفها، فاجأته بإقبالها وهو من كان يبدأ دائمًا بالغزل ويسرق منها القُبل وهي تتمنع في دلال، حاولت أن تعود كما كانت فراحت تسأله عن المقالات التي سيكتبها والجريدة والتفاصيل، لكنها حرصت ألا تستفيض في الحديث عن العمل حتى لا يُراجع نفسه أو يعود لقناعته القديمة بأن العمل أكبر قيد للحُرّية، وكانت سعادتها كبيرة لأنها ربطت التغيّر الذي طرأ على أفكاره بقصة حبهما، وشعرت أن لها تأثيرًا ولو طفيفًا عليه وهو الذي تتأثر الناس به عادة، صحيح أنها حافظت على نفسها واستقلالها من التأثُر به وتجنبت أن تذوب في شخصه وتصطبغ بلونه، لكن هذا لا يمنع أنها كانت تلميذة قلبه النجيبة وتعلمت منه قواعد العشق والجنون وحررت معه كل طيورها المحبوسة وظهرت أمامه باختلالها الذي عشقه دون تردد.

لكنه لم يعبأ بعودتها للحديث الجاد ولم يرُد على أسئلتها التي لم يسمعها أصلاً، فقد سرت الدماء الملتهبة في عروقه واقترب منها لينهل المزيد من

القُبل، حتى كادت تذوب بين شفتيه، فدفعته برفق ونهضت بحجّة صُنع النسكافيه، لم تسأله عن المطبخ، بحثت عنه بنفسها ودخلته كأنه مطبخها الذي طالما أعدّت فيه الطعام وتعرّقت من حرارته، دخل وراءها المطبخ وقبل أن تضع السُكّر في الأكواب شعرت به عِند ظهرها، مُلتصقًا بها، إنه الحُضن الذي قرأت عنه كثيرًا وحلمت به دائمًا، فكانت كلما وقفت بالمطبخ تخيلت أن حسن مُلتصقًا بظهرها يُداعبها كزوجته ثم يقف معها يُساعدها ويحكي لها عن يومه، وهي تخفِق وتطحن وتُقلِّب، وتحقق خيالها أخيرًا، الواقع أجمل وأدفأ لكنه أقصر، سُرعان ما ينتهي، أمّا الخيال فلا نهاية له، استسلمت لشعورها بأنه زوجها الحبيب الذي يُداعبها وهي تطهو له الطعام، فيُصبح أشهى وألذّ بأنفاس عاشقين، استسلمت أيضًا لشفتيه وهي توشم مؤخرة عُنُقها، ولذراعيه وهو يحملها ويسير بها برفق حتى يصل للأريكة الواسعة ويضعها هناك دون أن يُفلتها من بين ذراعيه، ثم يستكمل قُبُلاته التي تزداد مجونًا مع الوقت ويستخدم فيها كل أسلحته، لسانه وأسنانه، ولُعابه، تحاول هي عبثًا أن تُفلت من يديه، فتنفك طرحتها الرقيقة وينفرط شعرها على وجهها.

توقف ونظر لشعرها كأنه لأول مرة يرى فتاة بدون حجاب، مرر أصابعه فيه برقّة واقترب من رأسها يتشمم رائحة شعرها العذبة، وينفث فيه أنفاسه التي شعرت أنها اخترقت المسام ووصلت لتسبح في دمائها، حلم آخر يتحقق، يبدو أنها ليلة تحقيق الأحلام، توسدت صدره وهو لازال يُداعب شعرها، سمعت نبضاته فارتعشت وتمنّت لو تغوص فيه وتبقى

داخله للأبد، كان صدره أجمل وأأمن مكان على وجه الأرض، لا تذكر كم من الوقت مضى وهي تبكي فوق صدره كأنها تبُثّه ألمها من يوم أن فتحت عينيها على الدنيا حتى هذه اللحظة، لم تفق إلا على يده التي امتدت لتفُك أزرار بلوزتها، كانت هائمة، سعيدة وخائفة، لم تدرِ ماذا تفعل إزاء كل هذه السعادة وكل هذا الخوف، ياليتها لا تخاف فتستمتع بلحظات تحقيق أحلامها معه، وليتها لم تكن بهذا القدر من السعادة التي تسلبها إرادتها وتجعلها لا تقوى على أن تقول (لا)، يُداعب جسدها كأنه يُداعب مُهرًا صغير برِقّة وإثارة تجمعت من كل العالم في أطراف أصابعه، كان يهذي بكلمات لم تتبين مُعظمها لكنها شعرت أنها غزل بذيء يثير شهوتها أكثر، وسمعته بوضوح وهو يُناديها بـ"لبؤة" ويُخبرها أن هذا هو اللقب الذي طالما شعر أنه يليق بها وتمنى لو يناديها به دائمًا أبدًا، كانت تئن وتتأوه كساقِطة، حتى إنها لم تعرف صوتها عندما سمعته، شعرت بأصابعه عند بطنها، تذكّرت أن هذه هي نقطة ضعفها في جسدها فأمسكت بيده وهي تقول: "ليس هنا.. أكره بطني"، فانحنى على بطنها يُقبلها بنهم كأنه يلتهم الحلوى، وقال: "إنها أجمل بطن رأيتها في حياتي"، شعرت بالدوار الشديد وشراسة تجتاحها تجعلها تتلوى وتصرخ في جنون، لمست موضِع الجرح عِند صدره العاري، فلم تتردد أن تلثمه كما فعلت دائمًا في خيالها، أثاره لسانها الجائع فاقترب أكثر، وبين مجون اللحظة حاولت أن تسترجع صورًا لأبيها وأمها، حاولت أن تتذكُر أي كلمة تعلمتها عن الفضيلة وأي آية حفظتها عن العفّة دون فائدة، لا شيء بإمكانه أن

يقف أمام الفيضان الكبير، وهذه السيول التي اجتاحتها أين المفر منها، لكنها رغم ذلك كانت واعية وقادرة على اتخاذ قرار.

كانت هذه هي لحظة الاختيار، تذكرت كل المواقف المُشابهة التي شاهدتها في الأفلام أو قرأت عنها لفتيات ضعفن أمام مشاعرهن، وأدركت حينها فقط أنهن لسن ضحايا أو أن الحياة لم تترك لهن خيارًا آخر، كان بإمكانهن أن يقُلن لا أو نعم، لكنهن اخترن سطوة الشغف والعشق، هي أيضًا ليست ضحية، أتت هنا وهي تضع ما يحدث كأحد توقعاتها الأرجح، أتت وهي جميلة وجاهزة لشيء ما، لم تكن مُغيّبة أو ساذجة، كانت مُدركة تمامًا أن العشق والرغبة يُمزقانهما، ومع ذلك أتت، لكنها لم تحسبها، لم تحسب ردة فعلها، اكتفت بالخيال الجميل، هل تترك نفسها له ولرغبتها فيه فتموت داخلها المرأة الشريفة للأبد، أم تصرخ في وجهه بادعاءات الشرف والفضيلة وتغادره مرفوعة الرأس، هل كان عليه أن يُحافظ عليها أكثر أم أنه هو الآخر تلاعب بعقله الجنون ولم يترك له فُرصة أخرى للتفكير، وهل سيتركها إذا فعلت، أم سيتركها إذا لم تفعل؟ ولماذا تجعله هو من يُحدد مصيرها؟ هل يريدها له عشيقة ورفيقة كما كانت تسمع وترى في السينما والتليفزيون أم أنه سيتوقف في لحظة الانصهار التام؟ لكن النار لا تهدأ من نفسها، يجب أن تُطفئها المياه، ماذا تنتظر؟ أن تتصل بها والدتها في هذه اللحظة، أن يدق الباب ويكون وراءه ابنها، أن يرتفع صوت الأذان فوقهما، أن تنزل إشارة إلهية من السماء تجعل

نارهما رمادًا؟ إن الله يضعنا في الاختبار ويترك لنا الخيار، لابد أن يكون خيارنا وليس خيار القدر.

وعند اللحظة الحاسمة استجمعت بعضًا من شجاعتها وحاولت أن تُركّز على نصفها الخائف وتتغاضى عن النصف السعيد، فعضّت شفتيه بغضب ودفعته بقسوة وهي تُردد (لا أريد هذا الآن)، وكانت تعلم أن هذه الدفعة كفيلة بألا تجعله يقترب منها ثانية في هذه الليلة، ليس لأنه رجل؛ لكن لأنه حسن، لطمها لطمة صغيرة عصبية ونهض عنها، اختفى بداخل إحدى الغُرف قليلاً ريثما لملمت هي ما بعثره الجنون، مسحت عرقها ووقفت تُهندم نفسها وتلف طرحتها أمام مرآة كبيرة بمدخل الشقّة، كان وجهها أحمر من نشوة الذوبان بين ذراعيه، الكُحل ساح تحت عينيها فجعلها تبدو تعبة، كانت تشعر بالتقزز من نفسها، "ماذا فعلتُ بنفسي؟ كيف أتيتُ إلى هنا؟ ولماذا أتيتُ؟ هل يحتقرني كما أحتقر نفسي في هذه اللحظة؟ أم هل يكون غاضبًا مني لأني لم أجعله يضع نهاية لعذابنا؟ ماذا يُحضّر لي الآن ليُفاجئني به؟".. دخل عليها وقد اختلف مظهره وبدا هادئًا وكأن شيئًا لم يحدث، بادرها باعتذار عن لطمته لها ثم طلب منها برجاء لم تعهده منه أن يتحدثا سويًا قبل أن يُغادرا الشقّة، ووافقت وهي تشعر أنها بدأت تستعيد تحكمها بنفسها، أمسك بيدها يُقبّلها وهو يقول:

- سنظل سويًا طول العُمر.

بدت الجُملة مُستهلكة ولا تليق بشخصيته المُختلِفة، لكنها أحبتها وصدّقتها.

سألته بصوت واهِن: أتساءل إن كُنتُ أصبحتُ في نظرك رخيصة؟

ردّ عليها بغيظ: أنتِ دائمًا امرأة صعبة وهذا ما جذبني فيكِ.. صخبك وصعوبتك.

- ألم تشعر أني تغيرت من امرأة صعبة لأخرى سهلة؟

- إن كان حدث لفقدتك وما كُنت دعوتُك لبيتي.. لم يدخل هذا البيت أحد سواكِ.

- ولكني لم أكن صعبة يا حسن.. كنتُ دائمًا أُطاوعك وأستجيب.

- صعبة يا حُلوتي لا تعني أن تُعانديني وتتمنعي.. صعبة بمعنى أنك مُحترمة.. صعبة الامتلاك.. صعبة المنال.. كالحلم البعيد.. كالهواء لا أكاد ألمسك حتى تضيعي من يدي.

أرخت عينها وردت عليه من بين حيرتها:

- ما معنى وجودنا هنا؟ وما حدث؟

- معناه أننا أردنا أن نكون هنا وأردنا ما حدث..

قالت وهي تتنهد: أنا أخشى المجهول.

رد باستنكار: وهل مازلتُ مجهولاً بالنسبة لكِ؟

- القادم هو المجهول.. القدر.

- القدر جمعنا.. قدرنا أنا وأنتِ وكل منا يشد الآخر لهذا القدر.

صمتت باستسلام وكان جسدها مازال يرتعد، اقترب منها وأحاطها بحنان، ثم قال بهدوء دون مُقدمات:

- كفانا بُعدًا يا عالية.. سأتزوجك.

قالت مبهوتة وهي تُحاول أن تُداري شبح فرحة أطل على روحها ووجهها:

- لكن أنا لست حُرّة..

وكأنها أنزلت آدم من جنّته، ردّ حسن على حوائه:

- أنت وحيدة يا عالية.. وأنا وحيد.. نُحب ونحتاج بعضنا.

قالت بكذب واضح: حتى لو كُنت وحيدة لكني متزوجة.

رد وعيناه تطوفان بوجهها:

- أنا لست صغيرًا يا عالية حتى أُصدّق أن هناك زوجًا يترك زوجته كل هذا الوقت.. ولم أشأ أن أحصل منك على اعتراف بكذبك الذي لا أعلم سببه.

ردت بحيرة: أنا لا أستطيع أن أتزوجك يا حسن حتى لا أخسرك.

قال بنفاد صبر: تخسرينني وأنتِ في بيتي وحُضني ليل نهار!

- نعم يا حسن.. لا أتخيل علاقتنا عادية.. رجل وامرأة كل منهما يحمل مسؤوليات ويحاسب الآخر على مسؤولياته.. ثم نسهر أمام التلفاز صامتين، ويتحول الحب لملل ثم كُره مُقنّع وعداء بعد العديد من المشاكل الحياتية اليومية، التي نقُصّها على بعض الآن ونستمع لبعضنا بشغف.. سيختفي الشغف وأفقدك.

قال بعصبية: لا تُحاسبيني وتحكمي عليّ بناء على ماضي لم يكن لي يد فيه.

قالت باقتناع واستسلام: عندك حق.

استكمل بود وهو يضع يده فوق يدها:

- ثم إن الوحدة لا تعني أن ليس هناك من يُحيط بك، لكن تعني أن ليس هناك من يسكنك، فأنتِ حولك أهلكِ وابنكِ وأنا حولي الكثير من الأصدقاء، لكننا رغم ذلك كُنّا نُعاني من الوحدة.

كأنه لمس جرحها المفتوح، هي بالفعل كانت تشعر قبل أن تعرفه بالخواء، كانت وحيدة رغم كل الزخم حولها، لكنها مازالت مُصرّة ألا تُخبره الآن بأنها بالفعل حُرّة، فهي في حالة لا تسمح لها باتخاذ أي قرارات إضافية،

قفزت من كرسيها ولملمت ثوبها للرحيل وهي تقول "تأخرت"، قفز جوارها دون مُحاولة لأن يُبقيها أو يُلّح عليها، وقال وهو يُرافقها للباب "أكملتِ البيت بوجودك"، ثم نزل معها ورافقها حتى استقلّت سيارتها ثم همس لها: "أنتِ أجمل شيء حصل في حياتي". ودعها بقُبلة أخيرة، سريعة، تَعِبة، وكانت مُستسلمة له تود أن تنام بين شفتيه وألا تُغادِره أبدًا.

مرّت أيام وهي لا تنام ولا تصحو، وقتها كله تُفكّر في كلماته وتستعيد كل لمسة وهمسة بينهما، وكانت تبتسم بسعادة كبيرة كلما تذكرت ما حدث فوق الأريكة وتتأكد أن التقاءهما لن يكون مجرد لقاء أجساد، هناك شيء أكبر جمعهما، ثمة ارتباط روحي جعلها تشعر أن الأجساد تكلمت بلُغة النفوس، كيف شعرت معه بالنشوة عدة مرات وهو لم يمسّ بيت القصيد، وكانت تظن أن نشوتها صعبة ولا أحد بإمكانه أن يُثيرها إلى هذا الحد الذي تتأوه فيه كساقطة، وكانت تظن أن منابعها كادت تجف حتى فوجئت بسيولها التي فاضت لتُثبت بالدليل أنه ترك بها أثرًا لم يتركه أحد من قبل، وبين سعادتها تجتاحها موجة غضب وسخط على كل لحظة أمضتها ببيته، ظلت تتأرجح ما بين السعادة والغضب والتساؤلات الكثيرة تقض مضجعها دون إجابات، هل يريد حقًا أن يتزوجها؟ كيف وهو من ضاق بقيود زواجه الأول وترك زوجته وابنته؟ لكنه كان يضيق بالعمل ومع ذلك غيّر قناعته وسعى للعمل، هل أتى بها لمنزله حتى يزفّ لها خبر العمل ورغبته بالزواج، أم أن وجودهما بهذا القُرب هو ما جعله يتعجل في طلبه؟ لكنها لم تعهده يسعى إلى ما لا يريد، هو لا يسعى لشيء،

عادة يترك نفسه للقدر، لكن لماذا يُفكّر بهذه الطريقة العادية وهي لم تعتد منه إلا الخروج عن القواعد الثابتة؟ لقد كانت تؤمن بالحقائق وهو كان يؤمن بالحُلم.. عندما بدأت تعيش وتنزوي في الأحلام وأخيرًا آمنت بدينه، كانت قد تأخرت.. فهو بدأ يؤمن بالحقائق، لماذا لم يجمعهما دين واحد.

لكنها لن تدخل في هذه الدائرة البغيضة مرة أخرى، لن تُقيّد نفسها حتى وإن كانت القيود عِشقها لحسن، لن ترضخ لأوامر رجل ولن تعود لتُصبح مهمتها الأساسية في الحياة خدمة رجل حتى وإن كان هذا الرجل عشق عُمرها، لن تجلس جواره وهو مشغول بأي شيء تافه عنها، لن تنام جواره وهي تشعر بالبرودة تجتاح عظامها، لن تغار عليه حتى تحترق وتحرقه بنار غيرتها، لن تُحاوطه ويُحاوطها بالمسؤوليات والطلبات التي لن تنتهي، لن تقبل أن يمنعها ويخنق طموحها، ولم تعُد تستطيع أن تُعطيه السعادة التي يتمناها كل رجل من زوجة مُطيعة هيّنة ليّنة، لن تستطيع أن تخضع لكل هذه الضغوط مرة أخرى، وينتهي بهما الأمر زوجين باردين، نادمين، وربما تدخل بينهما الخطيئة الكبرى التي تقضي على كل شيء، الخيانة، لذلك من الأفضل أن تُحافظ على هذه المسافة بينهما، حتى تظل علاقتهما رائعة ومدهشة، حتى يظل الحماس والشغف وتبقى هناك الحواجز والأسرار، الصناديق المفتوحة على مصراعيها لا تُغري بالاقتراب، أما الصناديق الموارِبة نظل بالقرب منها نحلم أن نكشف أسرارها، لماذا يقضيان على العشق بسكين الزواج الباردة؟ واتخذت قرارها، لن تُخبره

أنها حُرّة ولن تتزوجه، إن أراد أن يُبقي عليها فالأفضل أن يظل قلبه مُشتعلاً بعشق لا ينطفئ وليس برغبة تنتهي بالوقت.

في إحدى الليالي الطويلة وهي تجلس أمام الشبّاك رفيق دموعها والوجع دخلت لتشاركهما السهر أمها، كانت تشعر بحيرتها وترددها وما ألمّ بها من توهان، رأتها وهي ساهمة أمام خزانة الملابس حتى إنها نسيت ما كانت توّد فعله، ورأتها وهي تُمثّل أمام الطعام أنها تأكل، ورأتها وهي لا ترد على أسئلة كريم وحواديته الصغيرة، ورأتها وهي تدخل للنوم مُبكرًا حتى تحبس نفسها عن العيون، لكنها انتظرت أيامًا حتى تترك لعالية خيار أن تستخدمها كأم، ولكنها كأم أيضًا لم تستطع أن تنتظر أكثر، أعدّت لهما كوبين من الشاي واخترقت جدار الصمت، بدأت الحديث بقصة صغيرة كعادتها:

- جارتنا الحاجة فاطمة طلبت منّي يد أخيكِ لحفيدتها طالبة الجامعة الأمريكية.

ردّت عالية بشبه ضحكة: الشرع يقول أن نسأله أولاً.

بضحكة كبيرة: هذا رأيي أيضًا..

ثم استكملت: هو لا يُفكّر في الزواج الآن.. خاصة بعد العروس الأخيرة التي رشحتها له..

- عنده حق يا ماما، كانت فتاة جميلة ومُتحققة، شعرت أنها أوسم من أن تتزوج مهندسًا صغيرًا في بداية الطريق.. وهو مثل أخته حالم في دنيا واقعها قبيح.. دعيه يقع في صدفة الحب أولاً، لن يُقنعه ويُرضيه إلا الحب.. أما الزواج التقليدي سيقتل شغفه بالحياة.

انتهزت أمها الفرصة وقفزت في الحوار:

- وأنتِ يا عالية.. ماذا عن صدفة حبك؟ إلام وصلتِ؟

ردّت بتنهيدة: وصلت لنقطة الاختيار..

كانت تُريد أن تُفرغ همّها وبعد أن توطدت علاقتها بأمها أصبح من السهل عليها أن تُشاطرها همومها بعد سنوات من التحفُّظ، فقالت لها بطفولة امرأة تعِبت من كونها مسؤولة عن قرارتها:

- أنا تعِبت.. لا أعرف كيف أتصرف ولا ماهو الصح وما الخطأ.. كل ما تربيت وكبِرت عليه أُوشك أن أكفُر به، لا أدري هل أنا سيدة فاضلة أم أني امرأة عابثة أم أنّي طفلة لم تنضج بعد.. هل أنا ربة منزل وأُم أم أني فتاة مراهقة لها أحلام كبيرة..

بكت بدموع واهِنة.. فردّت عليها أمها بحنو: أنتِ كلهن يا ابنتي.. لا تُحمِّلي نفسك أكبر من طاقتها.. من حقك وأنتِ أم وربّة منزل أن تكون لكِ أحلام، وطبيعي أن تترددي في هذه الفترة الغريبة من عُمرك.. دعيني أُساعدك.

- أنا لا أريد أن أتزوج.. ولا أريد أن أفقد حسن.

- لا تتزوجي، أنتِ مازلتِ في فترة نقاهة.. لا تأخذي قرارات مصيرية.. وهو لو حقًا يُحبك لن تفقديه.

- أنا أكره الزواج.. أخاف أن أكون قد أصبحت مُعقّدة..

- تعرفين يا عالية، رغم اختلافنا إلا أننا كنا مُتشابهتين في حياتنا، كلانا اندفع وراء مشاعره وأعطى حد الترف دون مُقابل وتغاضى عن الكثير، لا تتعجبي، فأنا في سنوات زواجي العشر الأولى كنت أعمل وأتحمل مسؤولية البيت وأصرف راتبي حتى آخر مليم وأستهلك صحتي، حتى أصبحت مريضة منذ شبابي وطفت على الأطباء وحدي، بِعت مصوغاتي وتنازلت عن أن أكون امرأة مُدللة، رضيت بنصيبي بكل حب، حتى شعرت أني أهوي وأن أباك لا يُقدّر كل ما فعلته، بل إنه يتهمني دائمًا بالعصبية والشراسة وأني لست أنثى بما فيه الكفاية، وأنا من أفنيت عُمري من أجلكم، مع الوقت تغيرت، أصبحتُ أقوى وأصبحتُ قادرة على الخصام والقسوة، أصبحتُ أتجاهل نقده وتوقفتُ عن البكاء والضعف، وركّزت جُهدي في تربيتكما، فوجدته هو أيضًا تغيّر وأصبح يخاف على زعلي ويعتمد عليّ ويعترف بفضلي، أنتِ أيضًا أعطيتِ الكثير من حبكِ وصبركِ، ولمّا لم تجدي المقابل تغيرتِ ولم تنتظري حتى يتغير الطرف الآخر، ثم اندمجتِ في حياة أخرى وتحقيق ذاتك.. لكن غلطتنا الأولى من العطاء غير

المشروط لا تعني أن الزواج كله شرّ.. نحن نحتاج لشريك في حياتنا مهما كابرنا، انتظري حتى تشعري برغبة كاملة في الزواج.. ربما يُحدث الله أمرًا.

وكانت تقصد عودة محمود وعودة المياه لمجراها، وفهمت عالية ولم تُعلّق، لأن الموضوع بالنسبة لها كان بعيدًا بُعد السموات السبع عن الأرض، لم تنطق وظلت على صمتها حتى غادرت أمها الغرفة بيأس، واستسلمت هي لمناجاة حيرتها في عيون القمر وبريق النجوم، خيالاتها مع حسن وكل كلمة وحرف.. ونفس.

*****

هاتفته وحددت معه موعدًا جديدًا للقاء، في مكان هادئ له ذِكرى لا تنطفئ، مقهاهما الأول في أحد شوارع وسط المدينة الضيّقة، صوته كان غاضبًا ورنّته المُميّزة مكتومة، شعرت أنه مجهد ومضطر لهذا اللقاء، ربما لأن أيامًا مضت وهي لم تتصل به أو ترُد على اتصالاته، كانت تحتاج أن تُفكّر وحيدة بعيدًا عن سِحر تأثيره عليها، وقد اتخذت قرارها بالفعل، كانت تحلم بأن تكون معه دائمًا، تنام وتصحى على وجوده الحبيب، تُشاركه الطعام والحب ومآسي الحياة، أتراحها وأفراحها، كانت تحلم أن تقضي معه عيدها وتُشارِكه رمضانها وتُسافر معه لكل البقاع، حلمت بأن تُشاهد معه أفلامها المُحببة وترقد بحضنه دون خوف، كانت تحلم أن تذوق ثماره ويذوق ثمارها ورغم ذلك يبقيان في الجنّة، كانت تحلم أن يتمدد رحِمها وتكبر بطنها على جزء منه، لكنها لم تعد تثق بالأحلام التي ما أن تقع على الأرض حتى تُصبح كوابيس، فكان قرارها بأنها لا تُريد الزواج، حتى تُصبح قصة عشقهما خالدة، ويُصبح لها في قلبه مكانة لم تحتلها امرأة في قلب رجل ولن يقضي عليها العادي والملل والزواج.

وصلت قبله كالعادة وجلست لتنتظره على طاولتهما، المكان كان باردًا، طلبت من النادل أن يرفع من درجة حرارة المُكيّف، دون فائدة، يبدو أن

البرودة تخرج من قلبها، راحت تلعب بالكروت الموضوعة على المائدة بعصبية وتتأمل الزهرة البلاستيكية أمامها وهي تشعر بالحياة تنسحب منها لتُشبه روحها القطعة البلاستيكية المصبوغة أمامها، حاولت ألا تستسلم لهواجسها الكئيبة وأن تطرُد الشبح الذي يُطاردها منذ أحبّت وانزلقت للعشق، وبالفعل استطاعت أن تقتنص ابتسامة حقيقية من بين الخوف لتطُل بها على حسن الذي دخل من باب المقهى بنفس طلّته الأولى، يتهادى في سيره وهو يحمل حقيبة تجعله يرفع كتفًا واحدًا، يبتسم وهو ينظر لها بعينيه العميقتين اللتين سحبتاها كالموج العالي منذ أول لقاء، جلس قبالتها كتلك المرة الأولى ولم يجلس جوارها ككل المرّات السابقات، انقبض قلبها من جلسته حتى إنها طلبت منه أن يأتي جوارها، لكنه رفض بحجّة أنه لا يُريد أن يزعجها بدخان سجائره، هذا الدخان الذي كان ينفثه في وجهها مُداعبًا وتُخبئه بين ثيابها حتى تشتمه كلما عصف بها الشوق.

بادرته قبل أن يصل إليهما النادل:

- أريد أن أشرب عصير مانجو طازجًا مثل الذي شربته هنا معك أول مرة.

طلب لها العصير ولنفسه القهوة، وانتظر حتى تبدأ هي بالكلام، كأنه لا يجد ما يقوله، وتكلمت:

- فكّرت طويلاً في الأيام الماضية.. و.. اتخذت قرارًا..

قاطعها وهو يُشعِل سيجارته: قرار يخُصّ ماذا؟

ردت بتوتر وهي لا تعلم إن كان تساؤله جادًا أم أنه أسلوبه الهزلي الذي تعرفه: يخصّنا يا حسن.

قال ببرود كأنه لم يسمع: هل قرأتِ مقالي الأول بالجريدة؟

قالت بصبر: أعرف أنك غاضب مني لكن لابد أن تعذرني فأنا كنتُ أحتاج أن أفكّر وحدي...

استمر على بروده: أنا لست غاضبًا منكِ يا عالية إلا إذا كنتِ لم تقرأي المقال.

قالت كأنها تئن: أرجوك توقف.. أنا أيضًا.. أقصد أني.. موافقة.. فلنتزوج يا حسن.

صمتا وتلألأت الدموع في عينيها، كانت صادقة، لأول مرة تشعر أنها تُريد وتحلُم أن تكون زوجته، تُريد أن تحمل اسمه وتحمل بابنه وتمنحه الجنّة التي لم يطأها أحد قبله، تُريد أن تُكمِل المُجازفة حتى آخر قطرة في الحياة، لكنه لم يُعقّب وطال صمته حتى بكى قلبها خوفًا وقلقًا، ثم أمسك بيدها وهو يقول بصوت هادئ لم تتغير نبرته:

- عالية.. أريد أن أخبرك بأمر حدث في الأيام الماضية.

قالت وهي متوجِّسة خيفة: ماذا حدث؟

- لقد وصلت ابنتي وأمها من هولندا.. ويبدو أنها كانت حزينة وذابلة، لذلك طلبت منها أن تبقى معي بمصر.

سألت كأن الأمر لا يعنيها، كأنها مجرد صديقة: ومدرستها؟ ألن تعود لتستكمل دراستها؟

قال بنفس هدوئه: كنتُ أُفكِّر بالذهاب معها لهولندا.. و...

قاطعته وكانت تصرخ من أعماقها لتتحول الكلمات لمجرد سؤال بارد على شفتيها:

- تذهب إلى هولندا؟!

قال وهو يتحاشى النظر لعينيها: نعم..

استمرت على صراخها: وتترك مصر؟ (صدى السؤال في أعماقها كان.. وتتركني؟!)

- سأستمِر في إرسال مقالاتي للجريدة وسأكون موجودًا دائمًا على صفحات الإنترنت.

- الجريدة وصفحات الإنترنت.. هذا كل شيء؟!

قال وهو يمنع نفسه بصعوبة من التأثّر: لن أغيب طويلاً يا عالية.

قالت وهي تُمسِك رأسها بيدها: ولماذا تعود أصلاً.. فلتُعد زوجتك أفضل وتُقوّي أواصر الأُسرة وتجمعها مرة أخرى.

قال: كنتُ أفكّر في هذا الأمر.. لكني لم أقرر بعد..

كست الدموع وجهها وحاولت أن تُخفيها عن النادل ورواد المكان لكنها لم تُفلح، أسقطت رأسها على صدرها وتمنت أن تموت. لماذا لا تموت الآن وتتخلص من كل هذا العبث، فعاد يقول آخر خُطبه وأسوأها:

- كنتِ دائمًا تسألينني لماذا لا أعود لزوجتي وأحاول من أجل الطفلة، والآن أنا أُنفّذ كلامك، كنتُ أظن أن الحياة هنا بإمكانها أن تمنحني الحُرّية والسعادة، لكن لا وطني تحرر ولا نفسي طالت السعادة، الوطن مازال أسير الجهل والتطرُّف الفكري، ومازالت السياسة عاهِرة تُداعب المصالح، وأنا ضِقت بهذه الأرض، سأحاول أن أجد نفسي في بقعة أخرى.. وهذا لا يعني بالضرورة أننا لن نكون على اتصال.. أنا فقط أنسحب من حياتك الخاصة حتى تستطيعي أن تُصلحي ما أفسدته علاقتنا وتعودي لحياتك واستقرارك.

- هذا رائع.

هكذا تمتمت وعلى وجهها ابتسامة صناعية، حاولت أن تنهض لكن قدميها لم تسعفاها، فصمتت وانتظرت أن يرحل هو، لكنه استمر في حديثه عن المقال والجريدة وكأن شيئًا لم يحدث، نظرت له بكل عينيها

فصمت، كانت تتخيله كما رأته بآخر لقاء، بجذع عارٍ يحتضنها ويضغط رأسها في صدره وهو يلثم جبينها ويشتم شعرها، كانت تبحث عن هذا العاشق في عيني الرجل أمامها، إنها لم تطلب منه وعودًا ولم تَحثُّه على البقاء، هو من اقترب منها وجعلها تُمزِّق كل قواعدها وجعل منطقها ينتحر على عتبة عِشقه، أم تُراها هي من كذبت على نفسها ورأت رغبة الرجل فيه كأنه العشق، ورأت ضعفها وتنازلها عن مبادئها هو منتهى الحب، أين الحقيقة واليقين؟ لقد اختلطت كل الأوراق فما عادت تعرف هل كانت ضحيّة أم أنها المجرِمة، وهل كان عشقًا كبيرًا كما صوّر لها خيالها، أم أنها نزوة وانتهت؟ كانت تتمنى لو كان المكان فارغًا حتى تشدّه من ذراعه وتدفن نفسها فيه وتبكي إلى أن تجف وتموت، كانت تتمنى أن تنهار وتُعاتبه وتصرخ في وجهه، لكن ألمها أكبر من أي عتاب، تمنت أيضًا أن تقف في الصالة الصغيرة بِمنتصف المقهى وترقُص على أنغام اللحن الجنائزي الذي تسمعه وهي تخلع ثيابها قطعة قطعة كراقصة تعرٍّ ثم تُمسِك بأكبر سكين وتغرسها في قلبها وينتهي كل شيء، لم تعد تسمع ما يقوله ولا حتى سمعت نفسها عندما قالت بصوت واهن: "الحمد لله على كل شيء.. الحمد لله على كل شيء".

استجمعت كل غرورها الذي طالما اتهمها به الناس ونهضت بكامل عنفوانها لتُغادِر المكان، سار معها بِضع خطوات لا معنى لها بعد أن غادرا المكان ثم توقفت فجأة لتودّعه، فقال لها وهو يضغط على كفّها دون أن تسحبه كأول مرة: "أُريدك سعيدة". ردّت بعيون لامِعة وابتسامة ضخمة

تمنع الدموع من الانسكاب: "أكيد". تركته وسارت بسرعة دون أن تلتفت وراءها، غطت وجهها بنظارة الشمس الكبيرة وتخللت الفراغات بين الناس بصعوبة دون أن تنتبه أنها تصدم الجميع، وهي تُردد داخلها بسخرية: "أريدك سعيدة". كانت تشعر أنها فتاة رخيصة لا قيمة لها، أم فاشلة وعاشِقة حمقاء، كان شعورها بالهوان يعتصر قلبها حتى إنها شعرت أن الدموع تنساب من كل مسام جسدها وأنها غارقة في مياه الدموع المالحة وعالقة في خُطاف مرشوق في قلبها، وبينما هي تسير بِسرعة وجنون تذكرت أن سيارتها على الرصيف المقابل وأنها تخطتها بكثير، فألقت بنفسها في الشارع دون أي تركيز وفي أقل من ثانية كانت على الأرض، لم تشعر بشيء ولم تسمع إلا صوت همهمات الناس وخوفهم ودعائهم، ثم رحلت عن الوجود.

*****

كان يجلس أمام حاسوبه المحمول وقد انتهى من مقاله الجديد عن أحوال البلد، سمّاه (الوقود أحيانًا أهمّ من الحُريّة) وأرسله، ثم راح يزجي وقته بالرد على رسائل الأصدقاء والصديقات، بين الصديقات أكثر من معجبة، يعرفهن جميعًا ومعتاد على أساليبهن، فهذه لا تتوقف عن التعليق وإبداء الإعجاب ومناقشة كل ما يكتُب حتى وإن كان مزحة عابِرة، وهذه تُلاحقه بالرسائل وتُغرقه بالاطمئنان والاهتمام وتقديم الخدمات وفتح مجالات أوسع لنشر المقالات، وتلك تتظاهر أنها تتجاهله في حين أنها تُغيّر وتُبدل صورها لتُغريه وتُعلّق بكلمات شاذة وأسلوب

جريء على مقالاته، وثلاثتهن يدّعين أنه سيكون له معهن قصة، فتح ثلاث نوافذ للمُحادثة وراح يُراسل ثلاثتهن، بعد ساعة من تساؤلاتهن عن تأخرّ ردوده، استأذنت واحدة بحجّة الصلاة والتعبّد، شعر أنها تودّ أن تقول بهذه الحجّة (أنا متدينة فاظفر بذات الدين)، واستأذنت الثانية بحجّة أن أباها يكره مكوثها على الإنترنت، فهي مُضطرة أن تؤجِّل محادثته لوقت آخر، كانت تودّ أن تقول (أنا بنت ناس محترمين ولست كالباقيات)، أما الثالثة الجريئة فهو من استأذن منها بعد أن تظاهرت أنها سئمت من الكتابة على لوحة المفاتيح وطلبت منه رقم هاتفه لتُحدثه بصوتها أسهل، أرسل لها الرقم ثم أغلق الحاسوب والهاتف، فقد أتعبته قُدرته على أن يعرِف ما يدور بخُلد الفتيات وقراءته لأفكارهن، كان يُدرك أن معظمهن مُدّعيات ومع ذلك يُرضيه إعجابهن ويُبقي عليهن بين قوائمه، (هي كانت حقيقية) هكذا تمتم داخله وهو يتخيل صورة عالية التي تركها منذ ساعات قليلة، لكن صورتها لم تتركه.

اتصل بصديق ليُقابله فلم يجده، اتصل بأمه ولم يجد كلمات يقولها فأنهى المكالمة سريعًا، فتح التلفاز وأغلقه بعد دقائق من البحث بين القنوات عن لا شيء، حاول أن يقرأ فلم يجد في صفحة الكتاب إلا عالية وهي تنظر له بكل عينها ولسانها يأبى أن يُعاتب أو يُعلن غضبه، شعر بشيء بين الصفحات فقلّب فيها ليجد الورقة "بحِبك"، مكتوبة بخطّها الطفولي بقلم شفاه أحمر، مزّقته الورقة ونزلت دموع حارة من عينيه، رآها وهي تتركه وتسير في خطوات مُترنّحة، ودموعها تسقط منها على

الأرض، يشعر بها تتألم الآن، هذا الألم الذي نفقد من ضخامته الإحساس فنُصبح فارغين كبالون ينتظر لحظة الانفجار، تمنّى أن يُحدّثها ويتظاهر أنها كانت دُعابة، أو أن يُعاتبها لأي سبب ويقلب الحقائق فيجعلها هي المذنبة ثم يمنحها مغفرته ويعود، فكّر في الكثير من الأشياء المستحيلة ثم ترك الكتاب الذي يُعذّبه بالأفكار وراح يُقلّب في حاسوبه فوجد نفسه لا إراديًا يتجه لآخر رسائل بينهما، كانت عاطفتهما قويّة، لم يظهر ذلك في كلمات الغزل أو أبيات الشعر أو الأغاني، إنما ظهر في علاقة تُشبِه الكُرات الملوّنة التي يقذفها المُهرّج في الهواء، يقذف كُرة ليتلقف أُخرى في تناغم وإيقاع مُتصل، ترُد على غلاسته بغلاسة أكبر وعلى وقاحته باندهاش وصدمة مُحببة، تتدلل عليه عندما يكون رصينًا وتُداعبه عندما تجده هادئًا، تُقدم نصائحها بشكل غير مباشر كأنها تُذكره بشيء نسيه، وتمتدح كل كلمة وحرف يكتبه، حتى غضبها كان غير جاد أو صارم، غضب عاشقة تغار وتتعذب، كانت بعض حواراتهما تُشبِه القُبل لها نفس الدفء واللذّة والاتصال.

كان قبل مدة قد لاحظ على نفسه أعراضًا غريبة، فهو الذي عرف فتيات بعدد الخُطب التي ألقاها وحضرها لم يضبط نفسه بهذه الحالة من قبل، كان يُفكّر فيها باشتهاء لم يشعره مع أي من حبيباته، حتى أنها أصبحت رفيقة لياليه وأحلامه، لا يكاد يسكن ويصمت الكون من حوله حتى يتخيلها معه وعلى صدره ويراها تنام على رُكبته وهو يمسح شعرها، لا يكاد جسده يمس السرير حتى يراها جواره تناديه بعينيها وتلفّ ساقها

حوله، يفتح عينيه في الصباح ليجد نفسه يتصبب عرقًا كأنه قضى ليله كله معها، روحها سكنته بشكل لم يحدث معه من قبل، هذه الطفلة الشهيّة، الفتاة الساذجة التي لا تملك من خِبرات الحياة سوى القليل، كيف استولت على تفكيره إلى هذا الحد، وهو من كان يظن نفسه عاشق النمِرات المفترسات الجريئات، وقع ضحية قِطة منزلية بعينين طيّبتين لها نظرة إغواء تخُصّه، رأى بعينيه التي تقرأ الفتيات أن روحها مُختلّة تبحث عمن يُنجّيها ويفتح لها الأبواب، وأن وراء هذا الجسد العفيف صخب عاهرة، كان موقنًا من أول لحظة رآها أنها له، لكن لم يتوقع أن يكون هو لها، فهو ضد أن يمتلكه أحد، مفاتِحه لو لم تكن معه لفضّل أن يرمي بها في قاع بعيد حتى لا يمتلك روحه الهمجية أحد.

أصبح يغار، وكان يظن أن الغيرة شيمة من لا يمتلك ثقة كافية بنفسه، أصبح يشتعل كلما رآها تُكلم أحدًا أو يُكلمها أحد، ويرى الحديث العادي همس أحِبة والكلمات المُجاملة هي غزل غير صريح، أصبح يُراقب حركاتها وسكناتها دون أن تشعر ويخور كالثور لو ذكرت زوجها ولو من بعيد، فهو لا يُريد أن يعرف عنه شيئًا حتى لو كان لمصلحة علاقته بها، لا يُريد أن يتذكر وجوده من الأساس، أصبح يُفكّر بها أكثر من تفكيره بنفسه ووطنه ولذّاته، أصبحت هي لذّاته، لكنه كان حريصًا على ألا يجعل هذه المشاعر والتغيرات التي طرأت على حياته تصل لها، فحاول ألا يتصل بها أكثر من مرة في اليوم، ثم جعلها كل عدة أيام وتعذّر بانشغاله، حاول أن يكون جافًا وحادًا معها بعض الأوقات حتى لا تشعر للحظة بأنها امتلكته، وكان

يفتعل الأزمات ويتركها وهو بداخله يعلم أنه سيعود، فقط ليتغلب على حبه لها، فهو لن يرضخ ويستسلم لعاطفته مهما كانت شديدة ومتوهّجة. هكذا مرت به أيام من الحيرة والتردُد وافتعال المشاكل والبُعد، حتى كانت هذه الليلة الرائعة.

ليلة أن كانت في بيته وحضنه، وكادت أن تكون خالصة له، لكنها أبت، يعلم أنه لو أصرّ قليلاً لكانت قبلت وبكل حب، ولأتته تتمسح فيه كالقطط وتئن وتصرخ كما كانت تفعل، لكنه شعر تِجاهها بمسؤولية جديدة عليه، وهو الذي يكره المسؤوليات، شعر أنه يجب أن يُحافظ عليها ويقيها من ضعفها وعِشقها، فهي تعلم أنه الأقوى والأقدر ولا تدري شيئًا عن شعوره بالضعف تجاهها، كان ضعيفًا أمام حزنها ودموعها وعشقها، لكنه لم يُظهر لها ذلك حتى تظل تراه القوي، فأكرم له أن تظن نفسها الأكثر عِشقًا وإخلاصًا من أن تعرف حقيقة أنها له ترياق الحياة، حتى أحسّ في نفسه بأنه يُريدها أكثر من أي شيء، وأن حياته لن تستقيم إلا إذا كانت هي رفيقته، وفي هذه الليلة طلب منها الزواج وكانت نيّته مُبيّتة، لم يأتِ القرار مفاجأة، بل إنه دعاها في هذا اليوم حتى يُخبرها عن عمله الذي وافق عليه من أجلها حتى تستقر حياته معها وحتى يطلُب منها الزواج، لم يكن يطمع أن يتذوقها لكن قُبلتها الحارة أشعلت جمره وجعلته آدم يُريد حواءه وفقط، دون أي مسميات أخرى في الحياة، وتأججت رغبته عندما قاومته، لأول مرة يشعر أنه على أعتاب الجنّة، وأن هذه المرأة هي اكتماله، لكن ترددها في قبول الزواج أزعجه وجرح كبرياءه،

جعله يسقط في هوّة من الضيق من ذاته التي أخطأت عندما عشِقت عِشقًا حقيقيًا، كان يظنها ستفرح وتطير وتوافق بصوت عالٍ، لم يكن يُصدّق حديثها عن كرهها للزواج وتشويهه للمشاعر، كان يظن أن هذا الكلام لا ينطبق عليهما وأنهما خارج الدائرة، لكن هذا الجزع في عينيها نبّأه أنها كانت تعنيهما أيضًا، ماذا تُريد منه إذن، أن يظل الصديق الحبيب أو الحبيب الصديق فحسب؟ تريد أن تسلبه حق الزوج والعاشق؟ أي عشق هذا وهي لا تنام بين ذراعيه، ولا تُشاركه أنفاسه؟ أتُريد أن تقضي حياتها وهي ترسُم وتعمل وتُحِب، وهو يذهب إلى الجحيم؟

عدم ردّها على اتصالاته في الأيام التالية كان قد حسم الموضوع واتخذ قراره بأن يبعد، بُعدًا حقيقيًا هذه المرة، ينسحب ويترك لها باب الصداقة حتى لا تتهمه بالتخلّي عنها تمامًا، يُعطيها ما يستطيع أن يُعطيه من ودّ الأصدقاء، ويحتفظ بروحه حُرّة بدون عذاب وغيرة ورضوخ، سيخرج من عبوديتها وعِشقها الذي طوّق عُنقه ولم يعد يُعطيه البراح الذي كان ينشُده، صحيح أنه هو من علّمها أن تطير وسقاها مفردات الحُرّية لكنه لم يكن يعلم أن طيرانها يعني سجنه، هو أرادها أن تطير معه وله وبأرضه فقط، لا أن تُحلّق بعيدًا ويكون هو جزءًا من سمائها، إن لم يكن دنيتها كلها فهو لن يحبس نفسه في هذا العشق الأناني، وبكل قسوة الرجال وكيدهم دبّر هذه الكذبة وانتظر حتى تظهر كعادتها من كهف التردد ليحسم الأمر، تعمد أن يظهر باردًا وهادئًا بوجه كالقناع حتى ينتهي من مُهمّته دون أن تؤثّر عليه، الغريب أنها قبِلت طلبه للزواج، والأغرب أن

هذا لم يُثنه عن خِطته التي تنازل بها عن كل مشاعره، استمر حتى انتهى وهاله أنه لم يجد منها أي محاولات لتؤثّر عليه أو تؤنبه وتُعاتبه كما كان يظن، استسلمت تمامًا كأنها حمامة أتى أوان ذبحها، كانت كمن تتلقى منه الطعنة في صدرها فتضمه أكثر قبل أن تسقط على الأرض بدون اكتراث بالطعنة، لا تدري أنها تركت آثار دمائها على قميصه وحياته.

لم يُطِق البقاء مع أفكاره، شغّل أسطوانة لموسيقى الحرب، كان يعشقها وأرسلها لها عدة مرات، دارت الموسيقى كالخمر برأسه، فترك نفسه يدور ويخرق الأرض بقدميه ويرقص، أغمض عينيه واستمر في الرقص كرجل صوفي، روحه انفصلت عن جسده وراحت ترقص هي الأخرى في ملكوت آخر بجوار الأرواح الهائمة الحائرة العاشقة المُعذّبة، كان عذابه يُغادره كالسمّ الذي يُغادر المحموم، نفثه نفثه، وقدماه تكاد تحمله وتطير من فوق الأرض، حتى جسده الفتّي أصبح كورقة في مهب ريح عاتية، أوقع بيده التي يُطوحها في سماء الموسيقى مزهرية قريبة، فتهشمت على الأرض، لمست قدماه الأطراف الصغيرة الحادة كسكاكين تُقطّع دون رحمة، ولم يرحم نفسه، استمر في الرقص والدوران، دماؤه تسيل وقدماه تتقطعان وهو مازال يرقص فوق الدماء، لا يشعر سوى بالموسيقى التي رفعته من على الأرض وأعتقت روحه التي تنزف هي الأخرى.

*****

المطارق تدُق رأسها بشكل أفقي ورأسي حتى كادت تمحو تعرجات عقلها وتجعله أملس بلا ذاكِرة ولا إحساس، تشعر أن الدماء تلُفها، تُكفّنها، لقد فقدت شيئًا ما، ليس فقط بصرها، عضوًا فيها قد بُتِر، ربما قدمها فهي لا تقوى على النهوض، أو ذراعها فهي لا تستطيع أن تلمس شيئًا، ليس قلبها فهي مازالت تشعر بنبضاته ثقيلة على صدرها كخطوات عملاق، وليس عقلها الذي مازال يُفكّر ويُخمّن، تشعر أنه عضو أكثر حميمية من قدمها وذراعها، عضو واحد لا بديل له صناعي أو بلاستيكي، عضو ينزف كل شهر، يبكي وقت التعب قطرات لزجة حارة، يحزن عندما يُصيبها التوتر، ويسيل لُعابه وعسله عندما يشتد اشتياقها، هل تكون فقدت رحمها؟ تألمت لهذا الخاطر وشعرت بدموع ساخنة على وجهها، الرحِم لا يعني الزواج والإنجاب، الرحِم هو سرّ الوجود والرحمة، هو البيت الدافئ الآمن بجسد كل امرأة، هو موطن الأنوثة واللذّة والأرض الصالحة دائمًا للعشق، ستهوّن عليها أمها وتُخبرها أنه لا فائدة منه، فقد تزوجت وأنجبت ثم إنه ليس بعضو ظاهر، لا أحد يعرف أنه أكثر أعضاء الأنثى بروزًا، وهو مصدر الثقة والاعتزاز، أنا أنثى، أنا رحِم يمشي على الأرض.

الضوء يتسلل، إذن فالبصر مازال موجودًا، يد أمها تمسح رأسها، فهي تعرف يد أمها المدموجة، الصغيرة مثل يديها، وتعرف لمستها التي تُعيدها طِفلة بضفيرتين، سمعتها تُغمغم بآيات الحمد والشكر، وسمعت والدها يُداعبها ويقول "عُمر الشقي بقي"، ثم قبّلها برفق وهي تفتح عينيها لتراهما بوضوح، سألت بصوت ضعيف: "ماذا حدث؟" فأجابتها أمها بصوت سعيد صافٍ:

- يبدو أن سيارة صدمتك وأنتِ تعبرين الشارع، لكن صاحبة السيارة بنت حلال أتت بك إلى هنا ومازالت تنتظر في الخارج.

سألت بتردد وخوف: هل فقدت شيئًا؟ أقصد هل رحِمي...

قاطعتها أمها بهلع: العياذُ بالله.. أنتِ بألف خير.. لا شيء سوى كدمات بسيطة، الخضّة هي التي جعلتك تفقدين وعيك.. حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي.

اطمأنت عالية وإن كان شعورها بالفقد لم يُغادرها، دخلت عليها شابة صغيرة طيبة الوجه وفي عينيها الفزع، طمأنتها، وعندما غادر أبوها وأمها الغرفة للقيام بإجراءات المستشفى، اعتذرت من الفتاة وأخبرتها أنه كان خطأها لأنها كانت تعبر الشارع بدون تركيز ولم ترها أو حتى تشعر بها، فأجابتها الفتاة التي لم تُفق من فزعها بعد:

- لا، لا، أنا المسؤولة، أنا التي أخطأت لأني كُنت أكتب رسالة وأبكي وأنا أقود السيارة فلم أرك بدوري.

ثم لم تتمالك نفسها وبكت، وأخرجت هاتفها لتُري عالية الرسالة التي كانت تكتبها (أرجوك عُد.. أنا أحتاج إليك)، ابتسمت عالية بمرارة وسألتها إن كانت أرسلتها أم لا، ولم تكن أرسلتها بعد، ترجتها عالية بحق من جمعهما من دون ميعاد ألا تُرسل الرسالة:

- لا تحتاجي لرجل ولا تنتظري رجلاً.. فمن نحتاج إليهم يرحلون ومن ننتظرهم لا يعودون، الزمن وحده القادر أن يُضمد جراح قلبك.. أما الرجال فهم من يصنعون الجراح.. كيف تنتظرين من المرض أن يُعالجك؟

صمتت الفتاة تُحاول أن تقتنع، ثم فاجأتها عالية طريحة الفراش بأنها أيضًا كانت تُفكّر في كتابة نفس الرسالة عندما كانت تعبُر الشارع أمامها.. ربما يكون نفس النذل، ضحكتا ثم غادرت الفتاة على وعد بمقابلة أخرى. عندما عادت للبيت كانت إنسانة أخرى، حاولت أن تستجدي البريئة فيها لتعود مرة أخرى وتتخلص من ثوبها الذي دنسه الزواج والانتقام والعشق، لم تكن تخلصت من ألمها بعد، فمازالت تصحو في منتصف الليل لتبكي وتنام بعد ساعات من الأرق، مازالت بين الحين والآخر تنظر حولها وتبحث عن دليل ملموس أنه كان في حياتها، أنه كان عشقًا حقيقيًا، بحثت في خزانتها وسريرها فلم تجد سوى بقايا أحلام مذبوحة والكثير من الدموع، بحثت في السيارة فلم تجد إلا بقايا رماد

دخانه، بحثت في كل أشيائها، فلم تجد له أثرًا، إنها قد تُسامحه على كل شيء، كل شيء، إلا أنه لم يُحضر لها هدية، لا شيء عندها يُذكِّرها به، ولا حتى ورودًا جافة تحمل عبق الحب وجلاله، قدّم لها قطعة من الغابة بوحشيتها والصخب والجنون، ولم يُقدّم لها الزهور.

بحثت حتى أنهكها البحث، ولم تتأكد إن كان هنا ورحل أم أنه لم يظهر في حياتها قط، فهو لم يترك خلفه غير غيابه المُذهل، الغريب أنها لم تكن ناقمة عليه، ولا تمنت له الشر أو لامت عليه أو اعتبرته نذلاً آخر ومُخرجًا جديدًا لمسرحيات الخذلان الشهيرة التي يقوم ببطولتها عُشاق ظنّوا أنهم حقيقون، ما كان يشغلها ويحول بينها وبين الحياة هو غيابه المجدول بالألم، كانت تسأل نفسها كيف تحملت حضوره الرائع بدنياها ولم تتلاشَ من فرط النشوة والهوس، حضوره كان يضع السحر في كل الأشياء حوله، ليس فقط هذا السحر الذي اجتذب كل حواساها، إنما أيضًا الأشياء الخالية من الحياة، كانت مدينة له ببث الروح فيها، لم تكن الشوارع التي مرّا بها والأماكن التي ارتاداها إلا شيء من الأساطير، لم تكن حواراتهما ورسائلهما إلا جزء من رواية لم تُكتب بعد، كل ما بينهما كان حلمًا، لم تجد شيئًا من الحقيقة التي كانت تبحث عنها.

لم تنزوِ وتبكِ جراحها كالمرات السابقة، كانت عادية، تعيش وتتنفس، تُشاركهم الحديث والضحك، تخرج وتواجِه الشمس والليل، وترى البشر وتنظر في عيونهم، لكنها كانت فارغة، هذا الفراغ الذي منعها من الذهاب للعمل، بل وجعلها تطلب فصلها منه دون أن تلوي على شيء، لم تُقرر

شيئًا لحياتها، فقط تركت نفسها للمكتوب، لن تحاول أن تُقدم على شيء مرة أخرى ولن تستخدم جناحيها، فقد انتهى زمن المجازفة، هي الآن لا تريد إلا أن تسير بجوار حائط حتى تنتهي حياتها في أمان وتتكوم وتموت، لا شيء يستحق الحياة كما كانت تفهمها، بالأمس كانت شابة صغيرة تنظر للحب من تحت لفوق وتتركه بكبرياء وترفُّع، كانت تظن أن لا أحد يستحق كل هذه المفاجآت الجميلة التي تحتفظ بها في قلبها، احتفظت بمشاعرها بِكرًا، وعندما وجدت صديقاتها من حولها يقُمن ببطولات مُطلقة في قصص حب لطيفة، تمنّت وحلمت وغزلت قصتها الخاصة جدًا، وعندما مرّت الأيام ولم تجد أن حلمها يمسّ الواقع استسلمت للواقع، حتى أتى الحلم بعد كل هذه السنوات ليُداعبها مرة أخرى ويؤكد لها أن مشاعرها وهي المرأة التي اقتربت من الثلاثين مازالت بِكرًا، فكيف بعد أن فضّ هذا الغريب بكارة مشاعرها تنساه؟ كيف تنساه؟ إن المرأة لا تنسى أبدًا أول رجل يخدش قلبها.

المشكلة أنها لم تعش قصص الحب المراهقة ولا حتى قصص الحب الناضجة، فلم تعرف قبلاً معنى الفُراق، لم تُمارس هذا الفعل أو تعيشه، عندما رحل محمود كانت قد استنزفت كل مشاعرها فلم تشعر بلوعة الفُراق، آلمها غيابه بحكم العِشرة والسنين، لكنه لم يؤذها كفُراق الأحبّة، حتى الفُراقات السابقات بينها وبين حسن كانت أشبه بخصام طال أم قصر، أما هذه المرة فهي ليست غاضبة غضب الخصام وليست حزينة ومشتاقة ومنتظرة للحظة العودة، هذه المرة هي تعيش الحياة بإحساس

الفقد. لقد فقدت شيئًا ما من لحمها ودمها، كنُطفة طفل صغير بدأت في النمو ومِلء جسدها. إحساس غريب أن تعيش حياتك بشعور النقصان، لم يكن يُحطمها في المرات السابقات سوى الأمل في عودته. لم تكن تعلم أن الفُراق الحقيقي بلا أمل، تُعذبها خيالاته، فتهرع وراءها كالمجنونة، صوته الذي كانت تسمعه، تقويم جسده النحيف الطويل الفتيّ الذي كانت تراه في الشوارع فيخطف قلبها، خطواته الهادئة الواثقة التي كانت تلمحها فتنتفض، رقم هاتفه والرسائل التي كانت تُطالعها كل دقيقة، كأنما لتؤكد لنفسها أنه كان هنا. أسوأ شيء في الفراق هي الجُمل التي تتردد داخلنا "لن أراه ثانية"، "لن أسمع صوته"، "لن يُغازلني"، "لن أُداعبه"، "لن أتصل به عندما أحتاجه"، "لن أُقابله عندما يستبد بي الشوق"، "لن أراه وهو مُرهق وتَعِب وأكاد أضم رأسه لصدري"، "لن أحضّر له المفاجآت والهدايا"، "لن أسمع كلماته النابية الحُلوة منه وحده"، "لن أكون جواره عندما يحتاج إليّ"، وكل الجمل الكئيبة التي تبدأ بـ لن.

خطر لها أنه من المستحيل أن تكون عرفته ذات يوم، مستحيل أن تكون تعثرت به في ميدان التحرير، بل مستحيل أن تكون ذهبت للميدان من الأساس، مستحيل أن تكون أحبّته وتلقّت حبه. لم تعُد واثقة أن شيئًا بينهما حدث فعلاً، وليس لديها شيء منه، أو يخُصّه، لا هدية، لا ذكرى، لا دليل. تملك بالطبع أثره على شفتيها والتواء جسده فوقها قبل أن تدفعه، تملك أصابعه وأنفاسه بين طيّات شعرها، لا شيء أكثر، لن

يُصدّق أحد أن كان بينهما شيء في يوم من الأيام، هي نفسها لا تُصدّق، إن ما بينهما سرّ سوف يأتي الوقت ويتلاشى، لن ينكشف، لأن أغلبه كان خيالاً. والخيال يتلاشى لكن لا يموت، كانت دائمًا تبكي وتشعر بطعنات الغدر كلما بعد عنها، أما الآن فهي رغم كل شيء آمنة وغير أسِفة، مازالت تحتفظ بعبق شيء رائع حدث في حياتها لكنه لم يكتمل، ولا تغزل في خيالها فصولاً إضافية للقصة، فقد نزل تتر النهاية لكنها نهاية بدون قُبل.

كانت تزور مروة لتُبارك لها على مولودها الجديد "حسن"، ما أغربه هذا القدر الذي يزج بالذكرى في طريقنا لتتوقف أنفاسنا للحظة ونشهق رغمًا عنا بالحنين، كان منزل مروة مختلفًا، أصبح له رائحة اللبن المُقطّر الذي تنزّه الأثداء، وكريمات الأطفال المُنعشة، والحفاضات الملوّثة، وكانت له رائحة أخرى من الحميمية والدفء، مروة أيضًا كانت مُختلِفة، زاد وزنها فبدت وهي بوجه خالٍ من المساحيق وترتدي فستانًا قُطنيًا خفيفًا بفتحة صدر واسعة، تعقص شعرها عاليًا وحولها هالة من الأمومة العميقة المُتشعّبة، أشبه بآلهة ربّات المنازل، اعتادت أن تكون دائمًا بين صديقاتها محط الأنظار والحسد، بجمالها الأرستقراطي وأخلاقها النبيلة وأدبها الجمّ، ومؤخرًا بتحررها وجموحها، يقلن إنها شُعلة لا تنطفئ وطموح لا يهدأ وشباب لا يغيب، كانت دائمًا خارج نطاق الزوجات العاديات، فروحها روح شابة مختلة لن تنضج أبدًا، كلهن كُنّ يسردن أحزانهن وأوجاعهن ووحدها تحكي عن أجمل أخبارها وتتباهى بلحظات السعادة القليلة في حياتها، لكنها الآن ولأول مرة تشعر أنها تحسد مروة، تحسد

هذه المرأة المُرتاحة، ممتلئة الجسم، ثابتة الخطوة، هادئة الوجه، المرأة التي تجلس وسط بيتها كأنها ملكة على عرش، هي ليست خائفة ولا متوترة، هي موقِنة بأنها سيدة البيت وصاحبة الكلمة، البيت مُرتّب ودافئ برائحة الكعك المنزلي، الطفلان هادئان مُستقرّان كأنهما الملائكة، وهي تُقدّم لها الكعك ولا تتوقف عن تدليل طفلها الرضيع، في قلبها رجل وطفلان وفي عقلها لا شيء سوى كيف تُسعد الرجل والطفلان، حسدتها.. كثيرًا.

قررت أن تمكُث في بيتها حتى لا تحرق الناس بهذه العادة الجديدة التي اكتسبتها، الحسد، كانت تحمي الناس من هذا الشرر الذي انطلق عُنوة من عينيها ليحرق أحبتها من حولها، ستُغلق عينيها وقلبها وقاها إن لزم الأمر، حتى لا تؤذي أحدًا، وفي خضم هذه الحالة التي سيطرت عليها من الهروب والجزع من تُرهات النفس الضعيفة، أتاها اتصال غير متوقّع من صاحب شركة الملابس، كانت أول مرة يتصل بها، عرفته من صوته الرخيم ولهجته المَرِحة، اطمأن عليها ثم قال بلهجة أكثر حماسًا:

- موعدنا يوم الخميس الثامن عشر من نوفمبر.. أي بعد شهر ونصف من الآن.

ردت مُستفهِمة: أي موعد يا أستاذ.. ؟

- إنه الموعد الذي حددته لنا الوكالة العالمية لخطوط الأزياء للقيام بديفليه عالمي بمدينة الأقصر.

ابتسمت وابتسمت كلماتها وهي تُبارك له، فاستكمل بلهجة أب ومُعلم:

- ثقتي بكِ كبيرة، أنا أراهن عليكِ وعلى انسيابية وجرأة خطوطك.

انفرجت أساريرها ولم تمنع نفسها من إبداء فرحتها وحماسها:

- وأنا سأكون عند ثقتك بي يا أستاذي.. أنا أحتاج لهذا الحدث وللرسم والتصميم أكثر من أي وقت مضى.

- أنا أعرف يا عالية.. أعرف أن اختلالك وتغيّبك في الفترة الماضية لن يكون سوى دافع أكبر لك للمزيد من الإبداع، أتعرفين أن أجمل الموديلات وأكثرها إبداعًا تلك التي رسمتها وأنا تحت وطأة ضغوط الحياة؟ الضغط والألم يولّدان أصابع أكثر حساسية وأفكارًا أكثر وضوحًا وشفافية، وأنا منذ رأيتك لمحت في عينيكِ هذا الحزن الشفيف الذي يجرح مثل جرح الورق لأطراف الأصابع، لكني أيضًا رأيت لمعة الثقة وبهاء المُبدعين، ستذهبين غدًا للمكتب وتبدأين في العمل، وسأحضر بنفسي البروفات.

هذه اليد التي تمتد من بين الصحاري القاحِلة لتُربت على قلبك، هذا الشهاب الذي يجتاح داخلك المُنطفئ، هذا الأزرق الصافي الذي يخترق ألوانك الرمادية، فيُعيد الألوان للسماء والبحر والنهر العذب، إنها أشياء لا تحدُث إلا عندما تكون بؤرة الإيمان داخلك لم تتلوث بعد، بعض الإيمان يكفي لأن يجعل من الحياة فرصة كبيرة لا تملك إلا أن تقتنصها،

الكُفر هو بداية السقوط، وهي رغم كل شيء لم تقترب منه شبرًا، مازالت تؤمن بالحياة والرحمة والسعادة والمجازفات، لن تخذل هذا العجوز الطموح ولن تخذل أحلامها مرة أخرى.

ذهبت للعمل بروح جديدة، لكنها ما أن وصلت حتى داهمتها الذكريات بكل قوتها وعنفها، من قال إن الذكريات رفيقة الليل وأن النهار طيب بريء، الشارع الخالي الذي كانت تصفّ فيه سيارتها ثم تُحدّثه، الرصيف الذي كانت تقف به لتُحدثه، النافذة والشخبطة التي كانت تُشخبطها عليها وهو يُحدثها، الدرج الذي كانت تتقافز عليه عندما يرنّ الهاتف برقمه، مدخل البناية القريبة التي كانت تختبئ به لتُداري وجهها المُتلبد بالرغبة والخجل والعشق وهو يُحدّثها، والبناية الأخرى التي صعد معها إليها في مرة عندما زارها في العمل، بحجّة أن بها مكتبة قديمة، ثم قبّلها على الدرج المُظلم كمراهقين، ولم تكن هناك مكتبة، إنها الذكريات تشدّها من ذراعها، تُذكّرها باتصاله الصباحي العذب الذي كان يصنع يومها، بصوته الذي كان يهوّن عليها ساعات العمل ويُحلّي قهوتها وطعامها ونهارها، بكلماته التي كانت تسحبها من الأرض للجنّة، بوهج مشاعره الصباحية، بسرحانها فيه وهي على المكتب، بشوقها إليه، بانتظارها ولهفتها على لقائه، هاهي الآن وحيدة، فارغة، بارِدة، مذبوحة بسكين.

يوم ثقيل يجُرّ الآخر، حتى بدأت المدارس وأصبح لها مهمة أخرى، هي توصيل كريم عند الصباح للمدرسة، حضرت معه الطابور الصباحي

ورأته وهو يُغني ويتريض، كان جميلاً بين الأولاد، رجل صغير له عينها وشعر والده الأسود الكثيف، كان ينظر لها بين الحين والآخر ويبتسم، شعرت أنها لأول مرة تراه منذ مدة، لأول مرة تنظر له كأم تريد أن يكون ابنها أسعد وأفضل من في الوجود، وهي في طريقها للعمل كانت تُفكّر في كريم، كيف أنه كبر وأصبح في الصف الثاني ويحتاج لأن تكون صديقة مُتفهمة وليس فقط أم تُدلل وتُربّي، فكّرت أن تُخصص له وقتًا للمذاكرة وأن تشتري سبّورة ولوحات كبيرة للكتابة والرسم، تُعلقهم في غرفته، لتجعل من المذاكرة متعة، ثم فكّرت أن تصطحبه للسينما ومسارح الأطفال في العطلة وأن تشتري له قصصًا ليبدأ بالقراءة وتناقشه فيها، خطر ببالها فجأة أنها المرة الأولى منذ أكثر من عام التي تُفكّر فيها في شيء غير مشاعرها، كم كانت أنانية، كيف يكون لها هذا الوسيم الصغير وليد رحِمها، ولا تدع له ولو بعض مشاعرها، ألا يستحق منها الحب المُغلف باللهفة والاهتمام، ثم إنه الوحيد في الدنيا الذي يُحبها بدون سبب ويُعطيها ولا ينتظر ويريدها سعيدة دائمًا، أصبح له عالمه الخيالي منذ أشاحت بمشاعرها عنه، لكن هذا لم يمنعه من متابعتها وإدراك لحظات سعادتها ويأسها، كان يُطبطب عليها دون أن تشعر ويهبها قُبُلاته ويُلقي عليها نكاته، وكانت لا تسمع ولا ترى، لكن هذه اللحظة التي اكتشفت فيها أنها أخيرًا خرجت من عباءة التفكير في رجل، لن تكون الأخيرة ستكون البداية للحظات كثيرة حُرّة وحُلوة بلا ألم.

أصبحت أكثر تركيزًا في حياتها وعملها، وأصبح معظم وقتها لكريم، تخرج معه دائمًا لشراء الأشياء ولحضور التدريبات والتنزُّه، وأصبحت تُشاركه المذاكرة واللعب، تعرفت على أصدقائه ودعتهم في البيت عدة مرات، وسمحت له أن يلعب معهم الكُرة التي كانت تحرمه منها خوفًا عليه من الإصابة، أصبحت تُشجعه وتُصفِّر له في التدريبات لتُشعِل حماسه، وعوّدته على القراءة كل يوم، وأرسلته إلى مقرأة لحفظ القُرآن، كانت تحاول بكل ما فيها أن تحميه وتُحصّنه ضد الوجع، وأن تجعله يعيش ويُجرب كل الأشياء التي لم تعشها، ضحكا سويًا ولعبا، تناولا الحلوى وتبادلا الأدوار في مرح، لكنها لم تُشفَ تمامًا، كانت هذه النوبات الحادة من الاشتياق تنتابها فتنتحي بنفسها وتبكي وحيدة وهي تتجرع مرارة الفُراق ثم تستسلم له في يأس، عندما بدأت البروفات اشتدّ حماسها وأتى صاحب الشركة ليُشعل الشغف الخامل فيها، صحيح أنه أشاد بعملها وخطوطها، لكنها لم تشعر أنها أعطت المطلوب، ليس هذا كل ما عندها، وراحت تقضي الليالي الباقية قبل موعد السفر تُعدّل وتُضيف لتصاميمها، كانت تنقصها بعض القطع المعدنية والأحجار لم تجدها بالمحال القريبة المتعارف عليها، لذلك نزلت وسط المدينة لهذا المحل القديم الذي تعرف جيدًا أنها ستجد غايتها عنده.

وسط البلد، هذا الحي الذي كانت تتحاشاه وتتجنبه حتى لا تصدمها الذكريات، سارت في تحفُظ وهي تلملم أطراف ثوبها حتى لا تعلق بآثار خطواته أو بعبق أنفاسه، كانت مُتسلّحة ضد الذكريات بكل لحظة أهانها

فيها، كل لحظة تلكّأ في مُقابلتها أو لم يرد على اتصالها فيها، كل لحظة فارقها فيها ببرود، كل لحظة كان قلبه فيها أقسى من الحجر، اشترت ما تريد وغادرت المحل في خطوات سريعة خائفة، والخائف دائمًا يتعثّر فيما يُخيفه، رأته عند مطلع محطّة المترو، كادت تدعك عينيها لتتأكد أنها لا تحلم، وسيمًا واثقًا كعادته، لاحظت بعض الذبول في عينيه، لم تجد الوهج القديم، لكنه لم يكن وحده، كانت جواره فتاة مُحجّبة عادية الملامح، من هذا النوع الذي لا تتذكره إلا عندما تراه أمامك، ولم يُغفلها، استقرت عيناه عليها فأجفلت واستمرت في السير بخطوات واثقة كأن شيئًا لم يكن، حتى بعدت عنهما ثم استقلت سيارة أجرة وعادت لتحتمي من نفسها ببيتها، ألقت بنفسها على سريرها وقد ملّت من محاولاتها الفاشلة في طرد صورته برفقة الفتاة، فتركت نفسها لأسئلة الذات، وما أصعبها أسئلة الذات، فهي أسئلة لا إجابة لها ولا فائدة منها سوى توسيع بُقعة الألم، ماذا كانت تنتظر منه، أن يبكي عليها ويعيش أسير قصتهما؟ أن يندم ويأتي راكعًا باكيًا؟ ماذا انتظرت منه وهو الذي تركها وانسحب عندما وصلت المشاعر لذروتها، عندما شعرت أنها تسكن صدره، فطردها، ماذا كانت تنتظر منه، وهو الذي اعترف لها مرارًا بقصص حبه الكثيرة والوجود الدائم لفتيات في حياته، وهو الذي قسى وباع وهجر، لماذا انتظرت منه أن يُحافظ على الذكرى، أو على صورته الحبيبة في قلبها؟ إنها يجب ألا تنتظر منه شيئًا، يجب أن تكبس زِر النسيان للأبد، فهذا هو الشيء الوحيد الذي يستحق أن تتعب من أجله، أن تنساه.

لم تسمح لهذه الانتكاسة أن تعبث بها، قاومتها بالصلاة الطويلة والدُعاء، قاومتها بالعقاقير المُضادة للاكتئاب، قاومتها بكريم الذي وعدته أن يكون رفيق سفرها، باقٍ من الزمن يومان على السفر، وبعد أن كان هو بوابتها للتحليق ومُكتشف الأجنحة، لن يقف هذا الغريب حاجزًا أمامها طول العُمر، أحبته غريبًا وسيظل غريبًا لأنه لم يستطع أن يرتقي بنفسه عن هذه الصفة التي التصقت به، غريب من الغُربة وغريب من الغرابة، غريب منحها الأجنحة لكنه أبدًا لم يمنحها الوطن والأمان، كان يحمل لها دائمًا سكين الغدر، وكانت تقف أمامه دائمًا مُتسعة الصدر، كأنها تتمنى وتُرحب بالموت بيده، لكنها الآن قررت أن تكون حيّة، حيّة ترقص وتُغني ولا تعبأ بالألم، أعدّت تصاميمها بعزم ومُثابرة، كانت تُريد أن تصفعه وتصفع كل القيود بنجاحها، وفي البروفة الأخيرة فاجأت مُديرها وباقي زملائها بإضافاتها الجديدة التي جعلت التصاميم تنطق بالروعة، بروح الشرق وبساطة الغرب، وكانت لحظة سعادة حقيقية لم تشعرها منذ شهور عندما وصف صاحب الشركة تصاميمها بالأناقة المُتحررة.

عِند المساء كانت تجلس مُمتقعة في زاوية غرفتها، بعد غد السفر وهي مازالت لم تُعدّ الحقائب أو تُجهّز الفُستان الذي سترتديه في الديفيليه، شيء ما يُعرقلها، كلما نهضت يجذبها مرة أخرى للأسفل، لحظات سعادتها لا تكتمل، مازال شعورها بالنُقصان يُعكر حياتها، دخلت عليها أمها الغرفة فوجدتها تبكي في صمت بدون أي تعبير على وجهها، سألتها بحنو: لماذا تبكين الآن؟ إنه ليس الوقت المناسب للبُكاء.

ردّت بابتسامة باهتة: يبدو أن البكاء أصبح عادتي يا أمي..

- لكنك الآن في مرحلة مهمة يجب أن تضعي تركيزك بها.

أشاحت بيديها كأنها تقول لا يُهم، فعادت أمها تقول:

- هذا التأرجح بين أقصى درجات السعادة وأقصى درجات اليأس، وهذا التخبط بين النجاح والإحباط.. لماذا؟

- لسبب بسيط يا أمي.. لأني أشعر باللاإنتماء.

- لا أفهمك يا ابنتي.

- من الأفضل ألا تفهميني..

وازداد بكاؤها، فضمّتها أمها وهي تقول باكية:

- يا ابنتي النقيّة البريئة.. لا أتحمل أن أراكِ حزينة.

- أنا لستُ نقيّة ولستُ بريئة لو تعلمين.. أنا لستُ ملاكًا يا أمي.

- أنتِ لا تعرفين شيئًا عن الشياطين حولنا، لو عرفتِ لأدركتِ أنكِ ملاك.

ابتسمت عالية بسخرية وهي ترد:

- إلى متى ستحسبينني بريئة يا أمي.. أنا إنسانة ولست ملاكًا، من قال إننا كبشر لا يجب أن نخطئ؟ من نفى عنا بشريتنا؟ من قال إننا يجب أن

نتكلم طول الوقت بصوت هادئ ولا ننفعل ونغضب ونثور؟ من قال إننا يجب أن نكون مُنظّمين دائمًا ولا نُقدّس أحيانًا الفوضى؟ من قال إننا يجب أن نُحب الخير دائمًا ولا نُلبي نداءات الشر والغيرة؟ من قال إننا يجب أن نلعب دائمًا دور الأم والمسؤولية ولا نحتاج بِشدّة لبعض التدليل والكسل؟ من قال إننا نمشي كالملائكة فوق السحاب ونتحسس خطواتنا ولا نتعثر في الأخطاء الأرضية؟ حتى وإن كست البراءة ملامِحنا فهذا لا يعني أن ليس لنا مخالب.

- وهل أصبح خطأي أني ربيتك على أن تكوني ملاكًا؟ أم أنه خطأ الغيلان حولنا؟

- لا يهم من المُخطئ.. المهم أن النتيجة أني أصبحت لا أنتمي للملائكة ولا الغيلان.

صمتت الاثنتان حتى شعرت عالية بأنها في لحظة واحدة ستُدمّر لهذه المرأة كل قناعتها بأن أبناءها ملائكة، وأن تربيتها مثالية والحياة وردية والمشاكل ستنتهي والستار سينزل على عائلة سعيدة مُترابطة من الملائكة. فقبّلت رأسها وقالت وهي تبتسم وتمسح ما بقي من دموع في عينيها:

- حسنًا.. فلتساعديني في اختيار ثوب الحفل.

لماذا يا أمي أخبرتيني أنني لا يجب أن أُخطئ.. عشتُ حياتي أتلمس الصح ولا أُخطئ أبدًا! وقلتِ لي أن الاستغفار ثلاثًا يمحو الذنب.. صدقتك

واستغفرت ولكني لم أندم.. ليس لدي سبيل للندم.. ولم أعرف قبلاً كم هي صعبة.. التوبة.

لماذ يا أمي كل شيء عندك كان جميلاً وأبيض؟ ألا تعرفين أن الحياة بها الكثير من القبح والسواد؟ ماذا أفعل بنظارتي الوردية الآن؟ حطمتها الحياة لو تعرفين.. والطفلة الشقراء الضحوكة داخلي أصبحت تبكي بصوتٍ عالٍ.. وتتمنى لو كانت أخرى.. أقوى.

أتعرفين يا أمي أني أخيرًا تمردت.. ألقيت حذائي العالي ومشيت حافية، استبدلت فستاني الأبيض بآخر أحمر، وشعري المُهذب بآخر غجري، رسمت عيوني بكحل فاحم، نحّيت براءتي، نزعت الاحترام المبالغ من عباراتي، وضعت بمعصمي العديد من الأساور يغطي صوت صليلها صوت بكاء طفلتي الحمقاء، وغادرت أرضك الساذجة، مشيت بسعادة في الأسواق، سهرت أناجي القمر في الطلّ وليس من وراء الشبّاك، وابتسمت للشمس عندما طلّت على عيوني التي لم تنم، ترددت على المقاهي ومشطت الشوارع بحثًا عن ذاتي، رقص قلبي فرحًا بحياة الصعاليك التي طالما نشدها وبحُرّية دبت بين أوصاله.

لكن لم يدم الأمر طويلاً يا أمي.. نظرات الناس لي كانت غريبة، قاسية، قاصية، أخبرتهم أني "أنا" قالوا لا لستِ أنتِ، نظرتك تقول أنكِ لستِ من هنا، أنتِ أميرة تائهة ضائعة.. عودي إلى شاطئك الآخر.. فليس هنا مكانك والسعادة هنا ليست من حقك ولا تليق بك، اذهبي إلى قصرك البارد،

اجدلي شعرك ضفائر واخلعي خلخالك، اخفضي صوت ضحكتك واحبسي أنفاسك، عودي لأرضك الطيبة كما كنتِ.

و ها أنا عدتُ يا أمي بعد أن لفظني الشاطئ الآخر.. طريدة الجنّة أنا وطريدة النار..

اطلبي لي الرضا.. والرحمة يا أمي..

*****

الليل انتصف والقمر يُداعِب بنوره المُتلألئ ظلام الليل ويُضيف بعض الأمان لحُضنه الموحش، الشبّاك مازال رفيق ليلتها الطويلة، كانت ساهِمة لا تدري كيف تحولّت حياتها بهذه الصورة في غضون عام، من ربّة منزل بريئة لا تعرِف إلا حضن زوجها إلى امرأة وحيدة عاملة لها العديد من التطلعات والأحلام، ربما كانت أسعد في حياتها الأولى أكثر، لكنها كانت سعادة من لا يعرِف، سعادة من كان بينه وبين الحياة حِجاب، وضعه زوجها على أمل أن تظل مِلك يديه للأبد، لم يكن يعلم أن الحِجاب سينقلب عليه وسيُطيح بِكل قواعده، أما سعادتها الآن فلأنها حُرّة، لا تضطر لتمثيل الضحك والابتسام والرضا، لا تتسوّل المشاعر والعطف، لا تقف موقف المُذنبين ويقتلها التقريع واللوم بِبُطء، هي الآن مسؤولة عن كل تصرفاتها، حتى وإن أصابتها العديد من الجروح والكثير من التلوّث نتيجة هذه الحُريّة المُستحدثة، فهي مازالت قادرة على أن تنهض من جديد وتستكمل المسير بِنُضج أكبر.

ذهبت إلى بيتها في التجمُّع الخامس مُضطرّة، كانت تتحاشى الذهاب إليه، لكنها الآن بصدد المواجهة التي أجّلتها كثيرًا، اضطربت ضربات قلبها منذ وصلت للشارع المؤدّي لبيتها، عندما وقفت أمام المدخل الفسيح تذكّرت

هذا الرجل الوسيم بالبذلة السوداء الذي حملها هنا وهي عروس ودخل بها للبناية بين التصفيق وفلاشات الكاميرات، دخلا المنزل وهو يُقبّلها قُبلة بسيطة ثم أشار إلى الأرض لتجد باقة زهور كبيرة، الباقة أصبحت مُتربّة، حتى إن الزهور الجافة ضاعت ملامِحها، البطاقة القديمة مازالت بمحفظتها تحتفِظ بخطّه المنمنم وهو يُخبرها أنها ملكة هذا البيت، ابتسمت بِسخرية وهي تتذكر كلماته بعدها بِعدة سنوات عندما أخبرها في زُمرة غضبه أنها هنا في بيتها الذي تعرّقت في كل ركن فيه، ضيفة ليس أكثر، بكت يومها كثيرًا وشعرت لأول مرة أنها ستُغادِر هذا البيت في يومٍ ما.

جمعت أغراضها سريعًا مِن خِزانة الملابس وبعض العطور وأدوات التجميل من التسريحة، كل قطعة بالمنزل كانت تُحدّثها بصوت شبحي كميّت أيقظته ريح الحياة، المرآة التي تطُل على السرير كانت تُحدّثها عن صورتها التي اختفت، براءتها، نظرتها الحزينة، مُحاولتها للتبرُّج لحبيب لا يأتي، شعرها النائم بصمت فوق رأسها، شفتاها المُستسلِمتان لجفاف الحياة، جسدها الذي كان يئن كهرّة محبوسة، كل هذا اختفى، أصبحت في المرآة امرأة أخرى، لها نظرة غاضِبة مُتحدّية، وشعر قصير مُتحرّر، وشفاه مصبوغة بلون صناعي من السعادة، لفتت نظرها المرآة للخطوط الرفيعة التي نبتت على جانبي عينيها وفوق جبينها، وإلى الهالات الداكِنة التي ظهرت تحت عينيها، ارتعدت من هذه العلامات ودوّنت في مُفكرتها أنها تحتاج لشراء بعض الكريمات لتُخفي آثار الشهور الماضية، السرير أيضًا

كان يُحدّثها، يُذكّرها بليالي العشق القليلة وليالي السُهد والحُزن الطويلة، تعرُجاته تحمل انحناءات جسدها الذي تلوى عليه عِشقًا وشوقًا وألمًا، مازالت وسادتها تحمل بقايا الدموع وأنّات الوحدة والألم. اقتربت منها وهمست لها أن هناك وسادة أخرى في بيت أهلها تحمّلت عنها هذا العبء، وسادته أيضًا كانت مازالت تحمل رائحته وانخفاضة صغيرة عِند موضع رأسه الذي ما عرِفت ما بِه أبدًا.

بعد أن انتهت من جمع حاجياتها تجوّلت في البيت كأنها تبحث عن قِطعة أخرى تُريد أن تقول شيئًا، وقد لعب المطبخ والحمام الدور الرئيسي لتذكيرها بقسوته وبطشه بها، هنا ضربها على وجهها، هنا أطاح بها على الأرض، هنا رزعها في الحائط، هنا لكمها، هنا سبّ الأيام التي جمعتهما، هنا لعن الحياة التي جعلتها من نصيبه، هنا تجاهلها وكأنها لم تكُن، هنا صنعت كل الطعام الذي لم يُعجِبه، هنا حاولت مِرارًا أن تكون سعيدة وتُدندن وهي تتنقل بين المُهمّات، دون فائدة، تركت ضجيج الذكريات ودخلت لغرفة المعيشة، تفحّصت مكان جلوسه الذي كان أبعد ما يكون عن مكانها، كان مازال في انتظاره، هكذا أخبرها، صورة زفافهما الكبيرة أخبرتها بِسرّ غريب، أنه رغم كل ما مرّ بهما، رغم ألمها الفادِح في حياتها معه، وقسوته الفاجِرة في تعامله معها، إلا أنه كان يُحِبها حبًا حقيقيًا صادِقًا، ولم تتفاجأ من هذا الاعتراف، فهي كانت على يقين تام أنه أحبّها، بل وأنه الرجل الوحيد الذي لم يجعلها تشُك في حبه لها، لكن ما فائدة الحب المُقترِن بقسوة؟ ماذا يعني الحب الذي تنتفي منه الرحمة والمودّة؟

هل الحب أن يحبِسها في شرنقة لا ترى النور ثم يُقرّعها لأنها لا تطير مثل الفراشات حوله؟ هل الحب أن يمنع نفسه عنها ويتركها للوحدة تنهشها؟ هل الحب أن يُدمِرها نفسيًا وجسديًا ثم يطلب منها أن تكون قوية، هل الحب أن يخونها بالنهار ثم يأتي في المساء ليجدها جميلة مُخلصة في انتظاره دائمًا؟ إذا كان هذا هو حبه فالأفضل لها أن تعيش بِلا حب.

أكثر ما أحزنها عِندما زارت بيتها لم تكُن الذكريات بِحلوها ومُرّها، ولم تكن الفتاة البريئة التي فقدتها في الطريق، لكن كانت غرفة كريم، الغرفة الوحيدة التي صنعاها بحب، سريره الذي يُشبِه سيارة في مُقدمتها كشافات، هي إضاءات ليلية خافِتة، الجدران الممتلئة بملصاقاته ورسوماته الطفولية البسيطة، دراجته الصغيرة التي يتدلى منها الورق المُفضض المُبهج، كانت هدية عيد ميلاده الخامس، ألعابه الكثيرة التي تملأ المكان، أنفاسه الطاهرة السعيدة التي تنبعث من كل رُكن، جعلتها هذه الغرفة تُقرر أن تنقلها له عندما تعود من السفر، فمن حقه أن يستمتع بأشيائه لا أن يُحرم منها لمجرد أنها ضمن بيت لم ينجح في خلق السعادة لأصحابه.

كانت هذه هي الليلة الأخيرة لها قبل السفر، اتصلت بصديقاتها لتستمد منهن بعض الدعم والدعوات الطيبة، اطمأنت على عُلا التي كانت تحمل بِتوأم كأن الله يعوّضها عن سنوات الوِحدة الطويلة، وغزل كانت كما هي لا تعبأ بشيء وتعيش حياتها طولاً وعرضًا دون أن تسمح للنكد أن يتسلل إليها، لا تدري لماذا كان يشغلها أن تتصل بنورا، رغم صداقتهما القصيرة،

كانت تتوق لأن تعرف مصير زواجها من هذا الزوج الخائن، فرِحت نورا من اتصالها الذي لم تتوقعه، لكن صوتها كان ينقصه نبضة، توقعت عالية أن الأمر لم يتمّ مثل كل القصص البائسة، فسألتها دون مواربة عن إذا كان الزواج تمّ بالفعل، ردّت عليها نورا دون أن تُبدي أي انفعال:

- نعم يا عالية تزوجنا منذ شهور ثم انفصلنا من أسابيع..

فزعت عالية وصمتت لثوانٍ ثم عادت تسألها لِم؟ أجابت ببساطة أيضًا:

- لو كنتِ ضمن باقي الصديقات كنتُ أخبرتك أننا لم نتفِق وتوقفت، لكن يا عالية شيء ما بِك يجعلني حريصة أن أتعرى أمامِك دون رتوش أو تجميل.. ربما لشعوري بأن روحك هائمة ومحتارة.. تحتاج دليلاً..

أدركت عالية أن نورا مرّت بنفس الشعور الذي يُساورها، هما مُحتاجتان لبعضهما، لأن جروحهما متشابهة، غير أن عالية لو كانت السماء أمطرت أحِبّة ما كانت لتتزوج من رجل له امرأة، لكنها تشعر بالضعف الذي يعتري امرأة وحيدة تُحِب ويجعلها تتنازل عن مبادئها وتُغيّر من قناعاتها في سبيل هذا الوهم الأحمق، أكملت نورا بثبات امرأة تعتز بنفسها رغم كل شيء:

- ما حدث يا عالية أني شعرت أني جزء صغير من حياته بينما هو كل حياتي.. صعب أن تتزوجي من رجل ليملأ فراغاتك فتجدي أنه جعلها أعمق وأكبر، لم تكن الخيانة هي كل الأمر، فقد اعتدت نزواته الصغيرة

وتغاضيت عنها برضاي، كان يؤلمني أن أنام معه وأنا أعرف أنه ذاهِب لمُقابلة إحدى صديقاته بعدها، المشكلة كانت أنه ملّني، ملّ حبي وحِصاري له كما سمّاه، أصبح يُعامِلني بشكل مهين، يُغلق الخط في وجهي، يتركني ويرحل دون مُبررات، لا يُخبرني أبدًا عن وِجهته، يتحاشى الخروج معي للأماكن القريبة من عمله أو بيته، ثم كانت الطامة الكبرى عندما كتبت له ورقة أُصالِحه بها ووضعتها في جيبه، كنتُ أظنه سيقرأها، لكن من وجدتها هي زوجته، وظنّ أن الموقف مقصود، استأت من ظنّه بي، واتسعت بعدها المسافات بيننا أكثر.

قاطعتها عالية وهي تشهق من التوتر:

- لكن كل هذا لا يؤدي لطلاق.. خاصة أنكما كنتُما في الشهور الأولى من الزواج.

ضحِكت نورا ثم ردّت وهي تتكأ على الحروف:

- يا عالية الزواج الثاني غير الأول تمامًا.. حِرصنا على إتمام الزواج الأول والمُضي فيه تحت كل الظروف وتخطي العام الأول الصعب ليس له وجود في الزواج الثاني.. الذي نُحملق فيه بِكل عيوننا حتى نرى ما أضافه لنا وما انتقصه منا، الزواج الثاني تجربة تحتمل النجاح والخسارة.. مجازفة أخرى نبحث بها عن السعادة ونتخلى عنها بِسرعة إذا لم تُحقق المُراد..

- لكن يا نورا.. كيف يُضيعون الحب بهذه البساطة؟

قالت نورا وكأنها تواجِه نفسها لأول مرة:

- بعض الحب يندثر بِتحقيق العلاقة الكاملة..

- كنتُ أظن العلاقة بين الأحبّة تزيد من ارتباطهما.. تجعلهما كيان واحد وتجعل بينهما ميثاق غليظ من العشق..

- هذا إذا تفوّق الحب على الرغبة.. في حالتي كانت رغباتنا تسبِق حبنا.. هكذا اكتشفت..

- إذن أنتِ أيضًا لم تعُدي تُحبينه؟

صمتت قليلاً ثم أجابت بتنهيدة:

- لن أكذب عليكِ، كنتُ ومازِلتُ أُحِبّه.. لكن ملعونٌ أبا الحب الذي يجعلنا ندهس كرامتنا كل يوم.

- إذن أنتِ بخير؟

- أنا بخير.

- وأنا أيضًا بِخير.

قالتها عالية وهي تعنيها، نعم هي بخير ما دامت تحمل قلبًا لا يخفق بالحب لأحد.

أيقظها في منتصف الليل رنين داخلي، كأن روحها تُعلن أن وصلتها رسالة، نهضت بجسد مُرهق وعقلها مشغول بالسفر والحياة الجديدة التي تُشرع أمامها، لكن قلبها كان مُضطربًا وصدق حدسه، فعندما ألقت نظرة على هاتفها الذي ضبطته على الوضع الصامت وجدت رقمه، رقم حسن، لم ينخلع قلبها من مكانه، ولم تصعقها الدهشة وتُلجمها المفاجأة، الساعة كانت شارفت على الثالثة صباحًا، التوقيت المناسب تمامًا لجنونه، ماذا يُريد، بعد كل ما كان، بعد أن كادت أن تفقد حياتها وبعد أن فقدت بالفعل ثقتها بالتحليق عاليًا وإيمانها بالحب، كانت تعرف أن اليرقة عندما تُغادر شرنقتها تتغذى على الحرير، هكذا علّمتها الحياة مع محمود، فإما أن تظل في الشرنقة أو يفسُد الحرير، واختارت الشرنقة، وعندما عرفت مع حسن مُتعة التحليق عاليًا لم تعبأ بكون الفراشات أعمارها قصيرة، فاختارت أن تكون فراشة تعيش بعض السعادة والحُرّية تموت بعدهما وقلبها مُمتلئ بالنشوة، لكنها خرجت من شرنقتها وأفسدت الحرير، ثم طارت بأجنحتها الملوّنة ووصلت عنان السماء، حتى سقطت من أعلى نقطة، وأيقنت حينها أنها أخطأت عندما طارت بجاذبية حسن، والآن أجنحتها نبتت مرة أخرى دون جاذبية وتتوق للطيران بعيدًا عن سماء الحب الحمراء، ستُحلّق تمامًا فوق أرضها، حتى لا تسقط في جوف أرض ليست لها، وعندما تحتاج للأمان تجد وطنًا يأويها ويكون ملاذها.

أمها تقود السيارة بِبُطء في اتجاهها للمطار، وكريم تغمره السعادة ولا يتوقف عن الكلام والأسئلة، كانت تنظر له بحب وفخر، هذا الرجل الوسيم الصغير صاحب العيون اللامِعة وليد رحِمها، سيكبُر ويكون أجمل الأحلام عِندما تتحقق، حبه يجري في قنوات دمائها كملاح سعيد يترنم بأحلى الألحان، وهي هادئة مثل مدينة مُحترِقة لا يتبقّى فيها إلا الرماد وبقايا دخان، لكنها عزمت على إصلاح ما أفسدته الحرائق، وبداية الطريق من هنا وبرفقة هذا الصغير المُحِب الصادق، توقفت أُمها عِند محطة للوقود، بينما نزلت هي لإحضار بعض الحلوى والعصائر من الكافيتريا الملحقة بالمحطة، عندما دخلت رأت آخر ما يمكن أن تتوقعه في هذا النهار الطيب، رأت فرح وهي تجلس ضاحِكة على مائدة صغيرة وجوارها رجل في حوار مُتصل مع كل ما فيها، كان هو العاشق الجديد بالتأكيد، تمعنت عالية في النظر إليهما وأول ما لفت نظرها الدبلة الفِضّية في يده اليسرى وهي كما هي دون دِبل، ضحِكت في سرّها وهي تقول أن فرح تخصُّص رجال متزوجين، تجنبت المرور بهما حتى تتحاشى مواجهة لا معنى لها، كانت صُدفة تُشبِه الصُدفة القديمة في ليلة العيد، مع اختلاف العاشق، ابتسمت ابتسامة جانبية بِنصف شفتها وهي تتذكر العاشِق الأول الذي أفسد كل شيء.

كانت تجلس في السيارة في حالة أشبه بِالخدر، دمدمت ببعض الكلمات "لا شيء حقيقي.. لا شيء حقيقي"، ثم وجدت نفسها تترنم بنفس الكلمات "لا شيء حقيقي.. لا شيء حقيقي"، كانت تُغني بصوت نشاز وهي تطرد أي

فِكرة عن رأسها المُتعب، ضحك الصغير على الأغنية التي طورتها "لا شيء حقيقي كلكم مُزيفون.. كلكم ملوثون.. لا شيء حقيقي.. لا شيء حقيقي"، أدركت أمها أنها ليست في حالتها الطبيعية فحاولت أن تحكي لها الحواديت كعادتها عن الأهل والأقارب، وكانت عالية تومئ برأسها وهي تُردد "مم.. آه"، دون أن تُحاول أن تسمع شيئًا، وصلوا المطار فحاولت أن تستجمع ثِقتها وكل ما تعلمته عن التحليق، إنها أمام عالم جديد وسماء مُتسِعة بألوان عِدة، اختارت لنفسها اللون الأحمر البرّاق لتُحلّق به، جريئة وحُرّة، بعيدًا عن ألوانها القديمة الباهِتة وألوانها الحديثة المُتناقِضة، الآن هي لن تتخبّط، هي تعرِف كيف تُحلّق وإلى أي حد تمامًا قبل أن تحترِق أجنحتها مرة أخرى.

*****

ما أن لمست عجلات الطائرة أرض القاهرة حتى دقّ قلبه بِسعادة لم يشعرها منذ عام كامل قضاه في بلاد الثلج حيث كل شيء كان ثلجيًا باردًا بِلا طعم، لم تكن سعادته لوصوله لوطنه فهو مازال يؤمن بأنه وطن ظالم لا يأبه بأبنائه، لكن سعادته كانت لأنه أتى ليُلملِم شتات نفسه ويضم وطنه الحقيقي للغُربة، فتُصبح الجنّة في بلاد الثلج ويغمر الدفء القلوب، لقد قضى الشهور الأخيرة وهو يُعِدّ كل شيء، اشترى منزلاً أكبر له طابقان، به مطبخ رحِب وأثاث حديث بذوق بسيط يُشبِه ذوق عالية، ويُطِل على حديقة صغيرة خاصة بهم حتى يتسنى لهم أن يتناولوا إفطارهم بها، كما اختاره ليكون قريبًا من أكبر مركز تُجاري بالمدينة لمعرفته بولع عالية بالتسوُّق، تعرّف على كل أماكن التنزه التي ستُسعِد

كريم وعزم على أن يذهب معه للسينما ويشاهدا أفلام الكارتون سويًا، استقر أيضًا على مدرسة جيدة ليُلحِقه بها وأعدّ نفسه لدفع الأقساط، كما حرِص على الاشتراك في كل القنوات العربية حتى يتسنى لعالية متابعة الأفلام والمسلسلات والبرامج كما تُحِب، كان أحيانًا يتعجب من نفسه أنه لم يعُد يحسِب الحسابات ويحمِل همّ المصاريف، قرر أيضًا أن يُعلمها قيادة السيارة وأن يسمح لها بالعمل مِن خلال الإنترنت إذا توفّر ذلك، كان يتحسس جيبه وهو يسير في المطار في سعادة، فقد أحضر لها خاتِمًا ماسيًا رقيقًا يُناسب يدها الصغيرة المدموجة، سيخطُب ودها به ويبدأ حياة جديدة هادئة بعيدًا عن تلوّث القاهرة وضجيج البشر.

سار في المطار بِسرعة وخفّة، شعر أن بإمكانه أن يضُم اليوم الناس كلهم بما فيهم البُسطاء المُهلهلون الذين طالما أثاروا حفيظته، بإمكانه أن يضُم الكون إن استطاع، تفقّد السوق الحُرّة بِشوق يملأه واشترى منها عِطرًا صغيرًا له وآخر لعالية، كان في حالة من النشوة تسمح له بِشراء الدنيا كلها إن أمكن وبسطها تحت قدميها حتى يُعوضا الأيام الثقيلة التي مضت من حياتهما، لم يشأ أن يُخبِر أحدًا بموعد عودته، حتى أهله، ولم يُفكّر رغم اشتياقه أن يُرسِل لعالية أو يُحاوِل الاتصال بها في الشهور الأخيرة، كان يُجنِّب نفسه ويُجنِّبها الكثير مِن العِتاب القاسي المُرّ والمُبرِرات التي لا معنى لها، عاودته عادته القديمة في صناعة المفاجآت، وهذه هي أكبر مفاجأة أعدّها في حياته، بل إنها هي حياته.

*****

رنّ هاتِفها مُعلِنًا عن رسالة جديدة.

وجدت أن الرسالة منه، مِن مُعذّبها، الرجل الذي قال أُحِبّك ولم يفعلها، الرجل الذي ألقى بها في الوحل ثم اشمأز من تلوّثها، الرجل الذي نزعها من حُضنه ورماها من فوق السحاب، الرجل الذي قادها للجنون ثم صدمها بالعقل، الرجل الذي رفعت له كل أعلامها البيضاء فقتلها بدون اكتراث، لم تُفكّر للحظة بأن تقرأ ما كتب، فكل ما سيقوله سواء، كله عبث، كذب وخداع، وهي لا تملك إلا قلبًا مُمزقًا تُفلت منه الكذبات بسهولة، فتحت الهاتف وأخرجت شريحة الخط، أسقطتها ببساطة وهي مازالت تسير، أسقطتها كأنها تُسقِط جنينها، حبها المُجهض، لا تُريد أن تحمِل منه أي أثر، كفاها التلوث الذي أصاب روحها، قرأت مِن قبل أن التلوّث يكمن في أعماق النفس البشرية، أما التلوث الذي يُصيبنا من الخارج فتُذهِبه توبة وتطهر، وقد تطهرت كثيرًا من الخارج وماهي في طريقها لرحلة تُطهّر الروح، وتُعيدها عالية الفتاة التقيّة والأم العاشِقة والمرأة التي لا ترتبط سعادتها ونجاحها بِرجل، المرأة الحُرّة التي ستتعلم كيف تُحِب من جديد وستُحلّق من اليوم بِه أو بدونه.

مشت في المطار بجوار الصغير بِثقة كبيرة، ترتدي فُستانًا أحمر خريفيًا بحِزام عريض يُظهِر رشاقة خصرها بعد أن فقدت الكثير من وزنها في الأيام الماضية، وحذاء بكعب عالٍ يُصدِر إيقاعًا موسيقيًا مُنظمًا، عيناها تبرقان بِشعاع الجاذبية ولمعة الثقة.. لا تهتم بنظرات البشر وعيونهم التي

تُلاحقها.. ولا تكترث بشيء سوى السير في طريقها، نظرتها ثابتة وخطواتها مُصِرّة على شيء ما.

(رسالة حسن التي لم تقرأها عالية)

ونحن أيضًا يا حبيبتي إذا كتب أحدهم قصتنا ذات يوم فيجب أن يبدأها بـ

كان يا ما كان..

فقصتنا كقصة الجنّية والأمير في كل الحكايات القديمة..

أعشقك يا صخب الحياة..

انتظريني في المطار فأنا في طريقي لأُشارِكك التحليق..

صدر للكاتبة

كتاب بنكهة مصر (مجموعة قصصية)

للتواصل مع الكاتبة

www.hadutamasreya.blogspot.com

www.zatamarra.blogspot.com

E-mail : dr.chereey@yahoo.co.uk

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

نون للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧